

www.ibtesamh.com/vb
المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
FARES_MASRY
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
الكتب الأربعة المقدسة
ترجمها عن الصينية
محسن سيد فرجانى
1368
www.ibtesamh.com/vb

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

للأسف الشديد الصفحات من 65 إلى 96 ناقصة
في النسخة الورقية وتعذر الحصول على نسخة أخرى
تعويضا للنقص

تقبلوا اعتذارنا

منتديات مجلة الابتسامة



الكتب الأربعة المقدسة

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٣٦٨
- الكتب الأربعة المقدسة
- محسن سيد فرجاني
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب :

四书全译

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554



الكتب الأربعة المقدسة

ترجمها عن الصينية : محسن سيد فرجانى

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الكتب الأربعة المقدسة

ترجمها عن الصينية ، محسن سيد فرجانى.

ط١ ، القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩ .

٥٨٤ ص ، ٢٤ سم

١ - الفلسفة الشرقية .

٢ - الكونفوشية (فلسفة) .

(أ) فرجانى ، محسن سيد (مترجم) .

(ب) العنوان ١٨١,٩٥١٢

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٧٩١٠

الترقيم الدولى 978-977-479-570-4

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

مقدمة الكتب الأربعة

أهم وأقدم تراث مدون في الصين هو التراث الكونفوشي (ولو أنه ليس من الصحيح نسبة الأفكار الفلسفية إلى أسماء روادها، فذلك تقليد أوروبي، وتُعزى هذه التسمية إلى الدارسين الغربيين) والصحيح، أن يقال المدرسة الكلاسيكية "الروجية" (نسبة إلى "روجيا" أي: الكلاسيكية، بلفظها العلمي الصيني) وعلى أية حال، فالتراث الكونفوشي المدون بمنزلة الكتب المقدسة؛ فهو يتكون من المدونات الأعمق تأثيراً والأخلد ذكراً في تاريخ الصين القديم والمعاصر، بل لا نبالغ إذا قلنا بأنها الأكثر انتشاراً في منطقة شرق آسيا، فيما يتجاوز حدود الصين نفسها! فالفكر الكونفوشي (باعتباره اتجاهاً فلسفياً أو منهجا عقائدياً) منتشر في الكثير من بلاد أقصى الشرق الآسيوي: اليابان، الكوريتين، بورما، فيتنام، لاوس، كمبوديا، .. إلخ.

ولم يقتصر نطاق التأثير على مناطق الجوار الجغرافي بل امتد، في بعض الأحيان لينشط في حقب مختلفة من الزمان، فهذه أوروبا القرن السابع عشر والثامن عشر، تتلقى عن كونفوشيوس ومنشيوس بواسطة الترجمات ما دفع في أشرعة الإصلاح برياح حقيقية.

بل إن الكثير مما روّجت له وسائط الاتصال المتعددة – ولو بصورة تجارية فجة – من رياضات روحية، كاليوغا، أو ممارسات الطب الشعبي، وما تجاوز حد الانبهار برهبان التبت... والولع بفنون القتال الجسدية (الكونغ فو، التايكوندو.. إلخ) ليس إلا نتاج التقاليد أو الطقوس العقائدية التي وجدت طريقها، بصورة ما، إلى خارج أركان المعابد الصينية والهندية.

"الكتب الأربعة" هى التراث المقدس للمدرسة الكلاسيكية القديمة، وتشتمل على: كتاب المحاورات لـ كونفوشيوس، وكتابى: المعرفة الكبرى، والاعتدال (أو رسالة مذهب الوسطية) وهما فى الأصل أجزاء من كتاب "آداب المعاملات"؛ ثم كتاب منشيوس، ويقع فى المرتبة الثانية من الأهمية (والقداسة) بعد كتاب المعلم الأول "كونفوشيوس".

وكان كونفوشيوس، فى حياته قد ذكر لتلاميذه الكثير من أمثلة ومعايير السلوك الأخلاقى، وجاء التابعون من بعده ووضعوا كتاب "المحاورات" على النحو الذى تصوروا أنه يفى برسالة أستاذهم ويحفظ بقاءها للأجيال، ثم إن تلميذ كونفوشيوس "سنغ زى" أحس بأن أهم نقطة ذكرها أستاذه، كانت **الاستقامة، والإخلاص**، أو **القلب المستقيم بالإخلاص**. فكتب كتاباً يشتمل على تلك العناصر التى تصور أنها أساسية، ذلك هو كتاب "المعرفة الكبرى"، وعلى هذا المنوال نفسه، رأى "زيس" تلميذ سنغ زى - وحفيد كونفشيوس - أن جده وأستاذه لم يشرحا بشكل مستفيض مسائل وأساليب الحياة؛ فوضع نصا يتناول عدة مسائل تستكمل شرح ما غفل عنه السابقون، فذلك كتاب "الاعتدال"، وجاء منشيوس - تلميذ زيس - ليقرر أن أهم المسائل جميعًا هو ما يتعلق منها بالطبيعة الإنسانية، وأشكال السلوك الأخلاقى.

وهكذا راح تلاميذ منشيوس حسب رؤى أستاذهم، يتناولون أشكال السلوك الأخلاقى بالدراسة والتحليل، وهو الجهد الذى أثمر "كتاب منشيوس".

ويسعدنى أن أقدم للقارئ العربى، الترجمة الكاملة لهذه الكتب فى مجلد واحد، وأتمنى أن أكون بهذه الترجمة، قد أضفت إلى المكتب العربية واحداً من أهم كنوز التراث الإنسانى، وأقدم الفلسفات التى مازالت باقية، بعد عشرات القرون، حتى اليوم (صحيح أن خطى التقدم فى الصين الأم - البر الصينى - كانت وثابة فى سعيها نحو المستقبل والإبداع، فتجاوزت - أو بدا لها أنها يمكن أن تتجاوز - بالنقد والإبداع ميراثها القديم؛ ومع ذلك، فالمراقب لأحوال الصين، يدرك أن فلسفة إنسانية مثل الكونفوشية تشكّلت وسط حشود الناس وعاشت معهم، تلك العصور، ومن ثم فقد اكتسبت قوة بقاء فوق الناس أنفسهم. صحيح أيضا أن مقدرة البشر على زحزحة الكيانات

والرواسب الثقافية القديمة ممكنة بالوعي والعلم، لكن "الثقافة" نفسها كمفهوم وظاهرة مازالت تتحدّى التعريف العلمى (مائة تعريف حتى الآن، أشهرها من وضع سير / إدوارد تايلور!!).

الكونفوشية، كتراث ثقافى، من أكثر التقاليد القديمة ثباتًا وتشبثًا بالبقاء؛ لذلك لا ندهش عندما نكتشف أن رجلا مثل "بان كى مون" سكرتير عام الأمم المتحدة، وهو على قمة أكبر مؤسسة ذات طابع دولى يحتفظ فى جيبه بقصاصة ورقية (مثل تميمة) مكتوب عليها عبارات منقولة عن كتاب منشيوس. أحد أهم النصوص المقدسة بعد المحاورات (كما صرح هو بنفسه ذات مرة، لمندوب وكالة شينخوا للأنباء الصينية، فى حديث صحفى معه).

ولا نعجب إذا قرأنا فى صفحات التاريخ الحديث للصين أن الدكتور صن يات صن، رائد الوطنية الصينية، كان وهو يضع اللمسات الأخيرة فى البناء الدستورى لأول جمهورية وطنية للصين الحديثة، فى أوائل القرن العشرين، حريصًا على التأكيد بأن الصين ستتطلع إلى تجارب التقدم العلمى (الأوروبى)، عند استلهام النماذج المتطورة فى تصور البناء الحضارى للصين، لكنه يستثنى، من ذلك، الفلسفة السياسية والرؤى النظرية الأساسية التى تقود خطى بلاده نحو آفاق المدنية، لماذا؟ لأن الصين - فى رأيه - لم تكن لتأخذ عن أحد شيئا، فى ذلك المضمار، مادامت تملك الرصيد الكونفوشى الهائل (الذى يغنيها عن التطلع إلى ما لدى الآخرين من فلسفات فى السياسة ونظريات فى قواعد الحكم الرشيد)!!

لذلك فقد رأيت أن تكون نقطة البداية فى ترجمة عيون التراث الصينى، هى الأعمال الكونفوشية الكاملة.. وأولها، هذه الكتب الأربعة.

وأتمنى أن يحالفنى التوفيق فى ترجمة المؤلفات الخمسة، وهى وإن لم تكن كتبا مقدسة، إلا أنها - كالمعلقات فى أشعار العرب - ذات قيمة تاريخية وثقافية، وهى: كتاب الشعر القديم، حوليات الربيع والخريف "مدونة تاريخية"، كتاب الطقوس، كتاب التغيرات، كتاب شوجين (وثائق تاريخية).

ويقال بأنه لا يمكن لأحد أن يدعى معرفة بالثقافة الصينية دون الاطلاع على الكتب الأربعة والمؤلفات الخمسة، فماذا إذن عن كتاب الطاو، وفن الحرب، وتسوجوان، وأشعار تانغ.. إلخ. أليست هذه كتبا ذات قيمة أيضا؟

كلها، بالطبع، ذات أكثر من قيمة، والتراث الصينى لا يقتصر على عدد محدود، وربما كان الحصر العددى يقتبس تقليداً بوذياً فى استلهام قداسة ما من الأعداد والأرقام (ولنتذكر أيضا، أن عناصر الطبيعة فى الفلسفة الصينية خمسة عناصر، وأن مبادئ الأخلاق الكونفوشية أربعة)، ثم إن نصوص التراث القديم تم تدوينها فى مراحل زمنية متفاوتة لم تكن تحفل كثيراً بالتوثيق، فأنت تجد نصوصا من كتاب فن الحرب مبثوثة فى ثنايا كتاب تسوجوان، ثم تقرأ صفحات كاملة من كتاب سياسات الدول، مكتوبة فى تضاعيف كتاب آخر، مثل كوان تسو - مثلا - حتى كتاب منشيوس، وهو أحد معالم الكتابات المقدسة تجده يحوى نصوصًا من مذاهب أخرى تختلف عنه مذهبيًا (من الطاوية، والتشريعية!) وكما قلت فى مقدمة كتاب سياسات الدول المتحاربة، فإن نسبة الكتب إلى أصحابها (أو بمعنى أدق، توثيق النصوص الصينية كان يتبع التقاليد أكثر مما يحرص على الدقة، وكثيرا ما كان يمكن أن ينسب إلى مؤلف ما كتابات معينة لمجرد أنه من المفروض أن يكون هو قائلها!!

ولا أريد - سيدى القارئ - لجهد ترجمة التراث الصينى أن يتقدم بغير خطة أو ترتيب واحد، ولئن كنت استطعت، هذه المرة، تقديم ترجمة للكتب الكونفوشية الأربعة، فسأحاول فيما بعد استقصاء نسق واحد فى تقديم ترجمة وافية للمؤلفات الخمسة، على أن يتخلل ذلك، بين الحين والآخر، القيام بترجمات لكتب مختلفة من عيون التراث الصينى؛ بحيث يستطيع القارئ (والمترجم معا) الوقوف على الصورة الكاملة والواضحة فى تصورات الفلسفة الصينية ومذاهبها المختلفة؛ ذلك أن ترجمة كتاب مهم مثل "تشوانغ تسى" قبل قراءة كتاب الطاو، سوف تكون مجرد عبث، لا قيمة له، وربما أوقعت القارئ فى دروب الحيرة والغموض أكثر مما أضاءت له من جنبات الفكر الطاوى، وبالمثل أيضا، فإن قراءة كتاب مشهور جدا مثل "كتاب فن الحرب" لن تسعف

القارئ بأفكار واضحة عن معالم الفكر الإستراتيجي فى الصين القديمة قبل قراءة كتاب "كوان تسى" (أهم كتاب فى الفكر السياسى).. إلخ.

وليس من الصواب أن يمد المترجم يده إلى أول كتاب يصادفه فوق أرفف التراث، باعتبار أن المحتويات كلها قديمة بالجملة!

وأود أن أشير، هنا، (للتوثيق) إلى أن النسخة التى ترجمت عنها النص الكامل للكتب الأربعة – وهى مودعة بمكتبة الألسن، قسم اللغة الصينية، بجامعة عين شمس (تحت رقم ٦٩٨٣) – وضعت ترتيب المتون، مبتدئة بكتاب "المعرفة الكبرى"، فـ"كتاب الاعتدال"، ثم كتابى: "المحاورات"، و"منشيوس"؛ إلا أننى عدلت عن ذلك النمط، فى الترجمة العربية، ووضعت ترتيبًا مغايراً؛ بدأت فيه بالكتاب الأكثر شهرة: المحاورات.. ثم ثنيت بالكتاب التالى، من حيث الأهمية فى التراث الكونفوشى، (منشيوس) وجعلت الكتابين الآخرين ملحقين بهما، على النحو الذى يعكس مقدار ما يحظيان به من أهمية، فى الميراث الكلاسيكى الصينى.

ولابد أن أذكر، فى كل مرة، أقدم فيها ترجمة لنص جديد، أن مشروع نقل التراث الصينى إلى العربية، يتواصل بتكليف أدبى من الأستاذ جمال الغيطانى، وتلك قيمة يعتز بها المترجم كثيراً؛ فليس – فيما أظن – أحسن من أن يحظى جهد نقل التراث الفكرى والثقافى القديم للحضارة الصينية، بتوجيه وتشجيع مبدع عربى كبير، يعرف ما يمثله التراث من أهمية ومكانة فى الثقافتين العربية والصينية.

محسن فرجانى

الكتاب الأول

محاورات كونفوشيوس

المقـــدمة

"محاورات كونفوشيوس" هى مجموعة من التسجيلات الكتابية لتعاليم كونفوشيوس وتعليقات تلاميذه، وقد تم تدوينها بوصفها أقوالاً ومواعظ مناسبة لحلقات الفكر والدراسة، وكان هذا هو السبب وراء اختيار عنوان الكتاب "المحاورات" وكان واحد من تلاميذه - تسنغ شن - هو الذى جمع الأقوال المتناثرة وضمَّها بين دفتى كتاب، وذلك أثناء فترة مهمة فى التاريخ الصينى، هى عصر الدول المتحاربة (٤٧٥ ق.م-٢٢١ق.م) وكانت القاعدة العامة فى المدارس والاتجاهات الفكرية والدراسية حينئذ تلجأ إلى تدوين الأفكار كتابيًا، إلا أن كونفوشيوس وهو صاحب اتجاه فلسفى "الكونفوشية" رفض التدوين الكتابى لأفكاره زاعمًا أنه مجرد "وسيط" وليس "مبدعًا" مجرد "مجتهد" وليس "مكتشفًا" وكان ذلك صحيحًا إلى حد بعيد!

فقد كان الزمن الذى ظهر فيه كونفوشيوس يشهد الانتقال من نظام الإقطاع العشائرى (أسرة يين الإمبراطورية) إلى نظام الملكية الأوتوقراطية (الدول المتحاربة) وبطبيعة فترات الانتقال المفصلية الحادة، وسط ظروف تعج بفوضى إعادة الترتيب، من نظام قديم انهارت دعائمه إلى نظام جديد لم تثبت جدرانه، فقد برزت الكونفوشية نتيجة، وليست سببًا ومن وجهة نظر ما. قُل إنها كانت المشعل الحضارى الذى عبر متوهجًا بالروح الحضارى الصينى التقليدى من أطلال عصر "أسرة يين جو" ليضم أطرافه وينثر أنواره فى جنبات كيان جديد على هدى أفكار ارتأت أن المجتمع الإنسانى عبارة عن جسد جمعى نمطى يتحدد سلوكه بمعيار الأخلاق والتراحم سعياً للسلام والرفاهية لكل الناس، ويتشكل قوامه من معايير قيميّة يلتزم بها الفرد،

تتمثل فى ثقافة أخلاقية متجردة بالإخلاص والولاء والتراحم والاحترام والتبجيل والإيمان والحكمة والشجاعة والصبر... تلك التى صبّت جميعًا فيما عرف بالمنهاج، الطريق... "الطاو" الذى امتد عبر الأفق فى مسارين أساسيين : الإيمان - والصبر.

تلك، بتلخيص، أو تركيز شديد، هى الكونفوشية... قلب الثقافة الصينية، نواتها كما كانت قديمًا، وهى أيضًا الأساس لما عرف فى ملفات الحضارة الصينية بـ"المدرسة الكونفوشية"، الـ"روجيا" العتيدة العريقة، بلفظها الحىّ فى اللغة الصينية، التى انقسم... أو انشطر مبحثها النقدى العام، مع طول التجربة وعمق المجرى وثقل الوزن الحضارى قسمين: أحدهما انتقادى، يراجع بالبحث والدراسة، موضوعيًا، مقولاتها، منتقدًا عنصرها الإقطاعى البارز، والآخر، مذهبى يعترف ويسلم بجوهرها الثقافى الأصيل ورمزها الباقى للتقاليد التاريخية الصينية، ودار الجدل على محاور كثيرة:

* فى المحتوى النظرى للكونفوشية: كان الفكر الإقطاعى والاستبداد موضع انتقاد، بينما التلميحات القليلة إلى التقدمية والتنبؤ بالديمقراطية، موضع إشادة.

* فى الجانب السياسى: انتقد الباحثون الاستعلاء الملكى السيادى، والسلطة الملكية (الكاريزمية) وهتف المذهبيون لإشارات تحترم الرأى العام وتنادى بالمساواة.

* فى الجانب الاجتماعى: انتقدت بوصفها دفاعًا عن الأوتوقراطية الملكية، قبلت كقيمة نظرية وفلسفية تحتل موقع الصدارة فى التاريخ الثقافى للصين، وبوصفها موضوعًا للدراسات التراثية ذا قيمة بحثية عالية.

كان لكونفوشيوس مكانته الشخصية ومركزه فى الثقافة الصينية الكلاسيكية من حيث إنه:

- حـافـظ على الإرث الثـقـافى الصـينى من الضـيـاع، وذلك بتـحـقـيـقـه وتصويبه لأهم كتب التراث فى الصين القديمة مثل: "كتاب الأغانى"، "كتاب التاريخ"، "كتاب التغيرات".

- ولأنه كان الأول فى التاريخ الصينى كله الذى دعا إلى إتاحة فرصة التعليم للعامة والبسطاء، ليكسر احتكار الموظفين والوجهاء للعلم، وكانت دعوته الشهيرة لأن: "يكون التعليم كالماء والهواء للجميع دون أية فروق طبقية"، و"أن يراعى التخصص فى التعليم بحسب استعداد الطالب وميوله وقدراته الشخصية وأن يكون التنوع والترفيه وسيلة لاكتساب المعرفة... وغيرها من مبادئ ترسخت فى التربويات الصينية العريقة، والتى يضمها جميعًا "كتـاب المحاورات" وهـو أشهـر وأهم الأوراق الكونفـوشية على الإطلاق.

ففى أسرة "الهان" الإمبراطورية - زمن المجد القديم - كانت هناك ثلاث طبعات من الكتاب، اتخذت مادة أساسية للدارسين فى كل مراحل التعليم، وفى عهد أسرة "نانغ" الملكية سجلت نسخة من الكتاب رسميًا بوصفها واحدة من أهم اثنتى عشرة مدونة تراثية فى التاريخ الثقافى الصينى، وفى عهد أسرة "جين الغربية" الحاكمة (٢٨٥ ميلادية) دخل الكتاب إلى اليابان، وقيل فيما بعد (بمبالغة واضحة) إنه كان أول كتاب يقرأه اليابانيون فى حياتهم!

والنسخة التى اعتمدتها للترجمة إلى العربية، هى نسخة أحد النبلاء الصينيين فى العصر القديم ويدعى: "جانيو"، وهى النسخة التى حققها بنفسه فى أواخر عهد أسرة هان الغربية الإمبراطورية (٢٠٦ق.م-٢٤ ميلادية).

ومحتوى كتاب "المحاورات" يسجل بوضوح ما تبقى فى ذهن كونفوشيوس من رؤى تتعلق فى جوهرها - وربما هذا هو دافع كثيرين لتصنيفها فى إطار الموضوع الدينى - بالتدبير الإلهى المتحكم فى مصير البشر والعالم كله، والمتسبب فى بلائه أو مجازاته خيراً، وشراً،... يعنى فكرة الإيمان بالقدر السماوى، لكن من المهم الانتباه إلى أن رؤية كونفوشيوس للسماء/ الإله لم تكن قاطعة محددة، فهو أحياناً يراها غير قادرة على التفريق بين الخير والشر أو السعادة والشقاء (تزيد الأشيقاء شقاء، وتمنح السعداء كل الخير!) وأحياناً أخرى يراها عادلة مقسطة، تعطى لكلٍ بحسب ما يستحق.

وفى خلاصة، لم تكن رؤى كونفوشيوس متجاوزة للإطار الفكرى السائد فى الإقطاع العشائرى، ومن ثم جاءت موعظته تحث على الرضوخ الاتكالى ليد القدر، والقبول - سلبًا - بنمط الإخلاص والقيم الاجتماعية السائدة، وكان هدفه الأساسى هو التوجه بأفكاره إلى المثقفين والدارسين الذين تجاوزتهم فرص الانتخاب المناسب للترقى والتقدم، فبقوا فى أسفل السلم الاجتماعى مع القطاع العريض من الشعب الصينى تنتظر مصيرها تحت سيف القدر المسلط على الأعناق، ولقد فقدت نظرية القدر وظلالها الدينية قيمتها عند المدارس الكونفوشية اللاحقة.

لكن، كان يمكن لفكر المدرسة الكونفوشية أن يستمر ويؤثر ويلاحق - تاريخيًا - مجتمعًا صينيًا معاصراً، فلم يكن فى جوهره فكراً دينيًا متسامياً ومستقلاً عن العالم الدنيوى (مثل المسيحية) - راجع فشل الاختراق التبشيرى للصين! - ولم يكن نمطاً فلسفيًا للتأمل الفنى الجمالى - بمعناه المطلق! - لكنه "نظام عقيدة يمتزج بالجمالى والمعرفى معًا" لذلك، لم يكن غريباً أن يزدهر البعث الكونفوشى فى صين التسعينيات، رغم أن صين أول القرن العشرين (٤ مايو ١٩١٩) أسقطت الثقافة الكونفوشية من حسابها، وهى تخطو إلى عتبات القرن فى تيار التحديث العنيف (العلم، الديمقراطية) إلا أنها تعود الآن، فكيف ذلك؟!

– الحق، أن موقف النقد الظاهرى للكونفوشية، كان – ربما فى باطنه – مصحوبًا باعتراف ضمنى ثابت بقيمته الروحية، وكانت هناك فى خلفية مفكرى الاستنارة الصينية جذور تعليم قديم تنهل من الجذر الكونفوشى، فكان من السهل عليهم – تقريبًا – انتقاد مقولات كونفوشيوس، لكنه لم يكن سهلاً أبدًا نبذ التقاليد الكونفوشية... والفرق واضح!

والحقيقة، أن الصين المعاصرة، تفتح – بطريق غير مباشر – الباب واسعًا للبعث الكونفوشى، فالظرف التاريخى الآن يشهد طغيان مظاهر العصر الدنيوى: أضوائه الباهرة، سرعة تقدمه الخاطفة، تحولاته العنيفة، أسعاره، أوراقه المالية، أبراجه السكنية العملاقة، سياراته، نجوم غنائه... إلخ، وهو يعنى... فاصلاً آخر بين عصرين، يهدد الروح الصينى ويضغط على انسجامه الداخلى، ويسمح بإعادة إنتاج ظروف الكونفوشية الأولى، ويستدعيها من مكمنها.

والشائع، أن البعض يردد بأن الكونفوشية حققت تطبيقًا جزئيًا فى إحداث نقلة تطورية هائلة فى اليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة وجنوب الشرق الآسيوى بنموره، وسلاحفه... ومظاهر تطوره الهائل لكن... هذه بالذات مسألة معقدة جدًا تحتاج لتفصيلات أوسع لا تفى بها مساحة المقدمة العاجلة هذه.

والموضوع كله أصعب مما يطرح عرضًا واستسهالاً... ذلك أن عودة الروح للمدرسة الكونفوشية كانت مرهونة دائمًا بمدى ملاءمة شروط التعبير العصرى فى خلفية ثقافية وتاريخية جديدة تمامًا تجعل من البحث عن نقطة بداية جديدة واعدة بالاستمرار والنضج عملاً شاقًا، لأن الخطر والتحدى الحقيقى يأتى من تفاصيل الحياة ذاتها وليس من النقد التنظيرى (التعميمى) المريح. ثم إن مواجهة التحدى والتغلب على الخطر لا يعنى تمكين الكونفوشية من استعادة مكانتها الفريدة أو اعتلائها مسرح الأيديولوجيا مرة أخرى. فالمسألة تكمن فى تفعيل دور الكونفوشية بوصفها مرجعًا

روحيًا قادرًا على الحياة والتواصل والتأثير إيجابيًا وسط ظروف ثقافية متعددة الروافد وعناصر التلقى، ولكن.

* هل صحيح أن الكونفوشية ستنتعش وتمتلك ناصية القرن الواحد والعشرين؟

- الكونفوشيون الجدد يتنبأون بأكثر من ذلك، بل ويريدون تأسيس المملكة السماوية الثقافية والفكر الإنسانى كله على النمط الكونفوشى وحجتهم أن مستقبل الثقافة العالمية سينهض على تعميم تيار العلم الكونفوشى الذى تتكون عناصر معادلته من:

$$\frac{\text{فكر كونفوشى + ديمقراطية}}{\text{العلم}} = \text{ثقافة بشرية مستقبلية}$$

- واشتط البعض منهم معللاً بأن الفكر الإنسانى على النمط الكونفوشى يستطيع التوافق مع الديمقراطية والعلوم الغربية ويصلح كمحدد اتجاه إنسانى جديد يدفع تقدم الحياة الثقافية "كذا".

- وآخرون من ورثة التقاليد الكونفوشية يؤكدون على فائدتها التطبيقية انطلاقًا من أهمية استخدام الفلسفة فى الممارسة الاجتماعية.

وربما كان من المبالغة كثيرًا أن نردد مع الآخرين نبوءة تجعل من القرن الواحد والعشرين بكامله قرن الكونفوشية وأوان ازدهارها الموعود، صحيح أنها ليست مجرد أيديولوجية مجتمع إقطاعى، وبالتالى فهى ليست معرضة للضياع أو التفكك، كما حدث للنظام الاجتماعى القديم الذى عاشت فى داره سنين.

لكنها أيضًا ليست مثل الأديان السماوية المعهودة وليست لها مرجعية تنظيم اجتماعى خارج المجتمع الدنيوى، وليس هناك سوى النظرية / المقولات الكونفوشية بجناحيها فى الفكر والروح الاجتماعى... ليس هذا فقط، بل لم تعد الكونفوشية المنسحبة خارج

المجتمع هـي نفسـها المدرسة الكونفوشيـة الأصلية، وإذا رئـى - مثلاً - إنجاز الأعمال استناداً إلى المثل العليا لدى الكونفوشية، فسيتوغل الصينيون فى مشكلة التقاليد التى لا تحل ولن يصبح الطريق ممهداً أمام مخرج جديد للاقتصاد الصينى الوطنى وحيـاة شعبـها، وتظل قـدرة الفكر الأخـلاقى على التـوافق مع الحاجـات المعقـدة فى الوقت الحاضر موضع شك كبير.

* ورغم أن هناك كثيرين يرون أن "التفوق الداخلى" حالة قائمة باستمرار فى فكر المدرسة الكونفوشية، إلا أن المشكلة هى أن الروح فى تلك المدرسة ترهلت للغاية، ولم تعد تناسب الجسد الاجتماعى الذى تغير كثيراً وما زال يواصل تغييره.

وربما تبدت فى أحيان مختلفة، وفى بواطن الدلالات وليس فى صدارتها، إشارات تومئ إلى مشاعر متـضاربة إزاء انهيار صرح القيم القديمـة، استندت فيـها ظواهر الاضطراب الفكرى وضـلال القيم إلى تعليلات من الحالة النفسية الحزينة "المتشردة" التى جـابت أطراف العـالم بحثًا عن صيـغة موفـقة تعـيد الدم إلى القلب الكونفـوشى القديم، لتعود إلى التقاليد وعينها على التحديث... أو العكس!

ووجـهة النظر الغالبة، هى أن الكونفوشـية، بجذر تاريخى عميق - لكنه بعيد! - ووزن ثقافى ضخم، يمكن أن تعود أو تبقى:

* كونفوشـية تقاليد تاريخية، بوصـفها موضوعًا للتـأمل الفكرى والبـحث النظرى المجرد، وليس شيئًا آخر غير ذلك!

* كونفـوشية تدخل القرن الواحد والعشـرين الميلادى بوصـفها: "الروح القومى الشريد" معزولة بأسوار جغرافية ومنكفئة على ذات تاريخية شديدة الحساسية، ومن ثم تجد نفسها أقرب مزاجياً إلى التفاعل مع مركب الآلام: العزلة، تضخم الشعور بالذات، الاضطهـاد، الشتـات (بعض مـدارس الكونفوشـية تنشط فى المهجر!) - الدياسـبورا! وكثير جداً مما يمكن قراءته بين السطور!

* حتى بأكثر التقديرات شططاً ومبالغة، يصعب التنبؤ بعودة التيار الكونفوشى، بالمعنى الحقيقى له، وإنما يظل موضوعًا قابلاً للحياة فى إطار الأدب الكونفوشى العجوز، والدراسات التاريخية والأدبية القديمة.

مبالغة هائلة أن يقال إن القرن الواحد والعشرين هو قرن الفكر الكونفوشى وحده، وإن كان يمكن القطع بأنه لن يطلع فجر قرن آخر جديد بغير كونفوشية جديدة تلمع عند منبت النور فى مشرقه الأقصى.

الباب الأول

"شيوآر"[1]

وجملته ستة عشر فصلاً

١-١ قال كونفوشيوس: "كم هو ممتع أن تتعلم وأن تراجع ما تعلمت، وكم هو ممتع أن تلقى صديقًا حميمًا يأتيك من سفر بعيد. وياله من رجل مهذب ذلك الذى يتجاوز عن تجاهل الناس لمكانته العالية".

١-٢ قال يوزى "أنبغ تلاميذ المعلم": هناك صنف من الناس ينثنى تمجيداً لأبيه وأمه، احترامًا لأهله وإخوته. وينتصب بقامته جريئًا أمام أصحاب النفوذ. هادئ، لين الطبع أمام أهله، عنيف قاسٍ مع الحمقى قساة القلب. فهو صنف نادر من البشر. وهناك من يعظمون رؤساءهم رغم طبيعتهم التواقة إلى التمرد والعصيان، وهؤلاء يندر وجود أمثالهم. لذا وجب على الشريف المهذب أن يتحلى بهذه الصفات، فإذا تمكنت منه صارت أصلاً، وإذا صارت أصلاً أنبتت الإحسان والفضيلة. وإن أطيب ما أثمرت الفضائل جميعًا: احترام الوالدين وإكبار الإخوة والأشقاء".

١-٣ قال كونفوشيوس: "إذا ما قابلت من يتظاهرون بمحاسن الأخلاق، ويبالغون فى معسول الكلام، فاحذر، فنادراً ما تعرف الفضائل طريق هؤلاء".

١-٤ قال سنغ زى[٢]: "فى نهاية كل يوم أراجع نفسى فى ثلاثة أمور، فأتساءل: هل بذلت كل ما أستطيع لمساعدة الآخرين بإخلاص وتفانٍ، وهل كنت صادقًا وفيًا طوال اليوم لأصدقائى، وهل راجعت واستفدت شيئًا من العلم والحكمة".

١-٥ قال كونفوشيوس: "من يحكم بلداً مترامى الأطراف، عظيم الاتساع، فليحرص على الجد فى سياسته، وليضع ثقته فى مواطنيه، وليحذر التبذير، وليقرِّب إلى مجلسه الأجدر والأعقل، وليضع الناس جميعًا تحت إمرته ما شاء إلا أن يكون فى ذلك إهلاك لزرع أو خراب لحرث وحصاد".

١-٦ قال كونفوشيوس: "من مكث من الشباب فى داره، فليطع آباءه، ومن قصد إلى العلم فليطع أستاذه. فالأمانة على من عمل، والصدق على من قال: "ولتكن الصداقة للأوفياء والمعاملة بالحب لجميع الناس وبعد، فمن بقى لديه فائض من وقت، فليطالع كتب الأقدمين، وليتأمل سيرة التاريخ".

١-٧ قال زيشيا[٣]: "إن رجلاً تزوج، وأحسن الاختيار فأكبر الخلق على الجمال، وبر والديه، فبذل لهما دم قلبه، وخدم رؤساءه، فثابر وتفاني، وصادق فصدق، وتعارف فأخلص الروح والضمير... رجل مثل هذا، حتى وإن كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، فهو عندى أفضل الناس علمًا ووعيًا".

١-٨ قال كونفوشيوس: "لابد للعاقل الشريف أن يتحلى بوقار الجدية، إذ لا مهابة لمن لا جدية له. ولابد أن يثابر ويتعمق فى دراسته، فقليل من العلم لا ينفع بشيء. فإذا تولى شئونًا عامة، فليعمل بنزاهة وإخلاص، إذ هما المبدأ والأصل، ولا يصاحبن من هم دونه علمًا ومكانة، وليسبقن إلى الصواب إذا وقع فى محظور أو زل به الخطأ".

١-٩ قال سنغ زى: "إن إقامة الصلوات على أرواح الموتى من الآباء والأجداد، تصقل الإيمان وكرم الأخلاق، وترتفع بأخلاقيات العامة والبسطاء إلى مستوى رفيع من النبل والأصالة".

١-١٠ جاء زيشين[٤] إلى تسيكون[٥] وسأله، قائلاً: "أرى أستاذنا ما إن ينزل بلداً حتى تأتيه أخبارها وأسرارها، وإنى لأتساءل: أهى مهارته فى السعى وراء المعرفة، أم هم الآخرون الذين يسعون إلى إخباره؟ فأجابه تسيكون: بل هو بأدبه وحصافته، ولين جانبه، وبراعته، وتواضعه الجم، بكل ذلك يحيط بالأسرار وخفايا الأخبار، وهى، لعمرى، طريقة فى جمع المعلومات، تختلف عما ألفنا من طرائق".

١-١١ قال كونفوشيوس: "على الشاب أن يهتدى بإرشادات أبيه الذى على قيد الحياة. فإن توفى الأب، فلينهج الولد سيرته، فمن بقى يسلك سلوك أبيه فى الحياة، ويترسم آثاره من بعده، استحق أن يعد الابن البار المطيع".

١-١٢ قال يوزى[٦]: "إن قواعد المعاملات الحسنة لابد أن تقود إلى الإتقان والتفانى فى أمور الحياة. وقد كان الملوك والأباطرة فى كل زمن يعظمون أثرها ويلتزمون بها فيما عرض لهم من أمور زاد أو نقص خطرها، وأياً ما كان، فلا ينبغى تفضيل الإتقان على المعاملة الطيبة، فالخير لأجل وجه الخير لا ينفع. وإنما الأمور مزيج من إحسان وإتقان".

١-١٣ قال يوزى: "الالتزام رديف الثقة، والثقة قوامها الأخلاق، لأن من وعد وأخلص فقد فاز. واعلم أن التواضع والخلق الكريم لا يقومان فى قلب رجل ما لم يزينه التأسى بالأسوة الحسنة، ومن كانت تلك شيمته، فعليك بصداقته".

١٤-١ قال كونفوشيوس: "لا ينبغي للعاقل أن يجعل ملذات العيش غاية أمله. فليزهد في حل وترحال، وملبس ومال. وليكن مسعاه إلى عمل بإتقان، ولسان مصان، وحرص في القول وأمانة في العمل. وليحاذر في الصحبة. فلا يجالسن إلا من كملت أخلاقه وحسنت صفاته. فلعله مستزيد من فضائل أو مستصوب لهفوات النفس، وإنه لهو الطريق السالك إلى أحسن العلم".

١٥-١ جاء تسيكون إلى كونفوشيوس وسأله: "ما رأيك يا سيدي في فقير لا يتملق، وغني لا يتكبر؟، فأجابه، قائلاً: نعم الخلق إذن. لكن أين ذلك من فقير قانع، وغني كريم الخلق، فقال تسيكون: وإنه ليستوجب ترويض النفس وتطويعها، لتصير تلك الخصال مركوزة فيها، أو كما قيل في كتاب الشعر قديماً:

"هو شيء كالحفر على رخام... على صوان كالنقش على جوهرة من ماس... في حجم حبات رمال".

أليس هو كذلك يا سيدي؟ فأجاب المعلم: أي "دوانموسي" أيها الذكي النابغ، فالآن لا يسعني إلا أن أتبارى وإياك فيما جاء به كتاب الشعر من ذخائر، فقد بدا لي من توقُّد ذهنك وكشفك للمُعَمَّي بما دعت قريحتك، ما حملني على ما سمعت".

١٦-١ قال كونفوشيوس: "لا أخشى أن يجهلني الناس، بل كل ما أخشاه، هو أن أجهلهم، أن تخفى عني حقيقتهم".

الباب الثانى

"ويجين"

وجملته أربعة وعشرون فصلاً

٢-١ قال كونفوشيوس: "من جعل الأخلاق أساس الحكم، صار كمثل نجم قطبى، يثبت بالنور مكانه، وتهيم فى مداره أفلاك من كواكب سيارة".

٢-٢ قال كونفوشيوس: حوى "كتاب الشعر" أكثر من ثلاثمائة قصيدة، يمكن إيجازها في عبارة واحدة: "ليس أطهر من هذا الشعر وقائله"(٧).

٢-٣ قال كونفوشيوس: "إن الهداية بقوة القانون، وإن الرشاد بسن العقوبة والنص عليها فى متون التشريع... كل ذلك قد يجبر الناس على اجتناب الرذيلة، لكنه لا يقنعهم بفداحتها، ولا يبغضها فى نفوسهم تبغيضاً. أما الموعظة بمكارم الأخلاق، والتهذيب بالحض على التقوى ومحامد السلوك، فيوقد الخشية فى القلوب، ويلهب الرعب فى الضمير ويقود النفس بزمام إرادتها طائعة مختارة إلى صادق التوبة وأزكى المثاب".

٢-٤ قال كونفوشيوس: "كنت وأنا ابن خمس عشرة سنة أتوق إلى التعلُّم، فلما بلغت الثلاثين، أدركت الحلم، فوعيت الأصول وقواعد السلوك، ثم أدركت الأربعين، فخَبِرت من أمور الدنيا ما ثبتت به قدمي. وفي الخمسين بَصُرتُ الحياة وفهمت معنى الوجود والقدر، ثم كنت وأنا فى الستين،

أعاين مقاصد الرجل وخبايا نفسه من كلمة يقولها، فما بلغت السبعين حتى كنت أطلق لنفسي العنان، تجوب أنى شاءت، وتأتي ما بدا لها، فما تجاوزت قدراً، ولا بلغت حد غلوائها".

٢-٥ جاء مينيتز[٨] إلى كونفوشيوس، وسأله عن طاعة الوالدين ماذا يقصد بها، فأجابه: "هي ألا تخيب رجاء والديك"، فما مضى وقت طويل حتى كان كونفوشيوس في صحبة تلميذه "بان شي" فبادره المعلم قائلاً: "أتعرف أن واحداً من عائلة "منغ" سألني عن طاعة الوالدين، فأجبته بأن المعنى في ذلك هو ألا تخيب رجاءهما! وسأله محاوره: "وما تقصد بذلك يا سيدي؟"، فأجابه: "أن تحسن معاملة والديك في حياتهما، ثم أن تفي بحق أرواحهما في طقوس جنائزية لائقة عند الممات".

٢-٦ جاء منغويو (بن "مينيتز"... رجل البلاط الشهير) إلى المعلم، وسأله عن معنى الطاعة، فأجابه: "هي ألا يكون في الدنيا كلها شيء يشغل الأبناء عن السهر على راحة وصحة آبائهم".

٢-٧ جاء زايو[٩] إلى كونفوشيوس، وسأله عن طاعة الوالدين، فأجابه: "صار الناس يظنون أن البر بالوالدين يعني إطعامهما بما لذ وطاب. لكن المخلوقات الأليفة أيضًا تجد من يطعمها ويسقيها بأفخر وأبهى طعام وشراب. إن الإكرام بغير احترام، لا يختلف كثيراً عن اقتناء القطط والجياد".

٢-٨ جاء زيشيا إلى المعلم وسأله عن طاعة الوالدين، فأجابه، قائلاً "إذا كانت الأمور تقاس بمقدار الجهد، فالبر إذن أن تمد يد المساعدة، أو كما قلت آنفا... أن تهيئ لوالديك مآدب الطعام الفاخرة، فيشبعان "ويمتلئان" من خبزك وخمرك، إذ يبدو لي أن أحداً لم يعد يقدر هذه الأيام أن يحمل ابتسامة صافية على وجهه ويدخل بها على أبويه، يملأ قلبيهما بالسعادة، عرفاناً وحباً خالصاً".

٢-٩ قال كونفوشيوس: "كثيراً ما ألقيت دروسى على أنبغ تلاميذى "يان هوى"، فما وجدته عارضني بشيء أو فتح فمه بسؤال، حتى ظننت به بلادة الحس وخمود العقل، وما هو إلا أن تكشف لى من سلوكه وتصرفاته معى ومع الآخرين نبوغ فى العلم وطلاقة فى الفهم والبيان، فما رأت عينى ولا وعى قلبى رجلاً مثله فى حدة العقل وجلاء البصيرة".

٢-١٠ قال كونفوشيوس: "راقب تصرفات واحد من الناس، بما فيها من طيب أو خبيث، ولاحظ الدوافع وراء تلك التصرفات، ثم راقب مدى رضاء الفرد أو سخطه على ما بدر منه، وهيهات أن تخفى عنك كوامن النفس أو تغمض عليك دخائل الوجدان والضمير".

٢-١١ قال كونفوشيوس: "راجع دومًا ما سبق لك تحصيله من معرفة، تنكشف لك حجب فهم جديد، وتَصِرْ جديراً بكرسى المعلم نفسه".

٢-١٢ قال كونفوشيوس: "إن رجلاً ذا علم وموهبة لا يجدر به أن يعمل مثل آلة صماء، مثل أداة منزلية رخيصة متواضعة".

٢-١٣ جاء تسيكون إلى كونفوشيوس وسأله: كيف يصير الرجل عاقلاً فاضلاً؟ فأجابه، قال "بأن تكون أفعاله مقدمة لأقواله... يبادر إلى العمل ثم يتبعه بالقول".

٢-١٤ قال كونفوشيوس: "العاقل من يوازى فى علاقاته، وينأى بنفسه عن عصبة متحزبة، أما الغافل، فيلقى بنفسه وسط زمرة من الأصفياء، يتحزب ولا يخالط، حتى تكاد تضيق عليه الدوائر".

٢-١٥ قال كونفوشيوس: "القراءة بغير تحليل وفهم، إرباك للذهن بلا طائل، والفكر المجرد بغير قراءة، هو عين الهلاك".

٢-١٦ قال كونفوشيوس: "إن كل الأفكار الضالة التى حادت عن فكر قويم، تحمل بذور خطر داهم، ولا سبيل إلى دفع الخطر إلا بتصحيح الفكر وتنقية الفهم من شائبة الأباطيل.

٢-١٧ قال كونفوشيوس لتلميذه: "يوه"[١٠]: "أعلمك شيئًا، فاحفظ عنى: لا تقل "أعرف" إلا إذا عرفت، فإن جهلت شيئًا، فقل لا أعرف، فهذا هو رأس الحكمة".

٢-١٨ جاء زيجانغ[١١] إلى كونفوشيوس وسأله: "بماذا يرتقى المرء منصبًا ذا شرف ووجاهة؟ فأجابه: "بأن يجيد الإنصات، ثم يحتفظ فى ذهنه بما لم يفهم، وأن يحاذر عند القول، فلا ينطق إلا بما قد فهم حقًا، فذلك يعصم من الزلل. ثم ليتأمل كثيراً وليستبق فى عقله ما لم يستسغه الفهم، فإن انطلق إلى العمل، فلا يقربن بيده إلا ما وعى فعله، فذلك يعصم من الندم، فهكذا يصير الرجل حريصًا فى قوله، أمينًا فى عمله، فتلك تبلغ به مبلغ الشرف وعظيم المكانة".

٢-١٩ جاء الأمير "إيكونغ" إلى كونفوشيوس، وسأله: "كيف أقود الناس فى إمارتى إلى الطاعة؟" فأجابه: "أكرم الأمين واضرب اللئيم، ينقادوا لك، وانصر المحتال أو اظلم الشريف، ينقلبوا عليك".

٢-٢٠ جاء جيكانزى[١٢] إلى المعلم، فسأله: "ما الوسيلة إلى نيل احترام الناس وإخلاصهم، ثم إفشاء الأمانة والتراحم فيما بينهم؟" فأجابه: "إن تسيدت عليهم بالجد والوقار، لقيت منهم التبجيل، وإن رحمت كبيرهم وأشفقت على صغيرهم، بذلوا لك الإخلاص، فإن مجدت الكريم وأعنت ذا الحاجة، فقد أشعت بينهم البر والإحسان وروح الخير والتفانى".

٢-٢١ جاء رجل إلى كونفوشيوس، وسأله: "لماذا لا ترتقى منصبًا حكوميًا وتشارك فى "المهام السيادية العليا؟" فأجابه: "ورد فى نسخة نادرة من كتاب "سجلات تاريخية" ما مفاده أن أعظم الأعمال وأجلها هى الطاعة لأبويك، والإخلاص لإخوتك، وحبذا لو تساميت بهذه الروح إلى آفاق "المفاهيم السيادية الراقية" فذلك أيضًا نوع من المشاركة فى ممارسة السلطة، فلماذا نتصور دائمًا أن الممارسة السياسية لا تتأتى إلا بارتقاء منصب حكومى مرموق!".

٢-٢٢ قال كونفوشيوس: "لا خير فيمن لا يصدق، ولا جدوى من كاذب ضال، لأن الصدق فى الرجال أعنتهم، فما نفعك من فرس جامح بلا عنان؟!".

٢-٢٣ جاء "زيكانغ" إلى المعلم، فسأله: "أيمكن، يا سيدى، معرفة ما تصير إليه الأحوال فى نظم الحكم بعد عشرة أجيال قادمة؟" فأجابه: "أجل... فيمكن، مثلاً، استقراء ما تصير إليه الأوضاع إذا ما تحققنا من صحة الغرض بأن مملكة "شاو" تقتبس نظم وتقاليد دولة "شيا"، وهو ما يستتبعه بالضرورة عملية فرز وانتقاء تفضى، غالبًا، إلى مسلكين: إما الأخذ بما يلائم وإما النبذ والتعديل لما يخالف، وهذا أمر يمكن التنبؤ به، أو أن تقتبس دولة "شيا" سياسة ونظم مملكة "شاو" ثم تجرى بدورها ما يناسبها من فرز وتعديل وانتقاء، وهذا يمكن أيضًا استقراؤه، فمن ثم أستطيع أن أخبرك بما تصير إليه أحوال الملوك والممالك والظروف التى سيجدونها ماثلة أمامهم، فى دولة "شاو" مثلاً، ولو بعد عشرة أجيال كاملة".

٢-٢٤ قال كونفوشيوس: "أن تبذل الوفاء والعرفان لمن لا يستحق، فذلك هو النفاق، وأن تقصر همتك عن أداء الواجب والاضطلاع بما تمليه عليك المسئولية، فذلك هو التخاذل بعينه".

الباب الثالث

"بايـو"
وجملته ستة وعشرون فصلاً

٣-١ تحدث كونفوشيوس منتقداً مظاهر الإسراف التى اشتهر بها الأمير "جى"، فقال: "إذا كان (چى شى) وهو سيد قومه، قد تجاوز الحد فيما جرت عليه عادات الناس، فبلغ الشطط، إذ أقام شعائر جنائزية على روح أجداده، فبذل فيها غاية البذخ وبالغ فى المجون. فلئن كان هذا مسلكه فى مثل هذا الموقف. فكيف له فى غيره من الأمور!؟".

٣-٢ أبلغ أحد التلاميذ كونفوشيوس بما مؤداه أن أفراداً من العائلات الثلاث الكبار: منغسون، شوسون، جيسن، أقاموا الشعائر الجنائزية على روح أجدادهم، إلا أنهم أنشدوا التراتيل الخاصة لملك الملوك، فتجاوزوا حدوداً ليس لهم حتى حق المساس بها، فقال كونفوشيوس: "هؤلاء يعوزهم البصر والبصيرة، فإن هذه التراتيل موضوعة للأباطرة تطالبهم هم وأحفادهم بأداء طقوس ومراسم خاصة تقتصر عليهم فقط، فكيف لهؤلاء الناس إذا سلكوا فى غير طريقهم، والسالك فى غير طريقه ضال، فلكل سائر درب، ولكل خطو طريق.

٣-٣ قال كونفوشيوس: "إذا صار قلب الرجل خلواً من الإنسانية، فما النفع من تمسكه بقواعد المعاملات الكريمة؟ إذا فرغ قلب امرئ من معنى الإنسانية

فلن يكون لشيء في حياته معنى، حتى وإن ملأ الدنيا كلاماً وخطباً ومواعظ حول المعاني الراقية الجميلة".

٣-٤ جاء رجل اسمه "لين فانغ" وسأل كونفوشيوس أن يعظه بموعظة يضعها نصب عينيه، فأجابه: "إن مسألتك لعظيمة جداً، فاعلم، حتى وإن أقمت مأتماً، لا تفرط، فليس الحداد على ميت بعدد ما أوقدت من شموع في جنازته، وإنما بجلال أحزانك بالصدق المتقد في عميق وجدانك".

٣-٥ قال كونفوشيوس، في فورة حماسة وطنية، : "إنها قبائل همجية تلك التي تتناثر على تلال بلادنا، وإن سادها كرام الملوك. فالمجد أبداً للسهول الصينية وإن غمرتها الفوضى وتنازعها الشقاق".

٣-٦ ذهب سيد قبيلة "چي" لتقديم القرابين إلى آلهة جبل "تاي"، فبلغ ذلك كونفوشيوس، فقال لتلميذه "ران": "اذهب وانصح له بالرجوع فذلك مما يخالف الأعراف" فأجابه التلميذ بأنه لا يقدر على ذلك، فتعجب كونفوشيوس قائلاً: أيعظم الرجل وتهون الآلهة؟ أيكون العابد أكرم من المعبود؟!".

٣-٧ قال كونفوشيوس: "ليس للماجد أن ينازع أحداً من الناس الشرف، أو يستلبه العز والسيادة، فإن لم يكن بد من صولة الجاه، فليتنكب القوس والسهم ولينزل إلى ساحة الرماية، وليحرص على تحية منافسه قبل النزال، فإذا ما انتهت الجولة - نصراً أو هزيمة - فإنه لمن كرم المَحْتِدِ وأصيل السجايا أن يقبل على صاحبه باشاً متلطفاً، مبادلاً إياه نخب الامتنان والشرف".

٣-٨ جاء "زيشيا" إلى كونفوشيوس وسأل عن المعنى فيما جاء بقصيدة في "كتاب الشعر" مطلعها:

"يا من سرى الفجر بخديك حلواً كابتسامة

عيناك ظلال... وشموع تراتيل

بهاؤك فتنة... زينة أزيان

كألوان تزهر في أحراش،

نقوش على ثوب أبيض،

زخارف... موشاة في منديل"

واستفهم السائل: "أين يكون الجمال هنا، أيكون في الوصف قبل الموصوف؟" فأجابه المعلم: "كلا... لا يكون الأمر كذلك، ففي البدء كان الموصوف، ثم ازدان بمظاهر الجمال، فصار قابلاً للوصف بما يليق به" فقال زيشيا: "إذن فالصفات تسبقها أصول، كقولك: إن الفضائل لا تقوم إلا على أساس من الإنسانية" فهتف كونفوشيوس: "أي... بوشانغ! وإنك لتوقظ في عقلي دفائن الفكر والتأمل! فهلم نفكر معًا في خبايا المعنى مما جاء بكتاب الشعر!".

٣-٩ قال كونفوشيوس: "أستطيع أن أروى للناس ما مضى من أخبار مملكة شيا"، لكن المؤسف أن ما تلا ذلك العهد من أبناء دولة "تشي" فلا أملك شاهدًا كافيًا لتوثيقه. وأستطيع أن أقص على الملأ الكثير من البراهين ما وقع إبان حكم دولة "سونغ" التي جاءت في إثرها. إن رواية التاريخ لا يمكن أن تتكامل فصولها بغير شاهدين: توثيق صامت، مرجعه سجل مكتوب، وتوثيق صائب دليله: شاهد عيان، سليم العقل نقي الضمير، ولأنني لا أجد المزيد منهما، فلن أجد الحجة المقنعة أو البرهان الساطع".

٣-١٠ قال كونفوشيوس: "رأيت، ذات مرة، طقوس عزاء للموتى من أجداد مملكة "لوقو"، فما راعني إلا أن رأيتهم قد جاءوا ببدع وضلالات، تخالف المعهود والشرائع، فما رأيت لهم طقوسًا بعدها قط إلا ازددت نفوراً، وفكرت في الانصراف، فليس أظلم من انتهاك شرائع سرت في العهود، من الأزل، ميثاق قداسة".

٣-١١ جاء رجل إلى كونفوشيوس وسأله عن المغزى الحقيقى فى إقامة طقوس تمجيد الأجداد، فأجابه، قائلاً: "لا أدرى بأى شىء أجيبك، لكن قصارى ما أستطيع أن أقوله لك، هو أن من يدرك ذروة الحكمة فيها، فقد أوتى حكمة الزمان أوله وآخره، وصار عليماً بأحوال الدنيا والبشر، كأنه يقلبها ها هنا" ثم أشار إلى كفيه.

٣-١٢ قال كونفوشيوس يقيم الصلوات على روح أجداده، فبذل فى ذلك كل جهد، بإخلاص واحترام، فكان موتاه أحياءً شهوداً. وكان إذا تقرب بقربان يتمثل الآلهة أمامه، تحصى عليه أفعاله. ومما أثر عنه فى هذا المقام، قوله: "حتى لو عرض لى عارض منعنى من الصلاة والأضحية، فذهب غيرى فأداها عنى لبقيت مسهداً تفزعنى الظنون، ونفسى تحدثنى بأن مكنون القلب من تقوى وإخلاص لا يرتقيان معارج السماء بإنابة وسيط أو بتعهد وكالة".

٣-١٣ جاء وانغ سونجيا (أحد كبار القادة فى مملكة "ويغو") إلى كونفوشيوس، وقال له: "الناس يرددون المثل السائر، الذى مفاده أن: "الآلهة القريبة أفضل من البعيدة! والآلهة التى فى ركن حجرتك القريبة، أفضل من التى فى مطبخك (البعيد)" فما رأيك فى هذا القول يا سيدى؟، فأجابه: "هذا هو الباطل بعينه، لأن فكرة العبادة بحد ذاتها، لا تتسق مع انتقاءات التفضيل والاحتقار بين مراتب الآلهة. إن المساس بجلال الاعتقاد إذا طال قدسية السماء، فقد أبطل مغزى العبادة وقوض ركنها الأعلى".

٣-١٤ قال كونفوشيوس: "إن جملة الشرائع والدساتير التى جرت صياغتها فى مملكة "تشوغو"، تعد أبرع ما جرت به الأقلام قاطبة، فما تركت شيئاً مما خلفه الأقدمون فى دولتى "شيا"، و"إين" إلا أخذته بنصيب وافر من الدرس والمراجعة، فلهذا أقف منها موقف التبجيل، بل النصرة والتأييد".

٣–١٥ كان كونفوشيوس قد دخل أحد المعابد، لأول مرة فى حياته، وتصادف أن وافق ذلك ذكرى تأبين الدوق "چو"، فما دلف من الباب، حتى أخذ يرقب الطقوس الجنائزية، ويسأل ويستفسر كل من يصادفه، عما خفى عليه من أصول الصلوات والتراتيل، ثم إن أحد الحاضرين، صاح (ساخراً) وقال: "ويل لابن شوليانغ هى" "يقصد كونفوشيوس" يدخل المعبد، فيستقصى ويستخبر عن هذه وتلك، ما أبعد ذلك عن أخلاق الدين!" فسمعه كونفوشيوس، ورد عليه قائلاً: "على رسلك يا هذا! لقد سألت حذراً من الوقوع فى خطأ، واستفتيت درءًا لخطيئة، وإنه لرأس العلم وركن الإيمان".

٣–١٦ قال كونفوشيوس: "ليست الرماية سواعد مفتولة، ونصالاً مارقة عن الأقواس، وإنما براعة فى التصويب وإحكام فى التسديد، وانطلاقة واثقة فى قلب الهدف".

٣–١٧ فى عهد مملكة "لوقو" أراد تسيكون أن يقضى على أحد الطقوس الشكلية التى اعتادت التضحية بكبش فداء فى مذبح المعبد، عند أول كل شهر قمرى، فلما بلغ الأمر كونفوشيوس على لسان تسيكون نفسه، التفت وقال له: "لست أوافقك الرأى على ما تريد، فالطقوس إن بطل مغزاها، باتت ركنًا من العقيدة، فحذار أن تفتن الناس فيما آمنوا به وإنك لحريص على رقاب الكباش، وإنى لحريص على شعائر الدين وطقوس المعابد".

٣–١٨ قال كونفوشيوس: "بذلتُ الطاعة والاحترام، لرؤسائى وأولى الفضل من الناس، كما اقتضت الأصول، ثم قال القائل، بأنه الرياء والتزلُّف، فويل لخبث الظنون".

٣–١٩ جاء الدوق "دينغ" إلى كونفوشيوس، وسأله: "كيف ينبغى أن يكون الأمر بين الأمير ووزرائه؟" فأجابه: "على الأمير أن يتخذ وزراءه حسب القواعد المتبعة، وعلى وزرائه أن يبذلوا له الإخلاص والتفانى".

٣-٢٠ قال كونفوشيوس: "في كتاب "الشعر" قصيدة بعنوان: "كوان جيو" فهي أروع ما كتب شعراً، تفيض عشقًا بغير تبذل، وتفطر آلاماً بغير نواح".

٣-٢١ جاء آيكونغ إلى الخطيب المفوه "زايو" وسأله عن نوع الأخشاب التي يجب عليه تقديمها قرباناً في معبد آلهة الأرض، فأجابه، قائلاً: "كان الحكام على عهد دولة "شيا" يستخدمون خشب الأرز، أما حكام "إين" فقد استخدموا خشب السدر، ثم كان أباطرة أسرة "تشو" يفضلون خشب جوز الهند، اعتقاداً منهم أن أنه يثير الإجلال والرهبة في نفوس رعاياهم" وكان كونفوشيوس حاضراً، فما أن سمع قول زايو، حتى صاح فيه معاتباً: "الفطنة يا رجل... أما علمت أنه لا جناح مع ما فات ولا موعظة لما انقضى، فما هلك في الدهر، لا يجديه التحرز، إذ مقارعة الماضي حكم بغير حكمة".

٣-٢٢ قال كونفوشيوس: "ما رأيت أحداً تقاعست به الهمة وتخاذلت به التطلعات مثل السيد "كوانجون" "تولى رئاسة الوزارة في دولة "تشيفو" القديمة"، فقام رجل، وقال: "وما يدريك، فعساه كان يضيّق على نفسه وعلى بلاده، خشية الإسراف مع ضيق الموارد"، فأجابه: "لا، بل كان أغزر الناس موردا، وبلاده يومئذ أغنى الممالك عدداً وعدة" ثم راجعه الرجل ثانية، قائلاً: "فلعله قد أغنت عنه حصافته ومراعاته لأصول المعاملات!" فأجابه المعلم: "ما أغنت الحصافة عن أحدٍ شيئًا، وكيف يكون الرجل حصيفًا، وقد رضي بأقل النجاح، فتقاعس عن بلوغ آفاق التطور والإنجازات الكبرى".

٣-٢٣ قيل إن كونفوشيوس التقى بشيخ العزف والغناء في دولة "لوقو" فتحدثا عن الموسيقى، فقال له كونفوشيوس: "إن الأساس في عزف الألحان يتبع قاعدة معلومة، فلابد في البدء من توافق الأداء ووفرة النغم، ثم تلا ذلك مرحلة تطور العزف لتبلغ أتم عنفوانها، فيصدح الإيقاع، ويشرق اللحن باذخًا يصل انسجام الصوت بعنفوان الرنين، يتجاوب في الأفق...

نشوة انعتاق، حر، أصيل، فإذا بلغ اللحن منتهاه، وقف عند نقطة في المدى، تسمح لرجع الصدى؟ أن يهمس في الأسماع ببقايا لحن يعزفه السكون".

٣-٢٤ أراد أحد القادة في حصن بلدة "أيا" أن يقابل كونفوشيوس، قال: "ما مر بي رجل فاضل ذو علم واطلاع إلا كانت لي معه لقاءات وحوارات". فذهب بعضهم إلى كونفوشيوس، فاصطحبوه لمقابلته، وذهب إليه وتحدث معه طويلاً، فلما خرج المعلم من عنده، قال القائد للتلاميذ: "ما أعجبت إلا بسعيكم وراء أغراض زائلة، وفيكم مثل الحكيم. لقد أصاب الدنيا شر وبيلٌ طال به المكث بين ظهرانينا. وما أرى إلا أن إرادة السماء قد اصطفت لنا هذا الرجل، لصحوة الضمائر وإيقاظ الغافلين".

٣-٢٥ تحدث كونفوشيوس عن موسيقى الـ"شاو" التي وضعها الإمبراطور "شون" فقال: "إنها أعذب الألحان، تعبيراً وأداءً (وكان الإمبراطور شون، هو الذي نشر الأمان في ربوع مملكة آلت إليه بالسلم) وتحدث عن موسيقى الـ"آو" التي وضعها الملك أوانغ"، فقال: "لا بأس بأدائها، لكنها فقيرة التعبير".

٣-٢٦ قال كونفوشيوس: "إن رجلاً تقلد منصباً رفيعًا، فظلم من تحته، وعرضت عليه آداب المعاملات، فأبى واستكبر، فلما مشى في جنازة، خلع العِذَار والأحزان عن سيماه... رجل مثل هذا... هيهات أن تمجد سيرته، هيهات أن تحمد فعاله، فبئست الخصال والرجال".

الباب الرابع

"ليران"

وجملته ستة وعشرون فصلاً

٤-١ قال كونفوشيوس: "ليس أفضل من السكنى بجوار جار طيب النفس، كريم الخلق، فمن غفل عن ذلك، فقد تناءت عنه الحكمة، وازورَّ عنه الرشاد".

٤-٢ قال كونفوشيوس: "إذا فرغ قلب رجل من الإنسانية، فلا الفقر يزجره ولا الغنى ينفعه، فهو فى الأولى مارق جاحد، وفى الثانية مسرف باذخ، فمن عمر قلبه بالرحمة، توطدت فى أعماقه نوازع الخير. واعلم أن العاقل من ابتغى إلى التراحم سبيلاً، يجنى به نفعًا، إن لم يكن غاية، تحسن بها صفاته، وتكمل بها أخلاقه".

٤-٣ قال كونفوشيوس: "الطيبون فقط هم الذين يقدرون على حب الخير وكراهية الشر".

٤-٤ قال كونفوشيوس: "لو تكاتف الناس حول معنى الإنسانية، لانتهى الشر من العالم".

٤-٥ قال كونفوشيوس: "الثروة والمجد والجاه غاية كل فرد، بشرط نزاهة الوسيلة. وإلا فإن العاقل لن يبتغى إليها طريقًا، أما المسغبة والفقر والإملاق، فعنها تزورُّ النفس الكريمة، بشرط استقامة المسلك، وإلا فإن

الشريف الماجد لن يبالى الضعة والهوان. ليس للكريم أن يلوث نقاء يده، ولا للشريف أن يقصر عن نبل مقصده، وأصالة أخلاقه. وإلا فما النفع من الحياة بغير تلك الخصال؟! ليس للعاقل أن يضيع نزاهته ولو مات جوعًا، ولو تشتتت به السبل، أو غمرته الدنيا بعاجل غوايتها.

٤-٦ قال كونفوشيوس: "ما رأيت فى حياتى قط امرءًا يحب الخير مخلصًا لوجه الخير، ولا عرفت امرءًا يبغض الشر بغض الموت؛ ذلك أن من أحب الخير بصدق، اتخذه نبض قلب وروح وجود، ومن بغض الشر، تجنب حبائله، ولئن سئلت إن كان فى الدنيا كلها رجل يسلك اليوم كله من فجره إلى غسقه كادحًا صادقًا لمعنى الخير، فقد قلت بأنى ما رأيت مخلوقًا بهذا الوصف، ولعله موجود يسعى حيًا بيننا، لكنى لم ألتق به حتى هذه اللحظة".

٤-٧ قال كونفوشيوس: "إن هفوات النفس دليل على طباع المرء ومزاجه، فأحيانًا ما تكشف الأخطاء الصغيرة عن حقائق هائلة تختبئ خلف جدار النفوس".

٤-٨ قال كونفوشيوس: "إن أدركت الحقيقة ذات صباح، فلن أخشى أن يعاجلنى الموت فى المساء".

٤-٩ قال كونفوشيوس: "إن صادفت ساعيًا إلى العلم، قاصداً إلى نور الحقيقة، تخزيه رداءة طعامه وشظف عيشه، أمسكت عن محاورته، فمثله غير جدير بعبء الدرس وعناء التحصيل".

٤-١٠ قال كونفوشيوس: "كل أحداث العالم وشئونه لا تجديها التناولات بأقصى وجهات النظر: إما رفضًا مطلقًا، أو قبولاً بغير شروط. فالعاقل من يحسن التدبير فى معالجة الأمور مسترشداً بمعيار التوسط (الاعتدال) والأخلاق".

٤-١١ قال كونفوشيوس: "الشريف بما كملت أخلاقه، والدنيء بما اغترف من المال وبهجة العيش، والماجد من اهتدى بأصول الأعراف، وأما الذليل فيجترئ عدوانًا، ثم يستجدي العفو وصفح الصدور.

٤-١٢ قال كونفوشيوس: "من يجعل منفعته غاية أمله، يجلب على نفسه الحسرة والندم".

٤-١٣ تساءل كونفوشيوس: "ألا يمكن اتخاذ الأخلاق السامية أساسًا للحكم؟! أهو أمر يعسر على التطبيق فى الواقع؟! ولئن كانت الحال كذلك، فما نفع المبادئ، وما جدوى الفضائل؟!".

٤-١٤ قال كونفوشيوس: "إن تقلد المناصب المرموقة ليس هو المشكلة، وإنما امتلاك الجدارة لاستحقاق القيام بأعبائها هو المحك والأساس، وليست الشهرة بالشيء المهم، فالأهم منها هو حاصل القدرة المبدعة بالتمكن التام، عن طريق المهارة الواعية؛ إذ إنها الركيزة والأساس".

٤-١٥ قال كونفوشيوس محدثًا أحد تلاميذه: "أى سنشن... اعلم أن كل أفكارى تنبع من مبدأ واحد. وكل كلماتى تنتظمها كلمة واحدة لا أكثر". فأجابه، قائلاً: "صدقت يا سيدى... هو ذاك". فما خرج المعلم، حتى أقبل باقى التلاميذ يستفسرون من سنشن عن معنى قول الفيلسوف، فأجابهم، قائلاً: "المغزى فيما قال إن فلسفته كلها تصدر عن مبدأ خلاصته: الإخلاص والتسامح".

٤-١٦ قال كونفوشيوس: "النبيل لا يسعى إلا للفضائل، رفعةً ومجدًا، والحقير لا تحدوه إلا منفعته، أنانيةً وجشعًا".

٤-١٧ قال كونفوشيوس: "تعلم من النبيل مكارم أخلاقه، راقبه واحتذِ حذوه، وتعلم من السفيه نقيض أفعاله، راقبه وراقب نفسك واسلك غير طريقه".

٤-١٨ قال كونفوشيوس: "قم على رعـاية والديك بالحسنى، فإن صادفت منها ما يستوجب النصح، فانصح لهما، لكن بتأدب شديد واحترام جم. فإن ألفيت منهما نفوراً وازوراراً، فعليك أن تحترم مسلكهما، على أى وجه كان، وابذل روحك لأجلهما بتفان، فإياك وبغض الوالدين".

٤-١٩ قال كونفوشيوس: "لا يحق للأبناء أن يسهدوا جفن والديهم بعذاب السفر والرحيل بعيداً عنهم، فإن لم يكن بد من داعى السفر، فليكن لهم خارج أوطانهم مقار سكنى دائمة، لأجل أن تقر عين ذويهم".

٤-٢٠ قال كونفوشيوس: "إذا بقى الابن يواصل عمل أبيه المتوفى، ويصل ذكراه فى الدنيا، على مدى آجال طويلة، فهو جدير بلقب الابن البار المخلص"[١٣].

٤-٢١ قال كونفوشيوس: "لا ينبغى للأبناء أن يغفلوا عن عدد سنى حياة والديهم، فهو أمر يشيع السعادة مثلما يجلب القلق معاً، فهو خير إذا كانت الصحة تاجاً والعافية تزين الجبين، وقلق إذا ما رذل العمر وأزفت الشيخوخة".

٤-٢٢ قال كونفوشيوس: "لم تكن عادة القدماء أن يقطعوا على أنفسهم العهود بسهولة؛ إذ المحك ليس فى تقديم الوعود، وإنما فى الوفاء بها".

٤-٢٣ قال كونفوشيوس: "من النادر جداً أن يكون الإفراط فى الحرص أو المغالاة فى الحذر سبباً للوقوع فى الخطأ".

٤-٢٤ قال كونفوشيوس: "العاقل من زاد فعله عن قوله، والذكى من تعجل الفعل، وتمهل القول".

٤-٢٥ قال كونفوشيوس: "ما كانت العزلة قط من مكارم الأخلاق، بل الفاضل من اتخذ الصاحب والصديق".

٤-٢٦ قال زايو: "التكلف فى خدمة الأمراء مجلبة للهوان".

والتصنع فى معاملة الأصدقاء حماقة لا تجلب إلا الخسران.

الباب الخامس

"كونغ إيشانغ"
وجملته ثمانية وعشرون فصلاً

٥-١ ما برح كونفوشيوس يذكر تلاميذه بالخير، حتى قال ذات مرة عن كونغ إيشانغ[١٤]: "هو رجل حسنت صفاته، حتى أنى آمن على ابنتى زوجة له". ذُكِرَ له أن كونغ إيشانغ هذا، كان نزيل سجون، فأجاب: "فلابد أنه قدر حل به فلم يملك له دفعًا". ثم إنه عقد له على ابنته فعلاً.

٥-٢ تحدث كونفوشيوس عن تلميذه "نان رونغ"، فقال: "هو رجل ذو همة فى وقت الجد، وذو هيبة والناس لئام". ثم إنه عقد له على ابنة أخيه الأكبر وزوّجه بها.

٥-٣ تحدث كونفوشيوس ممتدحًا أخلاق تلميذه زيجيان[١٥]، فقال: "هو رجل اجتمعت فيه الفضائل: الخلق والكياسة، فعجبًا لمن سب أهل مملكة "لوقو" وذم أخلاقهم، فما استقام الخير إلا فى أهله".

٥-٤ جاء تسيكون إلى كونفوشيوس، وسأله: "قد قلت رأيك فى كل واحد من تلاميذك، فكيف ترانى؟" فأجابه: " إن كان يوصف الرجل بأنه حكيم عاقل، فأنت بذاتك الحكمة". فسأله: "وكيف ذاك يا سيدى؟" فقال: "قد نظرت فما رأيت أحدًا أكثر دراية منك بأمور الحكم فى طول البلاد وعرضها".

٥-٥ جاء أحدهم إلى كونفوشيوس، وقال له: "أرى أن تلميذك" ران يونغ"، برغم تواضع أخلاقه وأدبه الرفيع، لكنه يفتقد دقة المنطق وطلاقة اللسان". فأجابه: "ليست لباقة اللسان ميزة في كل الأحوال. فكثيراً ما يكون ذلك سبباً في استجلاب كراهية الناس ومقتهم، ولا أدرى إن كان "ران يونغ" مهذب الخلق أم لا، لكن فصاحة البيان هنا لا تستأهل أية قيمة".

٥-٦ أسند كونفوشيوس إلى تلميذه شيديا وكاى[١٦] إحدى الوظائف الرسمية الرفيعة، فاعتذر الرجل عن قبول ذلك قائلاً: "لست أجد نفسي مؤهلاً لمثل هذا المنصب. "وبرغم ما في الرد من جفاء الرفض، إلا أن المعلم تهلل فرحاً بما احتواه المعنى النبيل من صراحة وصدق مع النفس".

٥-٧ قال كونفوشيوس: "لو لم يكتب لأفكارى الصمود، لركبت قارباً خشبياً، وجُبْتُ البحار والأرض، ولن أجد من يتبعني حينئذ سوى السيد "كونغ يو". ثم إن هذا الأخير تهلل حماسة وفرحاً، فقال له كونفوشيوس: "على رسلك يا رجل، إن شجاعتك تغريك، وحماستك للمغامرة وركوب الأهوال تتجاوز حماستى أضعافاً. فهل تمهلت. فإنها ليست مما يستسيغه العقل الراجح".

٥-٨ جاء "منغ أوبو"[١٧] إلى كونفوشيوس، وسأله عن أخلاق الرجل المسمى "زيلو" فأجابه، قائلاً: "لا أعرف عن ذلك شيئاً". فأعاد السائل سؤاله، فأجابه: "إن الرجل الذي سألت عنه يملك المقدرة على أن يصبح قائد فرقة عسكرية قوامها ألف عربة مقاتلة، هائلة العدد والمؤونة. أما أخلاقه فلا علم لى بها، فسأله منغ أوبو ثانية: "فما رأيك إذن في السيد "رانشيو"[١٨]، فأجابه كونفوشيوس: هو يستطيع أن يصبح حاكم مدينة تقطنها آلاف الأسر، أو إقطاعية كثيرة الثروة والنماء، أما سلوكه الشخصي، فلا علم لى به". ثم سأله ثانية: "فما رأيك إذن في كونغشى تشى[١٩]؟" فأجابه: "إنه لا يحتاج

إلا إلى زى أحد رجال البلاط من المختصين بالشئون الخارجية فيستقبل الضيوف والبعثات الأجنبية؛ إذ إن لديه الموهبة والمقدرة معًا فى هذا المجال. أما أخلاقه وفضائله، فلا أدرى عنها شيئًا، ولا أبالى".

٥-٩ أقبل كونفوشيوس على تسيكون، فسأله: "أيكما الأحسن، أنت أم "يان هوى"[٢٠]؟" فأجابه: "وكيف لمثلى أن يبلغ مثل هذه الدرجة؟ أما علمت أن "يان هوى" رجل ذكى العقل، متوقّد الذهن، يبلغ مقصدك قبل أن تنتهى من كلامك! أما توانموسى... الذى هو شخصى المتواضع البسيط. فهيهات أن يبلغ هذا". فقال له المعلم: "الصدق ما قلت، حقًا، شتان ما بينكما".

٥-١٠ كان "زايو" أفصح تلاميذ كونفوشيوس، تأخذه سِنَةٌ من النعاس أثناء دروس النهار، وهو المفوه البارع الذى اشتهر بدعوته إلى الجد والتحصيل، فلاحظ المعلم ذلك، وقال: "إن الأخشاب العفنة لا تصلح للنحت والزينة. مثلما أن نفايات الرمل والحصى لا تقيم جدارًا صلبًا متماسكًا، ولطالما نصحت لـ"زايو" وعنفته كثيرًا فما ارعوى". ثم أضاف قائلاً: كنت فيما مضى يعجبنى قول المرء، فأظن أن عمله مطواع للسانه، أما الآن فلا آخذ من القول إلا ما صدقه العمل، فبسبب "زايو" بدلت مواقفى وأفكارى".

٥-١١ قال كونفوشيوس: "ما صادفت فى حياتى قط امرءًا قوى الإرادة نافذ العزيمة". فألمح له بعض الحاضرين أن تلميذه "شن جان" يستحق أن يوصف بالشجاعة[٢١] لشدة شكيمته، فأجابهم المعلم، قائلاً: "بل إن شن جان هذا، يتبع هوى نفسه، وتسيطر عليه أنانيته، فكيف لرجل هذه صفته أن يتحلى بالعزم والإرادة".

٥-١٢ قال تسيكون: "ما أحببت قط أن ينالنى أحد بشىء أكرهه، كما قد عاهدت نفسى ألا أنال أحدًا بسوء". فقال له كونفوشيوس: "أى... دوانموسى، وإنه لأمر يعجزك، فما أراك قادرًا على ما انتويت".

٥-١٣ قال تسيكون: "لقد حدثتنا أيها المعلم، عن الأدب القديم، فأفضت وبينت، لكنك لم تفسر لنا طبيعة البشر والوجود".

٥-١٤ كان أحد رجال كونفوشيوس إذا تعلم شيئًا، وعجز عن تطبيقه أخذ نفسه بالشدة، فما أقدم على درس جديد إلا إذا فقه ووعى ما قبله".

٥-١٥ أقبل تسيكون على كونفوشيوس وسأله: "لأى سبب منح السيد كون ونزى" لقبًا فخريًا بعد وفاته؟" فأجابه: " كان الرجل ذكيًا نابهًا محبًا للعلم، وزاده التواضع رفعة، فما استنكف أن يستوضح أمرًا ممن هم دونه؛ فما أراه جديرًا إلا بما نال".

٥-١٦ تحدث كونفوشيوس عن تلميذه "زينشان"[٢٢]، فقال: "به أربع خصال تؤهله للسؤدد والشرف: التواضع الجم، والتفانى والاحترام فى سلوكه مع رؤسائه، والإخلاص والعطف فى معاملاته مع مرؤوسيه، والعدالة والنزاهة فى تصريف شئون عامة الناس".

٥-١٧ قال كونفوشيوس: "لم أر قط فى حياتى رجلاً يجيد حفظ الصديق مثل "يان بين جونغ"[٢٣]؛ لا تبدله الأيام، ولا الزمان ينال من كنز وفائه".

٥-١٨ قال كونفوشيوس: "بلغنى أن الوزير "سان أونجون"[٢٤] قد اقتنى فى بيته سلحفاة نادرة فخصص لها غرفة كبيرة، وأحاطها بما يشبه السياج الطبيعى، مزينًا بأشكال الورود والنباتات وصنوفه مزخرفة على هيئة مناظر التلال والوديان... وإنى لأتساءل: إن لم يكن ذلك البذخ هو الحمق والغباء بعينه، فماذا عساه يكون؟".

٥-١٩ جاء "زيجانغ" إلى كونفوشيوس. وسأله: "لئن كان الوزير "زوين" فى عهد دولة "تشو" قد تقلد عدة مناصب قيادية، إلا أنه لم يتهلل فرحًا بذلك، فلما أقيل من وظيفته ثلاث مرات، لم يحزن، بل كان يحرص على تسليم مهام عمله بنفسه إلى خَلَفه الجديد، فما قولك فى رجل كهذا يا سيدى؟" فأجابه

المعلم: "هو رجل مخلص لعمله ووطنه". فقال زيجانغ: "هل يمكن اعتبار ذلك من علامات التسامح وكرم الأخلاق؟" فأجابه: "لا أعرف، ولكن كيف يمكن اعتبار تلك الخصال تسامحًا؟" ثم سأله السائل ثانية: "لما اعتدى - تسوى جو" على النبيل "تشى جوانغ"، وقتله فإن المدعو "شن أون" - أحد أشهر الأثرياء - ترك أمواله وخيوله المسرجة، وغادر بلاده، فلما انتهى به الترحال إلى إحدى البقاع نظر وقال: "إن الناس هنا جميعًا على شاكلة القاتل" "تسوى جو". قال: "والسادة هنا أيضًا إخوة القاتل "تسوى جو". فقام وخرج يضرب فى القفار البعيدة، فما رأيك فى هذا الرجل يا سيدى؟" فأجابه كونفوشيوس: "رجل شريف، نقى الضمير". فقال زيجانغ: "أيمكن اعتباره رمزًا للخلق الكريم والإنسانية؟" فأجابه: "لا أدرى، ولكن أين ذلك من معنى الإنسانية؟!".

٥-٢٠ كان جيونزى (وزير فى دولة "لوكو") يتردد كثيرًا عند اتخاذ قراراته، ويتفكر مليًا حتى تشتد عليه الحيرة، فلما بلغ ذلك كونفوشيوس، نصح له قائلاً: "يكفيك أن تراجع أى قرار مرتين اثنتين فقط".

٥-٢١ قال كونفوشيوس: "عجبًا للسيد نينغ أوتسى[٢٥]؛ فهو حكيم الزمان إذا هدأت الأحوال، وانتشر السلام، فإذا اضطربت البلاد والممالك، ادعى الحمق والجهالة (فيثور) ليحمى، ويتهور ليدافع عن بلاده، وإن حكمته لقريبة، وذكاءه مثال يحتذى، أما مقدرته على ادعاء الحماقة والجنون، فتلك ما لا سبيل لأحد بفهمها وإدراك أغوارها".

٥-٢٢ كان كونفوشيوس قد طال به المقام فى دولة "تشن"، وقد مر عليه زمان بلا طائل، فتنهد حسرة وقال: "ما عاد لى أن أبقى ها هنا، فالعودة العودة؛ فقد تركت فى موطنى "لوكو" أنبغ الطلاب، وأحرصهم على بلوغ ذروة المجد، وفى ملكتهم الأدبية سعة من علم، وفيض من همة، فويل لى إن تقاعست عن تمهيد الطريق وهداية السالك".

٥-٢٣ قال كونفوشيوس: "لقد تمكن كل من "بوييى"، "وشوتس"[٢٦] من التسامح وتطهير القلب من الضغائن، فلأجل ذلك احتميا من غليل الصدور إلا قليلاً".

٥-٢٤ قال كونفوشيوس: "من ذا الذى زعم بأن السيد ويشنكاو[٢٧] صدوق صريح، فقد جاءه يومًا من سأله أن يقرضه زيت الطعام، ولم يكن عنده شىء منه، فاستكبر أن يعرف عنه الإملاق، فاقترض من جاره، وأعطى السائل ما سأل".

٥-٢٥ قال كونفوشيوس: "ثلاث خصال كان يذمها الماجد الفاضل تسوشومينغ (أحد رجال البلاد فى مملكة "لوقو"، كان معاصراً لكونفوشيوش) وكذلك أذمها أنا، وأستصغر من اتسمت بها أخلاقه: قول ظاهره معسول، وباطنه سم ناقع، ووجه زائف، يقطر بشاشة ويخفى ضغائن، وتبجيل مسرف، يوحى باحترام صادق، وتحوشه دواهى الفتن والكراهية، وما ذم "تسوشومينغ" أحداً كمن تقنع بالود وطيب المعشر، بينما سريرته مترعة بالحقد وسوء الظن، فبئست الخصلة ومن تحلى بها".

٥-٢٦ اجتمع كل من يان يوان وزيلو فى حضور كونفوشيوس، فقال لهم: "ألا يخبرنى كل منكما بتطلعاته وأهدافه فى الحياة؟ فقال "زيلو": قد آليت على نفسى أن أقتسم كل ممتلكاتى مع أصدقائى، وأن أتطهر من الأنانية، فلهم مثل ما لى من المركبات المطهمة والخيل المسرجة، ينعمون بحقها كاملاً ما أصلحوها، فإن أفسدوها، ما تبرمت ولا اشتكيت. قال: "يان يوان": "أما أنا فقد عاهدت نفسى ألا أتعالى بفضل أو أتباهى بمكرمة". ثم إن زيلو دار بالسؤال على السائل، إذ قال لكونفوشيوس: "فهلا أبلغتنا أنت يا سيدى بفلسفتك فى الحياة"؟ فأجابه: "غايتى دائمًا أن يجد الكبير ملاذ حياة آمنة، وأن يتواصى الصديق بصديقه وداً وثقة، وأن نحيط صغارنا بكل رعاية واهتمام".

٥-٢٧ قال كونفوشيوس: "وا أسفاه، ما صادفت فى حياتى قط من اعترف بنقائصه أو أقر بأخطائه أملا فى مراجعة النفس والضمير".

٥-٢٨ قال كونفوشيوس: "لست قديسًا ولا نابغة زمان، وإنما أنا واحد من آلاف مؤلفة لا يخلو منهم موضع على وجه الأرض، حتى لو كانت قرية نائية يسكنها رهط من الناس، فلابد أنك ملتق فيها بكونفوشيوس آخر، لا فرق بينى وبينه، سوى أنى ما زلت حريصًا على تحصيل العلم والدراسة".

الباب السادس

"يونغى"

وجملته ثلاثون فصلاً

٦-١ قال كونفوشيوس: "إن ما علمته من سجايا النبيل الشريف رانيونغ[٢٨] يحملنى على أن أرشحه ليرتقى أرفع منصب رسمى بجدارة.

٦-٢ جاء رانيونغ إلى كونفوشيوس، وسأله رأيه فى زيسانغ بوتسى فأجابه: "لا بأس به، فهو رجل بسيط ومتواضع". فقال جونكون: "إذا اتصف الرجل بثبات الفكر وقوة العزم، مع ميل واضح فى سلوكه إلى التبسط والاعتدال، فهذا ما يشهد له بالكفاءة ليتولى مقاليد الحكم. أما التبسط والتواضع بغير حزم ووعى وجدية فلا يشفعان بجدارة القيام على شئون الناس والتزام حد المسئولية". فقال كونفوشيوس: "الحق ما قاله رانيونغ".

٦-٣ جاء النبيل إيكونغ من دولة "لوقو"، وسأل كونفوشيوس: "من أكثر تلاميذك حبًا للعلم؟" فأجابه: "إنه الذكى النابغ "يان هوى"، ولقد جمع فى شخصه بين الاجتهاد فى التحصيل والتحلّى بمكارم الأخلاق، فحاز العلم والفضائل فى جدية دارس ونبالة فارس، فما ارتفع صوته حانقًا فى وجه أحد، ولا وقع فى خطأ واحد مرتين، لكن الموت عاجله وهو بعد فى الثلاثين، فما عدت أجد له الآن نظيراً".

٦-٤ كان كونفوشيوس قد أرسل "كون شيهوا"[٢٩] إلى مملكة "تشيغو" في إحدى المهام الرسمية الطارئة، وراح "رانيو" إلى كونفوشيوس راجيًا إياه أن يرسل شيئًا من الغلال والدقيق إلى بيت كون "شيهوا"، حيث تقيم والدته، فقال له: أعطها إذن، أربعًا وستين كيلة من القمح". فطلب إليه "رانيو" أن يزيد قليلاً، فسمح له المعلم أن يضيف أربعًا وعشرين كيلة أخرى، ثم إن "رانيو" تصرف من تلقاء نفسه وأعطى ثماني آلاف كيلة، فلما بلغ ذلك كونفوشيوس، قال: "لما كان كون شيهوا في طريقه إلى مملكة "تشيغو"، فقد كانت ركائبه، تشمل: جيادًا مسرجة وعربات مطهّمة، بينما كان يرفل في ديباج ورغد عيش، وقد قيل فيما مضى بأن الماجد الكريم، هو من أعان المعسر ذا الحاجة، وليس من أتخم معدة الأغنياء".

٦-٥ كان كونفوشيوس قد تقلد منصبًا رسميًا في إحدى المقاطعات الحكومية فأصدر أمرًا بتعيين تلميذه يوانس[٣٠] حاكمًا عامًا، وأمده بتسعمائة كيلة من الحبوب والغلال، فاعتذر عن قبولها، فقال له كونفوشيوس: "عندما تقضي اللوائح الرسمية بإمداد نقدي أو غذائي فليس من الأوفق إلغاؤه أو التنازل عنه كلية، وإنما من الأصوب قبوله أو التبرع به إلى من هم في أمس الحاجة إليه".

٦-٦ قال كونفوشيوس: لتلميذه "جونكون": "هل تأملت صغار الغزلان، بقرونها الصغيرة المشرعة، وجلدها الطريّ الأملس... ترى لو أعفيناها من مذبح القربان، فهل تعفيها الآلهة من قدر الموت هلاكًا!".

٦-٧ قال كونفوشيوس: "كنت أراقب تلاميذي عن كثب، فلم أجد سوى "يان هوي" أكثر التزامًا ووفاء للمبادئ الإنسانية، فهكذا رأيت مصير المبادئ بين الناس: قلة مثابرة يطويها الزمن، وكثرة لاهية ما زالت تزداد أبدًا".

٦-٨ جاء جيكانزي إلى كونفوشيوس، وسأله: "هل ترى أن السيد "جونيو" يصلح للاضطلاع بمهام رسمية؟" فأجابه المعلم: "لا بأس به أبدًا، فهو الحازم السديد".

ثم سـأله ثانية: "وهل يصلح لها السيد "دوانموسى"؟" فأجـابه: "أجل، وإنه لأفضل من يضطلع بها؛ فما رأيت أحدًا في مثل كياسته وفطنته". فسـأله ثالثة: "وما رأيك في السيد "رانشيو"؟ أتراه يصلح للقيام على شئون الحكم وأعباء المسئوليات الجسام؟" فـأجابه: "قد عرفته واسع الحيلة، سـريع البديهة، حسن التصرف، وإنها لمزية تفضل كل المزايا. ورجل هذا شأنه، يصير هو الأنسب والأقدر".

٦-٩ أرسل شيخ عائلة "جيشي" إلى السيد مينزيشيان[٣١] يرجوه أن يرشح نفسه محافظًا لإقليم "فيدى"، فقال زيشيان للرسول الذي جاءه بفحوى هذا الأمر: "أبلغ سيدك اعتذاري، وقل له، عن لساني، قولاً كريمًا. فإن أعادك إليَّ ثانية بالرسالة نفسها، فسـأقوم إلى هذا البحر أمامك - يقصد نهر ونشيو - أستطيه وأعبر إلى الشاطئ الآخر، وأمكث هناك، فلا أهبط أرضكم أبدًا".

٦-١٠ لزم "بونيو"[٣٢] الفراش مريضًا، وساءت حالته كثيرًا، حتى أشرف على الموت، فعاده كونفوشيوس، فلما رآه، مد إليه يده من خلال النافذة، فشد على يديه وهو يتمتم قائلاً: "لا أرى إلا أن الموت سابق، والحياة تزول، وإنما هي آجال مقدرة في كف السماء، فلا تنزل المحن إلا بالأخيار، ولا تفتك المنايا إلا بأحسن الرجال".

٦-١١ قال كونفوشيوس: "ما رأيت أحداً قط في مثل كرم أخلاق "يان هوى": بسيط العيش، قانع بلا ضجر، تكفيه كسرة خبز وشربة ماء، ولا يستنكف أن يأوى إلى كوخ خشبي متواضع، يطيق من الحياة ما لا يطيقه الناس، فلذلك استحقَّ منهل نعيم لا ينضب، ولذة سعادة غامرة، لا تفيض على أحد غيره من الناس".

٦-١٢ جاء "رانشيو" إلى كونفوشيوس وقال له: "لقد قررت أن أتراجع يا سيدى، ولا يعنى هذا أنى أرغب عن حكمتك وأفكارك، وإنما تقصر همَّتى وتفتر قوتى عن أن أواصل قدمًا على الطريق". فقال له كونفوشيوس: "خذلك بيانك يا رجل، وأردت غير ما قلت، فالعاجزون حقًا، هم الذين يتوقفون عند منتصف الطريق، إذ يعسر عليهم المسير، أما أنت فلم تضع قدمك على الطريق بعد... فلا حكم بغير معيار، ولا تقدير إلا بتجربة".

٦-١٣ قال كونفوشيوس لـ "زيشيا"، وهو ينصح له: "اعلم أن طالب العلم نوعان: واحد يسعى للهداية بشرف العقل وسمو الروح معًا أملاً فى قبس من حقيقة، وواحد يسعى للتجمل بوقار زائف رياءً وتكلفًا، فاختر لنفسك أحسن طريق".

٦-١٤ حدث أن تقلد "زايو"، تلميذ كونفوشيوس، منصب الحاكم العام بولاية "أوتشنغ"، فسأله المعلم، قائلاً: "حدثنى عن مرؤوسيك هل وجدت بينهم أحداً ذا كفاءة؟" فأجابه: "هناك واحد اسمه: دانتاى مينينغ[٣٣]، ما جربت عليه خيانة قط، مستقيم الخلق، ليس بالماكر ولا بالمراوغ، لا يطرق بابى إلا لضرورة تمليها واجبات الوظيفة الرسمية"[٣٤].

٦-١٥ قال كونفوشيوس: "لم أعهد السيد "منغ جيفان" (مسئول عظيم فى دولة "لوقو") مختالاً متكبراً، يباهى الناس بخصاله، وإن ما فعله يوم انسحاب الجنود خير دليل على ذلك؛ إذ دارت الدائرة على الجيوش، فانهزمت وتقهقرت عائدة، وظل هو وسط الصفوف يحمى وينظم انسحابها، فلما دخلت الأفواج بوابة المدينة، وبقى هو فى المؤخرة، جعل يحدث فرسه، ويقوله للناس: "لا تظنوا بى الشجاعة أن كنت آخر العائدين، وإنما هو حصانى الهزيل، لا يقوى على السير!".

٦-١٦ قال كونفوشيوس: "أساس المرء جمال وبلاغة، أى أخلاق حسنة ولسان كريم، فإن رأيت أخا الفضائل، مثل الأمير جاو[٣٥] بأخلاقه الملكية الكريمة وصفاته المثلى، قد أشبه الشيخ جوتو[٣٦]، بلسانه الحاد وقلبه الغليظ، فقد أوشكت السماء أن تنطبق على الأرض، وقل على الدنيا السلام".

٦-١٧ قال كونفوشيوس: "كيف للناس يسيرون بغير سبيل هدى، كيف للسالك أن يهتدى بغير دليل وطريق!".

٦-١٨ قال كونفوشيوس: "إذا طغت البساطة على التأنق، كانت السوقية الرعناء هى سيدة الموقف[٣٧]، وإذا تجاوز التأنق حد البساطة، أصبحت السطحية الجوفاء هى العنصر المسيطر، فاعلم أن العاقل من يتميز لنفسه الحد الأمثل والمنزلة الوسطى".

٦-١٩ قال كونفوشيوس: "بغير الشرف والاستقامة، لا يستطيع الماجد الكريم أن يشق طريق حياته قدمًا وصعودًا، فائزًا موفقًا، ولئن كان الأشيقاء، هم أيضًا، يملكون أحيانًا القدرة على البقاء طويلاً، فذلك لا يحدث إلا بالحظ السعيد أو بمحض المصادفة!".

٦-٢٠ قال كونفوشيوس: "ليس من فهم العلم كمن أحبَّه، وليس من أحبه كمن أسعده أن يهب حياته كلها لأجل تحصيله وتعليمه لبنى البشر".

٦-٢١ قال كونفوشيوس: "لكل إنسان طاقته الذهنية واستعداده الأول، لذلك لا يقدر على فهم منطق العلوم الفائقة، وسبر أغوارها العميقة إلا عبقرى موهوب، فإذا أعطيت أسرار علومك لغير النابهين فقد زرعت بغير جنى"[٣٨].

٦-٢٢ جاء فانش[٣٩] إلى كونفوشيوس وسأله: "كيف لمن أراد القيام على شئون الناس أن يبلغ الحكمة؟" فأجابه: "عليه أن يلزم نفسه والناس طريق

العدالة والأخلاق، وأن يحترم العقائد بإجلال يتناسب مع وقارها، دون شطط إلحادى أو إيغال متزمت". ثم سألته ثانية: "وكيف السبيل إلى مكارم الأخلاق؟" فقال له: "بأداء ما عليك قبل أن تطلب ما هو لك، وبأن تبذل تمام جهد العمل، قبل أن تسعى إلى لذيذ ترف الراحة".

٦-٢٣ قال كونفوشيوس: "الأذكياء يحبون الأنهار، لكن الطيبين يحبون الجبال. الأذكياء يتدفقون نشاطًا وحيوية، أما الطيبون فيميلون إلى الدعة والهدوء. والأذكياء مرحون دائمًا، ويتمتعون بكل لحظة فى عمرهم، الذى ينقضى سريعًا، بينما الطيبون غالبًا ما يعمرون طويلاً".

٦-٢٤ قال كونفوشيوس: "تحتاج مملكة "تشى" أن تعدل من مجمل قواعد سياساتها العامة، لكى تتمكن من اللحاق بمملكة "لوكو" - فى ظروفها القائمة حينئذ - بينما تحتاج مملكة "لوكو" (للمفارقة)! أن تغير كل أسس فلسفتها الحاكمة لتبلغ المبدأ الأول الصحيح لمعنى الشرف والنزاهة".

٦-٢٥ تنهد كونفوشيوس متحسراً، وقال: "لقد تغيرت كثيراً طقوس وشعائر، طالت البدع أركان المعابد مثلما انتهكت جدران اللهو والترف، وفرغت كئوس الراح مثلما انطفأت شموع التراتيل من أزمان غابرة، فوا أسفا على من يضيعون تراث مجد مؤثل أو تهون عليهم تقاليد ماض عريق".

٦-٢٦ جاء زايو إلى كونفوشيوس، وسأله: "ما صفات الرجل الشريف الطيب؟ أترى هو الرجل الذى إذا قلت له إن واحداً من الناس سقط فى البئر، شمر عن أكمامه ونزل لينقذه فى الحال؟" فرد عليه المعلم، قائلاً: "وما الذى يحمله على مثل هذا التصرف؟! إن الطيب ذا المروءة سيفكر معك فى طريقة ناجحة لإنقاذ المكروب، دون أن يلقى بنفسه فى التهلكة، فربما تستطيع الكذب على الطيبين، لكنك لا تقدر أبداً أن تجعل منهم أضحوكة".

٦-٢٧ قال كونفوشيوس: "من تَعمّق فى مطالعة سجلات التاريخ، ونهل من معين أدبى عريق، ثم تحصن بمبادئ الخلق القويم، فقد عصم نفسه من الانحراف عن جادة الصواب والعدل والإنسانية".

٦-٢٨ ذهب كونفوشيوس فى زيارة شخصية إلى السيد نانزى[٤٠] فاعترض تلميذه "زيلو" على القيام بهذه الزيارة، وساورته الظنون، فبلغ ذلك كونفوشيوس، فأقسم على مسمع ومرأى من الناس، قائلاً: "ليس لمثلى أن يرتكب حماقة أبداً، ولتسحقنى السماء لو فعلت، وعين السماء ترى وتشهد مكنون الخفاء".

٦-٢٩ قال كونفوشيوس: "إن الاعتدال هو تاج الفضائل، والتوسط هو خير الأمور جميعها، وقد مر على الناس زمان وهم فى غفلة عن تلك الحقيقة".

٦-٣٠ جاء تسيكون إلى كونفوشيوس، وسأله: "ماذا لو عرفت أن رجلاً بذل كل ما يملك لأجل إسعاد الناس، والعمل على راحتهم، أتراه جديراً بأن يوصف بالكرم والمروءة؟" فأجابه المعلم، مستدركًا: "بل بما يفوق الكرم والمروءة فإنما هو قديس، أو ملاك طاهر، لا يدانيه فى ذلك الشيخان: "ياو" و"شون"[٤١] بما عرف عنهما من مروءة وحكمة، فالكريم تتسع همته للجميع، ويغمر بفضله آلافا مؤلفة، ويعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به، فتلك هي خصال الكرم وعلامات المروءة".

الباب السابع

"شوآريوتزو"

وجملته ثمانية وثلاثون فصلاً

٧-١ قال كونفوشيوس: "لأن يعرفنى الناس ناقلاً ومفسراً لكتب التراث القديم، أفضل عندى من أن يعدّونى مؤلفًا أو مبدعًا فوضويًا، ولقد كان شغفى وإخلاصى للثقافة القديمة، هو الذى يعطينى الحق فى أن أضع نفسى فى مرتبة موازية لكل من لاوتسى[٤٢] و"بنغ زو"[٤٣].

٧-٢ قال كونفوشيوس: "لطالما كنت أسائل نفسى حول ثلاثة أمور أساسية فى حياتى: أولها: هل استطعت أن أغلق فى سريرتى كل خزائن الأسرار بكل ما وعت مما رأيت وسمعت من حولى. وثانيها: هل أفلحت فى أن أبقى طوال الوقت طالبًا للعلم مجتهداً فى التحصيل إلى ما لا نهاية. وثالثها: هل نجحت فى أن أقف طويلاً إلى منصة المعلم أشرح وأفسر وأدرس على مدى سنين بلا كلل!؟".

٧-٣ قال كونفوشيوس: "أربعة أمور كانت تستحوذ على تفكيرى وتؤرقنى: أن يكون قد صدر عنّى ما يخالف الخصال الكريمة من زلة لسان أو سوء تصرف، أو أن أتوانى عن طلب العلم فأستثقل عبء تحصيله، وأن أتخاذل عن نصرة الحق وإنصاف وجه العدالة أو أقصر عن مراجعة النفس ومواجهة أخطاء الذات بشجاعة النقد وإرادة التصحيح".

٧-٤ فى أوقات الفراغ القليلة التى كان يقضيها كونفوشيوس فى بيته، كان يحرص على سمت المظهر والاحتفاظ بملامح يعلوها شموخ ووقار ومسحة هدوء وثقة، لطالما كانت تكتسى بها ملامحه".

٧-٥ قال كونفوشيوس: "عرفت أن سنين عمرى على الأرض قد طالت كثيراً وأنى صرت عجوزاً خرفًا، عندما انقضت فترة طويلة دون أن أرى فى منامى أستاذى جوكونغ"(٤٤).

٧-٦ قال كونفوشيوس: "اعلم أن أحسن الطرق هو طريق الحق، وأن أرسخ أساس، هو ما بنى على مكارم الأخلاق، وأن خير المبادئ جميعًا هو ما قام على التراحم والإنسانية، وأن أفضل ما يسلى به الرجل نفسه من لهو عفيف أو يشغل به حسه من متعة راقية، هو أن يمارس الفنون الستة الأصلية". [يقصد: الموسيقى، الرماية، آداب المجاملات، الفروسية، الآداب القديمة، "علم" الحساب].

٧-٧ قال كونفوشيوس: "لم أستنكف فى حياتى قط أن أقبل طالب علم قصدنى، ما دام قد بلغ سن الرشد، وعقد فوق رأسه ضفيرة البلوغ"(٤٥).

٧-٨ قال كونفوشيوس: "من عاداتى ألا ألقى دروس العلم إلا على طالب يشتاق للمعرفة، ولا أشرح أو أفسر معضلة من المسائل إلا على طالب أجهد عقله وذهنه بحثًا عن إجابات قاطعة، وإن الطالب الذى يعجز عن أن يستدل بنفسه على ثلاثة أضلاع المربع الباقية، بعد أن تكون قد شرحت له ضلعًا واحداً منها، لن يكون جديراً بتعبك وجهدك... أنت تتعب رأسك، وهو يضيع وقته ووقتك معه".

٧-٩ قال كونفوشيوس إذا ما دهمت أحد أصدقائه كارثة أو فجيعة، يحرص على المواساة والتعازى، وما كان يملأ فمه من صحفة طعام وهو بصحبة رجل حزين أو منكوب.

للأسف الشديد الصفحات من 65 إلى 96 ناقصة
في النسخة الورقية وتعذر الحصول على نسخة أخرى
تعويضا للنقص

تقبلوا اعتذارنا

منتديات مجلة الابتسامة

"إذن... فهل يمكن القول بأن "توانسون شى" أفضل من زميله؟" فرد عليه، قائلاً: "فى الحق، فإن شدة الذكاء، مثل منتهى الغباء، كلاهما متطرف، كلاهما لا يصلح".

١١-١٧ كان "جيسون" رئيس عائلة "سونشى" أكثر ثراء من الأمير "جوكون"، إلا أنه كان طماعًا جشعًا، ثم إن رانشيو[٦٣] أخذ يناصره ويتحيل له أخبث الوسائل ليزداد ثروة. وبلغ ذلك كونفوشيوس، فقال لتلاميذه: "إذا رأيتم - رانشيو"، فأبلغوه بأنى لن أفتح له باب بيتى منذ اليوم، فما عاد تلميذى بعد فعلته هذه، وإنه عندى مذموم محتقر، ويمكنكم أن تلهجوا بسيرته بين الناس وتفضحوا أعماله على الملأ، وإنه لمستحق لذلك!".

١١-١٨ قال كونفوشيوس: "نظرت فإذا كوتشاى"[٦٤] أقل تلاميذى فطنة، أما "سندشن"، فقد كان أقلهم نشاطًا، وكان "جوانسون" أكثرهم تطرفًا فى الرأى، ولم يكن سوى "جونيو" أكثرهم طيشًا، من دون تبصر للعواقب".

١١-١٩ قال كونفوشيوس: "ليس أغرب من الأقدار! ولقد تأملت فرأيت "يان هوى" من أكثر تلاميذى نبوغًا فى العلم ورفعة فى الخلق والفضائل، لكنه، مع ذلك، كان يعانى الفقر المدقع، والعوز المرير، بينما كان "توانموسى" من أشد تلاميذى سخطًا على الواقع المؤلم، فلما انخرط فى الأعمال التجارية، ازدهرت حاله، وصارت الأيام تزيده هناءة وعيشًا رغدًا".

١١-٢٠ جاء "زيجانغ" إلى كونفوشيوس، وسأله عما يجب أن يفعله المرء كى تسمو أخلاقه، ويسلك طريق الخير والفضيلة، فأجابه، بقوله: "الماجد لا ينهج طريقًا سهلاً، سلك به السابقون، ولا يطمح إلى ارتقاء درجة القداسة والاكتمال، فذلك مما لا يبلغه إنسان أبدًا".

١١-٢١ قال كونفوشيوس: "يعجبنى فى الرجل إخلاصه ومروءته، وحميد خصالة، لكنى أتمهل كثيراً، وأتأمل أكثر، قبل أن أشهد له ببلوغ منزلة الشرف العظيم، فمن يدرى إن كان نزيها صادقًا أو دعيًا كاذبًا".

١١-٢٢ قام "زيلو" إلى كونفوشيوس، فسأله: "أترى ينبغى على المرء أن يتبع النظر بالعمل، وأن يقرن الفكر بالتطبيق والممارسة؟" فأجابه: "ولماذا تنطلق مباشرة من خير الفكر إلى مجال العمل دون التروى والتدبر، أليس لك أب تستشيره، أو أخ ترجع إليه؟!" ثم قام "رانشيو" أيضًا وسأله السؤال نفسه (بصيغة مختلفة بعض الشيء!) فأجابه المعلم: "نعم لا مراء فى أنه يجب على المرء أن يقرن الفكر بالتطبيق". وهنا، قام كون شيهوا وقال لكونفوشيوس: "أنت تحيرنى يا سيدى، فقد سلك كلاهما أمرًا واحدًا فأجبت إجابتين مختلفتين، فهلا تفضلت بإيضاح المعمى، وإزالة العجمة؟!" فقال له المعلم: "أما" رانشيو "فهياب متردد، فشجعته على الإقدام، لكن "زيلو" طائش، أرعن فأردت كبح جماحه!".

١١-٢٣ لما وقع كونفوشيوس فى أسر الحصار ببلدة "كونغ"، لحق به كل تلاميذه، ما عدا "يان يوان"؛ فقد ضل الطريق، ووصل متأخرًا، فقال له كونفوشيوس: "أين كنت، لقد ظننت أنك هلكت وانقضى أمرك". فأجابه "يان يوان"، قال: "كيف أموت وأنت حي ترزق... لقد ظننت أنه لا ينبغي للتلميذ أن يسبق أستاذه، حتى في تلك الأمور".

١١-٢٤ جاء جيزيان (أحد كبار عائلة جيسون) إلى كونفوشيوس، وسأله: "أيصلح كل من "جونيو" و"رانشيو" للمناصب الوزارية؟" فأجابه قائلاً: "ما أحرى بك أن تسأل غيري، أما وقد سألتني، فأرى أن أنبهك أولاً أن من مقتضيات ذلك المنصب الخطير، خالص الولاء للأمير، وصنتهي الوفاء لمبادئ الأخلاق، وإلا فالاستقالة شرف وكرامة، وبعد، وبحسب ما ذكرت،

فليس أكفأ عندى من "جونيو" و"رانشيو" لهذا المنصب". فسأله الرجل ثانية: "أتظنهما يبلغان مبلغ الطاعة العمياء لرؤسائهما؟" فأجابه: "إلا فى غدر بصاحب الجلالة، أو عقوق بأهل".

١١-٢٥ قام "زيلو" بترشيح وتزكية تسيكاو"[٦٥] لمنصب الحاكم العام لمنطقة "فيشيان"، فبلغ ذلك كونفوشيوس، فقال له، محتجًا: "كيف ترشح لهذا المنصب رجلاً لم يحصل على مؤهلات علمية كافية وجديرة لأعباء المسئولية؟ إنك بذلك تفسد الحاكم والمحكوم!" فأجابه "زيلو"، قائلاً: "هناك، سيجد العمل والموظفين والإدارات الحكومية، والكفاءات المكملة (والآلهة وطقوس المعابد!)، فما حاجته إلى العلوم والشهادات الدراسية؟" فأجابه المعلم بقوله: "لأنه رجل لن تجد على لسانه، سوى هذه المراوغة و"السفسطة" التى تتحدث أنت بها الآن!".

١١-٢٦ كان التلاميذ الأربعة: "زيلو" و"وسنغشى" "ورانيو" "وكون شيهوا" يتجاذبون أطراف الحديث، وتشعب بهم الحوار. ثم إن كونفوشيوس قال لهم: "أما وأنى الآن قد شاخ عمرى ونالت منى الأيام، فلست أطمح إلى منافسة أحد، ولا أظننى فى موقع يسمح لى بأن أزاحم آخرين، ولقد كنتم تشكون دائمًا من عدم تقدير الناس لأفكاركم واكتراثهم لوجهات نظركم، فماذا لو ظهر أمامنا الآن من يصغى إليكم ببالغ الانتباه والتقدير، أترى كنتم تقولون شيئًا؟!".

فانطلق زيلو من فوره، فقال: "لو كنت صاحب سلطة فى بلد ذات موارد لا تنضب، لحكمت فيها بالإرادة ولارتفعت بها إلى آفاق المجد، حتى لو كانت ترزح تحت نير احتلال أو تئن تحت وطأة مجاعة، وما كنت أزيد على ثلاث سنوات، حتى أبث فى روح أهلها الشجاعة والعنفوان، فأخوض بهم حربًا مهولة مظفرة، تبلغ بهم حد الكرامة والإنسانية". فتبسم المعلم، وأشار ناحية "رانشيو"، وقال: "وأنت، فماذا عنك؟" فأجابه: "لو ملكتنى

بلداً كثير الأصقاع مترامي الأنحاء لجعلت أهله أوفر الناس رخاء وأكثرهم ثروة، وملكًا عريضًا، أما العبادات والشعائر، فلا حيلة فى هذا الأمر، إذ إنه من اختصاص أولى العلم والفضل". ثم التفت كونفوشيوس ناحية كون شيهوا، فسأله عن آماله وتطلعاته، فأجابه، قائلاً: "ما تمنيت قط سوى أن أعمل خادمًا فى معبد، أؤدى الطقوس والصلوات، وأرافق النبلاء والأمراء فى مواكب الاجتماعات واللقاءات الرسمية، وليس ذلك لأنى أتقن هذا العمل بثقة وتمكن الخبير العارف، وإنما لأنى أريد الاستزادة فى التحصيل والعلم بروح الطالب المستطلع المثابر". وأخيراً، نظر المعلم ناحية "سنغشى"، وسأله: "فماذا عنك؟" وكان سنغشى، مشغولاً بالعزف على قيثارته، فلما سأله المعلم، وضع آلته جانبًا، وقال: "لست كهؤلاء الثلاثة، وليس لى مثل ما لهم من تطلعات". فاستدركه كونفوشيوس: "لكنا لم نرد ذلك، وإنما رأينا أن نخبر عما تنطوى الجوانح وتختزنه سرائر النفوس". فانطلق "كون شيهوا" يقول: "لا أطمح فى أكثر من كساء قشيب، وجماعة من خير الأصدقاء، وليال ربيعية دافئة عند شواطئ أنهار جارية، حيث أستجم من فيض الشطآن وأتعطر من ريح السهول ونفثات المعابد المقدسة، ثم أعود إلى بيتى بقلب يتراقص بهجة وهناء".

ثم تنهد كونفوشيوس طويلاً، وقال: "لشد ما أميل إلى ما قاله "سنغشى"! "فلما خرج كل من زيلو، ورانيو، وكون شيهوا. تقدم سنغشى إلى المعلم، وسأله: "ما رأيك يا سيدى فيما سمعت من أولئك الثلاثة؟" فأجابه: هى ليست إلا وجهات نظر ترد إلى أصحابها". فسأله: "فلم ضحكت من قول زيلو؟" فرد عليه، قائلاً: "لأنه لما كان أساس الحكم هو التواضع والكياسية والتأنى، كان لزامًا عليه أن يبدى شيئًا منها، لكنه كان بعيداً غاية البعد عن ذلك، فلهذا ضحكت!".

وسأله سنغشى ثانية: "ألا ترى رانشيو وكون شيهوا - كليهما - قد أظهرا مقدرة على تقلد زمام الحكم والقيادة أيضاً؟" فأجابه بقوله: "على رسلك! فإن كنت ضحكت على مقولة. فإنما لأن قائلها لم يظهر التواضع الكافي، لكنى لا أشك أبداً فى مقدرته على القيادة أو تمكنه من فنون الحكم، أما عن كون شيهوا فقد تعجب، مما قاله كثيراً: فعلى الرغم من إجادته لكل قواعد المجاملات والطقوس، التى هى جزء من صميم شئون القيادة، وأصول إدارة الممالك وأسس الأخلاق، إلا أنه يقنع بالعمل مساعداً من الدرجة الثانية للأمراء والمسئولين. فمن غيره يتولى زمام الأمر ويرتقى الدرجة العالية الشريفة!".

الباب الثانى عشر

"يـــان يـــوان"

وجملته أربعة وعشرون فصلاً

١٢-١ جاء يان يوان إلى كونفوشيوس، وسأله: ما الإحسان؟، فأجابه: "أن تأخذ نفسك بالشدة والحزم حتى تروضـها بما يلائم المبادئ الموضوعة، فذاك هو الإحسان، لأنك إن فعلت ذلك، شهد لك الخلق شهادة حق، واعترفوا لك بما لا يشوبه الباطل، فعليك بنفسك، بعزم إرادتك الفردية؛ فهى أمور لا تنفع فيها نصرة أو مدد". ثم سأله يان يوان: "فما السبيل إلى ذلك؟ وأنى لى بالوسيلة؟" فأجابه: "لا تنظرن إلى شيء يخالف الشرائع، ولا تميلن بأذنك إلى قول يجافيها، ولا تأتين قولاً أو فعلاً ينقض ركنها المتين". فعندئذ قال يان يوان: "فأنا على هذا المنهاج أسلك مريداً مثابراً، حتى لو بلغت العثرات أعناق السحاب".

١٢-٢ جاء "جونكون" وسأل كونفوشيوس عن الإحسان، ما هو؟، فأجابه: "أن تؤدى عملك بإتقان وإخلاص وأمانة، كأنك تبذل فى سبيله ما تبذله لضيف عزيز غال، وأن تعامل الذين تحت إمرتك بالحسنى (بالخشية والحذر، كأنك تقيم شعائر العبادات!!) ولا تفرضن على غيرك ما لا تطيقه أنت [حرفياً: ما تكرهه لنفسك، لا تحبه لغيرك!] فلا يبقين فى الأرض مكان لشكوى أو تذمر". وهنا قال جونكون: "فأنا على طريقك يا سيدى، برغم أهواء النفس وهفوات العقل الجامح".

١٢-٣ جاء سيمانيو[٦٦] إلى كونفوشيوس، وسأله عما يكون الإحسان؟، فقال: "أن تحذر في قولك، وتعصم لسانك من الزلل". فسأله ثانية: "أيكون الإحسان هكذا؟... مجرد حذر في القول؟" فأجابه كونفوشيوس: "إن من يؤاخذ نفسه بما فعلت يداه، فيعرف حدود قوته وضعفه لابد سيدقق كثيراً قبل أن يحرك لسانه في فمه [حرفياً: كيف يجازف بالقول السهل من يقدر دقة المخاطر وجدية العمل؟!][٦٧].

١٢-٤ جاء سيمانيو إلى كونفوشيوس وسأله عن أعظم الناس أخلاقًا كيف يكون؟ وبم يُعرف بين الورى؟ فأجابه: "من حسنت أخلاقه، تشرق سيماه وتصفو، بغير أثر لضيق أو خوف في ملامحه". فتعجب سيمانيو، وقال: "أهو ذاك؟ أيكون الرجل الفاضل مشرق الطلعة، لا خائف ولا قلق...

(أهذا كل ما في الموضوع؟) فأجابه المعلم: "وكيف يجرب الخوف أو القلق من لم يقترف إثمًا يكبل ضميره، أو شائنة تثقل على وجدانه؟!".

١٢-٥ جاء سيمانيو إلى زيشيا، وتحدث إليه بصوت ملؤه الأسى، قال: "يحزنني كثيراً يا سيدي ألا يكون لي إخوة أشقاء مثل باقي الناس!" فرد عليه مواسياً، قال: "هناك حكمة قديمة مفادها أن الحياة والموت بيد القدر، كما أن الثروة والجاه تقدير من السماء، فليعمل الإنسان صالحًا وليحفظ نفسه من الزلل، وليترفق بالناس، فإنما الكل إخوة!".

١٢-٦ جاء زيجانغ إلى كونفوشيوس، وسأله: ما السبيل إلى الكياسة والفطنة؟ فأجابه، قائلاً: "اعلم أن المرء يصير حكيماً عاقلاً عندما يبلغه طوفان هادر من خبيث الأقاويل كسيل البحر، فيخسر عند قديمه زبد موج خائر، ولا يعد الرجل فطنا ثاقب النظر إلا إذا أزال عن عينيه غشاوة من أكاذيب مغرضة تحجب أخفى أسرار الحقائق".

١٢-٧ جاء تسيكون إلى كونفوشيوس، فسأله عن أساس الحكم فى الممالك الكبرى، فأنبأه بذلك قائلاً: "أسس الحكم تتمثل فى ثلاث: احتياطى من غذاء وافر، وقوة جيوش ضاربة، وثقة بين الحاكم والمحكوم!" وعاد تسيكون يسأله: "فماذا لو دعتنى الحاجة إلى اختيار واحدة فقط من بين هذه الثلاث، فأيها ألقى جانباً؟" فأجابه: "قوة الجيش الضارب". فسأله ثانية: فأيًا من الاثنتين الباقيتين أغفل من حسابى، إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك؟" فقال له المعلم: "لك أن تدع احتياطى الغذاء الوافر، برغم ما قد ينجم عن ذلك من خطر الهلاك والمجاعة، لكن مسيرة الزمن علمتنا أن الموت قدر محتوم على الإنسان، فى كل الأحوال، شبع أم جاع، وإنما شر الهلاك ورأس البلاء جميعاً: فقدان الثقة بين الشعب وحكومته".

١٢-٨ جاء "جيزشن" (أحد الوزراء فى دولة "ويقو" بالصين القديمة)، إلى تسيكون، وسأله: "قد عرفنا أن الرجل بمخبره لا بمظهره، بشخصه المركوز فى طبعه، وليس بسيماه البادية! ففيم إذن تأكيدكم على أهمية "الشكليات" الطقوسية وآداب المجاملات العامة؟" فأجابه: "مما يؤسف له أن يأتى هذا السؤال على لسانك يا سيدى وأنت الشريف الجليل، العليم بالأصول! لكنها كلمة سبقت (وما خرج من فم لا يعود) والكلمات مثل ركض الخيول، إذا انطلقت لا تنكص على أعقابها ولا ترجع القهقرى. والحق، أن المظهر والمخبر كليهما على قدر واحد من الأهمية: فأنت إن سلخت الجلد والفراء تساوت فى ناظريك النمور مع الفهود وتشابهت الحملان مع الذئاب".

١٢-٩ جاء الدوق "آيكون" إلى "يورو"[٦٨] وقلبه مشغول بمسألة تحيره، وقال له: "لا ندرى كيف نجد موارد كافية لإصلاح الأحوال المالية المتعثرة، وما العمل وقد أجدبت الأرض وهزل الزرع والحصاد فى عامنا هذا؟"

فنصح له "يورو" بتطبيق نظام جباية الضرائب بالنسبة العشرية، فرد عليه الدوق، قائلاً: "لو فعلت، فلن يعود عليَّ هذا بما يكفى، حتى لو رفعت الضريبة إلى عشرين بالمائة، فلن تغل شيئًا ذا بال". فأجابه يورو: "إنه لأمر عجيب أن يعسر الحاكم وتوسر الرعية، والأعجب، بل والأغرب منه أن يعبئ الحاكم خزائنه على حساب رعية فقيرة معسرة!".

١٢-١٠ جاء زيجانغ إلى كونفوشيوس، فسأله عما تحسن به أخلاق المرء، وما يهدى إلى التبصر فى الأمور وتبيان الحق من الباطل، فأجابه: "عليك بالمخلصين الصادقين، فعندهم منابع الفضيلة، فانهل مما تجده عندهم تحسن أخلاقك، ثم إنك إذا أحببت إنسانًا تمنيت له الخير، وطول البقاء، وإذا أبغضت أحداً لعنته وتمنيت له المنايا، أليس كذلك؟!، لكنك إن كنت فى موقف تدعو فيه بالخير والشر معًا، تحب شيئًا وتبغضه فى آن واحد، فذلك هو الضلال بعينه، فافهم ذلك!"[٦٩].

١٢-١١ جاء الأمير "جين" من دولة "تشيقو" وسأل كونفوشيوس عن فلسفة الحكم فى البلاد، فأجابه: "الأساس عندى هو أن يلزم كل كاهن معبده، وكل شيخ طريقته، فللأمير إمارته، وللوزير مكانته، وللوالد مسئوليته، كما على الابن طاعته". فرد الأمير من فوره: "صدقت وأحسنت يا سيدى، فلو لم يكن الأمير أميراً، والوزير وزيراً، ولكل حدود طقوسه، ومجال نفوذه، لفسدت الأحوال والممالك، ولما وجدنا ما نقتات به، حتى لو تكدست الغلال فى المخازن.

١٢-١٢ قال كونفوشيوس: "نظرت فلم أجد سوى "جونيو" وحده هو الذى يملك القدرة على أن يحكم فى قضية شائكة، مكتفيًا بشهادة طرف واحد فى النزاع؛ ذلك لأنه بما عرف عنه من نزاهة وصدق وإخلاص، يستخلص شهادة الحق من ضمير المتخاصمين لديه"[٧٠].

١٢-١٣ قال كونفوشيوس: "لما كنت متوليا شئون القضاء فى دولة "لوقو"، فقد كنت أنظر فى القضايا القانونية، ولم أكن أتبع منهاجًا يخالف الشرائع المعهودة؛ فما تقاعست يومًا عن فض المنازعات، ولا عطلت إقامة الدعاوى أو الشروع فى التمهيد لإجراءاتها بأية حال".

١٢-١٤ جاء "زيجانغ" إلى كونفوشيوس، وسأله النصيحة فى مجال الوظائف الرسمية، فقال له: "على من يتولى منصبًا رسميًا عامًا أن يدقق فيما يصدر على لسانه، فلا يقولن إلا ما هو حق، وألا يقصر أو يتراخى فى مستوى أدائه العام، وأن يطبق اللوائح والنظام بكل إخلاص وتفان".

١٢-١٥ قال كونفوشيوس: "إنه لا يضل أبدًا من طالع الآداب القديمة، ووعاها بقلبه وعقله، ثم أدب نفسه بالمبادئ القويمة والنهج الشريف العالى".

١٢-١٦ قال كونفوشيوس: "الماجد الشريف يعين على فعل الخير، ولا يعطى يده للشر، أما الدنيء الأحمق فيسلك عكس ذلك تمامًا".

١٢-١٧ جاء "جيكانزى" إلى كونفوشيوس وسأله عن أساس الحكم، كيف يكون؟ وما هو؟ فأجابه: "الحكم كلمة صيغت من معنى الإحكام والضبط والاستقامة بلا عوج، فإن لزمت هذا المعنى ووطدت نفسك عليه، انقادت لك الدنيا بأسرها".

١٢-١٨ اشتكى "جيكانزى" من كثرة قضايا السرقة والنهب فى مملكته، فذهب إلى كونفوشيوس، يطلب مشورته، فأجابه: "إن نهيت نفسك عن اشتهاء الثروات وجشع العيش وباذخ الترف، لما جرؤ أحد على السرقة، حتى ولو حرضته عليها تحريضًا".

١٢-١٩ ذهب "جيكانزى" إلى كونفوشيوس، فسأله فى موضوع يتصل بشئون الحكم، فقال: "ما رأيك لو ضربت رقاب المفسدين جميعًا، وتقربت إلى المصلحين الأخيار، أتكون تلك سياسة حكم داخلية، يحالفها التوفيق؟ فأجابه المعلم: "لماذا يتحتم ضرب رقاب الناس لكى تكون سياسة الحكم موفقة؟! من أين لك بتلك الضلالات؟ أما علمت أنك إذا أردت إصلاح البلاد، وسعيت مخلصًا فى سبيل هذا الغرض، استجابت لك العامة، وصارت لك مددًا يفوق المدى، فمثل الحاكم كمثل الريح المدوية الشديدة، ومثل الشعوب كمثل أهداب الزرع والنبات، تميل دائمًا فى اتجاه العاصفة، وتومئ بأعناقها نحو مسارها وغايتها".

١٢-٢٠ ذهب زيجانغ إلى كونفوشيوس، وسأله: "ما الوسيلة التى يتمكن بها طالب العلم من امتلاك ناصية المعرفة؟" فأجابه: "أن يعلو شأنه ويذيع صيته فى الأنحاء، سواء أعمل فى البلاط الملكى أم فى مكتب رسمى متواضع القيمة". فرد عليه كونفوشيوس، قائلاً: "إذن، فأنت تقصد بريق الشهرة والصيت الذائع... يعنى أن يكون المرء معروفًا لدى الكافة، أما أن يملك زمام المعرفة فذلك شىء آخر، إذ إنه يعنى أن يحوز الفرد إخلاصًا واستقامة واحترامًا إلى جانب مقدرته على الوعى بالدنيا والحياة والناس من حوله، وتقدير الآراء والانفعالات [كذا] بدقة متناهية، فذاك هو صاحب العلوم وسيد المعرفة، تلك هى خصاله، سواء أعمل فى أعلى السلم الاجتماعى أم فى أدنى درجة منه. أما طالب الشهرة، فمتكلف فضائل، يحرك بها لسانه وتنفر منها يده، فهذا هو المرائى، سواء كان رجل دولة عظيم المكانة أو عاملاً بسيطًا فى ديوان حكومى زهيد القيمة".

١٢-٢١ خرج فانش بصحبة كونفوشيوس، وتوجها ناحية المذبح المقدس وبينما هما يتجولان، إذ سأله قائلاً: "قل لى يا سيدى، كيف السبيل إلى تأصيل الفضائل والأخلاق فى طبع الإنسان؟ قل لى، كيف السبيل إلى استئصال جذور الشر من الوجدان؟ وكيف يدرك المرء أنه فاقد الصواب؟ وأجابه كونفوشيوس، قال: هذا سؤال جيد، لكن دعنى أسألك أنا: أليست المبادرة إلى عمل السواعد قبل الحديث عن المكسب والخسارة، أجدى وأنفع، من الناحية السلوكية؟! أليست مراجعة النفس والنقد الذاتى - بدلاً من مراقبة الآخرين وملاحظة أخطائهم - أصوب وأحق فى اكتساب الفضائل؟ ثم؛ ألا ترى معى، أن لحظة غضب أو حمق طائشة، يمكن أن تورد المرء موارد التهلكة، فيبطش بأهله، أو يظلم نفسه، ويحيق به ما لا قبل له به، فاعلم ذلك وتأمله!".

١٢-٢٢ جاء "فانش إلى كونفوشيوس، وسأله عن معنى "الإحسان"، فأجابه: "الإحسان هو المحبة". فعاد وسأله: وما هى الحكمة؟ فرد عليه، قائلاً: "الحكمة هى البصيرة، والقدرة على التمييز بين الجيد والردىء". فهز "فانش" رأسه بما يدل على غموض المعنى، ودقة الدلالة، وراح المعلم يزيده شرحًا، بقوله: "أما علمت بأنك لو أنعمت على نخبة الأخيار بالجاه وعظيم المكانة، وجهت طموح المفسدين إلى السلوك القويم والعمل الصالح؟!" فخرج "فانش" وقد غمض عليه المعنى، ثم إنه قابل "زيشيا"، فقال له: "كنت عند الأستاذ، وسألته عن الحكمة، فأجابنى بأنها تعنى تمكين الصلحاء من دفة الأمور، حتى تنصلح النفوس الدنيئة، فما معنى هذا؟ ورد عليه زيشيا قائلاً: "المعنى هنا عميق الغور، فانظر، وتأمل، فعندما تقلد الإمبراطور "شون" صولجان الحكم، بادر، فاختار الحكيم "جاديو" إلى جانبه، وولاه أهم المناصب، اضطر المفسدون إلى التقهقر والانكماش، وعندما جاء الإمبراطور "تانغ"، اصطفى الماجد الشريف "آيينى" فعينه رئيسًا للوزراء، فما بقى للزمرة الدنيئة إلا أن تفر إلى جحورها، وتنزوى فى غياهب النسيان".

١٢-٢٣ ذهب "تسيكون" إلى كونفوشيوس وسأله عن كيفية معاملة الصديق لصديقه، فأجابه: "لصديقك عليك حق: أن تخلص له وتصدقه النصيحة، فإن لم يمتثل، فلا تراجعه، ولا تكن لحوحًا فإن كثرة النصح تفقد الهيبة".

١٢-٢٤ قال "سنشن"(٧١): "العاقل يتخذ من الوعى الأدبى، أساسًا لصداقاته مع الآخرين، بمثل ما يتخذ من صداقته دعمًا لكيان الفضائل والأخلاق الكريمة".

الباب الثالث عشر

"زيلـــو"

وجملته ثلاثون فصلاً

١٣-١ جاء زيلو إلى كونفوشيوس، وسأله عن المثل الأعلى في القيام على شئون الحكم، مـا هو هذا المثـل وكـيف يكون؟ فـأجـابه، قـائلاً: "هـو أن تحث مـواطنيك على التـفـانى فى العـمل، وذلك بأن تجـعل من نفـسك القـدوة والنموذج الأول".

١٣-٢ لما تم تعيين "جونكون" وكيلاً لشئون أسرة "چى" الحاكمة، قصد من فوره إلى كونفوشيوس، ليستشيره فى موضوع الإدارة الحكومية، ويطلب منه النصح، فأجـابه، قـائلاً: "اجـعل من نفـسك قـدوة لمرؤوسـيك، وتغـاض عن طفيف التجاوز وهامش الخطأ، وارفع الكفء الجدير مرتبة عالية، واجعله فى أرقى المناصب". وسـأله جـونكون: "فكيف لى أن أفـرق بين الكفء والدعيّ؟" فـأجـابه: "ابدأ بمن تعرف من الرجال ذوى الكفـاءة والفـضل، واجعل ذلك تقليداً راسخًا يتبعك فيه التابعون".

١٣-٣ جاء "زيلو" وقال لكونفوشيوس: "إن أمير دولة "ويقو" ينتظر قدومك لتتولى شئون الإدارة الحكومية فى البلاد، فماذا عساك تتخذ من إجراءات فور تقلدك زمام الأمور؟ فـأجـابه، قـائلاً: "سـأبدأ قبل كل شىء بإصـلاح نظام

"الفئات الاسمية"[٧٢] ليعـود إلى مساره الصحيح، فاستغـرب "زيلـو" قائلاً: "وما الذى يدفعك إلى مثل هذا الإجراء التقليدى؟ وما الذى يفيدك من قوالب متزمتة (عفا عليها الزمن)؟ فأجابه المعلم: "ما أنضب قريحتك! أما علمت أنه لا ينبغى للعاقل أن يدلى برأيه فى مسألة لا يفقه أصولها! فإن زلة لسان، يمكنها أن تعصف بمنطق بيان، والمنطق إن لم يستوف أركانه، بطلت قاعدته، وإن بطلت القواعد فسدت الصنائع، فإذا فسدت الصنائع، انهدم ركن الشعائر وأساس المعاملات والقيم والفنون، فإذا ما انهار ذلك الصرح العتيد، اختل ميزان الثواب والعقاب، وطاشت مقارع القوانين، فإذا حُقِّرت رهبة الردع فى النفوس، اختلت الأمور، وفقد الناس رشدهم، واختلطت عليهم المسالك، فلذلك كان لزامًا على الماجد الأشرف أن يحـرص فى قـوله وأفـعـاله على أصـول المعـامـلات والتـراتب الاجتمـاعى ولا ينطق إلا عن ميثاق حق وبيان لا لبس فيه ولا غموض، ولا يتحدث ارتجالاً بمزاج الصدفة والهوى، فحينئذ، تنفـذ الأقـوال سديدة محكمة إلى حيز الواقع المعقول!".

٤-١٣ قصد "فانش" إلى كونفوشيوس، وسأله عن كيفية الزرع والرى والحصاد؟ فأجابه، قائلاً: "لا ينبئك فى هذا مثل خبير"؛ فأنا لست بزارع ولا حاصد". ثم سأله "فانش" عن كيفية تنسيق حدائق الفاكهة والخضروات. فأجابه، قائلاً: "فهذه كتلك، لا علم لى بها". فخرج فانش وذهب إلى حال سبيله، فقال كونفوشيوس: "ياله من جهول أحمق! أما علم أن الناس يسلكون درب ملوكهم؟ فمن يجرؤ على انتهاك شرائع قدستها الأباطرة؟ من يجرؤ من الناس على إزاغة طريق استقامت على يد الحكام، وكيف يجرؤ الناس على الكذب وقد صدقت أفواه أمرائهم؟! فهى أمور لو تأملها أصحاب الجلالة لسعت إليهم أفواج الخلائق تذعن بالخضوع والتفانى، فليت شعرى، ما سر اهتمام صاحبنا بالزرع والمحاصيل والغلال؟!".

١٣-٥ قال كونفوشيوس: "عجبت ممن قرأ "كتاب القصائد" كله بمحتواه البالغ ثلاثمائة قصيدة، ثم يفشل فى أداء مهام مسئوليته الوظيفية الرسمية! وعجبت أكثر، ممن حفظ القصائد عن ظهر قلب، ثم إذا به يعجز عن التصرف بمرونة ولباقة فى بعثة [دبلوماسية] خارج الوطن، فكم هناك من قراءات ضائعة، قراءات، برغم كثرتها العددية، فهى لا تغنى فتيلاً!".

١٣-٦ قال كونفوشيوس: "إذا التزم الأباطرة حدود الحق والعدل، انقادت الشعوب راضية طائعة، واستتب الأمن ولو بغير قانون، أما إذا جارت وزاغت عن جادة الصواب، انقلبت العامة ناكصة عن الطاعة وشقت لواء العصيان، واستقبلت نداء الواجب والقانون بوجوه معرضة وآذان مقطوعة (لا تسمع ولا تصغى!)".

١٣-٧ قال كونفوشيوس: "إن نظم الحكم فى دولتى "لوقو" و"ويقو" تتشابه لدرجة التماثل التام، فإذا البلدان كشقيقين توأمين أو فرسى رهان"[٧٣].

١٣-٨ تحدث كونفوشيوس عن الأمير "جينغ"[٧٤] أمير دولة "ديقو"، فقال: "أكرم به من قانع عاقل؛ فهو - والناس تدرى من هو - يتبسط فى مسكنه وفرشه للغاية، إذ لما ابتنوا له منزلاً صغيراً، قنع به، وقال لمن حوله: "هذا هو ما أريده، لا أكثر ولا أقل". فلما فسحوا فيه قليلاً، قال: "هذا يكفى تماماً، لا تزيدوا على ذلك". فلما رفعوا سقفه عالياً بعض الشيء أشار إلى البنائين، قائلاً: حسبكم! لا تزيدوا فى الارتفاع... فما أحقرها من غواية للنفس ومجلبة للدعة والترف!".

١٣-٩ ذهب كونفوشيوس فى زيارة إلى دولة "ويقو"، فاستقبله "رانيو" مُرَحِّبا به وأخذ بلجام فرسه، فقال له المعلم: "مالى أرى النـاس فى بلادكم كثرة، لا تحصى أعدادهم؟!" فأجابه رانيو، قائلاً: "أعداد الناس هنا متزايدة فعلاً، فماذا ترانا فاعلين (حيال ذلك!)؟ "فقال له كونفوشيوس: "أوسعوا لهم فى العيش والرفاهية". فعاد يسأله: "فماذا نصنع لهم بعد سعة العيش وترف الحياة؟" فرد عليه، قائلاً: فقهوهم فى العلوم والآداب!".

١٣-١٠ قال كونفوشيوس: "لو منحت وظيفة رسمية، لعددتها مسئولية عظيمة. ولما انقضى عام واحد حتى يشهد الناس بكفاءة أدائى، ولما كنت أحتاج لأكثر من ثلاث سنوات، حتى أبذل من الجد، والإنجاز، ما تشهد الكافة بتميزه وعظيم أهميته".

١٣-١١ قال كونفوشيوس: "لقد قيل إنه لو تقلد صولجان الحكم إمبراطور صالح لمدة قرن واحد من الزمان، لاستطاع أن يقضى على كل ألوان الفظائع والشرور وإهدار الدماء، وأقول: نعم، هذا صحيح تماماً!".

١٣-١٢ قال كونفوشيوس: "حتى لو اعتلى منصة الحكم قديس طاهر، حكيم زمان، فأقل ما يحتاجه، ثلاثون عاماً، ليضع أساس دولة للخير والصلاح".

١٣-١٣ قال كونفوشيوس: "لا توجد صعوبة فى فرض النظام وإقامة الأحكام، ما دام الأباطرة أنفسهم ينهجون بالرشاد والاستقامة، فإذا تأودت بهم السبل أو مالت منهم الموازين، فأنى لهم بفرض معايير ومبادئ، هم أنفسهم أول من ينتهك أصولها؟!".

١٣-١٤ عاد "رانيو" من عمله فى ساعة متأخرة، فسأله كونفوشيوس عن سبب تأخيره، فأجابه: "تعطلت بسبب الانشغال بالشئون الحكومية". فاستدركه المعلم، قائلاً: "بل قل، شئون العمل التقليدية أو المعتادة، فذلك هو التعبير الصحيح منطقياً، أما "الشئون الحكومية" فهى تعنى ما يشار إليه عادة من السياسات الرسمية العامة، مبادئها، أصولها، صياغاتها النظرية العامة، والتى يتم إبلاغى بها من حين لآخر، برغم أنى أصبحت خارج دائرة المسئولية المباشرة بالتوظف الرسمى".

١٣-١٥ جاء الأمير "دينغ" من دولة "لوقو" إلى كونفوشيوس، وسأله: "أصحيح ما يقال من أن كلمة واحدة يمكن أن تزدهر بها عروش ممالك وتسمو بها بلدان؟" فأجابه المعلم، قائلاً: "ما هكذا يقول العاقل، فما أظن كلمة،

مهما بلغت، تبلغ هذا التأثير، لكنه قيل قديمًا: "ليس الأمير كالوزير"... ذلك أن مسئولية الأمير أفدح، وأعباءه أخطر، فلو انصرف التأكيد هنا إلى إدارك الأمير لخطورة وكثرة أعبائه والتزاماته بالقدر الذى يثير حافز الجد والحذر، فتلك أقرب فى دلالة من قال بأن كلمة قد تبنى أوطانًا، ثم إن الأمير "دينغ" سأله ثانية: "أصحيح أيضًا ما يشاع من أن كلمة قد تهدم أمة؟!" فأجابه كونفوشيوس، قائلاً: "هيهات أن تكون لكلمة مثل هذا القدر من الجسامة، إلا أن واحدًا قال ذات مرة: "كنت أميرًا مهيبًا مسموعًا فى قومى، فما وجدت سعادة تعدل ما كنت أجده من إنصات الناس لى دومًا بغير اعتراض أو مقاطعة". ولا غبار على القائل إن كان سديد البيان واضح العزم، فيكتفى بقوله، أما إن كان السكوت عن كلماته، خشية انتقاد أو مخالفة مصير الاجتراء عن اعتراضه، فتلك هى الكلمة التى خربت أمة".

١٣-١٦ قصد الأمير "أيكون" إلى كونفوشيوس، وسأله عن فلسفة الحكم، فقال له: "الحكمة فى هذا الأمر أن تدخل البهجة إلى قلوب رعاياك، وتملأ بالإعجاب عيون الغرباء فيقصدوا بلادك من شتى الأنحاء".

١٣-١٧ لما صار "زيشيا" حاكمًا عامًا لإقليم "جوفو"، ذهب إلى كونفوشيوس يسأله أن يعلمه شيئًا من فنون الحكم وفلسفة الإدارة، فقال له: "اقصد فى أمورك، فلا تكن عجولاً متلهفًا، وأفسح لرؤيتك أوسع مجال، فلا تسعين وراء جشع خائب، فالاستعجال يقصر بك عن أهدافك المأمولة، والجشع المتهالك يضيع اسمك وإنجازاتك وتاريخ مجدك الباهر".

١٣-١٨ ذهب الأمير "أيكون" إلى كونفوشيوس، وقال له: "فى بلدتنا رجل فاضل صريح الخلق، شجاع الرأى، يواجه القبيح عينًا بعين، ويمسك السارق من تلابيبه، ويقوده إلى المخفر، حتى لو كان أبوه هو السارق". فرد عليه كونفوشيوس، بقوله: "لكن الرجل الفاضل الصريح الخلق، الشجاع

الرأى فى بلدتنا، ليس مثل رجلكم وأبيه، فعندنا، يتجاوز الرجل عن فعلة أبيه ويغض الوالد بصره عن قبح ولده، فذلك أيضًا جانب من الآداب الحسنة، والخلق الكريم"[٧٥].

١٣-١٩ جاء "فانش" إلى كونفوشيوس، وسأله عن أحسن الخلق، ما هو؟ فأجابه: "البر بالوالدين، وإتقان العمل، والإخلاص للصديق. وإنها خصال ثلاث لا يختلف عليها امرؤ فى مشارق الأرض ومغاربها".

١٣-٢٠ ذهب "تسيكون" إلى كونفوشيوس، وسأله: "قل لى يا سيدى، كيف يكون الرجل المهذب الذى يستحق بجدارة، لقب: "النابغ الفطن"، فأجابه: "هو الرجل الذى إذا ندت عنه زلة، أدمت قلبه خجلاً، وإذا أؤتمن، حفظ الأمانة، ثم إنه لا يخيب أبدًا رجاء أهله ومعلميه". وعاد تسيكون يسأله: "فمن يليه فى المرتبة الثانية؟" فأجابه: "الذى يليه هو الرجل الذى يشهد له أهله والجميع (القاصى والدانى) ببره ووفائه لإخوانه. ثم سأله السائل: "فمن الأدنى مرتبة من ذلك؟" فقال: "هو الذى لا يكذب فى حديثه ولا يتردد فى أمره، وهو الأدنى درجة لأنه يؤدى ما وكل إليه بأمانة (فلا يفرق بين خير الأمور وشرها، حسنها وقبيحها!)، وهو على حسمه وثبات جنانه، أقل النابغين منزلة، وأخيرًا سأله تسيكون فما رأيك فى أباطرة وأمراء زماننا؟" فأجابه: "مهلاً، فإنما هؤلاء حواصل متخمة، وصدور ضيقه، لا يقع فيها العلم إلا لفظته، فهم دائمًا خارج القسمة: زبد ماء، وغثاء سيل".

١٣-٢١ قال كونفوشيوس: "اغتنم فرصة التعرف إلى صديق معتدل الرأى والمزاج والحياة: لا هو بالمتطرف المتهور ولا بالجامد المتزمت، فإن لم تجده فسارع إلى معرفة اثنين: المتفائل الطموح، والطيب نقى القلب، فالمتفائل يشدك معه صاعدًا نحو الأمل، والطيب لا يؤذيك أبدًا ما حييت".

١٣-٢٢ قال كونفوشيوس: "هناك حكمة يتناقلها الجنوبيون مفادها أن: "من لم يكن دواؤه الصبر والمثابرة، أعجزه أحقر الداء!"، وهي حكمة سديدة، وقد وردت عبارة في كتاب "التغيرات"(٧٦) تقول: "لا مفر لمن يحمل في صدره قلبين وثلاث إرادات متنازعة، (كناية عن التردد!).

١٣-٢٣ قال كونفوشيوس: "الذكي العاقل من سعى إلى فهم الآخرين، بالمشاركة الفكرية الواعية، دون انقياد أعمى، أما الجاهل فإنه ينساق مع السائد في تبعية ببغائية ساذجة، بينما يطوى قلبه وعقله بعيداً عن حميمية المشاركة الصادقة".

١٣-٢٤ ذهب "تسيكون" إلى كونفوشيوس وسأله: "ما رأيك في رجل يحبه كل أهل بلدته؟" فأجابه المعلم: "كلا هذا محال!" فسأله ثانية: "فما رأيك في رجل يكرهه كل أهل بلدته؟" فأجابه: "وهذا أيضاً محال! فلا يكون الرجل صالحاً حقاً حتى يحبه كل الأخيار؛ بينما يكرهه كل الفجار في بلده".

١٣-٢٥ قال كونفوشيوس: إن تجربة العمل مع الرجل الفاضل العاقل سهلة دائماً، لكنك لا تستطيع إرضاءه بسهولة؛ ذلك أن وسائل التقرب المعهودة والمجالات (الملتوية!) لا تنطلي عليه، فهو جاد وذكي ويعرف كيف يختار رجاله بحسب الكفاءة والمهارة المناسبة، وعلى العكس من ذلك، فإن العمل عند الجاهل ليس سهلاً أبداً، لكن أبسط وسائل المداراة والنفاق الرخيص تسعده للغاية، وتستحوذ على عقله، ولأنه مدّعٍ غبي، فإنه يبالغ في شروط تعيين المتقدمين لديه، ويميل إلى التدقيق والتهويل في أتفه الأمور".

١٣-٢٦ قال كونفوشيوس: "المهذب العاقل دائماً ما يكون ثابت الجنان، معتدل الطبع بغير تكلف ولا أنفة، أما المتهور الماجن، فغالباً ما تجده متكبراً صلفاً، غليظ النفس والطبع".

١٣-٢٧ قال كونفوشيوس: "أربع خصال من كن فيه، أنبتت في قلبه أعرق الفضائل وهى: العزم، والحسم، والتواضع، والحذر عند الكلام".

١٣-٢٨ جاء زيلو إلى كونفوشيوس وسأله: "ما وسيلة المرء لكى يبلغ حد الكمال وحميد الخصال؟" فأجابه بقوله: "أن يجيد لين القول وخشنه، فلربما نصيحة موجعة استقام بها حال الصديق، ولعلها كلمة تشد إليه مودة الأخ الشقيق!".

١٣-٢٩ قال كونفوشيوس: "سبع سنوات من التدريب العسكرى الجيد، يمكن أن تؤهل الفرد العادى لخوض معركة قتالية ناجحة".

١٣-٣٠ قال كونفوشيوس: "أن ترسل أفراداً غير مدربين عسكرياً إلى ميدان قتال، لا يعنى إلا أنك تشيعهم إلى قبورهم".

الباب الرابع عشر

"شيانون"

وجملته أربعة وأربعون فصلاً

١٤ – ١ جاء "يوانشيان"[٧٧] إلى كونفوشيوس، وسأله عما يجلب الخزى والعار، فأجابه : "لئن كان من الطبيعى فى وقت ازدهار الأمة أن يلتحق المرء بوظيفة رسمية وأن يوسع على نفسه فى العيش ، يهنأ بما تدر عليه من دخل ومكانة طيبة ، فإنه من غير الطبيعى، بل من المخزى أن يظل المرء متمتعًا بنفس الوظيفة والراتب والمكانة فى ساعة المحنة عندما تضيق الحال وتتدهور البلاد" . ثم سأله "يوانشيان" ثانية : "أيمكن أن يُشهد للرجل بالمروءة إذا تجنب البغضاء، والتكبر، والأنانية والجشع؟ "فأجابه كونفوشيوس : "مثل هذا المسعى يستحق التقدير على كل حال !" .

١٤ – ٢ قال كونفوشيوس : "لا يليق بالمثقف الحقيقى (طالب المعرفة ... أيضًا!). أن ينعم برغد العيش ولا أن يلتذ بحياة سهلة مترفة .

١٤ – ٣ قال كونفوشيوس : "ليس على المرء حرج فى ظل دولة رشيدة طامحة أن يتحرّى الحقيقة والصراحة فى الرأى والشجاعة فى السلوك، أما فى دولة الظلام والفساد، فلئن كانت الاستقامة مسلكًا فاضلاً إلا أن كلمة الحق ينبغى لها أن تتلمس الطريق فى حذر بالغ" .

١٤ – ٤ قال كونفوشيوس : "من الجائز أن يقول الرجل المهذب حكمة بالغة أو حقيقة دامغة، لكن ليس لزامًا أن يكون كل من قال حكمة أو حقيقة

رجلاً مهذبًا، ولئن كان المخلص الشريف يتصف بالجرأة والشجاعة، فليس كل جرىء بالضرورة، مخلصًا شريفًا" .

١٤ – ٥ جاء "نانكون" – أحد الدارسين – إلى كونفوشيوس، وقال له : "كان الملك "يوانغ" [٧٨] بارعًا فى الرماية ، وكان الحاكم "ياو"[٧٩] مقاتلاً بحريًا من الطراز الأول، ومع ذلك، فقد مات كلاهما ميتة بشعة ، أما الإمبراطور "يو"[٨٠] والسلطان "جى"[٨١] اللذان بدآ حياتهما مزارعين متواضعين، فقد بلغا صولجان الحكم وعرش الأباطرة ! فكيف تفسر لنا تلك الأحجية التاريخية الغريبة ؟ ثم إن كونفوشيوس سكت ولم يرد بشىء ، فلما قام السائل وخرج، تحدث عنه المعلم بإعجاب شديد ممتدحًا أخلاقه واتجاهه المنادى بالمنافسة الشريفة (كوسيلة مشروعة للوصول إلى كرسى الحكم بدلاً من الانقلابات الدموية!) .

١٤ – ٦ قال كونفوشيوس : "ربما أتوقع أن أجد بين المهذبين بعضًا ممن قست قلوبهم، لكنى لا أتوقع أبدًا أن أجد بين الحمقى الجهلاء واحدًا مهذب الخلق" .

١٤ – ٧ قال كونفوشيوس : "كيف يمكنك أن تزعم إخلاصك لشخص، دون أن تبذل له النصيحة، وكيف تقدر أن تدعى الحب لإنسان دون أن تحثه على الكد والاجتهاد والعمل" .

١٤ – ٨ قال كونفوشيوس : "كانت صياغة اللوائح والقوانين فى مملكة "تشنغ" مسألة تجرى فى غاية الدقة والضبط؛ فقد كان بيشن[*] هو الذى يتولى الصياغة الأولى للقواعد القانونية المبدئية، ثم يتسلمها "شيشو"[*] فيتفحصها ويبدى ملاحظاته المحددة ثم يناولها إلى "زايو"[*] الذى يقوم بتنقيح الصياغة وضبط المتن بنصوصه وهوامشه،

(*) بيشن، شيشو، زايو، يشان : كلهم وزراء بمملكة تشنغ .

وأخيراً ، يأتى "زيشان"(*) فيحرر ويوثق النسخة المعدة للاعتماد الرسمى كنسخة نهائية ومضبوطة وصالحة للعمل العام . وقد كان من النادر ، فى ظل هذا الإشراف الرباعى المشترك، أن تشوب تلك النسخة أية أخطاء" .

١٤ - ٩ جاء رجل إلى كونفوشيوس، وسأله عن أخلاق "زيشان" فأجابه : "هو جواد شريف الأخلاق" . ثم سأله عن "زيشى" ، فأشاح كونفوشيوس بوجهه بما معناه أنه دنيء لا يستحق الذكر، ثم سأله عن كوانجون - المتحدث الرسمى لدولة تشيقو - فأجابه - "لقد كان شديد البأس؛ فقد استولى على ثلاثمائة منزل من إقطاعية تخص أسرة "بوش"، مما نتج عنه تخريب هائل فى مستوى المعيشة فى الإقطاعية، إلا أن شيخ الأسرة، تكتّم الأمر بلباقة ولم ينله بسوء حتى توفى" .

١٤ - ١٠ قال كونفوشيوس : "من السهل على الغنى الميسور أن يعرض عن الخيلاء والزهو والمباهاة بمظاهر الثروة والترف ، لكن من الصعب جداً على الفقير ألا يئن بالشكوى تحت وطأة الحرمان والفاقة" .

١٤ - ١١ قال كونفوشيوس : "لعلى لا أتجاوز إذا قلت إن رجلاً مثل "منكونشو" - مسئول كبير بمملكة "لوقو" - يصلح لمنصب المستشار الخاص لإمارتى "جاو" و"وى" فى دولة "جينقو" ، لكنى أتجاوز كثيراً ، بل أبالغ بما يفوق طاقة المعقول إذا قدرت أنه يصلح للعمل وزيراً لأى من الإمارات الصغيرة مثل : "تانغ" أو "شيوى" .

١٤ - ١٢ جاء "زيلو" إلى كونفوشيوس وسأله ، كيف يحوز الرجل تمام الأخلاق ؟ فأجابه : "يحوز المرء عظيم الصفات وأتم السجايا ، إذا اجتمعت له حكمة "زانوشون"(٨٢) مسئول كبير بمملكة "لوقو" - وورع "منكونشو"

وشجاعة "بيانشوانزى" ، وذكاء "رانيو" فإذا تم له ذلك ، اتخذ من الموسيقى والفنون والآداب الراقية وسيلة لتهذيب النفس ، وترقية الحس" . ثم إنه صمت قليلاً وعاد يقول : "إلا أن هذه الصفات لا تعد شرطًا لازمًا فى كل زمان ، فيمكن أن يعد الرجل مهذبًا فاضلاً فى أواننا هذا ، إذا استطاع أن يقاوم غواية الفحش والجشع والفساد ، كما أن المعيار الأساسى للإنسان الكريم الحر ، يبقى دائمًا فى استعداده للتضحية بنفسه لأجل المبدأ وفى وفائه لأمل الحياة مهما كان شظف العيش" .

١٤–١٣ ذهب كونفوشيوس إلى "كونمين جيا" – أحد الدارسين – وسأله عن "كوانشونز" – مسئول كبير بدولة تشيقو – قائلاً : "أصحيح أن سيدك لم يكن يتكلم أو يضحك أو يخالط أحداً من الناس ؟ "فأجابه الرجل بقوله : "كلا ... هذا افتراء عليه، وقد كذب من أبلغك بهذا! فقد لزمت سيدى "كونمين" دهراً ، فما وجدته يتكلم إلا لضرورة . لئلا يتزيد ، ولا يضحك إلا لسبب يوجب الضحك، لئلا يبتذل ويذمم، ولم يكن يأخذ شيئًا من أحد إلا بحقه، ولا يعطي شيئًا إلا لمن يستحقه" . ثم إن كونفوشيوس تطلع إليه ، قائلاً : "ما دريت أن الأمر هكذا ! " .

١٤ – ١٤ قال كونفوشيوس : "كان – زانوجون" – وزير بدولة "لوقو" – قد تحايل على الأعراف والتقاليد ودفع أحد الأمراء بدولة "لوكو" لأجل إصدار مرسوم يقضى بتولى أولاده مناصب رسمية عظمى فى المملكة، وقد أشيع أن هذا التصرف لا يعد استغلالاً للنفوذ، فهل هذا معقول؟!" .

١٤ – ١٥ قال كونفوشيوس : "كان الأمير "أونكون" بدولة "جينقو:" سقيم الضمير، ولم يكن على خلق مستقيم بأى حال، أما الأمير "هوانكون" ، الذى بإمارة "تشيقو" فهو كريم النفس ، سليم الطوية ، غير خبيث ولا مخادع"(٨٣) .

١٤ – ١٦ جاء "زيلو" إلى كونفوشيوس، وقال له : "لما قتل الأمير "هوانكون" أخاه الأكبر "زيشو" ، تأثر واحد من أتباعه فقتل نفسه ومات منتحراً، أما ذلك المدعو "كوانشون"، وبرغم كونه الخادم المخلص . لـ "زيشو"، فلم يكترث لما حدث ، ولم يتأثر لفقده سيده، بل سرعان ما هرول، نحو الأمير "هوانكو" وصار من خدامه، فياله من متبلد، غشوم، غليظ القلب، أيكون هذا الرجل إنساناً مثل الآدميين حقا؟ ! "فأجابه المعلم بقوله : "أما تذكر أن الأمير "هوانكو"، كثيراً ما جمع الأمراء والقادة وألف بينهم حقنا للدماء ؟ لقد فعل ذلك بفضل مجهود "كوانشون" نفسه ، الذى لولاه ، لدبت الحروب ونشبت الصراعات ، فكيف نغمطه حقه ؟ إنه هو الإنسان بكل معنى الكلمة" .

١٤ – ١٧ جاء "تسيكون" إلى كونفوشيوس ، وقال له : "أيمكن أن يقال بأن "كوانشون" إنسان ذو ضمير حى ؟ لقد رأى سيده يقتل أمام عينيه، فلا هو دافع عنه ، ولا هو قتل نفسه وفاء لسيده وصديقه ، بل الأدهى من هذا أنه بذل نفسه لخدمة القاتل وصار طوع يده" . فأجابه كونفوشيوس قائلاً : "نعم ، هذا صحيح، لقد أصبح طوع يده وواحداً من أتباعه، ولكنه ما فعل ذلك إلا ليوحد به الصف ويجمع به كلمة الأمراء، ويوحّد الدويلات والبلدان كلها على قلب رجل واحد، ولولاه، لما صار الناس يرفلون فى هذا النعيم الذى تراه اليوم، ولأصبحوا

كقطعان الماشية، أو الخراف الضالة تهيم فى بوادى الهمجية والتخلف، ترسل شعورها على الأكتاف، وتضم قمصانها إلى اليسار [الزى القومى للأقليات الصينية ... قديماً!] ، هل كان مطلوباً منه، ليصبح إنساناً فى نظرك، أن يلقى بنفسه فى أخدود جبلى مجهول، ليدق عنقه ويموت ميتة تعسة مثل جرذان الجبل، بغير ضجة أو قيمة أو شرف؟!" .

١٤ – ١٨ كان السيد "تشوان" فى أول أمره وكيلاً لشئون أسرة "كونشوانز" الملكية، فلما رشحه أميرها الأكبر لمنصب الوزارة، انتشر الخبر حتى بلغ كونفوشيوس، فعلق على ذلك، قائلاً : "هو يستحق الترقية، ويستحق قبل أى شىء أن يمنح لقب "رجل دولة من الطراز الأول" .

١٤ – ١٩ كان كونفوشيوس شديد الانتقاد لسياسة الأمير "لينغ" فى مملكة "ويقو"، فكلمه "جيكانزى" فى هذا الأمر، وسأله "فما دام الأمير يسلك سبيل الحماقة، كما ترى، فكيف إذن بقى عرشه قائمًا للآن ولماذا لم يزل ملكه، وتتبدد مملكته" ؟ فأجابه المعلم، قائلاً : "من المستحيل أن تسقط مملكة يقوم على شئونها الخارجية واحد فى مثل عبقرية "جونشيو"، ويتولى إقامة طقوسها وشعائرها الدينية، الزاهد الورع "جوتو"، ويترأس ألويتها المحاربة، قائد محنك داهية مثل "وانسون جيا" .

١٤ – ٢٠ قال كونفوشيوس : "من وعد بالمستحيل، تعذر عليه الوفاء!".

١٤ – ٢١ لما تآمر"شن هنز" على قائده الأمير "جانكون" وقتله غدراً وغيلة، بلغ الأمر كونفوشيوس الذى كان يتعبد، وقتئذ، فى محرابه، فقام وذهب إلى "آيكون" أمير "لوقو" ، فأخبره بما حدث، وقال له : أرى أن ترسل حملة عسكرية لتأديب ذلك المارق الغادر !"فأجابه الأمير ووافقه الرأى وطلب إليه الذهاب إلى الوزراء الثلاثة الكبار فيبلغهم – على لسانه

وباسمه- ضرورة اتخاذ اللازم، وصار كونفوشيوس وهو خارج من عنده يقول بين نفسه : "لولا سابق عملي وخبرتي كوزير مسئول، لما قدرت خطورة هذا الوضع". ثم إنه قصد إلى الوزراء الثلاثة الكبار، جيسون، وجون شن، وفنعون، لكنهم رفضوا، ثلاثتهم، القيام بتلك الحملات التأديبية" . فنظر كونفوشيوس إليهم، وقال : "قد عرفت من رصيد تجربتي الفعلية مدى خطورة الأمر ، فكان لزامًا على أن أحضر إليكم وأشعل فتيل الخطر" .

١٤ - ٢٢ جاء "زيلو" إلى كونفوشيوس ، وسأله : "كيف للمهذب أن يرضى قائده الأمير ، فأجابه : "بأن يبذل له الإخلاص، فلا يخدعه، ويبذل له النصح الأمين، ولو كان كوخز الشوك، فلا يمالئه ولا يتملقه" .

١٤ - ٢٣ قال كونفوشيوس" :لا يعز المرء إلا إذا اشتغل قلبه بمبادئ العدل والإنسانية والمثل العليا، ولا يذل إلا إذا جعل المنفعة والتربح والثراء الفاحش جلّ همّه" .

١٤ - ٢٤ قال كونفوشيوس : "ما أقبل القدماء على أبواب المعرفة إلا طلبًا للحكمة وسعيًا لأجل مكارم الأخلاق وإشراق الهداية في مكامن الوجدان، أما أهل زماننا فيتخذون مظاهر العلم زينة وزخرف حياة، تشد إليهم إعجاب الناظرين" .

١٤ - ٢٥ كان "شوبوى" - مسئول عظيم بمملكة "لوقو" - قد أرسل رسولاً إلى كونفوشيوس يبلغه تحياته، فاستقبله المعلم بترحاب شديد وأجلسه إلى جواره، ثم سأله عن سيده، وماذا يفعل، فأجابه المبعوث قائلاً : "هو بخير، وما يزال يراقب أخطاءه ويحصيها على نفسه متمنيًا أن يعصم نفسه من الزلل، فهذا هو حاله في كل أوان". ثم إن الرجل قام ومضى، وكونفوشيوس يرنو إليه بإعجاب، قائلا: "أكرم به من مبعوث ذكى، فطن، فهكذا ينبغي أن تكون أخلاق الرجال نحو سادتهم الأجلاء" .

١٤ – ٢٦ قال كونفوشيوس : "لا ينبغى للعاقل أن يتورط فى شئون حكومية متخصصة، لا يملك مسوغ البت فيها، ولا مسئولية القيام بأعبائها" .

١٤ – ٢٧ قال كونفوشيوس : "ليس فى الدنيا خصلة تأباها أخلاق الرجل الفاضل الشريف، مثل أن تكون أقواله أكثر من أفعاله" .

١٤ – ٢٨ قال كونفوشيوس : "ثلاث خصال كريمة، فشلت فى أن أتخلق بها، وهى : سماحة الكريم، ثقة العارف الخبير، جرأة الشجاع ذى البأس" . ثم إن "تسيكون" علق على ذلك، قائلاً : لئن قال أستاذنا ذلك، فإنما كان على سبيل التواضع، وكسر أنفة النفس المباهية الجموح" .

١٤ – ٢٩ اعتاد "تسيكون" أن يسخر من زملائه وأن يلغو بسيرتهم، فقال له كونفوشيوس : "أراك تسخر من الناس، وكأنك ولدت بغير عيوب، أما وأنى لا أجد متعة فى ملاحقة نقائص الناس، فلست مستعداً لإضاعة وقتى فى هذا العبث الدنىء .

١٤ – ٣٠ قال كونفوشيوس : "لا عليك بمن لا يقدر كفاءتك حق قدرها، فالعبرة بما تملكه من مهارة حقيقية ومعرفة واعية" .

١٤ – ٢١ قال كونفوشيوس : "ليست الفطنة أن تنظر بعين الشك إلى الآخرين طوال الوقت ، ولا أن ترميهم جزافًا، بالغدر والنفاق، وإنما الفطنة والكياسة فى أن تتحقق من نواياهم الخبيثة – إن وجدت – فى الوقت المناسب (قبل أن يطالك أذاهم!) .

١٤ – ٣٢ جاء "ويشن مو"(٨٤) إلى كونفوشيوس، وقال له : "ما الذى يدعوك إلى التنقل فى أنحاء الأرض هكذا، لا تقر بمكان، ولا تهدأ لك حال ، ففيم كل هذا التعب؟ لعلى بك تبغى أن تمد شهرتك وتتباهى بفصاحتك فى

الآفاق ! "فأجابه المعلم : "لا هذا ولا ذاك، فما ظننت قط أنى جدير بشهرة أو كفء لفصاحة، وإنما هو سعى دائم وجهد مقيم، أملاً فى رقى الفكر، ودرءا لضلالات الجمود والتعصب" .

١٤ – ٣٣ قال كونفوشيوس : "ليست الخيل بقوة أجسادها أو متانة سيقانها وإنما بطيب عنصرها وأصالة منبتها" .

١٤ – ٣٤ جاء رجل إلى كونفوشيوس ، وسأله: "ما رأيك فيمن يرد على الإساءة بالإحسان؟ " فقال المعلم : "فكيف ينبغى إذن أن نرد على الإحسان نفسه (ما الذى يتبقى للرد على المعاملة الحسنة!!) فاعلم أن لا راد للإساءة إلا بتمكين من نزاهة العدل (لرد الاعتبار) وشرف الاستقامة، ولا يكون جزاء الإحسان إلا الإحسان نفسه!" .

١٤ – ٣٥ قال كونفوشيوس : "لم أجد أحداً من الناس يفهمنى!" فسأله تسيكون : "لماذا تقول ذلك يا سيدى؟" فأجابه : "لست أقصد أن ألقى اللوم على أحد ، وإنما أقصد أنى تعمقت فى علوم أهل الأرض (فى دنيا البشر!) وحلقت فى علوم السماء، فبلغت جذر الحق وأصل الحقيقة، فلست أجد طريقًا موصولاً بالفهم إلا بالسماوات العلا" .

١٤ – ٣٦ كان كونبولياو" قد تحدث بما يسىء إلى "زيلو" فى حضور السيد جيسون" ، ثم إن الأمر كله بلغ أسماع "زيفو جينو" – مسئول عظيم بمملكة "لوكو" – فذهب إلى كونفوشيوس، وأخبره بذلك، قائلاً : "يبدو أن السيد "جيسون" قد صدق كل ما زعمه له "كونبولياو"، لكنى أؤكد لك أنى أستطيع أن أقتل هذا الأخير وأمثل بجثته وأجعله عبرة لمن يعتبر" . فأجابه كونفوشيوس، قال : "مهما أبديت من آراء واقتراحات فى هذا الموضوع، فسيكون للقدر اليد الطولى دائمًا ، فلست أملك

مقالة تفيده أو تضره بشيء إلا إذا كان القدر سابقًا من قبل ومن بعد، فأين يفر المرء مما هو مقدر وكائن!" .

١٤ – ٣٧ قال كونفوشيوس: "هناك البعض من أهل المروءة والفضل، من الدرجة العالية الشريفة، يعتكفون في بيوتهم، يعتزلون الدنيا كلها، اتقاء لشر الناس. وهناك من هم أدنى درجة : الذين يهاجرون إلى ديار في جوار الخير والصلاح . أما الأدنى درجة . فهم أولئك الذين يضربون صفحًا عن النظر في وجه الناس، ويليهم الأقل منهم؛ أولئك الذين يعرضون عن سماع المسبّة الفاحشة وبذيء القول" . ثم إن كونفوشيوس زاد على ذلك بقوله : "... ولقد عرفت(٨٥) سبعة رجال فقط على هذه الشاكلة" .

١٤ – ٣٨ كان "زيلو" قد بات ليلة عند البوابة الحجرية الضخمة، فلما أصبح اليوم التالي، قام وقصد الدخول إلى المدينة، فأوقفه رجال الحرس، وسألوه عن مبتدأ سفره وخاتمته، فقال بأنه جاء من البلد الذي يقطن به كونفوشيوس، فقال له الحارس : "أأنت من عند ذلك الرجل الذي ينطح رأس أفكاره ... بجلمود الصمت وصخر المستحيل؟!" .

١٤ – ٣٩ لما كان كونفوشيوس مقيمًا بمملكة "ويقو" ، فقد ذهب ذات يوم لأداء الشعائر وإنشاد التراتيل في أحد المعابد ، وتصادف أن مر به رجل يحمل سلالاً خشبية، فرآه وهو يرتل، فتوقف وأخذ ينصت، ثم إن الرجل قال لكونفوشيوس : "أنت تنشد وكأنك تفكر بعمق، ويبدو أن ما تفكر فيه لا يستحق هذا التأمل، لكأني بك تتألم في صمت، تشكو عزلة أفكارك لنفسك، فلو كنت مكانك، لاخترت اعتزالاً عاقلاً وشريفًا، فأنت كسابح في بحر، يصانع إذا عصف التيار، ويسابق الريح مواتية". فلما انتهى من قوله، التفت نحو كونفوشيوس، وقال : "ها هو ذا رجل حنكته أيام عمره، فكيف لي بمجادلته؟!".

١٤ – ٤٠ جاء زيجانغ إلى كونفوشيوس، وسأله، قائلاً : "ورد فى كتاب "التاريخ" ما نصه : "إن الأمير "كوزون" أقام فى الحداد على سلفه مدة ثلاث سنوات، بقي أثناءها ساكنًا بقصر "شون لو" ، فلم يقرب ديوان المملكة ، ولم ينظر فى شئون الحكم، حتى انقضت تلك المدة" . فهل هذا صحيح؟" وأجابه المعلم قائلاً: لم يكن "كوزون" وحده يتبع هذا التقليد، وإنما كان القدماء كلهم كذلك؛ إذا مات بينهم الحاكم، وانتقل الصولجان إلى خلفه، أقاموا فى الحداد ثلاث سنوات، تحت إمرة رئيس وزرائهم، بينما يظل الملك الجديد – احترامًا لذكرى سلفه – بعيداً عن مباشرة مهام الحكم الرسمية" .

١٤ – ٤١ قال كونفوشيوس : "يصير الشعب أسلس قياداً، وأخلص طاعة، ما دام أولو الأمر يراعون الحقوق، ويصونون القواعد الرسمية المقررة" .

١٤ – ٤٢ ذهب "زيلو" إلى كونفوشيوس، وسأله : "كيف يكون الحاكم مهيبًا عادلاً؟" فأجابه : "بعظيم فضائله، وجليل أعماله" . ثم إن "زيلو"سأله ثانية : "أفى ذلك كفاية؟ !" فقال له : "من عظمت فضائله وجلت أعماله، استضاءت أركان مملكته بالعدل والسلام" . فسأله السائل: "أفى ذلك الكفاية؟ "فأجابه المعلم : "أليس تحقيق الأمن والسلام هو غاية المنى ؟ أما تعلم بأن الأباطرة العظام أمثال : "ياو" و"شون" [بكل مثاليتهما!] لم يبلغا هذه الدرجة.

١٤ – ٤٣ دخل كونفوشيوس إحدى القاعات، فوجد "يوان ران"[(٨٦)] – أحد شيعته – جالسًا بغير تأدب؛ واضعًا ساقًا على ساق! فنهره، قائلاً : "يا لجرأتك، أما آن لك أن تتبصر وترعوى؟! قد كنت فى صباك غراً، لا تراعى حق الكبير ولا تلين قناتك للصغير، وأراك هرمت دون أن تعى من أصول

المعاملات شيئًا، فلا أنت حي تفقه مبادئ استقرت من الأزل ، ولا أنت ميت لتدرك قدرًا محتمًا فتريح وتستريح إلى الأبد" .

١٤ - ٤٤ قدم على كونفوشيوس فتى من إحدى القرى المجاورة، يرجو لقاءه بصفته مبعوثًا يحمل خطابًا رسميًا، فلما انتهت المقابلة ، وغادر الفتى عائدًا ، جاء واحد إلى كونفوشيوس، وسأله : "ما رأيك في ذلك الفتى ، أتراه ذكيًا، طموحًا ذا مستقبل يعد بالمجد !"فأجابه المعلم : "قد رأيته يجلس إلى الأريكة الرسمية العالية، ويزورّ عن الكرسي الخشبي البسيط، ثم لمحته يتودد كثيرًا إلى أصحاب النفوذ والسطوة، فهو إذن، وبالقطع، لا يطمح إلى المجد والتفوق، لكنه يسعى - وبأقصر الطرق - إلى بريق النفوذ، مفتونًا بمظاهر السبق والسطوة والسيطرة" .

الباب الخامس عشر

"ويلينغ"

وجملته اثنان وأربعون فصلاً

١٥ - ١ ذهب الأمير " لينكون" أمير دولة "ويقو" إلى كونفوشيوس، وسأله عن أمور تتعلق بالخطط القتالية والتجهيزات العسكرية. فأجابه المعلم، قائلاً : "أستطيع أن أبحث معك أية مسألة تختص بقواعد الأخلاق وأصول المعاملات، فذلك هو الموضوع الذى أفقهه وأدرسه، أما الحرب وشئونها، فذلك ما لا قبل لى به" . ثم إن كونفوشيوس قام فى اليوم التالى ورحل عن المملكة" .

١٥ - ٢ بينما كان كونفوشيوس في إحدى جولاته البعيدة مع مريديه فى أنحاء الممالك المختلفة، نفدت منه أجولة القمح، وأشرف على المجاعة والهلاك - وذلك عند حدود مملكة "تشنقو" - وتساقط تلاميذه بين مريض ومحتضر. وحدث أن تقابل مع "زيلو" فشكا إليه، هذا الأخير ، سوء الحال، وسأله : "قل لى يا سيدى، أترى الماجد الشريف يجرب فى حياته مثل هذا الضنك وقلة الحيلة؟ "فأجابه المعلم : "نعم، لكن الماجد الشريف يثابر ويصبر فى وقت المحنة، أما الدنيء فيقترف الآثام والمفاسد، وينكص على عقبيه (متراجعًا عن مبادئ الأخلاق) باسم الضائقة شديدة الوطء، متعللاً بالظروف بالغة القسوة" .

١٥ – ٣ كان كونفوشيوس يتحاور ذات مرة مع "تسيكون" ، فقال له : "أو تظن أنى أعتمد على ذاكرتى للأحداث أو مذكراتى وحفظى لقواعد العلوم؟ " فاستغرب "تسيكون" ونظر إليه دهشًا مستنكرًا ، فراح كونفوشيوس يفسر له الأمر بقوله : "المسألة عندى لا ذاكرة ولا مذاكرة وإنما فقط فكرة أساسية، ومبدأ أصيل ثابت، أقيم عليه تصوراتى وأنظم به شتات الأفكار" .

١٥ – ٤ تحدث كونفوشيوس إلى أحد أتباعه ، قائلاً : "ما أقل الناس الطيبين فى هذه الدنيا، يا جونيو" .

١٥ – ٥ قال كونفوشيوس : "لم نعرف – فيما نعهد – حاكمًا استتب له الأمر، ورضخت له الممالك طائعة راضية ، إلا الإمبراطور "شون" هو وحده الذى كان يستطيع أن يجلس إلى عرش إمبراطورية عظمى، هادئ البال، مطمئن النفس، تاركًا للمقادير أعنتها" .

١٥ – ٦ جاء زيجانغ إلى كونفوشيوس، وسأله: "كيف للمرء أن يصير مسموع الكلمة، نافذ الرأى، فأجابه، قائلاً "يصير المرء كذلك بأن يخلص فى القول والعمل، فهى مفتاح الصدق فى كل مكان وزمان، مهما تناءت الأصقاع أو قدمت العهود، وإياك والغش أو التهور الأخرق، فإنها تسد عليك أبواب بيتك ، وتذهب عنك الجار والصديق، فاحفظ تلك الكلمات (واحفرها) فى قلبك، وفى عقلك، وفى مخيلتك وأمام ناظريك طوال الوقت : "مخلصًا صادقًا، يستقم مسعاك ويفز رجاؤك" . ثم إن زيجانغ أخذ يكتب هذه الكلمات على قميصه (فى الأصل : على حزامه!) ليقع عليها بصره فى كل حين" .

١٥ – ٧ قال كونفوشيوس : "ما أعظم استقامة "شيو" (مسئول ومؤرخ بمملكة "ويقو") ؛ فقد ظل ثابتًا على مبادئه، مستقيمًا، نزيه اليد والذمة، إبان ازدهار المملكة وانتكاستها، وما أنبل الكريم الأمثل "تشيبوى" ؛ فقد كان فارسًا وشهمًا وكريمًا، سواء وهو يؤدى عمله باقتدار أيام مجد

الإمبراطورية، أو وهو يعتزل ويتوارى بلباقة، عندما دالت دولة الجاه وعمت الفوضى فى كل مكان" .

١٥ - ٨ قال كونفوشيوس : "أن تدع الحديث مع عاقل متفتح الذهن، فتلك هى الفرصة الضائعة، أما أن تطول حواراتك مع سفيه، سقيم الفكر، فتلك هى الأوقات الضائعة . والعاقل لا يضيع الفرص ولا الأوقات" .

١٥ - ٩ قال كونفوشيوس : إن النبيل، صاحب المبادئ والمثل لا يضحى بالفضائل حرصاً على حياته، وإنما يضحى بحياته نفسها لأجل الخير والفضيلة" .

١٥ - ١٠ ذهب تسيكون إلى كونفوشيوس، وسأله عن كيفية تحقيق المبادئ الفاضلة، فأجابه : "تأمل الصانع وهو يشحذ عدته ويجهز أدواته ، قبل أن يشرع فى عملية إنتاج معقدة وطويلة لكنها ناجحة، واتخذ لك أصدقاء من أكرم الناس وأفاضلهم، إذا استقر بك المقام فى أرض بعيدة (تجد ما أردت!)".

١٥ - ١١ جاء "يان يوان" إلى كونفوشيوس، وسأله عن أفضل كيفية لحكم البلاد، فأجابه، قائلاً : "إذا أردت أن توطد أركان سلطانك. فعليك بتعميم استخدام التقويم الزراعى الذى وضعته أسرة "شيا" الملكية، وأن تستعمل العربات المصممة إبان حكم أسرة "إينشو"، فتلك أبسط الطرز وأمتنها. وأن تأمر الناس بارتداء الزى الرسمى لأسرة "جوشاو" الملكية بفخامته وجاذبيته، وأن تعزف فى دور الموسيقى مقطوعات من مؤلفات الـ "يو" والـ "شاو" الراقصة، وأن تنأى بمواطنيك عن مهازل موسيقى مملكة "تشنكو" ورجالها المنافقين، فموسيقاها مبتذلة خليعة، ومنافقوها أخطر الكوارث الداهمة" .

١٥ – ١٢ قال كونفوشيوس : "من لم يمد بصره، بالتأمل الواعى والتخطيط الذكى على المدى الطويل، وجد عند كل خطوة عثرة، وعند كل مفترق عقبة كَأْداء" .

١٥–١٣ قال كونفوشيوس : "لقد بحثت عبثًا بلا طائل، بحثت ولم أجد أحداً يفضل حب الخير على عشق الجمال" .

١٥–١٤ قال كونفوشيوس : "دلائل كثيرة تشير إلى أن زانوشون[٨٧] كان يستغل منصبه أبشع استغلال، من ذلك مثلاً أنه أحجم عن تعيين السيد "هويليوشيا" – موظف عظيم بمملكة "لوقو" – برغم علمه بكفاءته وجدارته لشغل منصب رسمى" .

١٥–١٥ قال كونفوشيوس : "من أراد أن يتقي كيد الكائدين، فليكن متسامحًا لينًا مع الناس، متشدداً وقاسيًا مع نفسه" .

١٥–١٦ قال كونفوشيوس : "وأنا أيضًا لا أملك أن أفعل شيئًا لمن لا يقدرون على كيفية التصرف الواعى فى الطوارئ والأزمات" .

١٥–١٧ قال كونفوشيوس : "لا فلاح لمن كان جل همه طوال يومه أن يثرثر فيما لا يفيد، ولا نجاح لمن لم يقل حسنًا و(ينبذ) الحكمة من فمه" .

١٥–١٨ قال كونفوشيوس : "الماجد المهذب، من اتخذ الاستقامة سلوكًا أصيلاً، وسار على مبادئ الأخلاق الكريمة ، فسلك بين الناس بالتواضع والإخلاص" .

١٥–١٩ قال كونفوشيوس : "لا يضير العاقل أن يصير مجهولاً وسط الناس، وإنما يضيره بالغ الضرر أن يجهل قدراته الذاتية ومواضع كفاءته ، فيفقد ثقته بنفسه" .

١٥–٢٠ قال كونفوشيوس : "ينبغى للعاقل أن يخلف على الأرض اسمًا طيباً بعد موته (أن يتدبر سيرة صالحة يتداولها الناس بعد موته!)" .

١٥-٢١ قال كونفوشيوس: "العاقل المهذب، يفرض على ذاته التزامات قاسية، ويطالب نفسه بالكثير، بينما الجاهل الدنيء يفرض على الآخرين ما لا يمكن تبريره، ثم يجأر بالشكوى والتذمر في كل مكان!" .

١٥-٢٢ قال كونفوشيوس : "العاقل ثابت الجنان، مهيب الجانب، مع لين طبع وسماحة صدر، يخالط الناس، كل الناس، لا ينعزل ولا يتخذ عصبة أو جماعة ولا يتحزب مع نفر دون آخرين" .

١٥-٢٣ قال كونفوشيوس : "المهذب، العاقل، لا يحابي منافقًا ذرب اللسان، فيبذل له المال والجاه بغير حق، كما أنه لا يذل رجلاً تكلم بالحق، حتى لو كانت الكلمات ثقيلة، غليظة" .

١٥-٢٤ جاء "تسيكون" إلى كونفوشيوس : ، وسأله : "ألا تدلني يا سيدي على كلمة تهديني على مدى الأيام؟ " فأجابه المعلم، قائلاً : إنها كلمة "الرحمة" بمعناها الواسع ! إذ لا ينبغي أن نضع على كاهل الآخرين، ما لا نحتمله نحن من أعباء" .

١٥-٢٥ قال كونفوشيوس : "ليس من عادتي أن أذم أحداً من الناس أو أمدحه بغير داع، فما مدحت أحداً إلا إذا كان تفوقه ومثابرته جديرين بذلك، فهناك دائمًا الاختبارات والقواعد المحايدة التي تحدد درجة استحقاق التفوق، ولست وحدي المبتكر لهذه (المعايير!) وإنما كان الحكام السابقون في الأسر الإمبراطورية الثلاث : "شيا، شانغ، چو"، هم الذين ساروا على هذا المبدأ فدانت لهم الشعوب بالطاعة، وحسنت سيرتهم في الناس" .

١٥-٢٦ قال كونفوشيوس : "كثيراً ما صادفت في كتب التاريخ مسائل تثير التشكك أكثر مما تقود إلى التسليم بصدق المرويات، من ذلك مثلاً:

(تقرأ ما مفاده :) أن "الرجل الذى كانت عنده خيول كثيرة، لم يكن يبخل ببعض منها على[٨٨] جاره الذى لا يملك منها شيئًا ..." (وهو الأمر الذى ما عاد قائمًا اليوم!)" .

١٥- ٢٧ قال كونفوشيوس : "إن كلمة مدح بسيطة (مجاملة أو نفاقًا) قد تفسد صرحًا هائلاً من الأخلاق، ولربما لحظة تهور عابرة تخرب ما عمره الزمان بطوله" .

١٥ - ٢٨ قال كونفوشيوس : "مسألتان تستحقان المزيد من البحث والاستبصار: أن يكون المرء محبوبًا جداً أو أن يكون مكروها للغاية بين الناس" .

١٥-٢٩ قال كونفوشيوس : "إنها إرادة الإنسان هى التى تدعم الحق والإيمان (مبدأ "الطاو") وليس العكس" .

١٥-٣٠ قال كونفوشيوس : إن أفحش الخطأ هو ما لم يزل يقع فيه المرء بالتكرار دون محاولة جادة لتجاوزه أو تصحيحه .

١٥-٣١ قال كونفوشيوس : "هناك الكثير من الأمور والقضايا لا تجديها نفعًا كثرة السهر وعذاب التفكير المتواصل والتأمل المستمر ليل نهار، إذ ليس مثل التعليم والتحصيل والدرس وسيلة وهداية لكل ما استغلق فهمه أو تعذر الوصول إلى منطق أحكامه" .

١٥-٣٢ قال كونفوشيوس : "العاقل من شغل نفسه بالعلم والتحصيل، وتناءى قدر الإمكان عن مشاغل المأكل والملبس وزخرف الحياة، ولئن كان الزارع يملك الأرض والثمر، إلا أن الفيض والقحط، قدران مسلطان على الأعناق، أما طالب العلم فيرتقى مكانته اللائقة ، ووظيفته الرسمية (التى هى راتبه ومكافأته الدائمة!) فلا يليق أن يلهيه فقر أو غنى عن آفاق الغاية العالية الشريفة" .

١٥-٣٣ قال كونفوشيــوس : "اعلم أن الحكمة وحدها ان تمهد لخطـو طـريق أو تحكم قبضتك على زمام الحقيقة ، ما لم تجعل معها ، الرحمة والإحسان . واعلم أن الحكمة والرحمة في يد صاحب السلطة الرسمية، لن تغنيا عن الشدة والحزم ليسلس له قياد رعيته ، ثم إن الحكمة والرحمة والحزم والاستقامة بغير قواعد المعاملات الإنسانية يمكن أن تصبح جميعاً حكماً بغير حكمة وشرعاً غير مشروع !" .

١٥ - ٣٤ قال كونفوشيوس : "لا يعرف معدن الرجال إلا فى النازلات، فهى التى تسبر غورهم وتشد عزمهم" .

١٥ - ٣٥ قال كونفوشيوس : "هناك من يظنون أن الأخلاق والفضائل لون من الترف الفكرى، والحق أن الشعوب تحتاج إلى الفضائل كحاجتها إلى الماء والنار، أو ربما أشد قليلاً، وقد رأيت بعينى كوارث رهيبة بسبب فيضانات عاتية وحرائق متأججة، لشدة ما فاض من ماء أو لهب، ولكنى لم أر قط كوارث مفزعة نجمت عن مغالاة فى التمسك بالفضائل" .

١٥ - ٣٦ قال كونفوشيوس :"ليس هناك مقام أعلى من مقام الفضيلة، ولا حتى المعلم نفسه" .

١٥ - ٣٧ قال كونفوشيوس : "العاقل من يصرف جل اهتمامه إلى الإخلاص للمبادئ، ويترفع عن الصغائر كلما أمكن" .

١٥ - ٣٨ قال كونفوشيوس : "على من يعمل فى البلاط الملكى، تحت قيادة صاحب الجلالة، أن يضع الأولوية المطلقة للمسئولية الرسمية قبل أى اعتبار آخر، بما فى ذلك حق الحصول على الراتب النقدى المعين له" .

١٥ - ٣٩ قال كونفوشيوس : "الكل فى حق التعلم، سواء" .

١٥ - ٤٠ قال كونفوشيوس :"لا ينبغى على من ينتهجون انتماءات سياسية متباينة مذهبياً أن يتبادلوا التشاور والأفكار فى شئونهم المختلفة" .

١٥ – ٤١ قال كونفوشيوس : "الأساس الصحيح للغة فى كل مكان وزمان هو قدرتها على نقل المعانى بسلاسة ووضوح" .

١٥ – ٤٢ ذهب "شيميان" (أحد كبار الموسيقيين) إلى كونفوشيوس فى زيارة ودية، فاستقبله، وأخذ بيده وقربه إلى عتبات السلم (وكان شيميان كفيفًا مثل معظم الموسيقيين قديمًا!) وهو ينبهه إلى موضع الدرجات ليرتقيها، فلما وصل به إلى مقعده، أجلسه، فلما استقر جميع الحاضرين جلوسًا، أخذ كونفوشيوس يقترب من أذن ضيفه ويبلغه بأسماء الحضور وأماكن جلوسهم واتجاهاتها، ثم لما انتهت الزيارة، وغادر الجميع خارجين، راح زيجانغ يسأل كونفوشيوس : "لم تكلمت هكذا مع الموسيقى الضرير هذه الليلة؟ كيف تهمس له وتناجيه منفردًا هكذا ؟! فأجابه : "تلك هى الطريقة الملائمة التى تناسب فنانًا عظيمًا مثله!" .

الباب السادس عشر

"چيشى"

وجملته أربعة عشر فصلاً

١٦-١ كان "جيسون" (مسئول عظيم بمملكة "لوقو") يجهز إحدى الفرق لتشن حملة تأديبية على مقاطعة توانيو(٨٩)، فذهب كل من "رانيو" و"زيلو" للقاء كونفوشيوس، والتشاور معه بهذا الخصوص، فأجابهما بقوله: وأين كنتما عندما اتخذ هذا القرار؟ ألم تشجعاه على هذه الخطوة ؟ ! "وإنى لأحذركما من مغبة ذلك الطيش؛ فقد ظلت مقاطعة "توانيو" أرضًا مباركة منذ الأزل تحرس المعابد وتحمل على عنق هضبتها وصدر سفحها قرابين الشعائر ... إنها قطعة لا تتجزأ من أرض "لوكو" من قلب سادتها ومواطنيها، فلماذا تهاجمونها اليوم ؟ فأجابه رانيو : "ليس سوى الأمير جيسون هو وحده الذى يريد قتالها، أما نحن الاثنين فلا نوافقه على رأيه" . فقال له المعلم : "اسمع يا هذا، لقد قيل قديمًا: أعط يدك وقلبك لسيدك وأخلص لمسئوليتك، فإن لم تقدر فأجدر بك أن تستقيل" .

فما قولكما فى رجل ضرير أوشك على السقوط من أعلى الدرج، ومساعده المبصر يراه ولا يمنعه، فما الفائدة إذن من صحبته؟! وغدا عندما تدب الفوضى وتتحطم الجدران، وينفلت عقال الثيران الهائجة، فتنطلق فى الطرقات تدهس وتروع، غدا عندما ينكسر فص الجوهر

الثـمين وتبـهت الأصـداف ودروع السـلاحف، فـمن يا ترى يتـحـمل الأخطاء، ويعلن مسئوليته عما حدث ؟! "فأجابه رانيو" قائلاً : "(توانيو) منطقة حصينة، ثم إنها لا تقع بعيداً عن إقطاعيات آل جيسون، فإن لم يأخذوها اليوم، صارت قذى فى عين أحفادهم على مر الزمن" . فقال له المعلم : "اعلم يا رانيو أنه خير للمرء أن يصرح بأطماعه، ولو بلغت عنان السماء من أن يداريها بالحجج الواهية، وقد بلغنى أن العبرة ليست بشخص الحاكم، أميراً كان أو وزيراً، خصوصًا إذا ما ادلهمّ الخطب واشتد الخطر، وإنما العبرة ومدار الأمر بمن حكم فعدل، ووزع فأوفى كل ذى حق حقه. وليس يعيب مدينة سواء أزاد ساكنوها أم نقصوا، وإنما يعول على مقدار حظهم من الأمن والاستقرار ورغد العيش، واعلم أنه لا فقر مع قسمة عادلة بين الجميع ولا هوان مع سلام غامر ولا كرب مع نعيم مقيم، فإن تحقق ذلك فى وطن، عاد إليه مفارقوه، واجتمع إليه الحشد الحاشد، يريدون به الخير والاستقرار، أما وأنكما الآن تدبران أمراً مع جيسون تفوح منه رائحة الخطر، فلن يؤوب إليك آمن ولن يستظل ببلدكم مهاجر، فقد دققتم ساعة الهلاك والتخريب. وأكبر الظن أن هجومكم على "توانيو" ليس إلا حساباً قصير النظر، ورؤية مضللة، إذا إن مكمن الشر والخطر يأتى من قلب أميركم، من أعماق ضميره، وليس من أى شىء آخر" .

١٦ – ٢ قال كونفوشيوس: "عندما تدار أمور الحكم – بإخلاص ونزاهة، تصبح صناعة القرار الفعلية فى يد الإمبراطور، فهو الذى يملك أن يقرر كل ما يتصل بـ الإدارة، الإجراءات، الشعائر، والفنون، والجيش وكل الأمور المصيرية الكبرى ، أما إذا اضطربت السياسة الداخلية، ولعبت الأهواء، ودبت الفوضى، أصبح القرار الفعلى فى يد الأمراء وحكام المقاطعات، وحينئذ، تسقط سيادة الإمبراطورية فى غضون عشرة أجيال، فإذا تحولت سلطة القرار إلى كبار المسئولين سقطت مؤسسة

الحكم بعد خمسة أجيال، فإذا انتقلت سلطة القرار إلى الولاة والمحافظين ورؤساء المدن، تدهورت حال البلاد فى أقل من ثلاثة أجيال. إن سياسة واعية نزيهة، لن تتدنى أبداً لتقع فى يد كبار المسئولين، وسيكون فى استطاعتها حينئذ، أن تخرس ألسنة الفتنة، ويصبح فى مقدور الناس أن ينظروا إلى حكوماتهم بالمهابة والاحترام الواجبين" .

١٦ - ٣ قال كونفوشيوس : "لقد مرت خمسة أجيال كاملة منذ أن زال عرش دولة "لوقو" من قبضة الأباطرة العظام، ولئن كانت أسرة "جيسون" قد ورثت صولجان الحكم على مدى أربع حقب، إلا أن تفشى سلطة كبار الموظفين، لم تدع فائضاً من المجد والهيبة والنفوذ للأمراء الثلاثة خلفاء الإمبراطور "هوان"[٩٠] .

١٦ - ٤ قال كونفوشيوس : "خالط ثلاثة ينفعوك، واجتنب ثلاثة يضروك، خالط المستقيم الخلق، الشريف النفس، واسع العلم والمعرفة، واجتنب الخبيث، والمنافق ذا الألف وجه، والثرثار ذا المئة لسان الكذوب المتحدث بما لا يفقه!)" .

١٦ - ٥ قال كونفوشيوس : "يستحب في السعادة ثلاث : لذة الفن والموسيقى، ومتعة ذكر فضائل الناس، ورضا العيش فى جوار أهل الخير. وثلاث مكروهة فى باب السعادة، ألا وهى : الفخر الذى يدرك الكبر، والترف الذى يذهل العقل، والمعدة المتخمة ثراء ونعمة" .

١٦ - ٦ قال كونفوشيوس : "ثلاثة أمور لا ينبغى لعاقل أن يقع فيها، عند الحديث: التسرع فى قول بغير تبصر، فذلك طيش اللسان. والتوانى عن كلمة حق، فذلك عين التخاذل، وتجاهل وجه المتحدث وسيماه، فذلك هو التعامى بصراً وبصيرة" .

١٦ – ٧ قال كونفوشيوس : "ثلاثة يلزم للعاقل أن يضعها نصب عينيه ويطوى عليها أجفان الحذر البالغ وهى : الافتتان بالنساء عند ريعان الشباب وأول الصبا، والاعتزاز بتمام القوة عند اكتمال النضج، ونهمة الجشع وجمع المال عند فناء الهمة فى سنى الشيخوخة" .

١٦ – ٨ قال كونفوشيوس : "لا يكترث العاقل لشىء قدر اكتراثه لثلاثة أمور: ألا وهى : القدر، وصاحب النفوذ، وموعظة قديس . أما البليد الجهول فلا يخشى القدر إذ يجهله. ولا يهاب أميراً إذ لا يدرك قدر الماجد ومكانته، ولا يبالى بموعظة لأنه لا تردعه الكلمات" .

١٦ – ٩ قال كونفوشيوس : "الناس على أربع درجات، أولهم، مولود بالحكمة، وثانيهم لا يبلغها إلا بالبحث والدراسة، وثالثهم يقع فى المحنة، فيجتهد فى العلم، فيبلغ ذرا المعرفة، ومنهم من تعصف به المحن، فلا يزجره علم ولا تعظه تجربة، قد ختم على قلبه، فلا يبلغن مثقال حكمة، فأولئك هم أسفل درجة من الناس" .

١٦ – ١٠ قال كونفوشيوس : "ينبغى للعاقل أن يتدبر أمره فى تسع مسائل : أن ينظر فينفذ إلى الأمور بعينى بصيرته، لا بمجرد ناظريه، وأن يستمع إلى القول بوعى الفاهم وليس بإنصات الأذن، وأن يتخذ لملامحه مظهر الود، ويتحلى بسمت الوقار غير مبتذل، وأن يخلص فى قوله إذا حدث، وأن يتقن عمله، إذا ما شمر عن سواعده، فإذا صادف محنة فليطلب النصح فهو أزكى له، وليتدبر العواقب إذا غضب، فرب هفوة حنق جلبت بغضاء للأبد، ولينتبه إلى ما يشتهى فلا يمدن يدا إلى ما لا يحق له أن يمسسه" .

١٦ – ١١ قـال كـونفـوشـيـوس : "يقـولون إن هـناك من يسـعـون إلى الكمـال، ويتسـابقون إلى المجد فينفرون من الجهل والتخلف ويفرون منه فرارهم من خطر مـحـدق أو هلاك وشيك ... نعم ... قـد رأيت أناسًـا كـهـؤلاء وسـمـعت أقـوالا كتلك، ويقـولون أيضًـا بأن هناك من يعـتزلون الدنيـا والناس حـفـاظًا على مـبـادئهم وآمـالهم، وبأن بعض الناس يسلكون أشرف وأنبل السبل لبلوغ غاياتهم في مجال السياسة، وفي الحق، في أقوال تردد كثيرًا، ولكني لم أر أحدًا يسلك بها على أرض الواقع" .

١٦ – ١٢ كان الأمير "جين" بمملكة "تشيقو" يملك أربعة آلاف رأس من الجيـاد المطهـمة، فاق بهـا حدود الجاه والثراء في زمانه، فلمـا مـات انقضى أمره، كأنه لم يعش يومًا، أما الأميـران "بواي" و"شوتشي" فقد ماتا جوعًا بكهف جبلي مـهجور، تفضيـلاً للموت بشرف على حيـاة ذليلة، فبقى ذكرهما خالدًا في الأسماع من الأزل"(٩١) .

١٦ – ١٣ قال كونفوشيوس : ذهب "شنكانغ" إلى "بوييي" – ابن كونفوشيوس – وسـأله، قـائلاً : "ترى مـا الذى يخـصك به سـيدى من علم، وأنت تراه وتجلس إليه طوال اليوم؟ فأجابه "بوييي" : لا يخصني بشيء ذي قيمة، فـمـثـلاً ... كنت أمر ذات يوم في طريقي إلى بـعض شئوني، فناداني وسـألني إن كنت أحفظ شيئًا من الشعر فلما أجبته بالنفي قـال : "من لم يحفظ شيئًا من الشعر، خاصمته معاني الكلمات" . فما برحت حتى حفظت منه الكثير. وكنت في يوم آخر، أجلس قريبًا منه، فسـألني إن كنت تعلمت آداب المجاملة، فلما أجبته بالنفي، قـال لي : "من لم يتـعلم شيئًا من ذلك، ضل سبيل النجـاة" . فما تركت شيئًا من الآداب حتى تفقـهت فيه، ثم إني لم أتميز عن أحد إلا بـهاتين الموعظتين من المعلم، فمـا خصني بشيء غيرهمـا" . وعـاد "شنكانغ" إلى بيتـه سـعيدًا، يقول

لنفسه : "سألت سؤالاً واحداً. ففزت بثلاث إجابات تحوى معارف شتى، وعيت بها مغزى القصائد، وفائدة تعلم آداب المجاملات، وعلمت أن الفقيه الحكيم لا يحابى ولده أو يخصه وحده بشىء دون الناس" .

١٦ - ١٤ على الحاكم أن ينادى زوجته بلقب "فورن" : (السيدة الفاضلة) وعلى السيدة زوجة الحاكم (أو الإمبراطور !) أن تدعو نفسها : "البنت الصغيرة (تواضعًا ... يعنى !) وعلى العامة والأفراد العاديين أن ينادوها بلقب "جونفورن" (فخامة السيدة الكبرى !) فإذا كانت فى زيارة رسمية خارج البلاد، فعليها أن تدعو نفسها بلقب "كواشياوجون" (التابع الصغير !) أما مواطنو الدول الأجنبية فيلقبونها بـ "جونفورن" (فخامة السيدة الأولى) " .

الباب السابع عشر

"يانهو"

وجملته ستة وعشرون فصلاً

١٧ - ١ بذل "يانهو" كل جهده لمقابلة كونفوشيوس، إلا أن هذا كان يعرض عن لقائه، ثم انتهز فرصة ذهاب كونفوشيوس فى بعض شئونه خارج المنزل، فأرسل من حمل إلى بيته هدايا وولائم، فلما عاد المعلم وعرف بالأمر، وأدرك أنه مطالب بتقديم الشكر إلى "يانهو" عزم على الذهاب إليه، ثم أرسل من يراقب منزله، ليعلم بالأوقات التى يكون فيها "يانهو" خارج المنزل، وذلك لأن المعلم لم يكن راغبًا فى مقابلته وجهًا لوجه، فلما قام وقصد إلى داره، فإذا هو أمام "يانهو"، فكانت مصادفة الطريق هى التى جمعت بين الرجلين، ثم إنهما سارا معًا يتحدثان، وسأله يانهو : "أيكون الرجل عاقلاً فاضلاً إذا آثر الأمن والسلامة وبلاده تضطرم بالفوضى؟" وسكت كونفوشيوس ولم يرد بشىء، إلا أن السائل أجاب بنفسه، قال : "كلا ... فمثل هذا الرجل لا يمكن أن يعد عاقلاً أبدًا" . ثم سأله ثانية" : أيكون الرجل ذكيًا فطنًا وهو يضيع الفرص المواتية التى تمكنه من الوصول إلى منصب رسمى عالى المستوى؟ "وسكت للمرة الثانية، فأجاب يانهو بنفسه، قائلاً : "ولا هذا أيضًا، فالأيام تنقضى سراعًا، والزمن لا ينتظر أحدًا، وهنا لم يملك كونفوشيوس إلا أن يرد عليه بقوله : "لا بأس، فأنا مستعد الآن للعمل بوظيفة رسمية(٩٢)" .

١٧ – ٢ قال كونفوشيوس : "الطبيعة البشرية مشتركة ومتشابهة من حيث الأصل وليس سوى العادات والتقاليد البيئية المختلفة، هى التى شقت من جذورها أصولاً وفروعًا وألوانًا متباعدة" .

١٧ – ٣ قال كونفوشيوس : "إن من السمات الغريزية، والطبائع الفطرية، بما فيها الذكاء الخارق أو الغباء المفرط، تلزم حد التمكن والثبات، بما يستحيل معه تغييرها أو تعديلها، مهما كانت الوسائل" .

١٧ – ٤ ذهب كونفوشيوس بصحبة مريديه إلى مدينة "أوتشن"، فلما دخل المدينة إذا بموسيقى التراتيل تصدح فى الأجواء، فتهلل المعلم، وقال لمن حوله : "منذ متى كانت المدن الصغيرة، مثل مدينتكم هذه تحتاج إلى تعلم الفنون والشعائر ، فتلك أمور لا تهم إلا الممالك الكبرى! (حرفيًا : ما الداعى إلى استخدام سكين مذبح الأبقار لذبح دجاجة هزيلة!) فبلغ ذلك "زايو"، فقال له : "يحضرنى يا سيدى قولك ذات مرة من أن تعلم الفنون، يلين جانب الملوك، ويشيع روح الطاعة بين المحكومين" فليس هنالك عيب إذن فى تعلم الفنون. كما ترى، فعندئذ، التفت كونفوشيوس إلى تلاميذه وقال : "أيها السادة، اشهدوا أن ما قاله "زايو" هو عين الصواب، فما قلت قولى الأول إلا على سبيل الدعابة" .

١٧ – ٥ اتخذ "كونشيان فوراو" من مدينة "فاى" قلعة العصيان والتمرد على نظام حكم أسرة "جيسون" الملكية، وأرسل إلى كونفوشيوس يرجو لقاءه فى أمر مهم، فأعد المعلم السفر إليه فبينما هو يتأهب للمضى، إذ قابله "زيلو" وصرح بما يساوره من شك فى هذا الموضوع، وقد أظهر له الاستياء البالغ، ونصح لكونفوشيوس بعدم الذهاب، وقال له : "ما الذى يحملك على مشقة كهذه ، وما الذى تجنيه من ذهابك إلى واحد مثل "كونشان؟" . فأجابه المعلم قائلاً : "وما يدريك أنه يحتاج إلى من يمد له يد العون، فلعله يقصد إصلاح الأمور، وإلا ما كان أرسل فى

طلبى، ومن جانبى، فلا أريد أن أتقاعس عن الالتزام بإحياء المبادئ العظيمة المتمثلة فى جملة الفضائل والآداب الموروثة عن دولة "جوقو" الغربية" .

١٧ – ٦ قصد زيجانغ إلى كونفوشيوس، وسأله عن الإحسان، كيف يكون، فأجابه : "هو أن يتحلى المرء بخمس خصال طيبة فى آن واحد" . فعاد السائل يسأل : "فما هى تلك الخصال؟" فذكرها له قائلاً : "التواضع، والكرم، والإخلاص، والعزم، والرأفة، إذ لا يهان من تواضع، ولا يستغنى عن الكريم، وأما المخلص فدائمًا أهل للثقة، وصاحب العزم يسلك بالنجاح كل طريق، والعاقل الحليم يأمر فيطاع، وتنقاد له السواعد والقلوب ثقة وعرفانًا" .

١٧ – ٧ أرسل "بيشى"[٩٢] يستدعى كونفوشيوس، فلما تجهز للذهاب إليه جاءه زيلو، وقال له : "ألست أنت القائل بأنه ليس من الحكمة الذهاب إلى موطن يموج بالفوضى والمؤامرات؟ فكيف يستقيم ذلك مع ذهابك إلى بيشى وهو ضالع فى مؤامرات ضد "جونمو" ؟ فأجابه، قائلاً : "أما المقولة فأنا صاحبها، وأما عن الأمر الثانى فكنت أنا أيضًا القائل بأن الصلب لا يثنيه دأب المطارق والنقاء الأصيل لا تكدره الشوائب، فكيف تخالنى أقع فى مكيدة ليس لمثلى أن يغفل عن أحابيلها ! أتراك تصدق أن أجعل من نفسى أضحوكة بكل هذه السهولة؟!" .

١٧ – ٨ تحدث كونفوشيوس إلى "جونيو" فقال له : "أما سمعت عما بين الخصال السبع وقرائنها من علاقة وثيقة؟" فلما أجاب بالنفى. قال له : اجلس، واسمع، فالإحسان بغير هداية من العلم يوقع بالمرء صيداً سهلاً فى أحقر المكائد، والذكاء بغير علم، رعونة وطيش أخرق، والإخلاص بغير

علم تهلكة للنفس بالانقياد السهل لمزاعم النوايا النبيلة. والخلق القويم بغير علم، يضع فى فم الرجل المهذب لساناً كَذَنَبِ الحيات، يريد أن ينصح فيلدغ (يؤذى حيث يريد النفع !) والشجاعة بغير علم، طريق قصير إلى التمرد والعصيان. أما العزم الراسخ بالثقة الصلبة فى غيبة أضواء واعية بهدى من العلم والتنوير، فليس إلا الضمان المؤكد والمقدمة المعهودة للوقوع فى مخاطر النزق المتهور والتخريب الدامى" .

١٧ - ٩ قال كونفوشيوس : "لمريديه : "لم لا تقرأون كتاب "الشعر القديم؟" (كتاب القصائد !) أما علمتم أن الشعر حافز الخيال ومنبت الوعى الأصيل، ورباط الود الحميم، ثم إنه مرعى البلاغة والعبارة النافذة، فكتاب الشعر منهل رائق بالعرفان والمودة لكل ذى رحم، وقطف دان بالولاء فى شريعة الحاكم والمحكوم، ومعجم ما استعجم من أسماء الطيور ونادر الأعشاب والنبات" .

١٧ - ١٠ قال كونفوشيوس : لـ "بوياى" : "هل قرأت الفصل الأول والثانى من "كتاب القصائد" ؟ أما علمت أن من جهلها انغلقت عليه أبواب الفهم كلها وغمضت عليه أوضح الدروب والمسالك" .

١٧ - ١١ قال كونفوشيوس : إن الدلائل الحقيقية للطقوس والعبادات الدينية لا تقتصر على القرابين والنذور المقدسة، ولا ينحصر معنى الموسيقى فى ظاهر الأداء المجرد للإيقاعات اللحنية ونغمات الأصوات ... (فتأمل باطن الدلائل فى كل ذلك!)" .

١٧ - ١٢ قال كونفوشيوس : "مثل الرجل جبار الوجه، جبان القلب، لو استعملنا التشبيه اللائق من دنيا الجريمة واللصوصية، كمثل السارق المتسلل خفية من الطيقان والنوافذ" .

١٧ – ١٣ قال كونفوشيوس : "ليس أخطر على الفضيلة من امرئ لا يفرق بين الحق والباطل" .

١٧ – ١٤ قال كونفوشيوس : "ليس من كرم الأخلاق، ترويج الشائعات واللهج بالقيل والقال" .

١٧ – ١٥ قال كونفوشيوس : "إياك ومحاباة الأوغاد (فى أمور العمل الرسمية)؛ فأعينهم تلمع بالحرص على أرفع المناصب، وهم خارجها، وقلوبهم تشتعل لهفة على مكاسب أيديهم، خشية فقدانها؛ فلذلك كله، لن يتورعوا عن اقتراف كل أنواع الدنايا لتحقيق أغراضهم" .

١٧ – ١٦ قال كونفوشيوس : "(متهكمًا) : لكل زمان أهله وخصاله، فلئن كان يعيب الحمقى، فيما مضى ألسنتهم الفاحشة، فقد صاروا فى أيامنا فجار اليد واللسان، وكأن الأشراف الأماجد قبلنا تيجان من الرفعة والمهابة والإجلال، فأصبحوا اليوم عتاة جرم، سود أكباد، تجمعهم مكيدة وتفرقهم فتنة (ناهيك عن ذلك كله !) بل وحتى البلهاء، كانوا بالأمس سراويل ممزقة وأفواهًا تسيل بالمخاط، وها هم فى أيامنا، سادة فنون الدهاء والخديعة والاحتيال" .

١٧–١٧ قال كونفوشيوس : "من يتظاهر بملامح العطف، وهو ينثر من معسول الكلام، لا يمكن، بأى حال، أن يكون شريف الأخلاق، صادق المودة" .

١٧–١٨ قال كونفوشيوس : "ما أبغضت شيئًا قط، قدر استبدال اللون البنفسجى باللون الأحمر[٩٤] (المجيد !) ولا كرهت شيئًا مثل إفساد الموسيقى (الكلاسيكية) الملكية، بصخب الموسيقى الفلكلورية (الهادرة بغير ذوق!) ولشد ما عافت نفسى التحايل بسحر البيان وسر البلاغة لقلب منطق الحقائق" .

١٧ – ١٩ قال كونفوشيوس : "ما عدت أريد أن أقول شيئًا بعد اليوم!" فرد عليه تسيكون قائلاً : "وإذن، فكيف لنا نحن تلاميذك أن نحدث عنك ؟!" فأجابه المعلم: "وهل تحدثت السماء بشيء (منذ متى كان للأقوال قيمة!) فدورات الفصول الأربعة تترى فصلا فصلا بحسب قانون أزلي، والوجود كله بالحياة والحركة المنتظمة والدائبة، فالأفعال إرادة من السماء، أبلغ من أي قول" .

١٧ – ٢٠ جاء روباي[٩٥] يريد لقاء كونفوشيوس، فقيل له إن المعلم مريض يلازم الفراش، فلما سار الرجل مبتعداً إذا بالمعلم ينهض قائمًا ويعود إلى قيثارته، ثم أخذ يعزف ويغني بصوت جهوري، متعمداً أن يسمعه "روباي" ويدرك أنه بصحة جيدة. أما لماذا تصنَّع كونفوشيوس المرض، فلأنه لم يكن يرغب في لقاء رجل يجهل مبادئ المعاملات وأصول الزيارة المنزلية اللائقة [قيل بأن "روباي" كان يسيء الأدب مع رؤسائه، ويغلظ في القول مع كبار السن!] .

١٧ – ٢١ جاء زايو إلى كونفوشيوس وتحدث إليه في موضوع طقوس الحداد على الوالدين المتوفيين، وقال : "تنص المبادئ العامة على أن تستمر فترة الحداد على من مات من الوالدين أحدهما أو كليهما مدة ثلاث سنوات وفي رأيي فهي مدة طويله جداً (لها تأثيراتها السلبية) فإذا انقطع الطالب عن دراسته ثلاث سنوات، كان ذلك كفيلاً بتعطيله عن تطبيقاته المعرفية المفيدة، وإذا توقف العازف عن ضرب الأوتار ثلاث سنوات، تباعد عن حسه النغمي المرهف، واختنقت النغمات في عنق قيثارته، ثم إن مدة طويلة كهذه، يمكن أن تأتي على أطنان القمح في المخازن، بينما يذبل العود وتجف السنابل تحت حصاد البيادر (فلا

مخزون عندئذ ولا حصاد) أفلا يكون من الأنسب أن تقتصر مدة الحداد على عام واحد فقط؟ "فأجابه كونفوشيوس : "أيطاوعك قلبك ويهنأ عيشك إذا شبعت أرزًا وقمحًا وتنعمت في الديباج الملون قبل أن تكتمل ثلاث سنوات على وفاة والديك؟ "فأجابه : "نعم، لا أجد غضاضة في ذلك. "فقال له المعلم : "إذن فافعل ما بدا لك، والحق، أن الماجد المهذب لا يجد في العسل (أثناء الحداد) إلا مرارة العلقم، ولا يسمع في الموسيقى إلا الشجن، ولا يرى في نعيم الحياة إلا لهوًا وضلالاً بعيدًا، فلذلك (يطوى نفسه في إزار حداده) طوال ثلاث سنوات . أما وأنك لا تجد من تلك الحال شيئًا في نفسك فلا بأس عليك أن تقتصر على عامٍ واحد فقط" . فلما قام زايو وخرج، نظر المعلم إلى الحاضرين، وقال : "ما أقسى قلب الرجل المدعو زايو ! يستكثر حداد ثلاث سنوات على الوالدين، ألا يعرف أن المولود يبقى لصيقًا بصدر والديه ثلاث سنين كاملة من حياتهم ! أيعز عليه أن يبذل سنوات ثلاثًا من الوفاء مقابل ثلاث أُخَر أعظم وأكبر من الشقاء والحب والتفاني" .

١٧ - ٢٢ قال كونفوشيوس : "بعض من يجلسون طوال اليوم، كسالى لا يقومون إلا إلى الطعام، شأنهم الوحيد هو أن يملأوا بطونهم، فهؤلاء والعدم سواء . أفلا يبحثون عن شيء يفعلونه ؟! إن تزجية الوقت بلعب الشطرنج أحيانًا، وإلقاء النرد، أحسن كثيرًا من القعود بلا عمل" .

١٧ - ٢٣ جاء زيلو إلى كونفوشيوس، وسأله : "هل الشجاعة من الفضيلة؟!" فأجابه قائلاً : "العاقل المهذب يجد الأخلاق اسمى الفضائل وأعظمها جميعًا، فالشجاعة بغير أخلاق، تحث الماجد الشريف على التمرد والعصيان، وتدفع الدنيء الحقير إلى السرقة والاغتصاب" .

١٧ - ٢٤ جاء : تسيكون" إلى كونفوشيوس، وسأله : "هل يعرف المهذب مشاعر الكراهية، وهل يدخل البغض قلبه؟ "فأجابه : "نعم فهو يكره من

يشـهرون بأخطاء الناس على قارعة طريق ويبغض من ينسبون التهم إلى رؤسـائهم زورًا وبهتـانًا، وكذلك كل من لا تردعهـم المبادئ، كمـا أنه لا ينفر من صلف متـغطرس يباهـى بالعناد والتعـالى فوق مـا سـواه" .
وسكت كـونفـوشـيـوس ثم دار بالسـؤال علـى سـائله، قـائلاً : "فـأنت يا تسيكون، مـاذا تكره؟ "فـأجابه : "مـا كرهت فـى حيـاتـى مـثل الأعيـان، ينسبون إلى أنفسهم فضلاً ليسـوا أهله، وكرامة ليسوا أربابها، ولا أبغضت قط مثل الحمقى الذين يخلطون بين الشجاعة والطغيان، وأيضًا السفلة الحريصين على فضح أسرار الناس بغير وازع من خلق أو ضمير" .

١٧ – ٢٥ قال كونفوشيوس : "أصـعب من يمكن التـعـامل مـعـهم فى الدنيا هـم : النسـاء وأرذل الرجـال، لأنك إذا اقـتـربت منهم شـتـموك وإذا ابتـعـدت عنهم، اتهموك بالظلم والقسوة والتعالى" .

١٧ – ٢٦ قال كـونفـوشـيـوس : "إذا بقى الرجل مكروهـا وسط النـاس، حتـى بعد بلوغـه الأربعـين من عـمـره، فلن يسـتطيـع أن يكسب مـودة أى إنسـان، حتى لو عاش آلاف السنين بعدها" .

الباب الثامن عشر

"ويتس"

وجملته أحد عشر فصلاً

١٨ – ١ كان الملك "تشو" أحد حكام أسرة "يين" – قد سار بالظلم والطغيان فى أواخر سنى حكمه، ففارقه أخوه "ويتس" وصار شقيقه الآخر "جيتس" مرذولاً محتقراً حتى نزل إلى درجة العبيد، وقتل عمه "بيكان" فى ظروف غامضة، وكان هذا الأخير شديد المعارضة له والتذمر على سياسته، ثم إن كونفوشيوس، قال : " ما أعظم الرجال الثلاثة الذين عاشوا على السنوات القلائل الأخيرة من عهد أسرة "يين" (٩٦) .

١٨ – ٢ لطالما أقصى القاضى "هويليوشيا"(٩٧) عن منصبه، برغم أنه كان جواداً ممدوحاً، عادلاً، لا يظلم فى أحكامه، ولا يحابى ذا سطوة أو نفوذ، فلما جاءه من نصحه بالرحيل عن مملكة "لوكو" استغرب وأجاب قائلاً: "لا ينال العادل إلا سخطاً أينما حل بمكان، فمن سلك بالحق غرم، ولئن سهلت على المرء المداراة وهانت عليه المبادئ، فلا معسر له فى أرضه، فلا يلجئه شيء إلى الهجرة وعذاب الترحال" .

١٨ – ٣ تحدث الأمير "جينغ" – بمملكة تشيقو عن الكيفية التى سيعامل بها كونفوشيوس إذا ما ولاه منصباً بالبلاط الملكى، فقال : "سنحتفى به ونحيطه ببالغ الاحترام والتقدير، ولكنا لا نستطيع أن نعامله بالطريقة التى حظى بها "جيسون جيونشى" على يد أمير "لوقو"، فتلك ذروة

الشرف وسنام المجد العالى العظيم "الذى لا يبلغه أحد سواه، وبالطبع فلا نضمن له أن يتساوى بمن هم فى مرتبة أدنى، مثل منغسون شى فقصارى ما نجود به عليه، أن نجعله فى منزلة بين المنزلتين. ثم إنه أضاف قائلا: "أما وقد بلغت بى الشيخوخة ما ترون، فلا أظننى بحاجة إليه" . فلما بلغ كونفوشيوس هذا القول، قام فغادر مملكة "تشيقو" على الفور" .

١٨ – ٤ أهدت مملكة "تشيقو" جوقة من المغنيات والراقصات إلى "جيسون شى" رئيس وزراء مملكة "لوقو" فقبل الهدية، وصار لا يفارقهن أيامًا، وهن يغنين له حتى أزغن عقله عن شئون الحكم وسائر مسئولياته الرسمية، فلما وجد كونفوشيوس الأمر على هذا النحو، قدم استقالته وغادر المملكة" .

١٨ – ٥ كان "جيو" واحداً من أولئك المثقفين (الفوضويين) الذين امتلأت بهم مملكة "تشيقو" ، وتصادف أن رفع عقيرته بالغناء ذات يوم بينما كونفوشيوس يمر بمركبته حذاء الطوار، فسمعه وهو يتغنى بهذه الأبيات : "حدثينى ...

عنقاء الزمن الردىء

لماذا انمحت الأقمار ؟

لماذا ... صوت الفضيلة

ما عاد يشجينى ؟

والماضى ... لا يعود

لماذا

والغد الآتى

هل يدركنى قبل أن ...

لكن ...

كيف يجيء النهار،

والسادة الموظفون المغفلون ...

يغتالون ...

الصبح الباكر ... بأيديهم ؟ ! "

ثم إن المعلم نزل من المركبة، وقصد إليه ليكلمه، إلا أن "جيو" فى تلك الأثناء، كان قد مشى بعيداً واختفى وسط الزحام" .

١٨ - ٦ كان الرجلان "شانجيو وجينى" يحرثان أرضهما، إذ مرَّ بهما كونفوشيوس، وأرسل "زيلو" يسألهما عن الطريق المؤدى إلى معبر النهر، فلما اقترب "زيلو" منهما ، سأله "شانجيو" قائلاً : "من ذلك الرجل الجالس فى المركبة؟ (مشيراً تجاه المعلم) فأجابه : "هو كونفوشيوس" . فسأله الرجل ثانية : "أهو كونفوشيوس القادم من مملكة لوقو؟ فقال : "نعم هو بعينه" . فقال له : "إذن، فلابد أن يعرف الطريق بنفسه إلى معبر النهر". فلم يجد "زيلو" إلا أن يجرب مع الآخر، لكن هذا سأله بدوره : "من أنت؟" فعرفه زيلو بنفسه فسأله الرجل ثانية : أأنت تلميذ كونفوشيوس ؟ " ورد "زيلو" بالإيجاب، فقال له "جينى" : "وما تقول فى الفوضى التى عمت الدنيا كفيضان جارف ؟ هل تقدر أنت وأستاذك على تغييرها (إصلاح الأحوال المضطربة فى البلاد !) فما أراكما تسعيان فى البلاد إلا هرباً من عسف حاكم جائر ، أليس من الحكمة أن تأتيا وتفلحا الأرض معنا، هربا من وجه الحقائق الموجعة؟" وعاد

"زيلو" مسرعًا إلى أستاذه، فأخبره بما دار ، فأطرق المعلم حزينًا، وقال : "ليس أمامنا إلا هضبات وعرة، وسهول مغرقة، فإما وخز العشب الوحشى، أو مستنقع الجهل البشرى، فأين المفر؟! أما كان جديراً بحكومة مسئولة أن تسلك بالحكمة وتنشر بهاءها فى أرجاء الممالك تحت الشمس، فنمسك عن دعاوى التغيير والإصلاح!" .

١٨ – ٧ كان "زيلو" يطوف البلاد بصحبة كونفوشيوس، ثم إن المسير تأخر به عن ملاحقة أستاذه في بعض الأحيان، فبينما هو يجدّ في أثره إذ صادف شيخًا يعرج على عصاه وهو يحمل منجل الحصاد، فسأله زيلو : "هل صادفت أستاذى الجليل فى طريقك؟" فأجابه الشيخ : "كيف يستحق أن يكون أستاذًا جليلاً من وهنت أطرافه وانسحقت عظامه دون أن يعرف شيئًا عن الأرض، زرعها وحصادها، عشبها وأشواكها؟" ثم اعتمد على عصاه وهو يميل ليقطف بمنجله أعناق الأوراق، فانتحى زيلو جانبًا إكباراً وتحية له. ودعاه الشيخ ليقيم فى ضيافته أيامًا، فذبح وأولم له واحتفى به للغاية ونادى على أبنائه ليسلموا عليه، وفى اليوم التالى لحق زيلو بـ "كونفوشيوس، وحكى له ما حدث فعقب المعلم قائلاً : "هو رجل طيب من الزهاد الأبرار" . وطلب إلى زيلو أن يرجع إليه، ليتأمل أحواله، وذهب زيلو وبحث عنه فلم يجده، فعاد وقال لأستاذه : "ليس من البر أن يسلك المرء طريق الزهد فينقطع عن ديوان العمل ليقبع فى صومعة النسك والاعتزال، فليس من الحكمة أن نتجاهل أصول المعاملات التى استقرت بين السابقين واللاحقين، بين الشيوخ والشباب أو بين الحكام والمحكومين، فهى شرائع ونظم (مواريث حياة طبيعية!) ثم إن الاعتزال الشريف المتوسل بالكرامة والطهر والنقاء ليس فى حقيقته إلا هدمًا لأصول

المعاملات الإنسانية التى تستحق تدعيم أواصر الحب والاحترام والتفانى المتبادل بين أطرافها، وليس شغل المناصب الحكومية - فى جوهره - إلا تقريراً وتنفيذاً لتكافؤات مبادئ الحقوق والواجبات المستقرة بين كبار المسئولين، وصغار العاملين، ولطالما كنت أقول بأن مثاليتنا السياسية لن تجد طريقها إلى أرض الواقع أبدًا!" .

١٨ - ٨ من بين الذين اختاروا العيش فى عزلة تامة من المجتمع، عدد لا بأس به من الرجال، منهم : "بوياى" و"شوتشى" و"يوجون" و"آييى" و"جوجان" "وليوشياهوى" و"شاوليان" ولقد قال كونفوشيوس : "اثنان فقط من بين هؤلاء جميعًا، لم يبدلا عزمهما فلم يهنا ولم تمسس سيرتهما أية شائبة، هما "بوياى" و"شوتشى" ثم تكلم عن "ليو شياهوى" و"شاوليان قائلاً إنهما : "نكصا من مبادئهما وأساءا أبشع إساءة لسمعتهما مع أنهما لم يتجاوزا فى قول ولم يفرطا فى سلوك. "ثم تكلم عن "يوجون"و"آييى" فقال بأنهما : "أقاما فى العزلة طاهرى اليد واللسان، زاهدين فى متاع الدنيا؛ وأضاف قائلاً : "أما عن نفسى فأنا أختلف عن هؤلاء جميعًا (وأختلف معهم)، فليس هناك شيء مقبول تمامًا أو مرفوض كلية (صيغة التطرف ليست من الحكمة فى شيء، فهناك دائمًا الوسط المثالى والاعتدال المقبول !)" .

١٨ - ٩ أتى على مملكة "لوكو" زمان ردىء فسدت فيه الطبائع وانهدمت أركان الأخلاق والمبادئ، كما تراجعت الأذواق الراقية (الفنية) حتى إن كبار الموسيقيين هربوا من البلاد؛ إذ لجأ الموسيقار الكبير "تشى" إلى مملكة "تشيقو" وهرب موسيقار القصر الإمبراطورى الثانى "جان" إلى دولة "تشوقو"، وقصد موسيقار القصر الثالث "لياو" إلى دولة "تساى"، بينما

هرع الموسيقار الرابع "تشيوى" إلى مملكة "تشين" هذا وقد لجأ كثير منهم إلى العزلة والمنفى الاختيارى، إذ قصد العازف البارع "فانشو" إلى وادى النهر الأصفر وأقام فى عزلة أبدية، ذهب ضارب الدف "أوو" (WU) إلى وادى نهر الهان فاعتزل فيه، ثم إن كلاً من يانغ - ثانى أكبر الموسيقيين فى المملكة - "وشيان" - عازف الإيقاع الشهير - ذهب كلاهما وأقاما بأحد الأكواخ الخشبية القديمة عند حافة النهر ، إمعانًا فى العزلة[٩٨] .

١٨ - ١٠ قال "جوكونغ" لولده وهو يقدم له النصائح : "إياك ومخاصمة ذوى رحمك، وحذار أن تهمل شأن وزرائك ورجال دولتك وتوغر صدورهم ضدك، ولا ينبغى لك أن تستصغر هيبة أصدقائك ووزرائك القدامى، إلا من اقترف آثامًا مهولة، ولا تحاسب عمالك بمعيار الكمال التام (لا تحملهم ما لا يطيقون!) .

١٨ - ١١ شهدت أسرة "تشو" الملكية ظهور ثمانية من أبرع رجال العلم، وهم، على التوالى : "بوداى، و"بوكو" و"جونتو" ، و"جوانهو"، و"شويا" ، وشيشيا"، و"جى سوى"، و"جيكوا"[٩٩] .

الباب التاسع عشر

"زيجانغ"

وجملته خمسة وعشرون فصلاً

١٩ – ١ قال : "زيجانغ : "ينبغي على المثقف الحقيقي ألا يتوانى عن أن يبذل حياته فداء لبلاده في وقت محنة وساعة أزمة، كما يتوجب عليه أن يترفع عن مغنم دنيء رخيص، وأن يتفانى في التضحية بأعز ما يملك (يظهر الخشوع عند تقديم القرابين إلى المعابد) وأن تأتي أحزانه صادقة، نبيلة ومواسية، إذا ما ألمَّ خطب أو نزلت نائبة" .

١٩ – ٢ قال زيجانغ: "كثير جداً من الناس يمرون عرضًا بطريق الفضائل والأخلاق، لكن قليلاً جداً من يثابرون على المسير قدمًا، وهناك آلاف مؤلفة تدخل في الأديان والعقائد، لكن نفرًا معدودًا منهم هو الذي يثبت عند حدود الإيمان" .

١٩ – ٣ ذهب أحد تلاميذ "زيشيا" إلى زيجانغ وسأله عن الصداقة بين الناس، كيف تكون وما الطريق إليها، فقال له زيجانغ : "فما قول معلمك في هذا؟" فأجابه : "قال لي أستاذي : صادق من يستحق صداقتك، وأعرض عمن لا يستحقها" .

فقال زيجانغ : "لكن ما بلغني عن أستاذك يناقض من تنقله عنه الآن، وعلى أية حال، فالعاقل من بذل الاحترام للكريم وللئيم، للماجد والفاسد معًا،

فهو يمجد العباقرة النابهين، ويتبسط مع الأميين الجهلاء (حرفيًا = يعطف على العاجزين والبسطاء) .

وقد يتساءل المرء أحيانًا بين نفسه : "هل أنا امرؤ تجتمع فيه خصال الفضيلة وحسن البصيرة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف أعجز عن احتمال الآخرين وفهمهم؟! أما إذا افتقد إلى كرم الأخلاق وصفاء الذهن، فمن الطبيعى أن ينفر الناس منى ... "فنحن لا نملك ترف الابتعاد عن الآخرين، لكنهم هم الآخرون الذين يقدرون على وضع الحدود الفاصلة بيننا وبينهم إذا شاءوا" .

١٩ – ٤ قال "زيشيا" : "لكل حرفة منافع وفوائد، حتى الحرف متواضعة القيمة لها، هى الأخرى، مهاراتها وتقنياتها الفريدة، وبرغم ذلك، فالطموحون والأذكياء لا يسعون إليها، فهى لا تساعدهم على الاقتراب من قلب القضايا المصيرية الكبرى" .

١٩ – ٥ قال "زيشيا" : "لا يقال إن المرء كثير الاطلاع، واسع المعرفة، إلا إذا استطاع أن يحصّل معارف جديدة يومًا بعد يوم، ويستبقيها نشطة حية فى ذاكرة قوية، ثم يراجعها مرة فى كل شهر" .

١٩ – ٦ قال زيشيا : "ادرس بعمق، وثابر على تطلعاتك، وأنصت وفكر واسأل عن كل ما يستعصى على الفهم، وناقش مشاكلك ثم ابحث لها عن حلول تناسب طاقتك، لتأتى بنتائج تطولها يدك، ففى ذلك تكمن قيمة الفضيلة والأخلاق والإنسانية جميعًا .

١٩ – ٧ قال زيشيا : "العمال فى كل أنواع الحرف، يبذلون جهدهم لإتقان أدائهم وإنتاجهم فى الورش الفنية ومواقع العمل، أما السادة المهذبون (هكذا فى المتن، حرفيًا !) فيطوفون بين شواطئ المعرفة يجمعون الحقائق (ثم يصبونها فى أنساق) طرائق بحث وقوانين ومناهج"(١٠٠) .

١٩ – ٨ قال زيشيا "الدنىء، الخطّاء، يجوب الأرض حتى أقصى أطرافها وربما يقضى عمره كله بحثًا عن أستار يدارى بها أخطاءه".

١٩ - ٩ قال زيشيا: "أي رجل مهذب، يترك لدى الناس ثلاثة انطباعات: مهابة ووقاراً (لمن يرونه عن بعد) ومشاعر دقيقة وطابعًا كريمًا (لمن يعاملونه عن قرب)، وجدية والتزامًا (فى كلامه، إذا تحدث)" .

١٩ - ١٠ قال زيشيا: "الفيلسوف العاقل هو الذى يعمل على التأكد من ثقة أتباعه به قبل أن يعرض عليهم المطالب والواجبات، وإلا تسربت إليهم مشاعر الظلم والغبن، كما ينبغى على الحكيم المهذب أن يضمن - بادئ ذى بدء - سعة صدر صاحب الجلالة، وحسن بصيرته، قبل أن يتوجه إليه بالرأى والنصحية، وإلا عدت النوايا الحسنة فى الصدور مكائد شرور تتربص فى طى الكتمان" .

١٩ - ١١ قال زيشيا: "لا يضير المرء أن يقع فى هنات من التجاوز، وهامش ضئيل من الخطأ الإنسانى المعهود، ما دام حريصًا على الالتزام بالإطار العام الصحيح للمبادئ الأخلاقية" .

١٩ - ١٢ قال زايو : "قد بلغنى أن تلاميذ "زيشيا" يجيدون تنظيف قاعات المطالعة وترتيب الأثاث وتزيين الجدران واستقبال وتوديع كبار الزوار، لكنها كلها أعمال تافهة يسيرة، فأين هم من دراسة الآداب والموسيقى والفنون الراقية. وسمعه زيشيا نفسه، ورد عليه قائلا: لقد جانبك الصواب يا سيدى، فالطريقة التعليمية المثلى يجب أن تراعى مبدأ الترتيب فى أساسيات التعلم: المقدمة العامة التى يجب أن يبدأ بها الدارس، ثم ما يلى ذلك من مراحل متتالية بالتدريج، وهو أشبه شىء (بدرجات اختلاف أصناف النباتات) فهناك نظام ثابت لا ينبغى المساس به ! ولعلى أقول بأن الأمر كله يحتاج إلى عبقرى أو حكيم زمان يقدر على وضع نظام تعليمى سليم ومتطور يتدرج فيه الطلاب من المقدمات الأولى إلى مصاف النتائج" .

١٩ – ١٣ قال زيشيا: "على العامل الذى يجد وقت فراغ أن يدرس ويتعلم أشياء جديدة، وعلى الدارس الذى يجد متسعًا من الوقت أن يستغل طاقته فى أداء وظيفة ملائمة"(١٠١) .

١٩ – ١٤ قال زايو "الجانب الأساسى فى إقامة طقوس الحداد على الميت هو التعبير الكامل والصادق عن الأسى والأحزان" .

١٩ – ١٥ قال زايو : "أستطيع القول بأن صاحبى وزميلى "زيجانغ" رجل عظيم نادر المثال، لكن ، بإنصاف لا يمكننى القول بأنه ملاك رحيم !" .

١٩ – ١٦ قال سنغزى : "لقد أخذ "زيجانغ" من ظاهر العلوم بحظ وافر، لذلك فقد بدا فى عين الناس مهيبًا جليلاً، لكن كثيرين يعجزون عن تقدير نصيبه من المشاعر والخصال الإنسانية" .

١٩ – ١٧ قال سنغزى : "لقد سمعت أستاذنا ذات مرة يقول : "يظل المرء رقيبًا مالكًا زمام مشاعره يضبطها بمعيار ويحررها بحساب معلوم، فلا تفلت منه أحاسيسه كاملة، ظاهرة (عارية) فياضة إلا إذا مات أحد والديه" .

١٩ – ١٨ قال سنغزى : "سمعت أستاذنا يقول : "كان – منجوانزى" أحد أمراء مملكة "لوكو" – شديد البر بأبيه، وهى خصلة يستطيع الكثيرون منافسته فيها، لكن الشىء الذى يعجز الآخرون عن أن يجاروه فيه هو إبقاؤه على النظام الذى أرساه والده وعلى الوزراء والمسئولين الذين عينهم فى مناصبهم أثناء توليه عرش البلاد" .

١٩ – ١٩ كان "منغشى" قد عين "يانفو" – أحد تلاميذ سنغزى – قاضيًا للقسم الجنائى، فذهب هذا الأخير إلى أستاذه "سنغزى" ليسأله النصح

والإرشاد، فأجابه المعلم قائلاً : "قد تسلط علينا حكام أضلوا الرعية وتقاعسوا عن توجيه الناس لما فيه الخير والحق والعدل، فكان من جراء ذلك أن مال قلب الشعب إلى الرذيلة ووقع فى حمأة الجريمة والفساد، فعليك ، لو قصدت إلى إظهار وجه الحق فى الاتهام، أو إذا أردت النفاذ إلى جوهر حقيقة الحال فى اقتراف الجرائم، فلا بد أن تتفهم دوافع المذنب وترق له، وتتعطف بحاله، و دع عنك زهو الفخر والخيلاء (متعللاً بالتوفيق فى إنقاذ الجدية والحزم بتطبيق الأحكام الواجبة والمستحقة !)" .

١٩ – ٢٠ قال تسيكون : "تناقلت كتب التاريخ سيرة الملك "جو" من أسرة "شانغ" الإمبراطورية، وقيل إنه كان طاغية جباراً، ولعل الرواية قد بالغت بعض الشيء، أو لعلها تجنت على الرجل وعلى الواقع معًا، والحق، أن الحاكم العاقل هو الذى يحرص على أن يورث التاريخ سجلاً طاهراً نقياً، وإلا فالسقوط من حافة التاريخ احتمال دائم، ومصير بشع ينتظر كل ملك راحل ، يلطّخ الأسماء الزائلة بالعار، ويصم السير الماضية بكل الصفات الرديئة التى عرفها بنو الإنسان"[١٠٢] .

١٩ – ٢١ قال تسيكون : "أخطاء العظيم وهفواته تبدو للناظرين فادحة، طاغية مثل كسوف شمسى هائل، وبالمثل أيضًا تظهر الإصلاحات، ويلمسها الجميع، وعندئذ تتكافأ مساحة الاحترام والتقدير مع حجم المراجعة والتصحيح" .

١٩ – ٢٢ ذهب " كونسن جاو" – موظف عظيم بدولة ويقو – إلى تسيكون وسأله : "من أين لأستاذك كونفوشيوس بكل هذا العلم الغزير؟" فأجابه، قائلاً : "أما عرفت أن ذخائر التراث التى خلفها الأباطرة "أون"، و"أوانغ" من

عهد أسرة "جو" ما زالت باقية خالدة على مر الزمان يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، فمنهم من يدرك مغزى الحقيقة فيها بما أوتى من روية فكر وذكاء بصيرة، ومنهم من يقف عند ظاهر المعانى (إيثارًا للدعة والراحة!) وطلبًا للسهولة، فلئن كان ذلك التراث رائجًا فى كل آن ومكان، فما الذى يجعل الوصول إليه عسيرًا على المعلم [يقصد كونفوشيوس] ولماذا ينبغى أن يقتصر طريق التعلم على أستاذ يلقن وإملاء تعليمى موجّه!" .

١٩ – ٢٣ حدث أن التقى "شوسونو" – موظف كبير بمملكة "لوقو" ، اسمه الأصلى "جوشيو" – بكبار المسئولين فى القصر الإمبراطورى، وقال لهم : "لقد وجدت "تسيكون" أغزر علمًا وأصدق حكمة من أستاذه كونفوشيوس" ثم إن "تسيفوجينبو" – موظف عظيم بالمملكة – ذهب وأبلغ تسيكون بذلك القول، فرد عليه هذا الأخير، قائلا له : "لو ضربت مثلاً للعلم والحكمة، بالسور الجدارى لمحيط بقصر إمبراطورى مهيب، لقلت بأن ذخائر حكمتي وعلومى تماثل جدارًا لا يزيد ارتفاعه على مستوى الكتف قليلاً، لذلك تستطيع عيون المارة وأبناء الطريق أن تلمح، من بعيد، بعضًا من أثاث القصر الداخلي وتصميم الغرف بمعمارها الهندسى الرائع، وزخارفها الفنية الجميلة، ومثل حكمة أستاذنا (كونفوشيوس) كمثل جدار هائل عظيم الارتفاع يحيط بقصر شاهق الذرا، أعناقه فى السحاب، فلا يكاد يُبين للمارة فى الطرقات شيئًا من الغرف والأسقف والواجهات والردهات الداخلية بمكنون ذخائرها المتنوعة، فليس لمعرفة ذلك سبيل إلا عبر المداخل والبوابات المهيبة، التى لا يتسنى الولوج منها فى الغالب، إلا للقليل جدًا من الزوار، فلا تعجب مما قال "شوسونو" (فاعلم هذا الأمر وتأمله جيداً !)" .

١٩ – ٢٤ قيل إن السيد "شيوسونو" افترى وشاية كاذبة ضد كونفوشيوس، فلما علم تسيكون بذلك، قال : "هى فرية كاذبة وتضليل لا طائل تحته، فليس كونفوشيوس بالرجل الذى تنال منه هذه (الأمور) فلو كان واحداً من الرجال العاديين ، لكان من الجائز أن يناله الأمر بسوء (فمثل هؤلاء كمثل وهدة يرتقيها كل عابر طريق!) لكنه قمر وضّاء وشمس غامرة، ولن يضير الأقمار والشموس ، ولن يفيدها كذلك، نسك الزاهد أو لهو العابث" .

١٩ – ٢٥ جاء "شانزى تشين" إلى "تسيكون" ، وقال له : "أراك تتواضع كثيراً مع أستاذك (كونفوشيوس) فى أدب جم واحترام ظاهر، أتراه يستأهل كل ذلك (أتراه أقوى منك علماً وفضلاً!) فأجابه : "لا يعرف الرجل إن كان عاقلاً أو جاهلاً إلا من كلمة تبدر عنه أو لفظة تشى بمكنون صدره ، فالعاقل المهذب من أمسك لسانه، أما عن المعلم، فلا أظن أن أحداً بيننا يستطيع أن يكون نداً له، ولا أظن أن من الحكمة أن يفكر أحد فى أن يبلغ حد منازعته مكانته السامية الرفيعة، فليس لعاقل أن يجرب ارتقاء أعناق السحاب بسلّم، وأحسب أن لو كانت مقاليد الأمور بيده (شئون الحكم) لحقق أمل الناس، وأصلح أحوالهم، وسلك بهم نحو الخير والسلام، فما يدع لهم نفعًا إلا اجتلبه، حتى يأتوه من كل صوب يأتمرون بأمره ويتآلفون صفًا ويداً وقلبًا واحداً، ثم إنه الآن ملء عيوننا يشرف بحياة مجيدة، وغداً تزهر ذكراه بعدنا على طول المدى، فأين أنا منه، وأنّى لى بمثل هذا (الشرف العالى الجليل!)" .

الباب العشرون

"يويا"

وجملته ثلاثة فصول

٢٠ – ١ قال الشيخ "ياو" للإمبراطور "شون" وهو يسلمه مقاليد الحكم فى البلاد : "... المقدور كائن يا صاحب الجلالة، وها أنت تخلفنى على العرش بإرادة السماء، فاحكم بالحق والعدل، واعلم أن وراءك رعية مغلوبة على أمرها، فارفع عنها البؤس والشقاء، وإلا زال عنك الملك والجاه الأفخم". ثم إن الإمبراطور شون، لما انقضت أيام حكمه أوصى خلفه الملك "يو" بالوصية نفسها. وكان الملك "دان" – أحد ولاة أسرة "شانغ" الملكية – يتقرب إلى السماء بصلواته ودعائه المأثور الذى يقول فيه : "لك (أيتها السماء) أزكى صلاة وأعظم قربان، وللرب ذى الملكوت أرفع عهدى وميثاقى، رب قد نذرت ألا أسامح ظالما (من العامة!) وألا أدارى سوأة جبار (من الوزراء والمسئولين) رب أدعوك ألا تؤاخذ الناس بذنبى، ولا تضرهم بما فرط منى سهواً وغفلة، رب فإن أخطأ أحد من شعبى، فعلى وزره، وفى عنقى ذنبه، فأنا المذنب والملوم".

وفى عهد أسرة "تشو" الإمبراطورية، كان الزمان رخاء وحظاً وفيراً لأهل التقوى والفضل والعلم من الناس، فنالوا ما لم ينله قبلهم أحد من الإقطاعات والألقاب والمناصب الرسمية الكبرى، وكان الملك "أوانغ" يردد على سامعيه ذلك القول : "لقد حرمت أهلى وعشيرتى الأقربين

وفضلت عليهم أهل التقوى والفضل والأخلاق، فأيما واحد من الناس اقترف إثمًا أو ارتكب فاحشة أو جريمة فأنا إذن المسئول" .

ولئن كان توحيد المقاييس والموازين ضمانًا لمعيار العدل، فإن تعميم النظم القانونية (المساواة فى الحقوق والواجبات) وإعادة الحقوق إلى أصحابها، ورد الاعتبار إلى المبعدين والنابهين (كل ذلك) لجدير بأن يقود الناس إلى الاقتناع والرضا والتأييد الطوعى بإرادة حرة، وينبغى أن يراعى مسئولو السلطة التنفيذية أربع نقاط أساسية ويضعوها نصب أعينهم، وهى : الشعب (عامة الناس)، والغذاء (توفير الغذاء) والدين (تقديم القرابين)، والتقاليد (إقامة طقوس الدفن) .

إن المعاملة الكريمة هى المصدر الأساسى للقبول والدعم الجماهيرى، والجد مع الدقة والمهارة هما أساس النجاح، كما أن العدل والعدالة أساس رضا الشعب وصادق إحساسه ببهجة (الكريمة)"[١٠٣] .

٢٠ – ٢ جاء "زيجانغ" إلى كونفوشيوس، وسأله، قائلاً : "ما هى الوسيلة المثالية الناجحة للقيام على شئون الحكم؟ "فأجابه : "بأن تسلك الخمس النافعات وتنبذ أربعًا فاسدات" . فسأله السائل عن الخمس الطيبات، ما هى؟ فأجابه المعلم : اعلم أن العاقل من نفع الناس ومنع عن نفسه، وإذا ساقهم إلى الكد احترز أن يحملهم ما لا يطيقون، وإذا عنَّ له مغنم أخذه بغير ظلم أو بطش" فإذا خرج الناس أبدى ثقة فى غير تكبر أو رياء ويعرفه الناس بسيماء الإجلال والمهابة دون غلظة، فهو يشمخ بأنف العزة كريمًا أبيًا ولا يحدق شزرًا بعين القسوة متجبرًا شقيًا، وسأله زيجانغ" : "كيف للمرء أن ينفع الناس ويمنع عن نفسه؟" فأجابه كونفوشيوس : "إذا وجهت الناس نحو أمور نافعة بطبيعتها وطلبت إليهم أن يبذلوا جهدًا مخلصًا واعدًا بنتيجة (نافعة) محققة، أفلا يعود ذلك بتمام النفع خالصًا من أية غاية ذاتية! ثم إنك إذا

فرضت عليهم أداء الأعمال فى أوقاتها (مواسمها) الطبيعية بغير ظلم أو إكراه فأنى لهم بالشكوى والتذمر؟! ولئن ألزمت نفسك بكريم الأخلاق واجتهدت بشرف المسعى ونبل الوسيلة، فبلغت غاية أملك فمن ذا يجسر على اتهامك بالأنانية؟

وإنى ناصح لك، فاعلم بأن المساواة بين الناس من خير الفطن، فلا تفرق فى المعاملة بين قوى وضعيف أو بين عزيز ووضيع، فتلك هى سبيلك إلى العزة والمنعة بغير رياء، ثم إن حسن المظهر والتأنق فى الملبس يضفيان على صاحب النفوذ لمسة من الإجلال، أفليس ذلك داعيًا إلى إشاعة روح التقدير فى نفوس العامة بغير داع للجوء إلى الغلظة والقسوة ؟ "وراح زيجانغ يسأله مرة أخرى : "فما هى الأربع الفاسدات إذن؟ "فرد عليه المعلم، قائلاً : إن الحكم (على الناس) بالإعدام، بغير سابق جهد فى توعيتهم وتنوير وجدانهم، يعد خسة ونذالة، والمطالبة بعاجل الإنتاج بغير سابق نصح وإنذار، لهو الطغيان بعينه، ثم إن التساهل فى تحديد المهام إلى حد التراخى، إذا أعقبه تعسف فى تحديد زمن وكم الإنجاز يعد غدرًا قبيحًا، وأخيرًا، فإغداق الوعود الكريمة مع التقاعس عن الوفاء بها، هو شر البخل والتقتير، فتأمل ذلك!" .

٢٠ - ٣ قال كونفوشيوس : "لا يصير المرء رجلاً فاضلاً إلا إذا وعى مغزى القدر. ولا يصبح مواطنًا صالحًا فى مجتمع إلا إذا فهم أصول الأعراف والتقاليد، ولن يقدر الإنسان - أى إنسان - أن يفهم الناس، إلا إذا عرف كيف يميز الحق من الباطل، الذى يقولونه بأفواههم .

الهوامش

(١) يحتوى كتاب "المحاورات" على عشرين بابًا، تتركب أوائل عناوينها من النطق الصوتى المجرد لأول كلمتين بالمتن الأصلى، أى على الطريقة التوراتية القديمة فى تسمية أوائل الأسفار بمفتتح آياتها .

(٢) **سنغ زى** : أحد تلاميذ الفيلسوف (٥٠٥ ق.م – ٤٣٦ ق.م) اسمه الأصلى سنشن، ولقبه "زايو"، اشتهر بفضائله وحسن أخلاقه، وينسب إليه تأليف كتاب "العلم الكبير" أحد الكتب الأربعة التراثية فى تاريخ الفكر الصينى القديم .

(٣) **زيشيا** : أحد التلاميذ (٥٠٧ق.م – ؟) اسمه الأصلى بوشانغ، وقد عمل لفترة ما حاكمًا عامًا لإقليم "جوقو" بدولة "جين" القديمة. اشتهر ببراعته فى الدراسات الأدبية، وأشيع أنه أول من دوّن مخطوطة "كتاب الأغانى" و"حوليات الربيع والخريف" وكلاهما من أهم كتب التراث الصينى .

(٤) **زيشين** : اسمه الأصلى شن كانغ، لقبه "زيكانغ"، لا يكاد يُعلم عنه شىء أكثر من ذلك فى ملفات التراث القديم.

(٥) **تسيكون** : أحد التلاميذ (٥٢٠ق.م؟) اسمه الأصلى "دوانموسى"، اشتهر بفصاحته وبراعة بيانه، حتى قيل " إن السماء منحته لسانًا ذهبيًا يقطر لؤلؤًا وياقوتًا.

(٦) **يوزى** : أحد التلاميذ (٥١٨ ق.م – ؟ اسمه الأصلى يوروا .

(٧) ربما شاع فى زمن كونفوشيوس اتجاه نقدى يرى الشعر بوصفه إبداعًا سلبيًا منافيًا للذوق والأخلاق، ثم جاء كونفوشيوس فدعا الشعراء إلى الالتزام بالصدق والجمال وسلامة التعبير والأداء مقابل النظم المبتذل الرخيص والمتنحى عن القيمة، من هنا كان التأكيد على "الطهر" فى كتاب الشعر القديم، وكونفوشيوس بجانب هذا كله يرى قيمة الشعر بوصفه أساسًا للتربية الوجدانية والأخلاقية، وفى تحليل تراثى للعبارة هنا، يخلص تأكيد الفيلسوف على صياغة فنية موجزة ترتكز على : المحتوى – الواقعية – الموقف الإبداعى. ويقال بأن تعليق كونفوشيوس هذا كان أول ما قيل فى تاريخ النقد الأدبى الصينى .

(٨) **ميثينز** : من أشهر رجال البلاط فى دولة "لوقو" ، كان يتردد على كونفوشيوس، ويستمع إلى محاضراته .

(٩) زايو : (٥٠٦ ف . م – ؟) أحد تلاميذ كونفوشيوس، اسمه الأصلى يانفان، اشتهر بعبقريته الأدبية وعمل لفترة حاكمًا عامًا لإقليم "أوتشن" فى دولة "أوقو" القديمة .

(١٠) **يو** (٥٤٢ ق.م – ٤٨٠ق.م) أحد تلاميذ الفيلسوف، اسمه الأصلي "زيلو"، اشتهر ببسالته وفروسيته، أصيب بطعنة نافذة، مات على أثرها، وذلك أثناء أحد الانقلابات الدموية بين صفوف النبلاء .

(١١) "**زيجانغ**" ... أحد التلاميذ (٥٣٠ ق.م – ؟) اسمه الأصلي توانسون شي .

(١٢) "**جيكانزى**" ... من رجال البلاط الحاكم، في عهد مملكة "لوقو" ، اسمه الأصلي، جيسون فاي،

(١٣) **هذه العبارة**، في حقيقتها، تكرار للعبارة رقم أحد عشر "الواردة في الباب الأول "شيواز" .

(١٤) **كونغ إيشانغ**، أحد تلاميذ كونفوشيوس، لقبه زيشانغ، وهو من مواطني دولة "لوقو" القديمة، كان يمت بصلة مصاهرة للفيلسوف، فهو زوج ابنته، وقد زعمت كتب التاريخ أنه كان غزير العلوم، حتى أنه أجاد لغة الطير.

(١٥) **زيجيان** (٥٢١ ق.م – ؟) اسمه الأصلي بوتشي، من مواطني دولة "لوقو" القديمة .

(١٦) **شيدياوكاى** : (٥٤٠ ق.م – اسمه الأصلي تسيكاى، من مواطني "لوقو"، اشتهر بأدبه الجم وأخلاقه الفاضلة.

(١٧) **منغ أويو** : أحد أمراء مملكة "لوقو"، اسمه الأصلي جونسوين تشي .

(١٨) **رانشيو** (٥٢٢ق.م – ٤٨٩ق.م) اسمه الأصلي "زايو"، عمل لفترة وزيراً في مملكة "لوقو" القديمة .

(١٩) **كوتفشي تشي** : اسمه الأصلي "زيهوا" من مواطني مملكة "لوقو" القديمة. اشتهر بإجادته شئون المراسيم والطقوس .

(٢٠) **بان هو** : (٥٢١ ق.م – ٤٩٠ ق.م) اسمه الأصلي "زيهوى"، من مواطني "لوقو" ، اشتهر بغزارة علمه وحسن أخلاقه، فلما مات، فجع كونفوشيوس بوفاته، وحزن عليه حزناً شديداً .

(٢١) **شن جان** : اسمه الأصلي "زيجو" لم يرد عنه الشيء الكثير في كتب التراث القديم .

(٢٢) **زيشان** : (؟ – ٥٢٢ ق.م) هذا هو اسمه الأصلي، ويدعى أيضاً كونون شياو ، تولى أحد المناصب الرسمية في بلاط مملكة "تشغو" .

(٢٣) **يان بين جونغ** : (؟ – ٥٠٠ ق.م) اسمه الأصلي "يانينغ" ، تولى منصباً رفيعاً في مملكة "تشيغو" .

(٢٤) **سان أونجون** : (؟ – ٦١٧ ق.م) اسمه الأصلي أونجون ، تولى منصباً وزارياً في حكومة مملكة "لوقو" .

(٢٥) **نينغ أوتسي** : اسمه الأصلي "نينغ يو"، مسئول عظيم بدولة "ويغو" .

(٢٦) **بويي، وشوتسي** : كانا شقيقين، أبوهما هو الأمير كوجو، أدرك أواخر سنوات حكم أسرة "شانغ"، وقد نصب الولد الأكبر "شوتسي" خلفا له، فلما قضى أجله، وافق شوتسي أن يتنازل لأخيه الأصغر عن العرش، ولكن هذا الأخير رفض بشدة، ثم إنهما، ذهبا فيما بعد ليحتميا بقصر "آل جو" وقد اتخذا موقفاً معارضاً إزاء الحملات التأديبية التي كان يشنها صاحب القصر ... الملك "جو" ضد أسرة "شانغ"، فلما قضى الملك على دابر تلك الأسرة، وهرب الشقيقان إلى كهف بجبل "شويان"، حيث امتنعا عن الأكل احتجاجاً ... وفضلا الموت جوعاً على أن يقربا الطعام الذي كان يأتيهما من القصر الملكي .

(٢٧) **ويشنكاو** : رجل اشتهر بالكرم، دون وجه حق يوجب ذلك .

(٢٨) **ران يونغ** : (٥٢٢ ق.م – ؟) اسمه الأصلى "جونكون"، من مواطنى "لوقو" ، من أسرة اشتهرت بالتواضع الجم .

(٢٩) **كون شيهوا** : اسمه الأصلى "زيهوا" من مواطنى "لوقو" ، اشتهر بإجادته لقواعد الأخلاق، ومعرفته التامة بشئون المراسم وأصول المعاملات الاجتماعية .

(٣٠) **يوانس** : (٥١٥ ق.م – ؟) يدعى أيضًا يوان شيان، اعتزل المجتمع بعد وفاة كونفوشيوس، وظل بقية حياته معتكفًا وحده فى بيته.

(٣١) **متيزيشيان** : (٥٣٦ ق.م – ٤٨٧ق.م) اسمه الأصلى مينسون، لقبه زيشيان، أحد تلاميذ كونفوشيوس .

(٣٢) **بونيو** : (٥٤٤ق.م – ؟) اسمه الأصلى راكنغ، اشتهر بين تلاميذ كونفوشيوس بالأخلاق الكريمة والأدب الجم .

(٣٣) **دانتا مينينغ** : (٥١٢ق.م – ؟) من مواطنى دولة "لوقو" – مقاطعة شانتونغ، بحسب التقسيم الإدارى لجمهورية الصين الشعبية حاليًا – ١٩٩٨ م – وكان برغم قبح منظره، طيب الخلق، مهذب السلوك .

(٣٤) ورد فى أحد فصول كتاب "سجلات تاريخية" رواية أخرى لتلك الحادثة، نصها : كان رجل يقيم بولاية أوتشنغ، وكان دميم الوجه، بشع المنظر، ثم إنه قصد إلى كونفوشيوس وصار واحداً من تلاميذه، وكان المعلم يزدريه، ولا يحسن النية به، فلما أتم زمنًا على يد أستاذه، تفقه فى العلم، وعاد إلى بلده، واجتمعت له صفات حسنة للغاية، فصار يترقى فى التحصيل والأخلاق، حتى قصدت إليه مواكب الطلاب، تسأله وتستفتيه، فذاعت شهرته وشهد الناس له بمكارم الأخلاق، وبلغ كونفوشيوس شىء فى هذه الأخبار، فقال : "إنها قد غلبت علىَّ جهالتى، فمن الخطأ أن يؤاخذ الناس بسيماهم" . وحسب سياق النص الأصلى المروى فى متن "المحاورات" وباستقراء ما توحى به عبارة "زايو" هنا، فالمرجع أن زمن الخطاب كان سابقًا على مرحلة إتمام "دانتاى" لدروسه، والعودة إلى موطنه .

(٣٥) **جاو** : أمير فى مملكة "سونغ" ، اشتهر بمكارم الأخلاق.

(٣٦) **جوتو** : كان مسئولاً عن إقامة طقوس العبادة فى قاعة المعبد الإمبراطورى إبان حكم دولة (ويغو) .

(٣٧) فكرة "السوقية" هنا تحتمل مداخل فكرية وسياقات تأويل متعددة، خاصة عندما يتعلق الطرح هنا بظلال تكتنف – فى قليل أو كثير – مجهود الإبداع الأدبى / أو النقدى، ولابد أن القارئ – ببداهة – سيعيد مقولات كونفوشيوس إلى منطق زمانها وارتباطاتها بظروف التراتب الطبقى الاجتماعى السائد فى زمانها. ولا يخفى على القارئ الكريم أن هذه النصوص وغيرها من عيون التراث الصينى القديم ، تعرضت – وربما ما تزال – لتقييم نقدى تجاوز حد التطرف أحيانًا ، على مدى سنوات شهدت أيديولوجيات استهدفت تأسيسات اجتماعية شاملة وجديدة، بطرح بديل فكرى أكثر انطلاقًا وتطوراً .

(٣٨) القاعدة الأساسية فى الفكر التربوى الكونفوشى، هى أن يكون التعليم بحسب الاستعداد الذهنى الطبيعى للدارسين، وكان المعيار الأساسى فى التقسيم يعتمد على ثلاث درجات أصلية، هى : "النابغون،

فالمتوسطون، فالمتخلفون، وفى أحد التأويلات، ورد معيار آخر يعتمد الاستعداد الفطرى لدى الدارسين، ينقسم إلى تسع درجات، كالتالى :

"أول الأول - متوسط - آخر الأول .

أول الأوسط - متوسط الأوسط - آخر الأوسط .

أخير متقدم - متوسط الأخير - آخر الأخير" .

أخير متقدم - متوسط الأخير - آخر الأخير" .

وأول الأول هو العبقرى الأشد ذكاء بالفطرة، وآخر الأخير هو النقيض لذلك، وعلى أساس هذا التقسيم يصير من الممكن تدريس العلوم المركبة شديدة التعقيد فقط للأنواع الأربعة قبل "متوسط الأوسط" .

(٣٩) **فانش** : (٥١٥ ق.م - ؟) أحد تلاميذ كونفوشيوس. اسمه الأصلى زيشى، من مواطنى دولة "تشيغو" .

(٤٠) **نانزى** : هى السيدة "لى"، إحدى أميرات أسرة سونغ الملكية، تزوجت من الدوق "لينغ" أمير مقاطعة "واى"، وقد اشتهرت السيدة نانزى بشبقها الجنسى الزائد، وعلاقاتها المشينة وفضائحها مع رجال القصر.

(٤١) "**ياو**"، "**شوان**"، "**يوى**" : ثلاثة أباطرة فى الصين القديمة، اشتهروا بالحكمة، وتروى سجلات التاريخ أن الإمبراطور "ياو" قضى ثلاث سنوات وهو يراقب الأمير "شون" ويفحص أحواله، قبل أن يختاره خلفًا له، وفعل "شون" الشىء نفسه مع خلفه "يوى"، وظلت تلك القاعدة تتوارث باعتبارها تقليداً أساسيًا فى ترشيح وتنصيب الأباطرة لخلفائهم على العرش، وهو التقليد الذى ذاع فيما بعد، تحت اسم : "مراسم تسليم التاج" .

(٤٢) **لاوتسى** : مفكر صينى، عاش فى نهاية فترة "الربيع والخريف" (٧٧٠ ق.م - ٤٧٦ق.م) وهو "مؤسس المدرسة الطاوية" .

(٤٣) "**بنغ زو**" شخصية خرافية .

(٤٤) **جوكونغ** : ابن الملك "أون" حاكم دولة "تشوغو"، ويعد المؤسس الأول لملكة "لوقو"، ويقال بأنه هو الذى وضع نظام الطقوس والشعائر لدولة "تشو" الغربية، كان كونفوشيوس يعده من أفضل حكماء الزمان .

(٤٥) فى المتن الأصلى، فإن كلمة "سوشيو" تقبل تأويلات كثيرة فى الصينية الكلاسيكية، منها : "ضفيرة شعر مزينة بقطعة من الحرير" أو القماش الملون، للدلالة على بلوغ سن النضج. وكان من المعتاد لمن بلغ الخامسة عشرة من الذكور أن يعقد هذه الضفيرة فوق رأسه. هذا، وهناك دلالة أخرى، مفادها : "قطعة كبيرة من اللحم المجفف" ... تقدم للمعلم نظير حصص درس خاص.

(٤٦) **هوان كوى** : ضابط عظيم بدولة "سون" كان يدبر لاغتيال كونفوشيوس، أثناء إقامة طقوس العبادات، وانكشفت المكيدة، وراح التلاميذ يستحثون كونفوشيوس على مغادرة المكان خشية تكرار المحاولة، فهدأ من روعهم وقال هذه العبارة .

(٤٧) كان مفروضًا - حسب التقاليد - أن تلقب السيدة "أومنغسى"، وهى السيدة الأولى فى مملكة "لوقو" حينئذ، بلقب "أوجى"، ومن ثم، فقد كان احتفاظها بهذه التسمية (أومنغسى) محاولة لحجب حقيقة اشتراكها فى اسم العائلة مع زوجها الأمير، والمقرر حينئذ هو أن يبطل مثل هذا الزواج، وإلا عد انتهاكًا فاحشًا لأعراف مستقرة وضوابط معلومة بالاتفاق الجمعى، فمن هنا كانت ملحوظة شن سباى "التى أمن عليها كونفوشيوس متحملا اللوم - بلباقة - ومفضلاً إياه على الخوض فى أمور شخصية تمس هيبة الأسرة الحاكمة .

(٤٨) **تايبو** : الابن الأكبر للأمير "دانفو" وهو الجد الأكبر للأسرة الإمبراطورية، المعروفة باسم : أسرة "جوكو" وكان للأمير ثلاثة أولاد : "تايبو"، "جوينونغ" "جيلى"، ثم إنه أوصى بالعرش لهذا الأخير، متخطيًا بذلك أخاه الأكبر "تايبو"، ورغم ذلك فقد وقف الأخ الأكبر إلى جوار الملك الجديد، أخيه الأصغر، احترامًا لوصية الوالد، وولاء لقواعد السلوك "شائع القربى، مظهرًا بالغ الود والاحترام، فمن ثم كان تعليق كونفوشيوس فى هذا الفصل .

(٤٩) **تسنغ زى** : (٥٠٥ ق.م - ٤٣٦ ق.م) من مواطنى أوتشنغ - مقاطعة شاندونغ حاليًا - اشتهر بولائه واحترامه للتقاليد الأسرية، ويُعْزَى إليه تأليف كتاب "العلم الكبير" .

(٥٠) **السيد "يو"** : المؤسس الأول لأسرة "شيا" الحاكمة، اشتهر بإصلاحاته الكبرى فى مجال الرى، ومشروعات مواجهة الفيضان.

(٥١) تظهر العنقاء بحسب ما ترويه الأساطير الصينية، فى أزمنة تسودها ملامح النهضة والتطور الحافل، مثلما يظهر أيضًا حصان مجنح على هيئة تنين عظيم يحمل على ظهره لوحة النبوءات الكبرى" .

(٥٢) **يان يوان** : هو نفسه "يان هوى" ... راجع هامش رقم (٢٠) .

(٥٣) كان المتبع حينئذ أن يقتصر اتخاذ الخدم والحشم على الوزراء وكبار رجال الحكم، وفى مناسبات كبرى، كجنازة أو غير ذلك كان ينصرف الاهتمام إلى إبراز الواجهة الاجتماعية للمتوفى، وبرغم شغل كونفوشيوس منصب "الوزير" فى فترة ما، إلا أنه اعتزل المنصب ورفض فكرة مرافقة الخدم والأتباع له، وهنا يعود ليرفض القيود الشكلية مرة أخرى .

(٥٤) المجاز هنا يشير إلى "المثقف الذكى العاقل" الذى يساوى قيمة "جوهرة كريمة" ، والمفاضلة تقوم بين أن يعتزل بكرامة أو ينخرط فى العمل العام، ويصبح طرفًا فى معادلة المثقف / السلطة .. تلك القضية القائمة أزلا .. وكونفوشيوس يفضل الخيار الثانى، على أن عنصر الحسم هنا، أو شرط المفاضلة، بوضوح هو معيار التقدير العادل، حيث تنتهى المبادلة بجوهرة ثمينة فى يد خبير عارف وبثمن مكافئ ... وتستقيم أطراف المعادلة كلها : بالرجل المناسب فى مكانه المناسب وبالتقدير الملائم تمامًا .

(٥٥) تنقسم القصائد فى كتاب "الشعر القديم" إلى هذين القسمين، وكتاب الشعر هو أقدم مجموعة من القصائد الصينية، وجمعها كونفوشيوس فحققها وصنفها، وأعدها بالشكل الذى صارت تطبع به وتوزع من بعده .

(٥٦) جرت العادة فى الصين قديماً، أن يصحب الوزراء ملوكهم أثناء حفلات تقديم القرابين "لروح الموتى"، فكان ينال الواحد منهم قطعة من اللحم المقدس، من باب المجاملة، ولما كانت الأعياد تستمر مدة يومين كاملين، فقد اضطر بعضهم إلى تناول حصته فى اليوم الثالث. وكان رأى المعلم أن اللحم يتلف ولا يصلح طعاماً آدمياً فوق ثلاث ليال.

(٥٧) هذا الفصل تكرار لما جاء فى متن الفصل الخامس عشر من الباب الثالث.

(٥) تتفق بعض التحليلات التراثية الصينية على صعوبة تقديم اجتهاد تأويلى واضح لهذا الفصل، لذلك فقد بقى، بألفاظه الحالية، مستعصياً على الفهم والشرح والتفسير لدى مختلف المدارس الكونفوشية، والسبب فى ذلك يرجع - تقريباً - إلى الأخطاء اللغوية الكامنة فى بنية المتن الأصلى، أو لتسرب بعض الألفاظ إلى هذا المتن، سواء : بالنقد - أو الحذف - أو الإضافة، أثناء عملية الإملاء .

(٥٩) **تشين**، و"ساى" مدينتان، كان كونفوشيوس أثناء تجواله بهما، قد فقد الأثر وضل الطريق، وكان تلامذته معه، ثم إن طعامهم نفد، وقاسوا أهوالاً، فلما اهتدوا إلى مملكة "لوقو" ذهب كل إلى وجهته، وشغلتهم الحياة. فمن ثم كان التلميح مشحوناً بـ (نوستالجيا) الحنين والتذكار.

(٦٠) القصيدة التى كان يرددها" نان رونغ" كثيراً هى قصيدة "باكوى" أو "الجوهر الكريم" وقد وردت فى كتاب القصائد، ومن أشهر أبياتها (التى تغنى بها نان رونغ) :

"لا عليك من حبة رمل

علقت بوجه ياقوتة زهراء

تلك ... أمور بسيطة

تلك كذبة بيضاء

قلها ... ولكن ...

حذار من كلمة قاسية .

مدببة ...قاتلة ...

فليس أقتل من حروف الكلمات" ...

(٦١) **توانسو شى** (٥٢٠ ق.م - ؟) اسمه الأصلى "زيشانغ"، تلميذ كونفوشيوس، من دولة "تشنقو" .

(٦٢) **بوشانغ** (٥٠٧ق.م -؟) اسمه الأصلى زيشيا، من مواطنى "جينقو"، عمل محافظا لمقاطعة "جوفو"، ويعتقد بأنه نقل وحقق الكثير من روائع التراث الصينى القديم عن كونفوشيوس مباشرة، من هذه الروائع : كتاب الشعر القديم:، و"حوليات الربيع والخريف" .

(٦٣) كان "رانشيو" وكيلاً لأعمال "جيسون"، وقد أراد هذا الأخير أن يزيد مقدار الضريبة المفروضة على الإقطاعيات، وأرسل "رانشيو" يسأل كونفوشيوس" النصيحة، فأجابه، ونصحه صراحة بأن يعدل عن الفكرة ، إلا أن رانشيو اتبع أهواء جيسون، ونفذ قرارات فرض الضريبة، فساءت أحوال الناس نتيجة

لتفاقم الاستغلال، فمن هنا، نبذه كونفوشيوس، وطالب تلاميذه بأن يطاردوه ليكشفوا أمره .

(٦٤) **كوتشاى** : أحد التلاميذ، كان قصيراً، ربعة، وبرغم غبائه الشديد، فقد اشتهر بإخلاصه ووفائه لأسرته.

(٦٥) **تسيكاو** : هذا هو اسمه الأصلى، وقد عمل حاكمًا لأحد الأقاليم التابعة لدولة "تشوكو" فى الصين القديمة. أحيانًا يلقب بـ "شن جولين" .

(٦٦) **سيمانيو** : من دولة "شونغ"، كان خطيباً مفوها ، صاحب بلاغة وبيان وفصاحة .

(٦٧) تعليق كونفوشيوس هنا يتعلق – على نحو خاص – بسلوك "سيمانيو" المشين فى أحاديثه، باندفاعه الزائد فى القول دون التبصر بالعواقب، فلما ذهب ثلاثة من التلاميذ وسألوا كونفوشيوس عن التسامح، قام "سيمانيو" وسأله مثلهم، وبالطبع فقد أعطى الفيلسوف لكل واحد إجابة تتجادل بطرافة وملائمة مع طباع السائل .

(٦٨) **يورو** : هو نفسه ... "يوزى" – أحد التلاميذ – ... راجع رقم (٦) من الهامش .

(٦٩) جاء فى نهاية المتن الأصلى لهذا الفصل، اقتباس شعرى من "كتاب القصائد" عبارة عن أبيات شعرية قليلة، تقص حكاية فتاة تزوجت وأقامت بمنطقة نائية مع زوج يحب التغيير، لمجرد الولع بالمظاهر وحب الاستعراض، مما أوغر صدر الزوجة ضده، الأبيات تقول :

كل ألوان الطيف بقلبك ...

قلب مطاطى،

لا يثبت، لا يفزع

لا يعرف إلا البغض لماضى السنوات

يئد أحلى الذكريات .

ويلهث ضراعة لليال وهمية

شعائر طقوس حجرية ... (إلخ ... إلخ) .

وقد ظلت هذه الأبيات لغزاً محيراً أمام المفسرين، وتميل معظم آراء النقد الكلاسيكى إلى اعتبارها نقلاً مشوهًا، أو خطأ فى ترتيب فصول المتن القديم، إذ لا تلتحم عضوياً بنص السرد السابق عليها .

(المترجم) .

(٧٠) هناك جملة أخرى ملحقة فى نهاية النص الأصلى، ترجمتها : "لقد عرفت "زيلو" زمنًا، فهو الرجل الذى لا يحنث أبداً بوعوده" . وكما هو واضح. فليست هناك رابطة منطقية بينها وبين جذر المعنى فى السرد الأصلى للنص، لذلك، يعدها بعض النقاد حشواً ارتجاليًا ناتجًا عن خطأ فى التبويب القديم.

(المترجم) .

(٧١) **شنشن** : هو نفسه "سنغ زى، راجع الهامش رقم (٢) .

(٧٢) كانت دولة "**ويقو**" تمر بأزمة صراع حاد على السلطة بين أفراد العائلة الملكية فى زمانها، وفى أجواء تغلى بالأزمات، سقطت معايير وتقاليد ومواضعات اجتماعية مرتبطة بحدود الدور الاجتماعى والطبقى لكل من : الوالد - الابن - الإمبراطور - الوزير، لذلك رأى كونفوشيوس ضرورة الرجوع إلى المعيار الأهم وهو تصحيح نظام التراتب الاسمى " الذى يمكن أن يحفظ الكيان كله من الفوضى والاضطراب .

(٧٣) كانت دولة "لوقو" فى الأصل إقطاعية تتبع "جيدان" أمير مملكة "جو"، بينما كانت دولة "ويقو" تخص الأمير "كانشو" شقيق "جيدان"، وكانت العلاقات بين الدولتين طيبة للغاية، تماماً كنظم حكمهما المتماثل، فمن ثم كانت مقولة كونفوشيوس تتضمن تورية خفية .

(المترجم) .

(٧٤) كان الأمير "**جينغ**" يشغل منصبًا بارزًا فى دولة "ويقو" وكانت مظاهر الثراء فى عهد الممالك القديمة تقليدًا شائعًا بين أمراء الإقطاع؛ فمن ثم كانت ملحوظة كونفوشيوس حول بساطة الأمير وسلوكه المقتصد المتقشف، ... مفارقة استلزمت الانتباه والتقدير .

(٧٥) لاحظ أن جذر فلسفة الأخلاق عند كونفوشيوس يتمثل في مبدأى : "عطف الأباء" "والبر بالوالدين" .

(٧٦) **كتاب التغيرات** : أحد أهم كتب التراث الصينى القديم، يجمع بين علوم : الفلك، والسحر والتنجيم.

(٧٧) يوانشيان : (٥١٥ق.م - ؟) أحد تلاميذ كونفوشيوس، وقد اعتزل المجتمع بعد وفاة أستاذه، ولزم بيته فيما بقى من عمره .

(٧٨) **الملك "يوانغ"** تروى السير أنه كان حاكم إقليم "يوشونغ" فى عهد أسرة "شيا" الحاكمة، وكان بارعًا فى الرماية، وقد قيل إنه بعد استيلائه على الحكم بالقوة من يد الملك "تايكانغ"، جرى اغتياله هو الآخر - بالغدر - على يد الوزير "هانجو" .

(٧٩) **الحاكم "ياو"** تروى السير الشعبية أنه ابن "هانجو" - المتقدم ذكره - وكان مقداماً جريئًا بارعًا فى فنون القتال البحرى، وقد قتل على يد الإمبراطور "شاوكان" .

(٨٠) **الإمبراطور "يو"** : كان - حسب النصوص التراثية - إمبراطورًا حكيمًا فى زمانه، حقق إنجازات ضخمة فى إقامة الخزانات والسدود المائية، وفى الإصلاح الزراعى بصورة عامة .

(٨١) **السلطان "چى"** المؤسس الأول (المزعوم !" لأسرة "تشو" الحاكمة، وهو الذى علم الصينيين كيفية زراعة الحبوب، حتى اتخذه القدماء إلها للمزارع .

(٨٢) كان "**زانوشون**" مسئولاً عظيمًا بمملكة "لوقو"، كان قد توقع، بتصوراته الدقيقة النافذة، سقوط أمير إقطاعية "شوانغ"، فقدم استقالته، واقترح سحب اختصاصات الإقطاعية منه، فما انقضت مدة من الزمن، حتى سقط الأمير مضرجًا فى دمائه إثر عملية اغتيال، فاشتهر برؤيته الثاقبة.

(٨٣) كان الأمير "أونكون" واحداً من أشهر القادة فى الفترة التاريخية المعروفة بـ "حقبة الربيع والخريف" فى التاريخ الصينى القديم، وقد أجبر كل الأمراء على تقديس ملك دولة (جوقو)، لذلك اعتبره كونفوشيوس

منافقًا، أما الأمير "هوانكون" فهو أيضًا من أبرز رجال الفترة التاريخية نفسها، وقد قام بحملات تأديبية في المناطق النائية، وضمها تحت سيادة ملك دولة "جوكو" في شجاعة وتفان، لذلك تحدث عنه المعلم بإعجاب.

(٨٤) "**ويشن مو**" : شخص غير معروف، يرجح - حسب السياق - أنه رجل كبير السن .

(٨٥) الرجال السبعة، هم : بواى - شوتشن - إيجون - أيبى - جوجان - ليوشياوى - شاوليان" .

(٨٦) **يوان ران** : واحد من المقربين إلى كونفوشيوس ، وكان مشايعًا للفلسفة "الطاوية"؛ ومن ثم فقد كان أكثر تحررًا وانبساطًا فى سلوكه !

(٨٧) **زانوشون** : (؟ - ٦١٧ ق.م) وزير شئون الدولة فى "لوقو" .

(٨٨) تتفق معظم اتجاهات التفسير التراثى الصينى على صعوبة إيجاد التخريج الترجمى المناسب لدلالة هذا الفصل الذى يحمل فى تركيبه الظاهر (جزئيًا) قدرًا من الخلل، بفصل المقدمة عن متنها، فيحرمها الرابط السببى المناسب، وبعد، فهذه محاولة متواضعة للتفسير فى طيات الترجمة العربية التى بين يديك .

(المترجم) .

(٨٩) **توانيو** : دويلة تابعة لمملكة "لوقو" الخاضعة لحكم "آل جيسون"، لكنها لم تكن على وفاق مع المملكة الأم، فمن ثم خشى الأمير "جيسون أن تستطيع هذه الدويلة أن تتآمر على الأسرة الحاكمة - خصوصًا عندما أوت أحد ألد خصومها .. - فانعقدت فوق سمائها سحب الحرب .

(٩٠) الأجيال الخمسة : فى زمن ذلك السرد، كانت السيادة الحقيقية فى مملكة "لوقو" قد انتقلت - بالتوالى - إلى الأجيال الخمسة التالية : الأمير شوان ، شنغ، شيان، جاو، دينغ، أما الحقب الأربع، فهى فترات الحكم التى احتكرت فيها أسرة جيسون السلطة النافذة فى المملكة، وهى الفترات التالية : أونزى - أوزى - ينزى، هوانزى .

(٩١) وردت في نهاية هذا النص عبارة، ترجمتها : "وجاء فى كتاب القصائد ما يلى : لم يكن ميراثًا من ذهب .

لم تكن تلك يواقيت ...

وشقائق نعمان ،

بل كان زمان

والضيلة يومئذ

عروس وتيجان" .

وليست هناك رابطة منطقية بين هذا الجزء وما قبله، ولعله خطأ فى ترتيب نصوص المتن الأصلى .

(المترجم) .

(٩٢) "**يانهو**" : كان وزيراً لدى أسرة جيسون الملكية، اشتهر بنفاذ السطوة، وكان جليلاً مهاباً، وبحسب سياق المتن الذى بين أيدينا، فهو يحرض كونفوشيوس على قبول العمل لدى البلاط الحاكم، بينما المعروف تاريخياً أن كونفوشيوس لم يتول أى منصب رسمى خلال الفترة التى شغل فيها "يانهو" منصب الوزارة المسئولة" .

(٩٣) كان "بيشى" وكيلاً فى إدارة "فانجوتشين" - أحد وزراء دولة "جينقو" - ولما كان "جاوجيانز" يتحرش بهذا الوزير، مستظلا بحماية أحد الأمراء فقد لجأ "بيشى" إلى "جونمو" واتخذها قاعدة للتمرد والعصيان، فمن هنا أرسل فى طلب كونفوشيوس ليستشيره فى أمور كثيرة، خصوصاً أن المعلم، كان يرى فى هزيمة "فانجو تشين" نهاية مؤكدة - ومريرة - لدولة "جينقو" ، فلهذا وقف إلى جانب "بيشى" بالدعم والتأييد" .

(٩٤) كان اللون الأحمر - فى الصين القديمة - من الألوان المفضلة، رسمياً وشعبياً ثم حدث تحول جذرى فى تفضيل الألوان أثناء فترة الربيع والخريف التاريخية عندما ارتدى بعض الأمراء ملابس بنفسجية اللون، وكنتيجة، حل البنفسجى محل الأحمر، فمن ثم كان تعليق كونفوشيوس" .

(٩٥) "روباى" : أحد صغار الموظفين بمملكة "لوقو" ، يقال بأنه تفقه على يد كونفوشيوس فى أصول مراسم الدفن والجنازات الملكية.

(٩٦) "**ويتس**" الجد الأول لدولة "سونغ" من أسرة "تشو" الإمبراطورية، أقطعه أخوه الملك "جو" بعض الأراضى الواقعة بدويلة "يوقو"، فلما دبت الاضطرابات فى أنحاء المملكة، راح يقدم نصائحه للملك الذى تعصب كثيراً لرأيه، وصم أذنيه عن الآراء الإصلاحية، فقام "ويتس" وحمل استياءه ورحل عن البلاد، أما "جيش"، فكان أحد نبلاء دويلة "شانغ" (وهو عم الملك تشو) وكثيراً ما تقدم بالشكاوى إلى جلالته، وكانت التقاليد تقضى بأن من رفضت شكاواه المقدمة إلى القصر عدة مرات ، يجبر على ارتداء أسمال بالية ويتصنع الجنون، فاضطر إلى التجوال على غير هدى وهو يهذى فى الطرقات، أما "بيكان" فكان أحد أعضاء النبالة الملكية أيضاً (وهم عم الملك تشو) وكان يشغل منصب كبير مساعدى صاحب الجلالة وقد تم الحكم بإعدامه والتمثيل بجثته (إخراج القلب من وسط القفص بعد تمزيقه) وذلك، بسبب تقديمه شكاوى كيدية ضد الملك .

(٩٧) **هوبليوشيا** : اسمه الأصلى "جانهو"، موظف عظيم بمملكة "لوقو" .

(٩٨) كانت مآدب الغذاء الإمبراطورية الفاخرة تقام بمصاحبة العزف الموسيقى فى زمن الأباطرة الصينيين، فمن ثم جاءت تسمية موسيقار القصر الأول (قائد العزف على مأدبة الإفطار)، وموسيقار القصر الثانى (قائد العزف على مأدبة الغذاء) ... إلخ .

(٩٩) لا تذكر المصادر القديمة شيئاً بالمرة، عن هؤلاء الأشخاص الثمانية .

(١٠٠) لا بد أن القارئ سيراجع مقولة "زيشيا" - بل المحتوى الفلسفى لكتاب "المحاورات" كله نقدياً، ليضع الإنتاج النظرى هنا أمام خلفيته التاريخية، بظلالها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية - محتواها الحضارى والثقافى ... يعنى - قبل استعجال أية مقارنة أو علاقة تأويلية بين حدود النص - بظاهر دلالته، كما هى منقولة إلى العربية، ومساحة الاستعارة الفلسفية الممكنة لهذه الدلالة إقليمياً .

(المترجم) .

(١٠١) تلك هى الترجمة الذائعة لهذا الفصل، لكن - وأنا أنقل عن نسخ صينية مختلفة، تتبنى آراء واتجاهات تأويلية متباينة - متضادة أحيانًا ! - صادفت تأويلاً حديثًا، صدر عن دار "هوايو جياوشوى" بالحروف الصوتية الصينية = Hua yu jiaoxue chuban she ، ومضمون هذا التفسير : "على الموظف الذى لا يجد فى نفسه مقدرة الحسم واتخاذ القرار، أن يدرس ويحصل المعرفة، فمن برع فى العلم، صار أهلاً لتقلد الوظائف" .

(١٠٢) الملك "جو" آخر أباطرة أسرة شانغ. انتحر حرقًا إثر هزيمته على يد الملك "أوانغ"، وقد وصف بأنه أكبر طاغية فى التاريخ .

(١٠٣) ليس ثمة روابط منطقية واضحة ومقبولة بين الفقرات، التعليق على النص الأصلى يذكر فى هامشه أن السبب فى ذلك يعود إلى أحد احتمالين :

(أ) إما أن تكون المدونات الأصلية قد أسقطت بعض الألفاظ والعبارات الرابطة عن طريق السهو أو الخطأ .

(ب) أو أن يكون هذا الفصل، فى حقيقته، عدة فصول متمايزة، ضمت جميعها فى كتلة مدونة من مجموع نص واحد .

الكتاب الثانى

منشيوس

المقدمة

هو واحد من أهم أقطاب المدرسة الكونفوشية (إذ الروجية هى المذهب الكلاسيكى الصينى) صحيح أنه جاء بعد قرن كامل من وفاة كونفوشيوس، لكنه صار أعظم فيلسوف صينى فى المدرسة الكلاسيكية منذ إنشائها، حتى نهاية عصر أسرة تشينغ الإمبراطورية، أى حتى مطلع القرن العشرين الميلادى (١٩١٨م) حيث كانت مادة كتابه الأشهر (كتاب منشيوس) هى النص المعتمد ضمن المحتوى العام للامتحان الذى يعقد كل عام للمرشحين فى الوظائف العليا للبلاط الإمبراطورى.

اسمه "منغ كى"، (أما منشيوس، المعروف به فى العصر الحديث، فهو النطق اللاتينى الموضوع له فى الترجمات الأولى الصادرة للكتب الأربعة فى القرن السابع عشر الميلادى، تقريبًا فى أوروبا) والتقدير الغالب لسيرة حياته، يحدد الفترة الزمنية التى عاشها من عام ٣٧٢ إلى ٢٨٩ ق.م، (هناك من قال بأنه عاش من ٣٩٠ إلى ٣٠٥ ق.م، وهو قول له وجاهته حسب حجمه وبراهينه، لكن قليلين يأخذون به) وعلى أية حال، فهى فترة معاصرة لزمن الدول المتحاربة؛ حيث كان الصراع على أشده بين الدويلات الصينية.

وقد ولد منشيوس فى إحدى تلك الدويلات (وهى دويلة تشو، التى كانت تقع فى الشمال الشرقى من الصين، وكان قد تصادف أنها فى الجوار من الدولة التى ولد بها أستاذه وشيخه الأكبر كونفوشيوس) ومثل أستاذه، أيضا، فقد عاش متنقلا بين البلاد ينشر تعاليمه وأفكاره، وانتهى أيضا نفس نهايته! إذ جرّب مرارة الفشل الذريع، فانعزل آخر أيام حياته يملى أفكاره على تلاميذه ويؤلف الكتب.

منشيوس ابن عائلة لها قدرها، كانت إحدى ثلاث عائلات بسطت سيادتها ونفوذها فى ولاية " لو" - ويقال بأنه ليس هناك تأريخ يشهد بذلك، وإنما هى مجرد أخبار تناقلتها الكتب! - وأياً ما كان، فلم يكن الرجل يحب ويحترم أحداً فى حياته مثل كونفوشيوس وقد كان يأسف لأنه لم يكن معاصراً له ولم يتعلم على يديه شخصياً، ولم يخفف من أسفه كونه تلقّى العلم على يد حفيد كونفوشيوس (زيس).

وإن كان يقال بأنه لم يلتق بذلك الحفيد فى حياته، وإنما أخذ العلم عن تلاميذه، إلا أن الشيء الثابت، هو أنه كان يذكر كونفوشيوس دائمًا بعبارات التبجيل والإكبار حتى لقد نقلت كتب التراث عنه مقولته الشهيرة: "إن كونفوشيوس أعظم من أنجبت الإنسانية!".

لا تذكر كتب التاريخ الكثير من تفاصيل سيرة حياته سوى أن أسرته لما ضاق بها الحال، بعد زوال المجد والجاه القديم انتقلت إلى دولة تشو، حيث مات والد منشيوس وهو فى الثالثة من عمره، فقامت الأم على تربيته وأخذته بالشدّة والرقابة الصارمة، فلما كبر تلقّى العلم على يد زيس - حفيد المعلم الأكبر - وراح يجوب البلاد داعيًا إلى المذهب الكونفوشى، وشملت جولاته الدعائية العديد من الولايات: تشى، جين، سونغ، تنغ، ليانغ؛ وكان قد ذهب إلى ولاية تشى مرتين وقام بالتدريس فى قصر "جيشيا" (وهو المقر الرسمى لأول أكاديمية لتدريس العلوم فى تاريخ الصين!) واستطاع أن يترقى إلى منصب حكومى مرموق لم يصل إليه أستاذه، كونفوشيوس، فى حياته؛ إذ عمل لفترة رئيسًا لوزراء إحدى الولايات، لكنه لم يكن منصبًا تنفيذيًا بل مجرد وظيفة ذات صفة استشارية دون تكليف بواجبات وسلطات الوزير المسئول أمام مجلس وزراء رسمى؛ مما جعله يرفض تقاضى أى مرتب طوال فترة بقائه فى العمل، ويقال بأنه كان يمتنع عن الترقّى فى ذلك المنصب الكبير دون أن تكون يده مطلقة التصرّف فى إدارة جهة اختصاصه بما تمليه عليه مبادئه وأفكاره، وهو الأمر الذى كان يلام عليه من جانب تلاميذه وأتباعه مع أن السبب فى عدم توليته أية وظيفة تنفيذية كان

يرجع، فى الحقيقة، إلى حكام الولايات أنفسهم الذين ما كانوا ليقبلوا أن يمنحوه ما يشترطه عليهم من صلاحيات تجاوزت - من وجهة نظرهم - حدود الممكن أو المقبول. ومن ثم، كان سعيه الدائم وتجواله فى البلاد وانتقاله هنا وهناك بحثا عن حاكم يؤمن بمبادئه، ويتبنّى آراءه.

وقد وجهت إليه الانتقادات الشديدة، ذات مرة، بسبب ما يمكن أن يعد إسرافًا من جانبه وهو يجوب البلاد تتبعه عشرات العربات ومئات الرجال متنقلاً من قصر حاكم إلى آخر، وكان الحكام يغدقون عليه ويطلبون رأيه فى كثير من الموضوعات ويبذلون له من التبجيل ما لم يحظ به كونفوشيوس نفسه، أما هو فقد راح يدافع عن أسلوب حياته بأنه "جدير بما يتكبده، مادام يعمل على إحياء مبادئ الحكماء الأقدمين" وبأنه يلتزم بقاعدة ألا يقبل الهدايا، بل يقبل - فقط - بالحصول على مايكفل له تلبية أقل حاجاته الضرورية.

لكن زمانه كان يموج بصراعات واضطرابات، وحروب بين الدويلات التى جندت كل طاقاتها لصالح الحرب، ولئن وجد منشيوس من يستمع إليه وسط تلك الأجواء، فإنه لم يعثر، حقًا، على من ينصت إليه فى جدية، (راجع شيئا من أحوال فترة الدول المتحاربة، فى مقدمة ترجمتى لـ "كتاب سياسات الدول المتحاربة" - المجلس القومى للترجمة - القاهرة).

فانصرفت عنه القصور الحاكمة لما هو أهم؛ حيث تحالفاتها البينية هى شغلها الشاغل وسط دوامة الصراعات القائمة. فلما لم يجد الرجل آذانا صاغية، أقام فى عزلة اختيارية بمنزله؛ ليؤلف - مع تلميذيه: وانجان، وكونسون شو - الكتب الفلسفية.

وعلى الرغم مما تناهى إلينا من معلومات من الموسوعات الفلسفية الصينية، وأوساط الدارسين للفكر الصينى القديم، عن المكانة البارزة لذلك المفكر الكونفوشى، إلا أنه لم يكن يحظى فى حياته، ولو بقدر ضئيل من الشهرة التى ظفر بها بعد انقضاء زمانه، بمئات السنين.

قضى منشيوس آخر أيام حياته بائسًا منعزلاً، ومات دون أن يحقق ما كان يصبو إليه، فهو واحد ممن انطفأوا فى عزلة من الزمن، ثم لمعوا فى أحقاب تالية من التاريخ.

ولم تكن مكانته وسط الكونفوشيين، فى بداية الأمر - أمر سعيهم لتأسيس ونشر أفكارهم وسط الولايات والدويلات - تضارع مكانة "يان هوى"، وهو أحد رواد المذهب الكلاسيكى ممن ظلوا حتى أوائل دولة خان (٢٠٦ق.م - ٢٢٠ميلادية) يمثلون المكانة الأولى فى المدرسة الكلاسيكية، ولم تتغير المكانة حتى عصر تانغ، بل حتى عصر دولة سونغ (٩٦٠-١٢٧٩م) ومن المعلوم أن الكونفوشية انقسمت إلى مذاهب كثيرة تزعَّمها عدد من الرواد، ومعظمهم من تلاميذ كونفوشيوس، مثل: زيجانغ، زيس، يان شن، شيدياو، منشيوس، جونليان، شون تسو، يوجن.. لكل من هؤلاء مذهبه وموقعه وفهمه الخاص للمبادئ الخمسة الكبرى (الإنسانية، العدل، الفضائل، الإخلاص، الحكمة) وبتطور الكونفوشية، اتسعت الهوة بين الآراء المذهبية، فظهرت الانحيازات للمدرسة الكبرى.. وأشهرها، فى نطاق الكونفوشية، مدرستان: الأولى، تنسب إلى منشيوس، تحت مقولة الطبيعة الخيِّرة للإنسان، والثانية، تُعزى إلى شون تسو، وتنادى بالتعليم؛ لدرء طبائع الشرِّ المتجذِّرة فى أعماق البشرية.

لم ينل منشيوس الشهرة التى كان يستحقها إلا عندما جاء الدارس الكونفوشى الأشهر"جوشى" فى عصر دولة سونغ الجنوبية (١١٢٧-١٢٧٩م) وجعل من كتاب منشيوس مؤلفًا مقدسًا ضمن المتون الأربعة، أو الكتب الأربعة التى تمثِّل النصوص الكونفوشية الأساسية، وهى الكتب التى بقيت تدرس فى الأكاديميات العلمية الصينية، باعتبارها المادة الرئيسية فى امتحانات التأهيل للمناصب الرسمية العليا؛ وذلك إلى أن قامت الحركة الثقافية الجديدة فى الرابع من مايو ١٩١٩م، ولو أن هناك من يقر بأن كتاب منشيوس قد عُد ضمن النصوص المقدسة، مادة للامتحان التأهيلى لتولِّى المناصب العليا فى الدوائر الحكومية وذلك فى عصر دولة سونغ الشمالية (١٠٧١م)

فلما حل زمن أسرة يوان الملكية (١٣٣٠م) أطلق على منشيوس لقب" القديس الثانى"؛ باعتباره جديراً بمرتبة تالية للقديس الأول كونفوشيوس. بل قرنت آراؤه بأفكار المعلم الأول، وأطلق عليهما معا اسم"مبادئ كونفوشيوس ومنشيوس".

أما كتاب منشيوس، ذلك النص الذى صار، كما أسلفت، أحد المتون المقدسة، للكونفوشية، فهو أغزرها محتوى؛ (أكبر، حتى، من كتاب المحاورات، الكتاب العمدة فى المذهب الكلاسيكى)، ويقع فى سبعة أبواب، ينقسم كل باب إلى جزءين: **الباب الأول** "ليانغ هوى" يشرح طرائق الاقتراب الممكن بين الحاكم والشعب. **الباب الثانى،** "كونسون شو"، يتحدث عن مشاعر التعاطف والرحمة ويؤكد على اتساع دائرة الخير لتشمل ما يتجاوز حدود الإقليم وسكانه؛ فالخير لا يعرف الحدود، كما يعرض هذا الباب لسلوكيات الترفّع عن الجشع وضرورة الإخلاص التام للواجب، وفى **الباب الثالث،** "تنغ وان" يعرض منشيوس للجانب المحورى من أفكاره وهو "الطبيعة الإنسانية" وأصالة النزعة إلى الخير، ويجادل أفكار الفيلسوف الشهير "موتسى" حول علاقات الحب الإنسانى، مؤكداً اختلاف درجات الانغماس العاطفى بين الناس وأن الحب ظاهرة ترابط مجتمعى شامل وليست مشاعر عبثية، واستعرض فى هذا الباب أيضا اتجاهات القيم فى أشكال السلوك الاجتماعى القائم على علاقات الحب الإنسانى، وفى **الباب الرابع،** "ليلو" يتناول معايير السلوك الأخلاقى، ويضع مرجعية الضبط الأخلاقى فى يد المجتمع؛ فالاحترام المتبادل بين الناس والتراحم والمساواة، كل ذلك يشيع أجواء التفاهم والسلام، وفى هذا الباب يطرح منشيوس أفكاره حول فلسفته السياسية التى تدعو إلى الحكم السياسى القائم على مبادئ الإنسانية؛ باعتباره الأسلوب الأمثل لإقرار حكم قائم على العدل؛ فالخير يحتاج إلى من ينشره، ويذيعه بين الناس ويعمل على الدعوة إليه لتأسيس مجتمع إنسانى تتحقّق فيه الفضائل. وفى **الباب الخامس،** "وانجان"، يتكلّم عن أهم عنصر فى البناء الأخلاقى الكونفوشى، وهو الطاعة ومبادئ إقامة العلاقات الودية بين الأصدقاء وأصول أداء الواجبات الوظيفية، ثم إنه

فى **الباب السادس**، "كاوتزى"، يتطرّق إلى أعماق النفس البشرية، مؤكداً على بداهة نزوع النفس الإنسانية إلى الخير مما يمهّد الطريق أمام محاولات تشكيل السلوكيات الأخلاقية. وفى **الباب السابع**، "جين شين"، ينتقل من المسائل المتعلقة بالطبيعة البشرية وأشكال السلوك الأخلاقى، مبيناً العلاقة بين أوجه اجتهاد الإنسان فى تهذيب النفس، وأشكال السلوك الأخلاقى. وتنتهى معظم جهود تحقيق النص الأصلى للكتاب إلى أن هذا النص لا يثير الكثير من المشاكل المتعلقة بصحة التدوين ونسبته إلى مؤلفه الأصلى، ونادراً ما تصادف مثل هذا التعليق عند كثير من محققى النصوص، التراثية الصينية، : (حتى أنى حرصت على كتابة أسماء المحققين الصينيين فى صفحة العنوان فى النسخة المترجمة عن الصينية لـ محاورات كونفوشيوس؛ وذلك توخياً لأفضل عناصر الدقة الممكنة فى توثيق المادة الترجمية، ثم اكتشفت أن الدفاع عن صحة ودقة النصوص الصينية التراثية قضية خاسرة، لا محالة!)

وأنصح لمن يتعرّض لترجمة أى نص من التراث الصينى، سواء من العرب أو الدارسين الأجانب من غير الصينيين – أو حتى من الصينيين أنفسهم ـ بمراجعة آراء المحققين وهوامش الشروح والتعليقات المصاحبة للنصوص، كلما أمكن، ومع ذلك، فليس هناك ما يمكن أن يصل إلى مرتبة اليقين فيما يتعلّق بنسبة النصوص الصينية إلى أصحابها، وهكذا – وبرغم ما قيل من أن منشيوس نفسه قد وضع الكتاب فيبدو (بدرجة ما من التأكيد!) أن بعضاً من تلاميذه هم الذين قاموا بتجميع مادته، بالإضافة إلى مخطوطة أخرى، بعنوان " الكتاب الآخر" وكان يحتوى على أربعة أبواب، إلا أنه فقد تماماً، وينسب إلى "هوشيه" ـ أحد ألمع المعلقين على الفلسفة الصينية القديمة من أجيال الحركة الثقافية الجديدة ـ : "إن كتاب منشيوس، إما أنه صحيح تماماً، أو أنه مزيف من أوله إلى آخره." وتؤكد آراء نقدية باحتمال أن يكون جزء يسير من الكتاب مدسوساً على نصوصه، وعلى أية حال، فهناك بعض العبارات، فى أماكن متفرقة، تنحو – على غير المعهود – من آراء رجل يقال بأنه ثانى أعظم الكونفوشيين بعد

كونفوشيوس نفسه.. فهناك آراء أقرب ما تكون إلى طبيعة الفكر الطاوى منها إلى صحيح المدرسة الكلاسيكية، وهناك ما يعتقد بأنه "تحريف يساير اتجاه ما يسمى بالفكر "التشريعى" (وهو مذهب متفرع عن الكونفوشية يرى فى القوانين مادة صالحة لتهذيب وضبط أحوال المجتمع الإنسانى) ونستطيع أن نتفهّم بعضًا من أسباب ما يمكن أن يكون قد تعرض له النص الأصلى لـ منشيوس، من تبديل أو حذف أو تعديل أو زيادة، وذلك عندما نعرف أن مادة الكتاب كثيرا ما أثارت ردود فعل غاضبة لدى رؤى سياسة محافظة فى فترات متعاقبة من تاريخ الصين، حتى لقد صدرت عن بعض العروش الحاكمة "فرمانات" بمصادرة الكتاب، وتردد فى بعض المصادر أن نصوصًا بعينها أُقحمت بدل عبارات كانت تثير أجواء من الاضطراب، بل ربما كان التدخل فى النص الأصلى متزامنًا مع فترة لمع فيها نجم منشيوس بشدة، خصوصًا إبان انتشار البوذية فى الصين أواخر دولة خان؛ إذ رأى المؤمنون بالديانة الجديدة فيما طرحه منشيوس من نزوع الطبيعة الإنسانية إلى الخير ما يساعد على تمهيد جسور الاتصال مع مقولات البوذية وهو ما مهّد فيما بعد للاعتراف بما سمى بـ الكونفوشية الجديدة، حتى ليقال بأن ازدهار الكونفوشية المثالية، فى ذلك الزمان، كان فى حقيقته تجديدًا لأفكار منشيوس، ولعل جهود التبشير البوذى أخضعت من نصوصه – بالتأويل – ما صادف اتفاقًا مع مبادئها الروحية أو، ربما، أُلحق التأويل بالنص مثلما حدث فى مناسبات أخرى كثيرة مع نصوص مختلفة!!.

وفى المحتوى الفكرى للكتاب، نلاحظ أن منشيوس ـ كغيره من فلاسفة الصين – يمثل نموذجًا واضحًا لذلك الطراز الأخلاقى من المفكرين؛ فـفلسفته تدور كلها حول الطبيعة الخيرة للإنسان (على عكس ثالث أقطاب الكونفوشية "شون تسو"، الذى يؤكد تأصّل طبيعة الشرّ فى البشر، ويؤكد أهمية التعليم فى بث الاتجاهات الأخلاقية الطيبة عند الناس!!). وعندما يتناول قضايا السماء والأرض، فإن كل اهتمامه يتركز على ما يمكن أن يسلك به الإنسان فى الدنيا مع الآخرين من حوله، فى المجتمع الإنسانى

الكبير، من تصرفات تهدف إلى الخير والفضيلة ونطالع، فى مقولات منشيوس، عبارات تتحدث - مثلا - عن: "إن العاقل من استطاع أن يتعّرف إلى طبيعة السماء بواسطة الإنسان" .. أو ما إلى ذلك من إشارت بتعبيرات مختلفة، ولابد ـ هنا ـ من ملاحظة أن العبارة قد توحى بوجود **نظرية معرفية**، ما، تتناول مسائل تتجاوز حدود المجتمع الإنسانى على الأرض، فإذا مثل هذا المعنى، أو حتى ظلال هامشية منه، فلابد أن نتذكر - سيدى القارئ - دائمًا، ونحن نطالع نصوص الفكر الصينى القديم مسألتين فى غاية الأهمية (ولنقل، مبدأين مرشدين، فى مطالعة الفلسفة الصينية عموما) تستحقان أن نوليهما قدرًا عاليا من الانتباه، أولا: إن كل ما يتعلّق بماهية السماء (أو ماوراء الطبيعة) لا يشغل موقعًا مرموقًا في اهتمام المذاهب الفلسفية الصينية القديمة كلها، بغير استثناء. ثانيا: إن مدار الأمر كله يتوقف على طرفى معادلة تبدأ بالإنسان وتنتهى بالمجتمع ككل، والاعتبار الأول للحشد الإنسانى فى مجتمع كبير، إذ الفردية ليست محل اهتمام كبير؛ ومن ثم فاستقصاء العدل، كخاصية اجتماعية، أهم كثيرا من مقولات النظرية المعرفية بالمعنى الوارد فى الفلسفة الغربية؛ فالحقيقة ليست غاية مهمة فى الفلسفة الصينية بقدر ما تمثله "الفضيلة" من مطلب ومسعى يستحق كل الاهتمام.. (ولئن كان المثل الشعبى الدارج يقول بلسان العامة بأن "الأدب فضلوه على العلم!" فضمير الجمع يعود تقريبًا إلى الصينيين فى مقولة، ما، نريد بها تقريب المعنى.. بنفس الدرجة من البساطة!)

والآن، وعلى ضوء هاتين النقطتين، نستطيع بكل سهولة، أن نفهم جوهر الفلسفة الصينية، ولا يبقى إلا أن نتكلم فى تفاصيل.

وأول ما يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن قيمة ما قدمه منشيوس من أفكار، باعتباره ثانى اثنين فى ريادة المذهب الكونفوشى كلّه، هو السؤال عن الجديد الذى أتى به هذا "القديس الثانى". صحيح أنه طوّر وأوضح مفاهيم كثيرة جاءت مجملة على لسان المعلم الأول، لكن أين تكمن بالضبط إضافته الحقيقية التى أعطته مكانته البارزة وقيمته التى لا تنكر؟

واسمح لى، سيدى القارئ ـ وقد ترجمت كتابيهما، وتأمّلت أقوالهما بكثير من الاهتمام ـ بالقول بأن مناقشات كونفوشيوس مع تلاميذه كانت تهدف إلى التأمل والتعرف على حقائق الأخلاق والفضائل، بينما كان منشيوس حريصاً، طوال الوقت، على الدفاع عما يراه المبدأ الصحيح، وعلى نشر أفكاره وإقناع الناس بها بكل وسيلة ممكنة.. وهو لم يقل، مرة واحدة، ولو من باب التواضع إنه قد يكون مخطئا، أو أن فى كلامه ما يستحق المراجعة والتأمل على عكس أستاذه، شيخه الأكبر. ومع ذلك، فقيمة ما أضافه منشيوس تتجلّى فيما قام به من شروح وإضافات على جانب عظيم من الأهمية؛ من ذلك مثلا، إن كونفوشيوس كان قد دعا إلى الإيثار – وهو الأساس الأول للإنسانية ـ لكنه لم يقل لماذا ينبغى على الإنسان أن يسلك على هذا النحو، فلما جاء منشيوس حاول تقديم إجابة وفى معرض ذلك وضع أسس نظرية حول **الطبيعة الإنسانية الخيرة**.

كانت إضافة منشيوس وقيمة أفكاره الإنسانية تتمثل فى مقولة "إن طبيعة الإنسان تنزع أساسا إلى الخير" لكنه لم يقل بالطبيعة الخيرة على نحو مطلق، فالإنسان أيضا يشتمل على عنصر الشر (وهنا يثار أيضا تساؤل: مادام الإنسان تنطوى نفسه على الشر فلماذا لا نقول بأن طبيعته تحتمل الخير والشر معا؟) هنالك يجيب منشيوس بأن الخير هو العنصر الأساسى لأنه نتيجة خالصة عن النفس أما الشر فهو"ناتج" اتصال أعضاء الجسم بالعالم الخارجى ، فالنفس، هى الـ "داتى" (الشأن الأكبر) أما أعضاء الجسم فهى الـ "شياوتى" (الشأن الأصغر) ولكل الناس نصيب منها لكن ما يحدد طبيعة الإنسان هو الشأن الأعظم (ذو النفس الخيرة). وربما كان هذا هو أول اجتهاد فى الفكر الصينى فى تعيين وجود منفصل لكل من الروح والجسد، فمنشيوس صاحب ذلك التقسيم الثنائى، الذى تتغلب فيه الملكة الفعلية (للنفس الخيرة) على الجوانب السلبية بتغليب السلوك الأخلاقى (فى شىء قريب مما قاله علماء النفس السلوكى، بعده بزمان طويل!).

لكن منشيوس كان يعيش فى مجتمع تتنازعه الصراعات السياسية بين الدويلات وكان تجواله بينها يُبصّره بكثير من الحقائق التى تبلورت لديه فى مقولات فلسفية تتصل بالشئون السياسية، وقد قلنا من قبل إن المجتمع الإنسانى هو الطرف الآخر من معادلة تبدأ بالإنسان، فكانت نظرية منشيوس السياسية هى الامتداد الطبيعى والتطبيقى لأفكاره حول الطبيعة الخيرة.

من هنا، فقد اختمرت آراؤه حول الجانب الإنسانى فى السياسة، وكثيرا ما كان يردد مقولتى "طريق الحكماء الأقدمين" و "طريق الطغاة المستبدين" وهما تشيران إلى قاعدتى سياسته الأخلاقية؛ فالقاعدة الأولى، تتمثل فيما انتهجه الحكماء القديسون من تغليب الجانب الخيِّر فى الطبيعة الإنسانية، بينما القاعدة الثانية توضح فيما من سيرة الطغاة الذين فقدوا زمام طبائعهم تحت طوفان من إغراءات علاقات الواقع الخارجي.

كانت نظريته فى السياسة الأخلاقية تضع مرجعية تقدير نجاح السلطة السياسة القائمة في يد أفراد المجتمع.. أعضاء الحشد الإنساني الأكبر، الذى يمثل قواعد المرجعية الأخلاقية التقليدية، فطبيعة المجتمع الإنسانى هى الشاهد على المبادئ، ومجموع الحشد الاجتماعى هو الفيصل فى إقرار قواعد الحكم الإنسانى (ومثلما كانت أفكار كونفوشيوس تلقى ترحيبًا فى أوروبا القرن السابع عشر، فقد كانت آراء منشيوس تحدث دويًا هائلاً فى صفوف التنويريين الأوروبيين فى القرن الثامن عشر، كلاهما كان له تأثره بنفس القدر.. وعلى التوالى!) بل إن فكرة الإصلاح السياسى للدولة على النحو الذى ورد به فى كتاب "المعرفة الكبرى" قامت أساسًا على أفكار منشيوس، لكن بصورة متطورة.

كان منشيوس بقول، مثل أستاذه، إن المبادئ أربعة (الإنسانية، الأخلاق، العدل، الحكمة) وأن الحكمة لا تقوم إلا فى قلب رحيم متواضع، يعرف الخير من الشر، ولكل إنسان نصيب منها جميعا، تمامًا، مثلما أن لكل إنسان قدمين ويدين، وهى مبادئ يمكن تنميتها بحيث تصير جزءا لا يتجزأ من العلاقات الإنسانية. ولئن كان صحيحا

أن كونفوشيوس نصح باتخاذ الرحمة والفضائل سلوكا أخلاقيا، إلا أن ذلك كان داخلا في حدود ما ينبغي على الفرد انتهاجه في نطاق علاقاته المباشرة بالناس من حوله، فلما جاء منشيوس وسّع نطاق التطبيق الأخلاقي ليشمل، في النظرية السياسية، حكم الممالك وإدارة الشئون السياسية. يبقى بعد هذا كله، ذلك الغموض الذي اكتنف مقولة منشيوس التي مفادها "إن من يدرك كُنه طبيعته الذاتية تمام الإدراك يستطيع أن يعرف السماء وقد نوقش معنى هذه الفقرة في ساحات الفكر الصيني لمدة تزيد على ألف سنة!

وكان قد طرح أيضا مقولة أخرى نصها "أنا أهم الموجودات؛ فكل شيء في الدنيا موجود من أجلي أنا" وهي مقولة غريبة على الفلسفة الصينية كلها. وربما كان الأساس النظري لرأي منشيوس قائما على فكرة أن الكون هو الأخلاق، وأن الطبيعة الإنسانية في جوهرها بالخير والفضائل ومن ثم، فمن عرف طبيعة نفسه أدرك جوهره وعرف السماء، ومن عرف السماء فقد تحول من مواطن في دولة إلى إنسان كوني عالمي، ومن بلغ هذا الحد، فقد عرف السماء (اتحد مع السماء) .. وهي صياغة تبدو متأثرة بالبوذية إلى حد بعيد!

أما السبب فيما أثير من جدل حول تلك المقولة فلعله يرجع جزئيا إلى ما يتبدّى فيها من غموض أو خروج على صحيح الفكر الكونفوشي؛ فالاستبطان الذي يلمح إليه منشيوس من طرف خفي، لم يكن من بين مناهج تلمّس الحقائق عند الكونفوشية. بل إن الشيخ المعلم "كونفوشيوس" وصف التأمل الذاتي بأنه قاصر، وحثّ تلاميذه على الاهتمام والمشاهدة الفاحصة والاختبار الدقيق لما يجري في العالم من حولهم.

بهذا القدر كانت إضافة منشيوس؛ وبهذا المعنى كان مختلفا عن (وليس مع) أستاذه، ولو أن الأجواء أملت ضرورة الاختلاف؛ فكونفوشيوس كان مؤسساً يحث على البحث والاطلاع، أما منشيوس فكان مريداً ينشر ويقنع .. الأول، كان يعد أجيالا تواصل بعده المسيرة، أما الثاني، فكان رمزا للجيل الذي أنيطت به مهمة الاستمرار،

وكان تعدد المذاهب المتفرعة عن الكونفوشية، عاملاً من عوامل البحث عن الأصالة والتفرد، وكانت الوقائع المحيطة بمنشيوس من صراعات سياسية، ومذهبية تدعوه للتصريح والكشف والتفصيل فيما أجمله أو سكت عنه كونفوشيوس.

لذلك، نأخذ على جوزيف نيدهام Joseph Needham وهو العالم العلامة المتخصص فى الشئون الصينية، وأحد أهم المراجع التى أنارت فكر العالم بشأن الصين خلال المائة سنة الأخيرة، ما قاله من أن "منشيوس وقد قضى معظم حياته فى إسداء النصح لحكام ليانغ، وتشي؛ فإن تعاليمه لا تحمل من الجديد إلا القليل (" موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين" الترجمة العربية - الهيئة العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٩٥م،ص١٤٠) أيمكن حقًا، بعد ذلك كله أن يقال إن تعاليم منشيوس لم تحمل من الجديد إلا القليل؟!

وأرى أن ذلك لن يصح أبدا إلا بترجيح احتمالات تعرض نصوص الكتاب، فى مراحل تاريخية مختلفة للاضطراب؛ بسبب الزيادة أو الحذف أو التبديل أو إعادة الصياغة، وإلا فإن الإقرار بصحة انتساب منشيوس للمدرسة الكونفوشية يفرض الإقرار بكل ما نما إلى علمنا من تفرده فى تطوير الكثير من المبادئ الكلاسيكية الأصيلة، وبعد..

فهذه، فيما أظن، أول ترجمة لكتاب منشيوس إلى العربية، أو على الأقل أول ترجمة من الصينية، مباشرة، إلى العربية... ولا أدرى كيف مرت السنوات الطوال وجسور الاتصال قائمة، بين الحضارتين الصينية والعربية دون أن تتم ترجمة تلك النصوص الأساسية من التراث الكونفوشى!! وحتى لو دريت، فلا أظننى أرضى إلا بأن تحظى المكتبة العربية، الآن، بعديد من الترجمات للتراث الصينى، وعلى قمتها النصوص الكونفوشية الكاملة، ولا أبالغ إذا قلت إن بعضاً من هذه النصوص يحتاج أكثر من ترجمة (متزامنة أو متتالية، لا أقول ترجمة سبعينية، لكن ترجمة تتيح عددا من الرؤى والتصورات ومداخل الفهم، بمقدار ما يمكن أن تنتجه كل جهودها فى النقل

الترجمى من إضاءات للنصوص الأصلية، خصوصًا أن طبيعة اللغة الصينية القديمة تسمح بذلك!)

ولا أظن أن ترجمتى، مهما حاولت أن أبلغ بها من الدقة والإتقان، تكفى لإضاءة الطريق أمام القارئ العربى، طريق الوصول إلى مكامن المعنى.. (والصين فى الذهنية العربية، طريق سفر شاق وطويل)!

وأقول إن مثل هذه الترجمات قد تأتى، حتى قبل أن تتضح ظروف الاستفادة التامة منها؛ إذ ليس فى جامعاتنا العربية (كلها، فيما أعلم) أقسام متخصصة فى تدريس علم الصينيات Sinology ، ذلك العلم قديم النشأة، الذى يهتم بدراسة مختلف جوانب الحضارة الصينية، قديمها وحديثها: تاريخها، وجغرافيتها، وسكانها، ولغاتها، وثقافتها، وآدابها؛ بتركيز خاص على المحتوى الفكرى والفلسفى، وهو أيضا العلم الذى تجده مدرجا فى قائمة مناهج الدراسات المتعلقة بالشرق الآسيوى فى معظم جامعات العالم.

وأزعم أنى أعد إنجاز ترجمة عربية لعيون التراث الصينى واجبًا نحو القارئ العربى، تأكيدا لقيمة الصلات الحضارية والإنسانية، بين العرب والصينيين، بل بينهم وبين الإنسانية بأسرها؛ بيد أن التراث الصينى - فى معنى ما - جزء من ميراث الحضارة الإنسانية (ولا أخفى أن شغفى الخاص بترجمة ومطالعة تلك النصوص يأتى من خلفية الاهتمام بالمدخل الأنثروبولوجى والنفسى لدراسة المجتمعات الثقافية كما هو وارد فى مقولات "الوعى الجمعى" عند كارل ج.يونغ، و مرغريت ميد، وجوستاف لوبون.. وآخرين. لكن تلك مسألة أخرى!)

وإذا كان صحيحا أن الكتب الأربعة قد ترجمت إلى الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية، إلا أن عدداً من تلك الترجمات لا يستحق أحبار الطباعة التى كتبت بها، وكم وددت أن أشير إلى أخطاء لا يليق حتى بطالب فى السنة التمهيدية للدراسات الصينية المتخصصة أن يقع فيها، فما بالك بأسماء لامعة مثل: جيمس ليغ James Legge ،

وآرثر ويلى Arthur Waley ، وجايلز Giles ، وغيرهم، إلا أن مثل هذا الجهد يستحق مقالات مطوّلة، سأعرضها لاحقًا، كلما سنحت الفرصة.

ولا أستطيع القطع بأن هذه النسخة من الترجمة خالية تمامًا من الأخطاء (فهناك اصطلاحات كثيرة مازالت تحتاج للضبط واجتهادات فى النقل مازالت فى حاجة إلى الدقة) وقد اجتهدت فى ترجمتها، لكنى حتى قبيل دفعها إلى آلة الطباعة لم أجد فى نفسى الرضا التام عنها، وأؤكد للقارئ بأننى كنت حريصًا على تقديم أفضل ترجمة ممكنة؛ باعتبارها مادة للاطلاع العام لجمهور القراء، ولذلك فقد حرصت ألا أقطع السرد بالإحالة إلى الهوامش، بل اكتفيت بأن أضع بين قوسين هلاليين ما كان يستقيم النص بقراءته مما وجدته فى الشروح المصاحبة للمتن، وبين قوسين مربعين، وضعت ما وجدته مفيداً لتوضيح المتن من مواد مضافة إليه من خارجه، ويستطيع القارئ - الذى لا يريد أن يشغل نفسه بقراءة ما بين الأقواس - أن يتجاوزها دون أن يجد اضطرابًا فى تسلسل الأفكار وترابطها.

أما نسخة الكتاب المترجم عنها النص الأصلى، فهى مودعة بمكتبة الألسن جامعة عين شمس، بالقاهرة، تحت رقم ٦٩٨٣ (الصفحات من ٣٣٩- ٦٥٤) بيد أنى استفدت من الشروح المصاحبة لعدد من النصوص، المنشورة فى كثير من المواقع على شبكة الإنترنت العالمية، ويظل بإمكان كثير من الدارسين العرب، تقديم ترجمات أوفى وأفضل، من اللغة الأصلية مباشرة، فى المستقبل.

المترجم

الباب الأول

ليانغ هوى
(الجزء الأول)

(وجملته سبعة فصول)

١ – ١ التقى منشيوس بالملك "ليانغ هـوى" (٤٠٠ – ٣٨٩ق.م، أحد أباطرة دولة وى فى زمن الدول المتـحـاربة، تولى الحكم من ٣٦٩ إلى ٣١٩ق.م) الذى ابتدره قائلا: "ما أظنك قطعت كل هذا الطريق الطويل رغبة فى خوض غمار السفر والترحال، فلابد أنك جئتنا بشىء تجرى علينا به الفائدة، ونتزود فيه منك، أنا وسائر المملكة، بالحكمة والخير العميم". فردّ عليه منشيوس؛ بما نصه:"ولماذا ينبغى أن نسعى دائما وراء النفع يامولاى، أما يجدر بنا الاكتراث للإحسان وكرم الأخلاق!؟. إن الملوك إذا تساءلوا عما يعود بالنفع والفائدة على عروشهم، راح المسئولون والوزراء، بدورهم، يتساءلون عما يحقق النفع والفائدة لبيوتهم، وراح الناس كلهم، كبيراً وصغيراً يتساءلون عما يعود بالنفع والفائدة على مصالحهم الذاتية المتواضعة؛ ويصير الكل باحثًا عن نفعه الذاتى ومصلحته الأنانية، حتى توشك البلد كلها أن تتداعى أركانها ويتحطم جوهر وجودها.

إن مملكة تتكون قوتها العسكرية من عشرة آلاف مركبة مقاتلة، تصير مطمعا لرجل طموح لا تزيد كتائبه علــى ألف مركبــة حــربية، وإن إمارة لا تتعدى قوتها ألف مركبة حربية تغرى قائداً لا تزيد قواته على مائة عربة مقاتلة باحتلالها؛ فتأمل أولئك جميعا.. فكل واحد منهم يملك فقط عُشر ما يطمح إليه؛ فصاحب العربات الألف، يتطلع إلى العشرة آلاف، وصاحب المائة يتشوق إلى الحصول على الألف.. فهكذا لو جعلنا المنفعة أهم من الفضيلة، لما قنع أولئك (الذين أشرت إليهم توًا) إلا بعد أن يقبضوا بأيديهم على مبتغاهم، ويصير كل بعيد عن متناول أيديهم محط آمالهم ومنتهى غايتهم؛ ثم إنه لم يحدث قط أن كانت الفضيلة مفضية إلى أن يهجر الرجل أباه وأمه، ولا كانت المنفعة سببا فى أن يهمل المرء شئون بلده ورؤسائه، ليس للملك أن يدعو لشيءٍ سوى الفضيلة، ففى ذلك الكفاية وبلوغ الغاية، وليس هناك ما يستوجب الالتفات إلى ما يحقق النفع الفردى."

١ – ٢ التقى منشيوس بالملك "ليانغ هوى" وسار معه حتى وقفا عند بحيرة فى إحدى الحدائق، فأخذ الملك يتأمل منظر البجعات والأيائل والطيور من كل صنف عند شاطئ البحيرة، ورأى صور انعكاسها فى الماء يبهج الأبصار، ثم تحدث الملك قائلا للفيلسوف: " هل يجد الفضلاء والحكماء فى مثل هذه المناظر متعة مثل باقى الناس؟"، فأجابه: " فى الحق، فإنه لا يستمتع بمثل هذا المنظر سوى أهل الحكمة، ومن الناس من يقتنى هذه الأشياء، فينعم بامتلاكها دون أن يجد فيها متعة صافية، وقد جاء فى كتاب "الشعر القديم"، ما نصه:

"برج الأقداس،

روح الزمان الذى،

وضع الملك صورته وهيكل بنيانه،

ولم تقصر فى بنائه الهمم،

ولم يتأخر واحد من الرعية،

عن تقديم يد المساعدة؛

فتم البنيان فى نصف نهار،

وقد كانت تقضى الأوامر،

بألا يقسو الناس على أنفسهم،

لإتمام البناء قبل الأوان؛

لكنهم بذلوا أرواحهم بكل تفان،

فلما ذهب الملك تجاه البحيرة يتنزّه،

وجد الأيائل سائمة

بأعناقها المنثنية،

رشيقة وهانئة،

وكانت الأطيار بريشها المجلوّ الناصع،

تغرد، نشوانة،

حتى الأسماك،

تقافزت فرحًا ورضا ،

يملأ جوانح الكون ،

ويغمر الآفاق ."

فهكذا ترى أن ملك"جو" وجد الرضا والسرور فى قلب رعيته، وهو يدعوهم لبناء "البرج السماوى" والبحيرة الواسعة، لدرجة أن الناس صاروا يطلقون على هذه البحيرة الضحلة اسم "البحيرة المقدسة"؛ بل صاروا يعدون كل ما فيها من طيور وأسماك وبجعات وسلاحف كائنات مقدسة أيضا ، فمن ثم كان يمكن لحكام ذاك الزمان أن يعرفوا معنى السعادة، وأن يلمسوا ذلك بأنفسهم مما يتجلى فى مشاعر الناس نحوهم، وإن شئت أن أذكر لك مثالا مناقضًا لذلك، فهاك ما سجلته صحف "طانغ شى" التاريخية.. من أن الناس كانوا يرددون فى الأدعية مقولة مفادها.." سحقًا لأنوار الشمس، سحقًا لكل الشموس، وليتبدد الضوء وتهلك كل النجوم، ونذهب كلنا إلى الجحيم.. فقد جربنا فى الدنيا كل النعيم!" (وقد كان الملك الطاغية "شياجى" يزعم بأنه هو شمس الشموس والضوء الغامر للكون كله!)"

١ - ٣ وتكلم الملك ليانغ هوى مع منشيوس، فقال: " قد بذلت قلبى وعينى لأجل بلادى، فما قصرت فى شىء، وكنت إذا نزل القحط بجانب النهر الغربى، مددت يد العون لشعبى وعبرت به إلى الشاطئ الشرقى، أو - إذا تعذر على ذلك - حملت لهم ما يقيم أودهم من الطعام (فلا أدعهم يهلكون جوعًا) فإذا نزلت النوائب بجانب النهر الشرقى، سلكت مع الناس هناك مثلما فعلت فى المرة الأولى، وتأملت، بعد هذا، سياسات الممالك المجاورة مع رعاياها ، وتكشف لى أنها لا تسير معهم مثلما أتصرف حيال مواطنى، ومع ذلك، فما كان مثل ذلك الإهمال من جانب تلك الممالك ينقص

من ملكها شيئا، ولا كان اهتمامى بشئون الناس تحت سلطاننا يزيد مما نملك قيد أنملة، فما تعليلك لذلك؟"، فأجابه منشيوس قائلا: " أما وأن جلالتك تحذق فنون الحرب والقتال، فاسمح لى أن أستعير من تعبير الحرب وفنونها ما يوضح قولى .. فإنه إذا دعا داعى القتال وبرزت إلى الساحات الدروع والمغافر، ونشب الطعن وتعانقت الرماح، كان نفر من المحاربين، تقاعست هممهم، فولوا الأدبار؛ فمنهم من أسرع بالفرار من الميدان (.. مائة خطوة) ومنهم من تباطأ فى النكوص عن ساحة القتال، وصار على بعد (..خمسين خطوة)، فحينئذ، تجد هؤلاء المبتعدين خمسين خطوة يسخرون من الفارين ويتهمونهم بالجبن والتخاذل ... أفلا ترى أن معهم الحق فى سخريتهم تلك؟"

وأجاب الملك قائلا: " كلا بل إن كليهما ليس على حق فى شىء، فكلاهما متخاذل جبان." فقال الفيلسوف : " مادام الأمر كذلك، فلماذا ترغب فى أن يزيد تعداد الناس فى الممالك المجاورة!؟ إنه لولا التوازن القائم بين مواسم الزرع والحصاد، لزاد الثمر عن الجنى، ولو كانت شباك الصيد متينة الصنع دقيقة المسام، لما بقيت فى قاع البحر أسماك. ولولا ضرب الفئوس فى جذوع أشجار الغاب، حسب نظام محدد ومواسم فصلية معلومة، لما بقيت الأشجار قائمة على وجه الأرض (.. فتأمل ذلك ..) واعلم أن فى الوفرة أمنَ وأمانَ رعاياك، وعليه تقوم حياتهم؛ بل تهنأ به أرواح موتاهم فى القبور، فإذا ما أصبحت الحياة أمنا ورخاء، وصار الموت خاتمة كريمة بعد عمر مديد لمواطنى بلدك؛ فقد أقمت مملكة الخير الباقية أبد الدهر.

ما ظنك بحقل مساحته خمسة أفدنة مزروع بأشجار التوت، أما يمكن لصاحب مثل هذا الحقل (مادام ميسور الحال هكذا) أن يرفل هانئًا فى الحرير والديباج، حتى لو كان كهلا متقدم السن!

وما قولك في حظائر الدواجن والماشية، مهولة العدد، إذا روعيت فيها وسائل التدجين الصحيحة، أفلا يستطيع صاحبها - حتى لو كان شيخا في السبعين - أن يتخذ طعامه من اللحوم، في كل وجبة كيفما شاء؟

وما رأيك في أرض مساحتها مائة فدان، تقلب فيها الزرع واحتشدت خطوطها بالبذور، أليس ذلك كفيلا بأن يدفع عن المزارعين المقيمين بأطرافها شر الجوع وغائلة السغب؟

وكيف لو تأسست دور العلم على مبادئ الفهم وأسس الاحترام (.. الطاعة)؛ أما كان ذلك حقيقًا بأن يؤدب النشء ويرحم الشيبة .

فتأمل ذلك كله، واعلم أنك (باتباع السبيل الصحيحة) واصل إلى غرضك، بالغ سبيل الحكمة والخير في مملكتك؛ فأما إذا صارت دواب الأغنياء في بلادك، تمرح في الطرقات كيف شاءت، تخطف الخبز من فم رعاياك، وتتركهم يتضورون جوعًا في الشوارع، فيقعون في التهلكة وأنت تنظر وتقول ليس هذا شأني، بل هو القضاء والقدر! فأنت، عندئذ، مثل قاتل يزعم أنه لم يجن على أحد، مع أنه هو نصل السكين الذي أزهق روح الضحية؛ فالملك الذي لا ينحي باللائمة على الظروف والأقدار، هو الذي تقصد إليه الناس جماعات شتى من كل حدب وصوب."

١ - ٤ قال الملك "ليانغ هوي" للفيلسوف : " يسرني أن أستمع إليك يا سيدي وأنت تعظني وتنير بصيرتي". فرد عليه منشيوس بقوله: " هلا ذكرت لي الفرق بين القتل بسكين حادة والقتل بعصا غليظة؟"، فأجابه الملك: " لا فرق هناك."، فسأله منشيوس: " فما الفرق، إذن، بين القتل بسكين حادة والقتل بواسطة القهر الذي تمارسه السلطة السياسية؟"، فأجابه:" لا فرق

فى هذا أيضا!" فقال الفيلسوف: "ومع ذلك، فبينما يعمر مطبخك بأزكى الطعام وتمتلئ حظائرك بأحسن الخيول المطهمة، يعانى الناس فى بلدك الفقر والجوع، حتى استلقوا فى الطرقات هياكل محطمة، كجثث افترستها السباع. وإذا كان الإنسان مجبولا على كراهية منظر الوحوش وهى تنهش وتتعارك وتلتهم فرائسها، فكيف تسكت (.. وأنت فى مكانة الأب) وتدع لحم رعاياك فى أنياب السباع الضارية، وقد قال كونفوشيوس ذات مرة : " إن من يصنع للناس توابيت الدفن، يمُتْ بغير ذرية تخلد اسمه بين الأحياء" وذلك لمجرد أن هذه المهنة تعتمد على التفرغ لطقوس الدفن وإقامة مراسم الجنائز ومواراة رفات الموتى. فما ظنك (.. لو كان كونفوشيوس حيًا قائما بيننا الآن، ويرى الأمر متعلقا بـ) أولى الأمر الذين يحاصرون رعاياهم بالجوع والحرمان؟"

١ – ٥ قال الملك ليانغ هوى، وهو يحادث منشيوس: " كانت دولة "وى" كما تعرف، أقوى مملكة على ظهر الأرض، أما اليوم فقد تغير الحال كثيراً، والمملكة التى كانت يوما، إمبراطورية متسيّدة تحت السماء، صارت نهبًا ممزقًا بين دولة "تشى" التى احتلت حدودنا الشرقية وسلبت الأرض والكرامة فى حرب مات فيها أكبر أبنائى، ودولة"جين" التى احتلت سبعمائة "لى" (ثلث الميل تقريبًا) من الحد الغربى (غرب النهر) بينما لقينا ما يهين الشرف ويندى له الجبين على يد مملكة "تشو" فى الجنوب، ولا أخفى عليك أنى – وأنا القائد – أشعر بالخزى والعار فى قرارة نفسى، وكم أتوق إلى الثأر لكرامتنا، وللشهداء .. ولكل من حارب ببسالة فى بلادنا ، فقل لى ماذا أفعل؟" وأجابه منشيوس، قائلا:" تستطيع أن

تصير إمبراطورا متوجا للأرض الصينية كلها، حتى وأنت في هذه المملكة التي لا تزيد على مائة" لي" مربع وذلك بأن تطلق يدك في الحكم على النمط العالي الشريف، ملتزما بالأصول والمبادئ الأخلاقية والإنسانية، بغير أعباء تثقل كاهل رعاياك؛ من ضرائب باهظة أو عقوبات ظالمة.

وتسير فيهم بسياسة رشيدة، ترعى شئونهم وتغل بالخير حصادهم، وتلهم قلوبهم - العامرة بعنفوان الحياة - معاني تفيض بالبر والإخلاص والتفاني والتبجيل (حتى يصير كل واحد منهم رحيمًا بمن يقيمون تحت سقف بيته، عارفًا بقدر ومكانة كل الناس تحت سماء الدنيا الواسعة، وحينئذ، فقط يستطيع رجالك أن يصدوا كيد مبغضيك وأسنة رماحهم، ولو بالعصي وأغصان الشجر الطرية، فيردوا عنك غارة قوات دولتي "جين" و"تشو"؛ ذلك بأنهما قد استولتا على أراضي رعاياك وحقولهم، فحالتا بين الناس وإعالة ذويهم، وفرقتا شمل الأسر والعائلات وأذاقتهم شر البلاء، حتى كاد الناس يفضلون الموت على الحياة، لذلك أرى أنك لو أرسلت بمن يصلح الأمور ويرد صولة المعتدى، لما قام في وجهك أدنى اعتراض. ولا تنس الحكمة القديمة التي تقول :" لا غالب لمن غلب بالحسنى، ولا عدو لمن أعدّ عتاد الفضيلة"، فالطريق أمامك، فالعزم العزم وحذار من التردد!"

١ - ٦ التقى منشيوس بالملك " ليانغ شان " [بن الملك ليانغ هوى] فلما خرج من عنده بدت عليه علامات الاستياء، وقال: " قابلت جلالته، والغريب أنني كنت أتطلّع إليه من بعيد فلا أجد عليه سيماء رجل الدولة المسئول، ثم التقيته وجهًا لوجه فما وجدت له سمة الملوك، ولا أمارات المهابة، ثم إنه ابتدرني - بغير مناسبة - بسؤال مباغت؛ قائلاً: " كيف يتحقق السلام

على الأرض؟"، فأجبته: "يتحقّق السلام إذا توحّدت الممالك."، فسألنى ثانية: " فمن يستطع تحقيق الوحدة؟"، فقلت له: " أى واحد ليست هوايته قطع رقاب الناس وإزهاق أرواحهم."، فسألنى: " فمن يتبعه أو ينصره إذن؟"، فأجبت: " لن يتخلّف عن نصرته مخلوق واحد على وجه الأرض، وقد بلغنى أن جلالتكم تعرف الكثير عن الأرض والزرع والحبوب والغلال، فما ظنك لو حدث مرة أن امتلأت صفحة السماء بالسحب الكثيفة أثناء شهور القحط، خصوصًا شهرى يوليو وأغسطس، ثم هطلت السماء مدرارًا حتى ارتوت الأرض، أما يطيب ذلك للبذور والثمر، فيتجدد النمو وتزكو الخضرة، وهو الأمر الطبيعى الذى لن تقف دونه أية موانع. ومن يتأمل أحوال زماننا - يا مولاى - ينظر حوله فلا يجد إلا راغبًا فى إزهاق أرواح الناس عازمًا على سفك الدماء. حتى لقد ظننت أن لو ظهر بين الناس رجل رشيد يبغض القتل، لصار الجميع خلفه ولتجددت به الآمال وتطلّعت إليه الأفئدة، وتبعته الخطى أينما سار، كما تطاوع المياه سيل النهر الجارى. وتلك أمور فى الطبيعة تدركها البديهة؛ فمن ذا يملك الوقوف فى وجه تيار عارم!"

١ - ٧ التقى منشيوس بالملك تشيشوان (تولّى الحكم من ٣١٩- ٣٠١ق.م)، فسأله الملك: " ألا يمكن أن تقص علىَّ قصة الأميرين " تشيهوان" و"جيون" وحكاية تورطهما فيما جرّ عليهما ما اشتهر عنهما من ظلم وطغيان ؟"، فأجابه الفيلسوف، قائلا: " لكن المشكلة أن أحدا من تلاميذ كونفوشيوس لم يترك لنا خبرًا عن هذين الرجلين؛ لذلك لا أجد من آثار الأقدمين شيئًا يفيدنا فى معرفة تفاصيل ذلك الأمر. وما دمت جلالتكم قد تطرقت إلى ذكر هذا الموضوع الليلة، فإنى أستأذنكم فى أن يدور

الحوار حول المغزى الحقيقى لممارسة الحكم فى الممالك وبشكل خاص حول الكيفية التى ينبغى أن يكون عليها الحكم فى ظل العرش الإمبراطورى المجيد؟"، فرد الملك قائلا: " فقل لى،إذن، ما هو الركن الأساسى والقاعدة المثلى التى يرتكز عليها العرش الحاكم وتنتظم بها أمور الممالك؟"، فأجابه منشيوس "إن وحدة الممالك التى تقوم على قلوب يؤلف بينها جلالة الملك بالحب والتفانى، لا يمكن أن تنال منها قوة أو أن تعترض طريقها عقبة أبدا."، وهنا سأله الملك :"فهل تنقاد لى قلوب الناس عندئذ بالحب والأمن والتفانى؟"، ورد الفيلسوف بالإيجاب فسأله الملك عن السبب فيما دعاه إلى الرد بهذه الثقة، فأجابه: " كان السيد"خوهى" أحد مستشاريك قد حكى لى مرة حكاية موضوعها أن جلالتك كنت جالسًا فى شرفة القصر ذات يوم فرأيت رجلا يسحب ثورًا فى الطريق، فسألته إلى أين يمضى بذلك الثور فأجابك قائلاً بأنه يريد أن يذبحه وفاء بنذر، فنهرته وقلت له بأن يدع الثور وشأنه لأنك لا تحتمل منظره وهو منكمش فى نفسه جزعا مما سيلقاه من الذبح، وأبديت استغرابك من أن يقدم الرجل على قتل ثور من دون ذنب جناه! وعندما سألك عما إذا كنت تقصد بذلك الامتناع عن الوفاء بالنذور، أجبته بالنفى وأوضحت له أن قصدك من هذا أن ترفع السكين عن رقبة الثور، وتذبح بدلاً منه كبشا أو عنزة صغيرة. ذلك هو ما بلغنى يا مولاى، ولا أدرى إن كان صحيحًا. فأكد له الملك صحة الواقعة، فقال منشيوس: " فهذا المعنى الكامن فى روح الشفقة والتراحم يكفى للتأليف بين قلوب الناس، وبرغم ما قد يشير إليه تصرف جلالتك من دلالة على التقتير أو الشح أو الإقلال؛ لكنى واثق من أنك قد صدرت فى قولك عن مشاعر حقيقية وأصيلة، مهما اختلف الناس حول

تأويلها . فقال له الملك:" نعم، هو كذلك حقا، لكن الشيء الغريب هو أن يفكر الناس على هذا النحو، فما الذى يدعونى أن أبخل بذبح ثور، وبلادنا - كما ترى - ليست ضئيلة الموارد والمساحة (بالدرجة الملحوظة) فكل ما فى الأمر، هو أنى تأثرت لمرأى الثور وهو مساق إلى الذبح ، وتخيلت منظر أحد الأبرياء وهو يقاد إلى ساحة الإعدام بغير جناية، فلذلك طلبت أن يُذْبَح كبش بدلا منه."، فقال منشيوس:" ومع ذلك فلا تلم الناس أن ظنوا بجلالتك البخل، فكيف لهم أن يدركوا نوايا قلبك الباطنة، ثم إن منطق العطف ومشاعر التأثر لمنظر ثور يساق إلى الذبح بغير ذنب ينطبق أيضًا على كبش الأضحية الذى سيلقى مصير الذبح نفسه، بغير إثم، أليس كذلك؟" وضحك الملك بسخرية، قائلا: "عجبًا للأفهام التى تحيرت طويلاً فى مسألة بسيطة كهذه! المسألة، يا سيدى، لا تتصل من قريب أو بعيد بالبخل الناتج عن شدة الحرص على ممتلكات ذات قيمة، أيا ما كانت، لكنها، ببساطة شديدة مجرد إحلال كبش بدل ثور.. لا أكثر ولا أقل!"

فقال الفيلسوف:" لا تشغل نفسك بهذا التقدير كثيرًا؛ فقد كان موقفك ، إجمالا، يصدر عن نية طيبة ومشاعر مرهفة. وعموما، فأنت لم تر بعينك سوى الثور، لكن الكبش لم يكن هناك .

وكثيرا ما تتأثر مشاعر أفاضل الناس وكرماء الخلق بأحوال الطيور والحيوانات، بمختلف أنواعها؛ حتى إنهم لا يطيقون رؤيتها ميتة، ومنهم من يقسم بألا يقرب لحومها إذا ما ترامى إلى سمعه صوت أنينها وصراخها الحزين؛ لذلك تجد الكثير من هؤلاء الناس يجعلون مطابخهم فى أقصى ركن من المسكن، إن لم يباعدوا بينه وبين بقية المنزل بمسافة.

وتهلل الملك قائلا:" إن قولك هذا ذكرنى بعبارة فى "كتاب الشعر القديم" مفادها:

".. ومهما تكن عند امرئ من خفايا ،

وإن يظنها تخفى عن الناس، تُعلم.."

وما ذكرنى بهذا القول إلا ما لمسته فيك من فطنه ومقدرة على فهم ما يجول بخاطرى من أفكار، كنت أنا نفسى لا أدركها على هذا النحو، حتى عندما كنت أخلو إلى نفسى وأحاول أن أجد رابطة منطقية بين هذه الأفكار .. لكن، قل لى، على أية حال، ما علاقة ذلك كله بتحقيق النموذج الأكمل للحكم فى المملكة؟"، فأجابه: "ماذا لو جاءك واحد وأبلغك أنه قد أدرك من القوة قدرا يمكنه أن يرفع ثقلا مقداره ألفى وزنة ، ثم تكشّف لك أنه لا يصمد تحت ثقل ريشة دجاجة ؟ أو زعم لك أنه قوى البصر حاد العينين، يرى أدق الأشياء؛ ثم إذا به يعجز عن رؤية عربة تحمل أطنانا من الحطب، فهل كنت تصدق مثل هذا الرجل لو جاءك بخبر؟"، فرد الملك بالنفى القاطع. فلما جاء الرد كما كان يتوقع الفيلسوف، انتهز الفرصة وقال لمحدثه:

"لا أرى من المفهوم أو المنطقى، يا مولاى، أن تقصر رحمتك على الدابة التى لا تعقل شيئًا، وتضن بذلك على الآلاف المؤلفة من أبناء شعبك، فلا فرق، من ثم، بين من احتمل أثقالا أو ريش دجاج، بل قد يتقاعس المرء عن حمل ريشة عصفور، مادام العصفور نفسه أهم عند الملك من الآدميين، ويعجز المرء عن رؤية عربة محملة بالحطب والخشب؛ إذ لا فائدة ترجى حينئذ من إعمال العين المبصرة بعد أن صارت والعمى سيين؛ مما

يعوق العدل والحكم الملكى القويم، فيضيع الأمن ويتبدد السلام، لا لصعوبة تحقيقهما، بل لعدم الجدية فى اتباع الطريق المؤدى إليهما. وهنا، سأله الملك شيوان:" فما الفرق بين العجز والتقاعس، حسب ما سقت من أمثلة؟"، فأجابه: " إذا قلت للناس إنك لا تقدر على أن تعبر النهر بوثبة واحدة وأنت تحمل على كتفيك أثقالا فى وزن الجبال، صار قولك مقبولا، والعجز مفهومًا؛ أما إذا قلت بأنك لا تقدر على أن تدلك جسد رجل مريض أقعدته الشيخوخة؛ فذلك تقاعس يصدر عن فتور، لا عن عجز قهرى ألجأتك إليه الظروف، فلهذا أرى أن الحال الذى يشهد بعدم تقديركم للحكم الملكى العادل على نحو ملموس، لا ينطبق على مثال عابر النهر بأثقاله الضاغطة، وإنما ينطبق أكثر على المتثاقل عن تمريض الكهل المتعلل بأوجاعه المتوهمة.

ثم إن العطف على الكبير والضعيف، سلوك ينبع من داخل جدران بيتك ليشمل الكبار والكهول ويحفظ لهم مكانتهم ويشمل أيضا الصبية الصغار، عطفا وحنانا، وهو السلوك الذى سينتشر خارج إطار أسرتك الصغيرة، فيدخل كل بيت فى مملكتك؛ وبهذا وحده، تتقلد صولجان الملك وتصير الآمر الناهى فى شئون بلادك، على النحو الذى تقرره بكل إرادتك، وقد جاء فى" كتاب الشعر القديم"، ما معناه:

" ليس للإمبراطور "أون" نظير ولا مثيل؛

بجملة ماشرّع لأهل بيته،

وما فرض على إخوته،

أبناء أمه وأبيه،

وكان مضرب المثل ،

فى الشرف والسؤدد بين قومه،

فانقادت له الممالك ،

فى خاتمة المطاف ."

والمعنى هنا واضح؛ إذ يشير إلى تعميم نطاق الخير بالتطبيق الأمثل للمبدأ الصحيح، فمن ثم كان لزاما أن تمتد آفاق الخير لتشمل القريب والبعيد؛ بالدرجة التى تحقق الأمن تحت السماوات السبع والبحار الأربعة (أى: فى كل الأنحاء..) وإلا تعذر على المرء أن يضمن الأمن والسلام ، حتى لامرأته التى تسكن بيته. وإذا تأمل الواحد منا سيرة قدامى الحكماء والقديسين، أدرك السر فى تقواهم واتضحت أسباب سعيهم الدؤوب فى توسيع نطاق الخير والفضل والخلق الكريم، فماذا حدث للناس فى زماننا إذن! إن ما حدث ، ببساطة، هو أنك يا مولاى تولى أهمية فائقة للعطف على الطير والحيوان، دون أن تمد يد العون للإنسان. والأمور تقاس بالتبصر وإمعان النظر [حرفيا: الموازين بأثقالها والأطوال بمقاييسها ..] فهذا ينطبق على تقدير الجرم المادى الملموس والمعنى الذهنى المدلول عليه؛ وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمعقول فى الذهن، والمجبول فى فطرة الوجدان والضمير؛ فتأمل ذلك واعلمه! ولا أدرى إن كنت دعيت داعى الحرب والقتال وجمعت ألويتك وفرسانك وألقيت البغضاء فى قلوب جيرانك؛ سعيا للفخار أو اختيالا باستعراض قوتك مجلبة للرضا والزهو وهدوء البال؟"

فقال الملك: " كلا.. لم أرد هذا؛ إذ ليس فيه ما يدعو للسعادة. إنما هو أمل يحفز الخيال، وطموح يدعو إلى التفوق."

فرد عليه منشيوس قائلا: " فهلا تفضلت جلالتك بأن تذكر لى هذا الطموح وذلك الأمل."، فلم تصدر عن الملك نأمة، سوى ابتسامة ارتسمت على محياه، لكنه سكت ولم ينطق بشىء. فواصل الفيلسوف كلامه، قائلاً.. أيكون دافعك لذلك بطنًا لا تشبع من نبت وافر وخير عميم، أم جسدًا لا يكتفى بما علبه من السندس والديباج الموشًى، أم عينًا لا تقنع بلون الحياة رائقا بديعا فتطلب المزيد؟ أم آذانًا ماعاد يشنفها أعذب الألحان؟ أم تراه أملاً في إعداد حاشية من رجال أكثر طاعة وأسلس قيادا وأكرم خلقا؟ وهو احتمال بعيد، لأن رجالك ووزراءك هم أشد الرجال طاعة وتفانيا وإخلاصا.... أيكون شىء من ذلك هو ما تطمح إليه جلالتك؟!.. فأجابه الملك: "كلا.. ما أردت شيئًا من ذلك قط."، فقال الفيلسوف: " قد عرفت، إذن، مبتغى جلالتك، ولا أظن الأمر يزيد على كونه تطلعا إلى توسيع حدود الإمبراطورية، وذلك بضم أراضى كل من دولتى"جين" و"تشو" وإرغام رجالها وأمرائها على الرضوخ لكم وتقديم واجب الطاعة والإذعان لقراراتكم، ليمتد سلطانكم فوق الربوع كلها، برغم تحقيق الأمن والسلام فوق تلك الأراضى التابعة، لكنى أقول لك إنك كنت تسعى جادا، بالفكر، لتحقيق هذا الطموح، فلست إلا صائد أسماك فوق أغصان الشجر."، فدهش الملك متسائلا: " أو ترى الأمر هكذا؟ (سيئا إلى هذه الدرجة) فأجابه: " بل أسوأ مآلا وعاقبة؛ فصائد الأسماك فوق أغصان الشجر، قد ينأى عن الضرر برغم فشل المسعى، إلا أن جلالتك لن تتمكن من تفادى الكوارث ما دمت عقدت العزم على المضىّ فى طريق آمالك وأحلامك."، فسأله الملك :" ألا تزيدنى تفسيراً وشرحًا لكلامك هذا؟"، فاستدركه الفيلسوف بما نصه: " فأنت، فقل لى- إذن - أى الجانبين

ينتصر إذا ما تصارعت مملكتا "تشو"و"تسو" معا؟"، فأجابه:" مملكة تشو، بالطبع!"، فقال له: " فمعنى ذلك، إذن ، أن دولة صغيرة لا تهزم أخرى كبيرة؛ ودولة ضعيفة لا تصمد أمام أخرى قوية ، ومجموع مساحة الممالك - كما تعرف يبلغ ألف "لى" مربع، تنقسم إلى تسع مناطق، ويبلغ نصيب مملكة "تشى" فيها مقدار التسع تقريبا (من المناطق جميعا) ولو قام فى ذهن أحدنا أن تتغلب دولة "تشى" بهذا الحجم على المناطق الثمان الباقية وتقهرها، فما الذى يمنع هذا التصور نفسه من أن يضع مملكة "تسو" فى مواجهة مع دولة تشو (بالصراع المسلح....) فلماذا نغفل جذر الأمر وأصل الموضوع. والحق أنه لم يعد أمامك إلا أن تصدر قرارًا عاجلا بتطبيق المبادئ الإنسانية: التراحم، الإخاء، الفضائل. وعندئذ، سيقصدك أصحاب الكياسة والفطنة من الملوك والوزراء والمسئولين، من أقصى أطراف الأرض، وتمتلئ مزارعك بكل يد تفلح وتبذر النبات، ويتكدس فى أسواقك الباعة والتجار من كل جنس ولون، وتصير الطرقات المؤدية إليك مزدحمة بأصناف من البشر، بكل أهل الدنيا، حتى المقهورين سيهرعون إلى أبوابك يسألونك العدل والإخلاص، فمن ذا يجسر على أن يصد زحفهم؟"

وهنا قال الملك:" إن ذهنى قد تبلد بعض الشىء، ولست أفهم مقاصدك، فهلا تفضلت بتفصيل الأمر وزيادة الشرح، وأرجو ألا يضيق صدرك بما يعسر علىَّ فهمه."، فقال له منشيوس:" ليس سوى أماجد الناس وأكرمهم أخلاقا هم الذين يقدرون على احتمال شظف العيش والرضا بما قسم لهم . أما عامة الناس فلا أظنهم تطمئن نفوسهم وسط الفقر المحيط بهم من كل ناحية، ويصير الاحتمال الأقوى أن تتكدر أحوالهم؛ فيعيثون فى

الأرض فساداً، ولا يتورعون عن اقتراف الآثام، ثم إنك لو حاسبتهم وأخذت على أيديهم إعمالا للقانون وحفظا للنظام كنت كمن ينصب مكائد لعماله ومواطنيه، يريد الإيقاع بهم من حيث لا يفقهون، فكيف يستقيم - فى نظرك - التخطيط لسياسة رشيدة تقوم على النزاهة والأخلاق الفاضلة، بينما تبحث يد القانون عمن توقع به فى مصائدها تربصًا بالناس، ثم تطلب إليهم تصديقها والانصياع وراءها فى طريق الإنسانية والخير والسلام!! لذلك يلزم الأمير الفطن الداهية أن يضمن لشعبه حياة رغد وهناء، يعم فيها الخير على الآباء وينعم فيها بالجود والكرم أحفاد الأحفاد، فتقر العيون وتشبع البطون فى وقت الرخاء، وتتصل القلوب بنبض الحياة أوان الشدة والبلاء، وعندئذ يصبح من الممكن الحديث عن مبادئ التراحم والفضائل والأخلاق، وحض الناس عليها ، وستجد الجميع، بعد ذلك، آذانا صاغية وحشودا طائعة، أما اليوم؛ وقد غابت مملكة الرخاء؛ فلا يجد المرء ما يقيم به شأن بيته بعد أن امتنع الخير وعم القحط، حتى صار مجرد البقاء حيًا، قصارى ما يستطيعه أو يتمناه إنسان، فإن الحديث عن الأخلاق والمبادئ والفضائل يعد لغواً من القول أو حديث أحلام وساعات ضائعة.

ولئن كنت ، يا مولاى، تتطلع إلى حكم قوى الأركان تتحقق فيه معانى الفضيلة والخير والإنسانية، فلماذا لا ترجع إلى المبدأ الأصلى الواضح والمعهود؛ وقد بلغنى أن عندك حديقة هائلة المساحة، فازرعها أشجار توت فلعلك بعد برهة تتيح للشباب من الذكور فرصة ارتداء أثواب حريرية. وابذل اهتمامك وعنايتك بتربية الحيوانات واحفظ مواسم تكاثرها، فسيعود ذلك عليك بالخير الواسع؛ إذ تطعم من لحمها العجائز والكهول وابذر

أرضك، فإن خمسين فدانا يمكن أن تغل ما يدفع غائلة الجوع عن ثمان عائلات كثيرة العدد، وافتح أبواب معاهد العلم والدراسة أمام الجميع، واجعل مواد الأخلاق والفضائل موضوعات دراسية مقررة ليشب النشء على احترام الوالدين وتبجيل الكبار؛ فلا يعود شيخ أو كهل يمشى فى الطرقات وعلى ظهره أحمال ثقال [هكذا] وتأمل معى بلدا يرتدى فيه الناس الحرير، وتعمر موائدهم باللحوم الطازجة، وينعمون بحياة هانئة بغير فقر ولا فاقة؛ ألا يصبح من السهل على الحاكم فى مثل ذلك البلد أن يقيم إمبراطورية إنسانية على أركان من المجد مدعومة بالخلق والرحمة والفضيلة ".

(الجزء الثانى)

(وجملته ستة عشر فصلا)

٢ - ١ فى لقاء بين وزير الدولة"جوانباو" والفيلسوف منشيوس، قال الوزير للفيلسوف:" كان جلالة الملك قد استدعاني وأخبرني بمدى حبه للموسيقى ، وأخذ يتكلم ويفيض، دون أن أفهم مغزى شغف جلالته بالموسيقى والألحان، فهلا أفدتنى بشيء مما عندك؟".

فأجابه منشيوس:" مادام البلاط الملكى لدولة تشى قد تعلق بالموسيقى إلى هذا الحد، فهذا دليل على مدى ما ينتظر المملكة من نهضة و رقىّ.

وفى أحد اللقاءات التى جمعت بين منشيوس وملك تشى، سأله الفيلسوف قائلا:" أصحيح ما بلغنى على لسان"جوانباو" من أن جلالتك تهوى سماع الموسيقى هذه الأيام؟"، فعندئذ تغير وجه جلالته وأجاب قائلاً:" ما قلته يومها بالضبط، هو أننا ما كنا نميل أبدا إلى سماع الموسيقى الإمبراطورية القديمة تلك التى عفا عليها الزمان؛ وإنما نحب الاستماع إلى الألحان (.. الشعبية) البسيطة الذائعة فى كل مكان." وهنا قال له الفيلسوف:" ما دام الأمر كذلك فلا بد أن مستقبلاً راقياً ومجيداً ينتظر دولة "تشى" ، وعلى أية حال، فالموسيقى الشائعة فى أيامنا هذه ليست إلا درجة متطورة من فنون النغم القديمة."، فقال له الملك:" فهلا شرحت لى ذلك، بقدر من التفصيل."، فرد الفيلسوف قائلاً: "بل قل لى أنت، أى

الأمرين أدعى للبهجة وأسعد للنفس، أن تسمع الموسيقى وحدك أم بصحبة الآخرين؟"، فأجاب:" مع الآخرين طبعا."، فسأله ثانية:" وأيهما تفضل وأنت تسمع الموسيقى: أن تكون بصحبة نفر قليل من الناس، أم جمهرة كثيرة منهم؟"، فأجابه الملك:" فى جمهرة كثيرة بالطبع!"، فانتهز منشيوس فرصة إجابة الملك بهذا المعنى وقال:" فاسمح لى جلالتك - إذن - بتبيان حقيقة ما يدعوه الناس شغفًا بفنون النغم والألحان، فمثلا لو أقمت جلالتك حفلا موسيقيًّا صاخبًا فى قصرك وضجت الألحان حتى تناهت إلى أسماع الناس دقات الطبول الهادرة وصفير الأبواق، وبلغ درجة من الصخب ضجر منها الناس وصار يقبل بعضهم على بعض وهم يتساءلون مستنكرين قائلين:" إذا كان مليكنا يحب الموسيقى إلى هذه الدرجة، فما له يوجع رؤوسنا ويؤذى أسماعنا، فالواحد منا لم يعد يجد صاحبًا يجيد الإنصات ولا زوجة ولا أخًا يتحدث إليه وسط هذا الضجيج."... ولو أقمت جلالتك - مثلاً - حفلة صيد داخل أسوارك الملكية، وأخذت العربات تهرع بالجلبة المعتادة فى كل الأنحاء، حتى تناهى ذلك إلى الناس خارج القصر وصاروا يشاهدون مراسم الصيد من بعيد، والبيارق الملونة الصاعدة فى السماء، فلا بد أنهم سيتكدرون للغاية وينطق ناطق أحوالهم بما فحواه:".. لئن كان الملك يهوى الصيد على هذا النحو، فما ذنبنا نحن وقد كدر صفونا وبدد هناءة عيشنا بما جلب علينا من تلك الأحوال، حتى بلغنا مبلغًا سهونا فيه عن أهم الأمور والغايات."... والعلة فى كل ذلك، ياسيدى، هى عدم مشاركة الناس فيما عنّ لك من متعة التذوق الفنى الجمالى، أما إذا أقمت حفلا موسيقيًّا فخمًا، فصدحت فيه الألحان حتى بلغت عنان السماء، والناس حولك فرحون متهللون، يقول أحدهم للآخر:"

ما أنبل روح جلالة الملك وما أعظم خلقه وأبلغ تقديره الفنى الرفيع، بما جبل عليه من إحساس مرهف بالأنغام والموسيقى." .. فإذا دعوتهم إلى حفل صيد عام، وأريتهم عرباتك الفخمة، وجعلت بأيديهم شارات المجد الملكى مشرعة، لرفعوا إليك وجه الابتهاج، ولتحدثوا فيما بينهم قائلين:" ما أبهى جلالة الحاكم وأتم حلمه وأبلغ مقدرته على تسيير دفة الأمور فى البلاد."

والسبب وراء ذلك يكمن فى مشاركتك إياهم مظاهر الفرح والابتهاج . فإذا استطعت أن تبلغ بهم تلك الحال، دانت لك قلوبهم ، ورضخت لك أعناقهم، وبلغت بهم جلال السؤدد والشرف الذى لا مزيد عليه."

٢ - ٢ تساءل جلالة الملك شيشوان، قائلا:" أصحيح مابلغنى من أن الملك "جوين" (مؤسس دولة جو) كان يملك مزرعة للصيد تجاوزت مساحتها سبعين ألف لى مربع؟"، فأجابه منشيوس:" ذلك ما ذكرته سجلات التاريخ!." فعاد الملك يسأله:"وهل كانت مزرعته على هذا النحو من الضخامة حقا؟"، فرد منشيوس، قال: "أنت، يامولاى، تراها فسيحة الأرجاء هائلة المساحة، لكن الناس - وقتئذ - كانوا يرونها أضيق من كوة وأضأل من جحر."، وهنا سأله الملك:" فما بال الناس يرون حديقتى أفسح وأكبر من كل ما سواها، بينما لا تكاد تزيد مساحتها على أربعين لى مربعا؟"، فأجابه منشيوس:" كانت حديقة الملك"أون" على اتساعها. يقصدها الصيادون والبستانيون، وقاطعو الأخشاب، وكل عابر طريق، فلم يحدث أن أغلقت أبوابها مرة دون أحد من هؤلاء، فلما غُصّت جنباتها بالواردين وامتلأت طرقاتها بالزائرين، أصبح الجميع يرونها ضيقة تكاد لا تنفسح دروبها لمسعى الزائرين؛ ثم

إنى أردت الدخول من أسوار مملكتك، فلم يتيسر لى ذلك إلا بما أملى علىّ من مواثيق مغلظة، وما أرغمت عليه من إجراءات مشددة تفرض الالتزام الصارم بما درج عليه الناس هنا من عادات وطرائق حياة. وقد قال لى القائل بأن هناك مزرعة صيد هائلة تبلغ مساحتها أربعين لى مربعا، تقع فى قلب بلادكم لكنى أبلغت بأن اللوائح تنص على أن من يطلق سهامه على أيل واحد من أيائلها فيرديه جاثيا، يقتل قصاصًا، فتؤخذ رقبة إنسان برقبة دابة، فمن يريد أن يجلب على نفسه الهلاك باقترابه من أسوار المزرعة؟ فمن ثم خَلَتْ كل تلك المساحة من الزائرين وصارت بلقعًا واسعا مترامى الأطراف. وأضافت الرهبة مساحة أخرى فوق وحشة المكان فبلغت أضعافا فوق أضعاف."

٢ - ٣ توجه الملك شيشوان إلى منشيوس، وسأله قائلا :" هل هناك أسس راسخة للعلاقات مع الدول المجاورة؟"، فأجابه :" نعم يا مولاى، فالكريم الفاضل هو وحده الذى يدرك أصول العلاقات مع الدويلات الصغيرة، بعقل واعٍ وقلب مفتوح، فلا يستنكف من أن يضع نفوذه الإمبراطورى ومكانته السامية فى خدمة دويلة مجاورة، وهناك أمثلة تشهد بصدق ذلك من التاريخ؛ إذ تحفل السجلات التاريخية بما قام به الملك "تانغ" (مؤسس أسرة يين الملكية) من خدمات جليلة للأمير "كيه"، ومنها كذلك ما قام به جلالة الملك أون (حاكم دولة جو الكبرى) لأجل العشائر القبلية المجاورة بمنطقة "كونى ". ثم إن الحكيم العاقل، ياسيدى، هو الذى يعرف كيف يوظف إمكاناته لمصلحة الدول الكبرى، وأشهر نموذج لذلك هو الملك"طاى" (أحد أحفاد ملوك أسرة جو الملكية) حيث أدرك وفهم الشروط التى أملتها

الظروف المحيطة والتى تجعل من الحكمة الإذعان لمصالح القوميات الشمالية الكبرى ذات النفوذ البالغ إبان فترة حكمه، ومن ذلك أيضًا ما انتهجه "كوجيان" (حاكم دولة "يوى") فى علاقاته مع "فوتشاى"(حاكم دولة "أو" - كما تنطق فى كلمة "أورشليم" - وكان هذا الأخير قد هزمه فى إحدى المعارك وفرض عليه شروط الاستسلام المهنية، فصد كوجيان وظل ينتهز الفرصة إلى أن سنحت له بعد سنوات، فلم يتوان عن الانتقام).

إن الجبابرة الذين خفضوا جباههم كرامة لجيرانهم الأدنى منزلة، ارتفعت هاماتهم بالرضا السماوى المجيد فنالوا السلام والأمان. أما الأذلة الجبناء الذين انسحقت رؤوسهم مرضاة لعروش أباطرتهم، فقد أدركوا بواطن الفطنة والعقل الراجح؛ بما أكبروا من ملكوت الجلال السماوى ونافذ سطوة الأقدار، فالذين أقاموا مجد الرضا السماوى، تمجدت عروشهم، وصاروا فوق الممالك هامات عالية بالعزة والجلال.

فأما المطروحة راياتهم إذعانا ورضوخا لقدر السماء فقد تجلت بالعزة أقدارهم وتقدست بنور المعرفة قلوبهم، فصانوا أوطانهم، ودام بقاؤهم الدهر الداهر. وقد ورد في كتاب " الشعر القديم" ما نصه:

" أقم مجد السماء

واحفظ مى قلبك عظيم سطوتها ؛

إجلالا ومهابة .

تتبدد غيوم الرهبة مى عينيك ،

ويشخص بك مى كل طرف،

شاهد سلام وأمان."

وهنا قال الملك شيشوان:" لا فض فوك، قد قلت فأوضحت المعنى وأبدعت المقال، غير أنى إذا تأملت خصالى - على ضوء ما ذكرت آنفا - ألفيتنى أشد ميلا إلى التفاخر، بما نلت من حظوة، وما امتلكت من قدرة تفوق مثالها لدى الآخرين. وأدرك أنها نقيصة لا تليق بالخلق الأتم، إلا أنى قادر على مغالبة ما استقر عليه الطبع وركز فى خصالى. وقال منشيوس : لا تدعن مظاهر القوة الساذجة تعلق بنياط قلبك، يا مولاى، ولا تكن كمن يجرد سيفه القاطع فى وجه الناس ويصيح متهدداً متوعداً بقطع رقاب من يجرؤون على منازلته؛ فمثل هذا الفخر لا يليق إلا بالعامة والدهماء ولا ينبغى لجلال منزلتك وعظيم بهائك إلا أن تسمو بمعنى الرفعة إلى آفاق المجد والشرف الملكى التليد.

وقد جاء مى كتاب "الشعر القديم" ما مفاده:

"قد اجتاحته ثورة غضب ملكى،

واستقرت مى قلبه مجمرة من عزة وإباء شريف،

مأصدر أمراً إمبراطوريًا

بحشد حشود وصد جحامل الغزو الغشوم،

مصدعت بالأمر أرتال ومواكب،

وانعقد للرايات،

خير الرجاء،

وعمرت بالفرح القلوب.

وقد بزغ نجم النصر المبين."

ففى هذا المعنى ما يمثل الفخر الشريف الذى يحث النفس على غضبة تثأر لنفسها من الذل الجبان وتهيئ للناس - من حولك - أسباب العيش الكريم فى أمان ودعة وسلام! ولعلى (.. أجد الفرصة الآن، مناسبة فـ) أذكرك، يا مولاى، بما جاء فى "شوجين"(كتاب التاريخ) من أن .."السماء التى وهبت الحياة لكل الناس ، وخلقت الدنيا للجميع، وجعلت للناس أربابا من فوقهم فى دنيا معاشهم، فأولئك هم الملوك الذين اصطفاهم رب السماء ليكونوا مثال فضل وقدوة صالحة ليحتذى الناس حذوهم مادام رضا السماء مبتغى جهدهم، وما دام حب الخير للناس هو قبلتهم التى لا يحيد عنها قصدهم. ألا إن الملكوت الأعلى يظل بظله المشارق والمغارب (.. وهو) فوق كل آثم فاجر وكل بر عفيف، وبيده القضاء فى المثاب والعقاب (..الكل رهن مشيئته) قد مضى حكم القضاء وقام حد القدر. بيد أن واحدا من الناس (.. ألا وهو الأمير الفاسـد"تشو" ... "أواخر أسرة شانغ الملكية، القرن الحادى عشر قبل الميلاد") انتقض سنة الملوك السابقين، فطغى واستبد وعاث فسادا، وسار فى الناس سيرة أحفظت عليه قلب العاهل الأكبر الإمبراطور "أو" [تنطق كما فى "الأورمان"] الذى ثارت فائرة غضبه فى إباء شريف، أطاح بالطغيان، وأقر العدل فى ربوع الممالك، فكانت تلك إحدى صولات الاندفاع الجرىء التى ما إن ينتفض بها عزم الملوك حتى

يسود الأمن والأمان تحت السماء؛ مما يحدو بالناس إلى القبول بشىء من رعونة الحاكم وصلابة جرأته على النحو الذى ذكرت لك."

٢ - ٤ التقى الملك شيشوان، فى "القصر الجليدى" بالفيلسوف منشيوس، وقال له:" هل ينعم الحكماء والفضلاء برغد العيش على نحو ما تجد حولى، فى هذا القصر؟"، فأجابه:" نعم ياسيدى، فالناس (.. الحكماء) إن لم تجد نعيم الحياة وتتمتع بألوان من رغدها، ألقت اللوم على الملوك والأمراء . ولئن كنت أنكر على اللائمين لومهم، إلا أنى لا أقر الولاة على الاستئثار بكل مجالات الاستمتاع بمباهج العيش دون العامة والبسطاء؛ فالحاكم الذى يجد فى الحياة الكريمة لرعاياه هناءة ورخاء، لزم على مواطنيه أن يروا فيما يحظى به من ترف ودعة، جدارة واستحقاقا وقسطاس عدل، وكذلك إذا تكدر قلب الملك لما أصاب رعيته من كرب وضيق، فسوف تحزن لمصابه قلوب الناس أجمعين. واعلم، ياسيدى، أن ملكا تقاسم مع شعبه حلو الحياة ومرّها لن يعدم وسيلة للحكم الرشيد، أو منهاجًا سياسيًا يقوم على العدل والتراحم.

وقديما، التقى "تشى جينكون" (حاكم دولة تشى) بالوزير الحكيم "يانزى" وطلب إليه الرأى والنصيحة حول أحد الموضوعات التى كانت تشغل باله، قائلا للحكيم: " هأنذا قد أزمعت السفر إلى منطقتى "جوانفو" و"جاوو" (.. مناطق تلال جبلية) ولعلى أنطلق من هناك بعد استراحة قصيرة، مسافراً بمحاذاة شاطئ البحر قاصداً الجنوب باتجاه منطقة لانغى . فبماذا تشير علىّ؛ كى أجعل من هذا السفر ترحالا شريفا مقدسا، كدأب الحكماء الأقدمين؟"، فأجابه الوزير يانزى قائلاً: " قلت فصدقت، فسألت

فـأحـسـنت السـؤال ياسـيـدى، ولئن طلبت إجـابتى فـإنى قـائل لك: إن الإمـبـراطور الأعظم ابن السـمـاء، ذهب ذات مـرة فى رحلة تفـقـدية إلى الإمـارات التـابعـة، والمقـصـود بالرحلة التـفـقـدية، القـيـام بزيارة إلى الإقطاعـيـات التى تحت سلطانه ليـقف على أحـوال الأمن فى المناطق الحدودية.

وذهب الأمراء للقاء جلالة الملك (خلال رحلته) فى طقـس رسـمى يعـرف بـ "تقرير المهام الوظيفيـة". والغرض من هذا الإجراء أن يقوم كل أمير بعرض تقرير مفصل أمام الإمبراطور عما قام به من أعمال أثناء توليه منصبه، ولم تكن الرحلة تخلو من مهام تفقدية متنوعة؛ ففى الربيع تجرى مراقبة أحوال الزرع والحرث [.. فيستقيم ما اعوجّ من الأمور ويوسع على الفقير، فيدفع عنه ما يجد من ضيق وشظف عيش]، وفى الخريف، يأمر جلالته بمراقبة أحوال الحصاد [.. حيث يصدر أوامره بتعويض الأسر التى تعانى من نقص فى الغلال] فكان الحـال مثـالاً لما نطقت به الحكمة الباقيـة من عـهد الملوك الأقدمين، تلك الحكمـة التى تناقلتـهـا الأجيـال، ومفادها.." من ذا يقعد ويهنأ له بال، إن لم يأتِ الملك ليتفقد الأحوال"؛ .. "من يرَ الملك وهو يسعى لمراقبة سير العمل، يشـهد بأنه خَير مثال يحتذى من جانب الأمراء والدهماء معا.".. أما اليوم، فقد تغير الأمر كثيراً؛ إذ أفرغت الغلال فى أفواه المحاربين فلم تبق حبة من محصول إلا أنفقت لأغراض القتال، حتى هلك الناس جوعًا، وكلّت سواعد العمال، وضج الكل بالشكوى، واكفـهرّت الآفـاق بأوخم العـواقب [وعلى الرغم من مثل تلك الرحلات الاستطلاعية] فالأمور تسير فى غير ما ترضاه إرادة السماء،

حيث يمارس الملوك ألوانا من الغش والخداع والبطش تدفعهم أهواء الترف والتبذير سراعا إلى المجون والانحلال مثلما يتسرب تيار الماء فى النهر الجارى، وهم على هذا النحو، تتلاطم الأمواج والتيارات نحو دوامة من الضياع، مما أوقع الخوف فى قلوب النبلاء الذين باتوا يتطلعون إلى تلك الأحوال ولا يملكون حيالها شيئًا، (ولئن قلت بأن الأمواج تتقاذفهم، فلأنهم..) ينزلون مع تيار الماء الجارى إلى منحدرات البذخ والدعة (أو..) يعاندون اتجاه المجرى بركوبهم تيار المجون والاستهتار، وهو ما لم يكن معهوداً فى مسلك الأباطرة من قديم، حيث لم يعرف عن أحدهم أنه قد أسلم قياده لمجرى يقوده نحو الهاوية، أو أنه انقلب ضد الاتجاه القويم موليا صوب الخطر، فمن ثم، لم يتهمهم أحد بالخلاعة أو الاستهتار إلا قليلاً من الأمراء الذين أساءوا إلى أنفسهم بما جنت عليهم أيديهم.

هنالك أحس النبيل"جينغ" ببالغ السرور، وقام باتخاذ كل الاحتياطات الضرورية من أقصى البلاد إلى أقصاها، وذهب ليقيم بأطراف الضواحى، ثم أصدر قراراً بفتح كل صوامع الغلال تلبية لحاجة الفقراء والمنكوبين، وجمع إليه كبار الفنانين والموسيقيين قائلا لهم:" اعزفوا ألحانا تبتهج بها قلوب الكبار والصغار [.. الأمراء والوزراء..] " ..فعزفوا له الأغنيتين المعروفتين باسم "جيجاو"و"جوكا جويتشاو"، وتذهب بعض مقاطعها إلى القول بما معناه:

"يهون كل الصعب،

مداءً لأمير البلاد ."

ولو أن المعنى الحرفى لذلك المقطع يفيد بأن:

"لاضير من إسداء النصح للأمير..

برغم ألفة الصحبة.. وغلبة المحبة..".

٢ - ٥ تساءل الملك شيشوان [أى الملك شيوان حاكم دولة تشى]، قائلا: "الجميع يريدون أن أهدم مقصورة "مينتانغ" [تلك التى أقامها حاكم "جو" فوق جبل"تايشان" لاستقبال الأمراء بها]، وقد ترددت مراراً وألمت بى الحيرة، ولا أدرى أأهدمها أم أبقيها كما هى؟"، فأجابه منشيوس:" إن "مينتانغ" قد أقيمت لتكون مقرا الشئون الملكية، فإذا كنت عازما على ممارسة سلطاتك بوصفك حاكم البلاد، فلا داعى لهدم منشأة رسمية تابعة للبلاط الملكي."، فقال له الملك:"فهلا تفضلت بشرح المقصود من مسألة ممارسة السلطة الملكية؟"، فأجابه:" عندما كان الملك "أون" يهيئ أسباب الاستقرار لمنطقة تشى ، فقد أخذ ضريبة الأطيان من المزارعين بواقع التسع من قيمة الأراضى وسمح للموظفين الرسميين بتوارث المنصب الوظيفى، وقصر مهمة المراقبين فى الأسواق والمعابر ونقاط المرور على التفتيش دون تحصيل أية ضرائب أو رسوم، وأزال الحظر المفروض على الصيد فى البحيرات والمسطحات المائية، وقصر تنفيذ العقوبة على المذنب دون أن تشمل أحدا من الأهل والأقارب [..فلا يحمل البرىء وزر الجانى] .

إن أربعة من الناس يعانون أسوأ مصير يمكن أن يلم بأحد من البشر (.. وهم)، الأرمل الذى ماتت عنه زوجته، والأرملة التى فقدت الزوج فى سنى الضعف والمرض، والشيخ الأبتر الذى بغير ولد، واليتيم الذى مات عنه أبواه فى طفولته، ولما كان الملك" جو" [أى الملك أون، حاكم دولة جو]

حريصا على تطبيق سياسة تقوم على الرحمة والإنسانية، فقد أولى عناية فائقة بأولئك الأربعة المذكورين سلفا [.. وبهذه المناسبة ف..] قد جاء فى كتاب" الشعر القديم" ما معناه:

"يهنأ ذو المال مى رغد من العيش،

مليس من جدير بالإشفاق

سوى شيخ ويتيم وامرأة

وكهل بغير ذرية.."

وهنا قال له الملك شيوان:" فنعم القول ما قلت إذن"، فرد عليه منشيوس قائلاً: "فلئن كان كلامى قد أعجبك حقا فلماذا لا تبادر إلى العمل به؟"، فأجابه الملك بقوله: " لكنى ابتليت بحب المال."، فقال له منشيوس:" قد كان النبيل الأمجد ليو (أحد مؤسسى عرش دولة جو) من قبلك نهماً إلى الثروة والمال (فلا عليك)، ومما يذكر فى هذا الشأن من قصائد"كتاب الشعر القديم" أبيات مطلعها:

"مى عهده [النبيل ليو] امتلأت الحواصل بالحبوب،

وعمرت المخازن بالغلال،

وأحيطت الأسوار بالحرس والأقفال،

ملما ماضت لديه المؤن

عبأ الذخائر

وكدس أكداسا من الأجولة،

وسار على رأس الفيالق غازيا

وقد شبعت البطون، وارتفعت الهامات عزيزة

والرايات خفاقة ،

خلف وراءه أرض بلاده،

وسار على كتائب

رامحة كثيفة الدروع ،

مشرعة السيوف. واترة الأقواس

تمضى وتضم إلى الأرض

ممالك وبلاداً جديدة ."

ومن ثم ترى جلالتك أنه ما كان يستطيع أن يتقدم فى حملته بكل تلك الثقة لولا ما خلفه وراءه فى بلاده من مخازن متخمة بالزاد الوفير، بالإضافة إلى ما كان يحمل فوق ظهور الخيل من أكداس الطعام وعدة الحرب؛ فما أجدرك بعرش الملك العظيم، إذ لا يحول حبك للمال دون انتهاج سياسة العدل والرحمة بين الناس."، ثم قال له الملك ثانية:" فما العمل وقد استولى على قلبى حب النساء من المحظيات والجوارى فى القصور؟"، فأجابه منشيوس قائلا :" قد كان الملك "طاى" [أحد ملوك أسرة جو الإمبراطورية وهو جد الملك أون] أيضًا، مولعا بحب النساء؛ إذ وقع فى حبائل محظياته.. (فما الغريب فى ذلك..) وقد قيل فى"كتاب الشعر" ما نصه:

"قام الملك طاى مى أول الفجر

وانطلق بجياده ،

مسار مع شاطئ النهر الغربى،

حتى بلغ سفح جبل تشى،

وكانت إلى جواره محظيته

الحسناء "جيايغ"

مابتنى هنالك قصراً حسب مشورتها."

لكن الجدير بالذكر هنا يا مولاى، هو ما يذكره الناس لهذا الملك من مآثر؟ حيث قيل "إنه لم يوجد فى زمانه فتاة عانس ولا رجل عازب؛ حيث لم تشهد فترة حكمه حالة عنوسة أو عزوبية واحدة؛ ذلك أن الجميع - ذكورا وإناثا - قد ارتبطوا برباط الزوجية، ولا أرى تناقضا بين أن تميل بكل قلبك إلى النساء وأن تتوفر فيك مقومات الحكم الملكى الرشيد ما دمت تتقاسم مع شعبك هناءة العيش ومتعة الحياة."

٢ - ٦تكلم منشيوس مع جلالة الملك شيوان، قائلا: "لو علمت أن أحد وزراءك قد أوكل إلى أوفى أصدقائه مهمة رعاية بيته وأولاده ريثما يسافر فى بعثة رسمية عاجلة إلى دولة تشو، ثم إذا به يجد أهل بيته، بعد عودته، قد أصابهم الجوع وعضّهم البرد، فماذا ينبغى للرجل أن يتصرف حيال صديقه؟"، فأجاب الملك: " عليه أن يقطع ما بينه وبين صاحبه."، فسأله منشيوس ثانية:" فكيف تفعل مع القاضى الأكبر لو علمت أنه تهاون مع مساعديه وقصر فى أداء عمله (برغم حساسية منصبه)؟"، فأجابه: "أعزله من منصبه على الفور"، فسأله منشيوس: "فماذا لو تردت القصور الحاكمة وفسد الملوك وتراجعت سياسة الممالك؟"، وهنالك بدا الارتباك على جلالته وأخذ يلتفت إلى جانبه، ثم أدار دفة الحديث فى اتجاه آخر.

٢ – ٧ التقى منشيوس بالملك شيوان حاكم تشى، وقال لجلالته:" لا يحق لأية دولة أن توصف بأنها إمبراطورية عريقة لمجرد أنها تملك مساحة أرض شاسعة، تغمرها الغابات وتظلها الأشجار، بل لأن رجال الدولة فيها، من ذوى المآثر الجليلة كابراً عن كابر، فما لى أراك فى عزلة عن وزراءك، ثم إنك، ياسيدى، قد أقصيت الكثير من رجال الدولة الذين كنت رشحتهم بنفسك لمناصبهم، فتفرقوا عنك ولم تعد تدرى من أحوالهم شيئا."، فسأله الملك:"وما وسيلتى لمعرفة غير الأكفاء كى أستبعدهم من الترشيح؟"، فأجابه منشيوس:

"[وكأنى بك تقول إن وسيلتك الجاهزة تقوم أساسا على اختيار غير المؤهلين!] إذا كان الملك (وهو سيد الممالك) يقف موقفا يجد نفسه فيه مدفوعا بحكم الاضطرار إلى ترشيح الأكفاء، من ذوى الموهبة والذكاء والخلق الكريم، فهذا أمر عجيب سينجم عنه فى آخر المطاف أن يعلو شأن الوضيع فوق الرجل ذى الشرف الرفيع، ويتفوق فيه النائى البعيد على القريب السديد: فهو أمر يتطلب منك غاية الدقة والحذر! (ومن ثم فـ..) لا يكفى أبدا أن يقول لك ثقاتك الذين عن يمينك وعن شمالك، إن فلانا هو أكثر الناس حكمة وعلما واقتدارا، ولا يكفى أن يقول لك كبار المسئولين (الوجهاء) عن أحد من الناس إنه الأقدر الأكفأ؛ فإذا اتفقت آراء الناس جميعًا بشأن ما يملكه شخص ما من جدارة وعلم وخلق، فابحث الأمر واعمل على استجلاء الحق في ذلك، وعندما تتأكد من صدق ما جرت به تقديرات الناس، تستطيع أن تسند إلى مثل ذلك الرجل أرفع المناصب؛ أما إذا حدثك خلصاؤك الذين من حولك بأن فلانا من أسوأ الناس، فلا تركن إليهم، وإذا أكد لك كبار الوجهاء أن ذلك الشخص المشار إليه هو أقبح الناس، فلا تُصغ إليهم، أما إذا اجتمعت كلمة الناس كلهم بأن الشخص

المقصود هو، بالفعل، الأقل جدارة والأحط شأنا والأدنى قيمة، فليكن ذلك موجبا لتقصى حقيقة أحواله، فإذا ثبت لديك صحة التقديرات، فاعزله من وظيفته. وقد يجيئك خاصتك من الملتفين حولك عن يمين وشمال، يطلبون إليك توقيع حكم الإعدام فى واحد من الناس، فلا تلتفت إلى ما يطلبون، حتى لو أقرهم على رأيهم كبار المسئولين والوجهاء لديك. بل حتى إذا توجهت إليك الأمة برجالها ونسائها تطلب إليك الأمر ذاته، إلا أن تفحص الأمر مليًا، وترى الرأى الحق بإعدامه، فيمضى فيه الحكم بذلك ساعتئذ؛ حيث يشيع القول بأن الناس جميعا هم الذين أنفذوا حد القتل بملء إرادتهم.

وأحسب أنك لو تصرفت على هذا النحو، لصرت جديرا حقا بأن تكون، للأمة كلها، الأب الحانى والأم الرؤوم."

٢ – ٨ تحدث الملك شيوان حاكم تشى إلى منشيوس وسأله قائلا:" هل نصدق الرواية التى تقول بأن الملك "طانغ" قام بنفى الملك المستبد "جيه" [آخر حكام أسرة شيا] خارج البلاد؛ وأن الملك "أو" قام بالقضاء التام على الملك "جهو" [أشهر الطغاة القدماء، آخر حاكم فى أسرة شانغ]؟"، فأجابه منشيوس:"هذا ما ذكرته سجلات التاريخ"، فسأله الملك: "وهل يصح أن يقوم أحد الوزراء بالقضاء على الملك؟"، فأجابه:

"من يهدم معنى الإنسانية، يسمى بالمخرب، ومن يضيع مبادئ الاستقامة، يسمى بالفظ القاسى القلب، فأما المخرب غليظ القلب الذى يهدم الإنسانية ويضيع الاستقامة، فلا يمكن أن يوصف إلا بـ الطاغية. [وقد بلغنا] أن أحد أولئك الطغاة – مثل الملك "جهو"– قد صدر ضده حكم بالإعدام، لكنا لم نسمع قط عن قيام الوزراء بقطع رقاب الملوك."

٢ - ٩ التقى منشيوس بالملك شيوان [حاكم دولة تشى]، فخاطبه قائلا:"إن بناء قصر كبير يستلزم تكليف المشرف على العمال بنقل وإعداد قطع هائلة من الأخشاب، فإذا ما قام الموظفون العاملون عندك بما أمرتهم به، أعجبت بهم ووثقت بكفاءتهم ودربتهم، فإذا جاء النجارون وعجزوا عن تقطيع الأخشاب على النحو الصحيح، غضبت وأسأت الظن بمهارتهم. [وكذلك] فالإنسان يدرس المهارات ويتعلم الأشياء فى صغره، وعندما يكبر فهو يحاول جاهدا في التدرب على ألوان من التطبيقات لاكتساب المقدرة على ما تعلمه وهو صغير، فإذا مَثُلَ أمام جلالتك، طلبت إليه أن ينسى كل ما تعلمه وأن يتبع أوامرك، حرفًا بحرف، فهل يمكنه ذلك حقا؟ [هذا من ناحية ومن ناحية أخرى] هب، الآن، أن لديك قطعة من اليشب [.. حجر كريمٍ] لم تصقل بعد، فهى لن تصير جوهرة - ولو بلغت قيمتها أثقالا من المال - إلا إذا قام على صقلها خبير عليم بمهارات حرفته، فإذا أدرنا الحديث إلى شئون البلاد وحكم الممالك، فها أنت ياسيدى تستدعى وزراءك وتخاطبهم بقولك.." اطرحوا جانبا كل ما تعلمتموه، واعملوا حسب أوامرى!".. فهلا تأملت لو قلت لخبير المجوهرات أن يطرح جانبا كل ما تدرب عليه وأجاده ليعمل حسب ما تأمره به فى صقل الماسات؟!"

٢ - ١٠ قامت دولة تشى بغزو دولة يان وانتصرت عليها [.. وذلك فى عام ٣١٥ق.م، حيث أراد الملك كواى، حاكم يان، التنازل عن العرش لرئيس وزرائه، فثار رجال الدولة والأمير ودبروا لخلع الملك ... ووسط الاضطرابات ، انتهزت تشى الفرصة فجاءت وهاجمت وانتصرت] وراح

الملك شيوان يخاطب من حوله بقوله: " كان البعض منكم يختلف معى حول مسألة غزو دولة يان، والبعض الآخر يؤيد ويتحمس بل يحثنى على الإسراع بالهجوم . إن قيام دولة، تملك عتاداً حربيًا قويًا [حرفيًا.. عشرة آلاف عربة حربية] بمهاجمة دولة أخرى تساويها فى القوة فتتغلّب عليها فيما لا يزيد على خمسين يوما (فهذا فى حد ذاته..) أمر يتجاوز طاقة البشر؛ ثم إنى – وقد نجحت فى ذلك – أرى أن أتقدم للاستيلاء على البلاد وإلا نزلت على رأسى الكوارث والمصائب من السماء، فأشيروا على بما ترون."

فأجابه منشيوس:" إذا كان دخولك البلاد جالبًا على أهلها الخير والسعادة، فامض ولا تنكص، وقد كان فى سيرة الأقدمين، كالملك أو – حاكم دولة جو – من فعل ذلك قبلك؛ أما إذا كان اقتحامك أرضهم سببا فى الخراب والبؤس، فارجع عما انتويت، وإنا لنجد فى تاريخ القدماء من آثر التراجع عن الهجوم فى مثل تلك الحال، كالملك أون، وإن دولة تملك قوة هائلة تهاجم أخرى مناظرة لها فى مثل قوتها، لن تجد مبرراً لدخول أرض عدوتها أقوى وأوقع من أن ترى الناس قد أسرعوا لاستقبال جنود الفاتحين وبأيديهم صحائف الطعام وأقداح الشراب فى ترحيب ولهفة، لا لشىء إلا رغبة فى الخلاص من "ضيق الأحوال وعسر الأيام" [حرفيًا: ماء غائر ولهب فائر] فإذا اقترن ذهابك إليهم بمزيد من العسر والضيق، فسيتحول الناس بحثا عن طريق آخر للخلاص [.. فى هامش التحقيق يشار إلى أن بعض التأويلات تذهب إلى أن المعنى الحقيقى للعبارة هو "إذا اشتد العسر بالناس فإنما قد تحولوا من حاكم إلى حاكم نظير، أى يصير الحكام عندهم نماذج متكررة لصورة واحدة من الطغيان!]

٢ - ١١ قامت دولة تشى بمهاجمة يان واستولت عليها، وهنالك راحت بعض الدويلات والإمارات المجاورة تتخذ التدابير لمساندة يان أملا فى الخلاص من الاحتلال، فجمع الملك شيوان إليه رجاله، وقال لهم:"ها هى ذى الإمارات والدويلات تسعى لمحاربتي، فبماذا تشيرون على للوقوف فى وجه تلك المحاولات؟"، فأجابه منشيوس:" قد بلغنى يا سيدى أن بلدا تبلغ مساحته سبعين لى تملك سلطة إملاء قراراتها على الآخرين، وهذا ما فعله - مثلاً - الملك طانغ، إبان حكمه، (وفى ظروف هيأت له ذلك)؛ لكنى لم أسمع قط أن دولة تمتد أرضها فوق ألف لى مربع ترتعد قط خائفة من جاراتها، وقد ورد فى كتاب"شانغ شو" [.. كتاب التاريخ] ما نصه:" لما بدأ الملك طانغ طريق زحفه، فقد بدأ بالإغارة على دولة "كى" لتكون عبرة لباقى الممالك، ثم إن الناس فى مشارق الأرض ومغاربها منحوه ثقتهم واعتقدوا فى صلاح حكمه، حتى أنه لما كان يتجه بقواته ناحية الشرق، فقد كان أهل الجهات الغربية يندبون حظهم ويتمنون لو كانت بلادهم تحت سلطانه، وكذلك إذا تحول بجيوشه صوب الجنوب، فقد كان الشماليون يتساءلون أى قدر تعس حال بين بلادهم وبين أن تكون أول ما ينبسط تحت ملكه العادل، فالكل كان يتطلع إليه كأنه ديمة تصب الغيث فوق أرض شقها الجدب، فازدهر البيع والشراء وكسب التجار معاشهم، وظلت الأراضى تعطى غلتها كالمعتاد بعد أن قضى الحاكم الجديد على الطغاة الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، فوقعت محبته فى القلوب مثلما يقع المطر على أرض موات فيحييها، فعمت الفرحة أرجاء الممالك والبلدان"، وذكر "كتاب التاريخ" أيضا ما نصه.. " (وقد هتف أهل الممالك جميعًا فى وقت واحد أن..) كم تطلعنا إلى سيدنا، سيد البلاد، فما جاء حتى نهض ناهض العز والمجد بعد طول هوان"..

ولا يخفى على أحد، الآن ، ما يصنعه حاكم دولة يان بشعبه من عسف وجور، فامض إليه وجرد عليه سيفك. فتتطلع إليك عيون الناس هناك بوصفك مخلصهم وحاميهم الذى سيخرجهم من الشدة إلى رخاء العيش وبهجة الحياة، فيخفون لاستقبال جيشك بأطباق الطعام وكئوس الشراب؛ فإذا قابلت ذلك بضرب رقاب آبائهم وحبس أبنائهم وهدم مقدساتهم ومعابدهم ونهب ثروات بلادهم، أيكون ذلك صوابا؟ لا تنس يامولاى أن كل البلاد تخشى سطوة تشى، فإذا بادرت إلى توسيع مساحتها وضم الأراضى إليها دون أن تمد سلطانها بقواعد تقوم على الحكم الرشيد والسياسات الإنسانية، فستثور ضدك كل الممالك وتزحف إليك كل الجيوش المدفوعة بالثأر والغضب والاستنكار. وأرى - ياسيدى - أن تسارع بإصدار أمر ملكى يقضى بإعادة الأسرى من العجائز والأطفال إلى ذويهم وإيقاف كل أنشطة نقل ثروات ومقتنيات الغير إلى البلاد، على أن تبدأ فورا فى مباحثات مع دولة يان بهدف تنصيب حاكم جديد للبلاد والبدء فى سحب قواتك من هناك؛ فتلك هى وسيلتك لوضع حد ممكن (..لأية عواقب قد تنشأ بسبب الأزمات.)"

٢ - ١٢ وقعت الحرب بين دولتى"تزو"و"لو" [تنطق كما فى "يتساءلون "]، (وفى غمرة الأحداث..) ذهب الوالى "مو"- أحد الوجهاء، ذوى الألقاب والوظائف المرموقة بدولة تزو، إلى منشيوس وسأله قائلاً: "إن ثلاثة وثلاثين رجلا من أفضل الضباط فى قواتى لقوا حتفهم أثناء الاشتباكات، ولم يحاول أحد من المواطنين أن يظهر روح البذل والفداء لإنقاذ الضباط الشجعان، (.. وقد بدا لى أن أعمل السيف فى رقابهم

جزاء تخاذلهم، ولكن..) إن قضيت على المتخاذلين بالقتل فهذا مستحيل؛ لأنهم الكثرة بحيث لا يحصيهم العد، وإن نحيت عنهم السيف، فسأظل أبغضهم لقعودهم عن نصرة وإنقاذ المقاتلين البواسل، فقل لي، كيف أسلك معهم؛ فأجابه منشيوس قائلاً: "في سنوات المحنة والشدة، تسقط أجساد الأطفال والشيوخ من شعبك على حواف الوديان وقد أنهكها الجوع والحرمان، ويرحل الفتية والقادرون إلى الآفاق المترامية بحثا عن الرزق، وهؤلاء المنكوبون يزدادون كثرة على مر الأيام، في حين تمتلئ حواصلك بالحبوب وتعمر خزائنك بالمال، ويحول رجالك بينك وبين الإلمام بالوقائع (حرفيا: يتقاعسون عن إبلاغك بالأحوال)، فذلك هو ما يشار إليه – عادة – من تجاهل المسئولين الكبار لشقاء الناس والتحامل عليهم بمزيد من الضغوط وصنوف المحن والآلام، ومما يؤثر عن (الحكيم) سنغ تسي قوله: " فليسمع الجميع عني وليصغوا جيدا.. مثلما تصنع مع الناس، يصنعون معك؛ وكيفما تعامل الناس، يعاملونك بمثله."، وقد عرف الناس كيف يثأرون لأنفسهم إذ تقاعسوا عن إنقاذ جلاديهم، وليس لك أن تؤاخذهم بشيء، بل إذا استطعت أن تسلك معهم بسياسة قائمة على الرحمة والإنسانية، فستجد منهم كل التفاني لك ولكبار المسئولين وستهون أرواحهم فداء لقادتهم."

٢ – ١٣ جاء الوالي "أون" – أحد الولاة بدولة "تنغ"– إلى منشيوس وسأله قائلا: "إن دولة "تنغ" ضئيلة المساحة متواضعة القوة، وقد حكمت عليها الأقدار بأن يأتي موقعها محصوراً بين دولتي "تشي"، و"تشو" [القويتين الجبارتين!]، فهل (يكون من الأفضل لها أن) تخطب ودّ دولة تشي، أم

تتقرب إلى دولة تشو؟"، أجابه منشيوس:" ليس فى مقدورى الحكم القاطع على الفكرة فى مجملها ، لكن إذا كنت تطالبنى بإبداء وجهة نظر وتقدير موقف، فلست أرى لك إلا رأيا واحدا وهو أن تحفر خندقًا كبيرًا حول بلدك وتغمره بالماء، وتبنى أسوارًا حصينة تحيط بكل ركن من أرضك، وتتحصن أنت وشعبك، مددا ومنعة وراء الأسوار، على استعداد للتضحية والفداء ، مهما كلفكم ذلك من مشقة، ولعلكم، بعد ذلك، بالغون شيئا من الأمل فى الصمود والنصر."

٢ - ١٤ جاء الوالى "أون" إلى منشيوس وسأله:" ماذا أفعل إزاء ما تقوم به دولة تشى من استعدادات وتحصينات بمنطقة "شيودى" وما تثيره من أجواء مشحونة بالقلق، وتبعث مخاوفى مما تدبره لبلادى؟"، فأجابه منشيوس :"يذكر التاريخ القديم أن الملك "تاى" كان يقيم بمنطقة"بين"، فلما أغارت قبائل الشماليين على بلاده، اضطر إلى نقل مقر إقامته بعيدا حتى أنه لم يجد إلا أن يستقر عند سفح جبل تشى، ولم يكن ذلك المكان الذى أراده بملء إرادته، بل إنه اضطر إليه اضطرارا، فإذا أقررتم فى بلادكم سياسة تقوم على التراحم والإنسانية والمبادئ القويمة، فسوف يتسلح أولادكم وأحفادكم بالقدرة على تدبير شئون الممالك [.. سياسة أمور البلدان]، والسيد المهذب [.. الحاكم العاقل] من يورث أبناءه مآثر جليلة تتداولها أيدى الأجيال، أما أن تكون تلك المآثر موضع تبجيل وتقدير حقيقيين، فذلك أمر بيد السماء وحدها فإرادة السماء غالبة، وبخصوص سؤالك عما ينبغى عمله إزاء دولة تشى، فلست أرى لك إلا الدأب والجد والمثابرة على تطبيق سياسات قائمة على مبادئ الرحمة والإنسانية."

٢ – ١٥ تساءل الوالي أون [من دولة تنغ] قائلاً: " ماذا أفعل، وبلادي الضعيفة محل أطماع جيرانها الأقوياء، وقد بذلت كل جهدي واستفرغت ما في وسعي لمخاطبة ود جيراني، زلفي وتقربا إليهم، فما استطعت أن أزيل المخاوف أو أقضي على أسباب الخطر؟"، وأجابه منشيوس قائلا:" كان الملك "طاي" [من حكام أسرة جو] فيما سلف من الدهور، مقيما بأرض"بين" التي لم تسلم من غارات القبائل الشمالية عليها، فحاول الملك جاهدا التقرب إلى رؤوس وقادة تلك القبائل بأحمال وافرة وهدايا لا تحصى ولا تعد من الحرير والفراء والجلود الثمينة، ولم يغنه ذلك شيئا؛ فأرسل إليهم بأمهر الجياد وأوفر الدواب، فلم يردهم عن خبيث نواياهم؛ فحمل إليهم الأحمال الزائدة من اليشب والياقوت واللآلئ، وبقي – رغم كل ذلك – لا يأمن غدرهم، فجمع إليه كبار قومه وحدثهم بقوله.." لا أرى إلا أن البرابرة الشماليين طامعون بأرضنا، وقد علمت أن الحكيم الفاضل [.. المستحق للملك والسيادة في قومه] لا ينبغي له أن يجعل من الأرض التي هي منبت الزرع ومشتل البذور ومعاش الناس، سببا في هلاك قومه، ولا أجد ما يدعوكم إلي اليأس إذا تنحيت عن منصب الحاكم، ثم إني قد عزمت على الرحيل عن هذه الأرض" التي تقطنون بها.

وقام راحلا عن أرض "بين" فعبر جبال "ليانغ" حتى بلغ تلال "تشي" فأقام في سفحها وأسس هناك مدينة جعلها مقرا لإقامته، فرأى ذلك أهل بين؛ فأثنوا جميعا عليه بقولهم: "ما أكرمه من ملك جمع بين الخلق الكريم والفضائل الإنسانية، وعزّ عليهم فراقه، فلحقوا به وأتوا إليه حشودا دافقة. يجر بعضها بعضا من كثرة التدافع والزحام .

وقد بلغنى أن منهم أيضا من قال:" لا تفريط فى الأرض التى خلفها لنا الأجداد كابرا عن كابر، ولا ينبغى لكائن من كان، بمفرد رأيه، أن يسلك فيما يؤدى إلى ضياعها بل إن الموت فداء لها أهون علينا من الرحيل عنها شبراً واحداً.

فهكذا رأى القوم، يا سيدى، رأيين مختلفين، فاختر لنفسك منها ما تريد."

٢ - ١٦ كان النبيل "بينغ" (أحد نبلاء دولة لو) خارجا من قصره، فاستوقفه تابعه الأمين، "صانغ صان" - وكان أثيرا لديه - وتقدم منه قائلاً: "قد جرت العادة أن تحدد لقائد مركبتك، والوفد المرافق لسيادتكم، خط سيركم والجهة المزمع زيارتها، فها هى المركبة والحوذى، ورجالك جاهزون جميعًا، فأبلغنا - لو تفضلت - أين تريد الذهاب، واغفر لى ثرثرتى (.. وتدخلى الزائد فى التفاصيل!)، فأجابه النبيل "بينغ": "أريد الذهاب لمقابلة منشيوس الحكيم."

فسأله"صانغ صان"، ثانية:" هلا ذكرت أسباب الزيارة من فضلك؛ إنك إذ تبادر إلى زيارة رجل من العامة فأنت - يا سيدى - تقلل من مركزك الاجتماعى ومكانتك السامية. أو تظن أنه ذو خلق وفضائل وعلم غزير؟ إن أهل الخلق والفضائل هم حقًا الذين يعملون ويحافظون على الأعراف وأصول المعاملات. أما المدعو منشيوس، (فلا دراية له بتلك الأصول، إذ..) ارتكب خطأ جسيمًا (يتعلق بأقدس الأصول جميعًا، وهى أصول مراسم دفن الآباء والأجداد) فى مراسم دفن والديه، فكانت مراسم دفن

أمه تتجاوز فى تكاليفها ما قام به عند تقديم قرابين الدفن فى وفاة أبيه [.. وهكذا فإن امرءًا مثله ليس أهلا للتعارف..] فلا يليق بجنابك الأفخم أن تسعى إلى مقابلته."

فوافقه النبيل قائلاً: " فلن أذهب إليه، إذن." وذهب يوجين (أحد كبار الموظفين) إلى مقابلة النبيل"بينغ" فى قصره، فلما التقى به ابتدره متسائلا:

" لماذا لم تذهب لمقابلة منشيوس؟"، فأجابه النبيل قائلا.. قد ذكر لى أحدهم أن منشيوس هذا قد تجاوز فى تكاليف إقامة مراسم دفن والدته ما قام به فى مراسم دفن أبيه؛ فمن ثم عدلت عن زيارته ."

فجادله"يوجين" بقوله: " ما الذى تقصده ياسيدى بقولك إنه "تجاوز" فى تكاليف إقامة المراسم، أتقصد بذلك أنه لما كان، وقت وفاة أبيه، فى مرتبة اجتماعية أقل [.. مرتبة يحصل عليها الدارس"شى"، معناها "الوجيه الأمثل"] فقد كانت الطقوس تجرى وفق تلك الدرجة الأدنى، فلما ارتقى درجة أعلى إبان وفاة والدته (وهى درجة "دايفو"= موظف عظيم) فمن ثم استطاع تقديم قرابين جنائزية أرقى قيمة؟ بمعنى أنه فى المرة الأولى قدم القربان الجنائزى على المرجل المقدس الثلاثى (ذى الأرجل الثلاثة)، وفى المرة الثانية قدم قرابينه على المرجل الخماسى؟.. فأجابه النبيل بينغ قائلا: " لم أقصد شيئا من ذلك، بل أردت القول إن التوابيت والأكفان الجنائزية التى صنعها لوالديه كانت على درجة متفاوتة من الإتقان والجودة."

فقال له محدثه:" إذن، فلا يمكن أن نسمى ذلك"تجاوزا" فى التكاليف الجنائزية، وإنما الصحيح أن يقال إن الفارق الملحوظ بين طقوس الجنازتين كان سببه"ضيق ذات اليد" في المرة الأولى، عنها فى الثانية؛ فقد كان الرجل فقيرا أول الأمر، ثم تيسرت حاله فيما بعد."

فلما التقى يوجين مع منشيوس، قال له:" كنت أتجاذب أطراف الحديث مع النبيل بينغ بشأنك، وكان قد أعد العدة لزيارتك، إلا أن أحد رجاله، ويدعى "صانغ صان" حال بينه وبين تلك الزيارة، فعدل عما كان قد اعتزمه."، فقال منشيوس :

"قد يتم إنجاز عمل ما بفضل اجتهاد الناس ودأبهم، وربما تعطل أيضاً، لأن الناس أنفسهم وقفوا حجر عثرة فى سبيل تنفيذه، إلا أن إنجاز الأعمال من عدمها، عموما، لا تقررها الإرادة الإنسانية وحدها؛ ذلك أن عدم لقائى بالنبيل الأمثل بينغ، كان أمراً قررته إرادة السماء، أما ذلك المدعو صانغ، فلم يكن يملك أن يمنع شيئا بإرادته."

الباب الثانى

كونسون شو
(الجزء الأول)

(وجملته تسعة فصول)

جاء كونسون شو (تلميذ منشيوس) إلى أستاذه الفيلسوف، وسأله:

٢ - ١ "ماذا لو كنت ياسيدى تدير دفة الحكم فى دولة تشى، أكنت تحيى مآثر كل من السيدين الجليلين.."كوان جون" و"يان تسى" [الأول كان يتولى منصب الوزير الأعظم فى دولة تشى؛ والثانى تولى أحد المناصب الوزارية فى الدولة نفسها خلفًا لأبيه المتوفى] وتحذو حذوهما؟"، فأجابه الفيلسوف منشيوس قائلا:"وإنك لجدير بأن تكون من مواطنى دولة تشى؛ إذ لا يخطر ببالك سوى ما خلّف هذان السيدان الجليلان من مآثر. وقد قيل إن رجلا سأل، مرة، "سنغ شى" قائلا له:" أيكما أكثر كفاءة وحكمة، أنت أم الحكيم الفاضل"زيلو"(تلميذ كونفوشيوس)؟"، فأجابه سنغ شى وقد استولى عليه القلق:" قد كان زيلو نموذجًا فى الحكمة والخلق سار على نهجه آبائى وأجدادى!، فعاد الرجل يسأله:" فماذا عن كوان جون، أأنت أم هو الأكثر حكمة وخلقا؟" وهنالك اربدّ وجه سنغ شى غضبا، وأجابه:" لماذا تريد أن تضعنى فى مقارنة مع كوان جون؟ أما علمت أنه ما تولى المنصب ولا كان

له النفوذ الذى تمتع به إلا بفضل ما أولاه له سيده وأميره هوان كونغ من ثقة، وما كان له قدم راسخة فى شئون الحكم إلا بما أتيح له من أن يشغل مواقع سياسية عليا لفترة زمنية طويلة؛ وبرغم ذلك، فلم يكن له رصيد يذكر من الإنجاز والمآثر الباقية، فكيف تقارن بينى وبينه، وماذا تقصد من ذلك؟، [ثم واصل منشيوس كلامه قائلاً..] فإذا كان سنغ شى يأبى أن يوضع فى مقارنة مع كوان جون، فهل ترانى - بعد ذلك - أغبط هذا الأخير على شىء، أو أراه محل تقدير واقتداء؟"، فقال كونسون شو:" لكن التاريخ يذكر لـ كوان جون أنه أعان سيده على اعتلاء عرش إمبراطورية بسطت ظلها فوق الممالك؛ مثلما يذكر التاريخ أيضًا أن يان تسى لم يتوان عن أن يبذل روحه كى يبنى لسيده قواعد المجد ودعائم القوة، أفلا يدعوك ذلك كله إلى تقدير دور هذين السيدين، وجدارتهما بالعرفان والثناء؟"، فرد عليه منشيوس بقوله:"إن الصعود بمكانة دولة تشى إلى مصاف الإمبراطوريات العظمى، أمر فى غاية السهولة، [حرفيًا: أمر يبلغه المرء بيسر، مثلما يقلب كفيه ذات اليمين وذات الشمال!]، فقال كونسون: "إن كلامك هذا ياسيدى يثير حيرة دارس متواضع الحظ من العلم مثلى؛ ذلك أنه، وحسب منطقك، فإن جلالة الملك أون - من دولة جو - بكل ماعرف عنه من سيرة حسنة وخلق كريم وعلم غزير على مدى سنوات عمره، التى شارفت المائة، لم يقدر أن يبسط آراءه، ويمد رقعة التنوير بعلمه فوق مساحة هائلة من الدويلات الخاضعة لسلطانه، بل إن الأمر تطلب جهودا أخرى فوق جهوده، قام بها خلفاؤه: مثل الملك "أو"، والنبيل "جو" اللذين واصلا رسالته، فأتما - ببالغ الجهد - مابدأه، فنشرا أفكاره ومبادئه فى كل الأنحاء؛ ثم ها أنت تقول بأن سياسة شئون الممالك أمر فى غاية

اليسر، أفلا يعنى، كلامك هذا، أن الملك أون نفسه، بكل ماعرف له من مكانة، لم يخلف لنا نهجا جديرا بالدرس والاقتداء؟"

فأجابه منشيوس قائلا:" تلك مسألة لا تستدعى أية مقارنة بالملك أون من قريب أو بعيد؛ وعندما نطالع الأحوال منذ تولى الملك طانغ سُدة الحكم حتى ولاية الملك"أودينغ" [فى ظل أسرة شانغ الملكية] نلاحظ أنه كان هناك ستة أو سبعة ملوك ذوو حلم وعلم وحكمة، أسهموا فى ترسيخ سلطة أسرة"يين شانغ" الحاكمة فوق الممالك، فلما طال أمد الحكم، تضاءلت أسباب التغيير، فى حين استطاع الملك "أودينغ" أن يفرض سلطانه ويخضع أمراء الدويلات تحت نفوذه حتى مثلوا بين يديه صاغرين، وانقادت له الممالك، فقام على سياستها بأيسر من تقليب كفيه ظاهرا وباطنا، (.. وتعال نتناول - على سبيل المثال - سيرة حاكم آخر على سبيل تبيان الفروق الدالة بين الحكام بعضهم بعضا) وهاك حاكم مشهور فى التاريخ مثل الطاغية الجبار جو [آخر ملوك أسرة شانغ] الذى كان يتولى العرش فى فترة زمنية لا تبعد كثيراً عن الفترة التى حكم فيها الملك الفاضل الحكيم أودينغ، وكانت أسرة شانغ الحاكمة تعيش - آنذاك - زمان مجدها وأوان ازدهار مآثرها، وتألّق أنوار الأصالة القائم على أسس من التقاليد العريقة والشموخ الذى كان يميز روح عاداتها وأساليب الحياة الراقية، تحت ظلال عزها وكانت عروش ملوكها - كالعادة - مثالا باقيا للرحمة والإنسانية والحكم الرشيد؛ ثم كان هناك، إلى جوار الملك "جو"، المشار إليه آنفا، خمسة من أشهر ذوى الحلم فى عهده، وهم ..النبيل"وى"، وابنه"ويجون"، وصاحب الرفعة الأمير بيكان، نجل الملك

نفسـه، والنبيل "جينتس"، و"جياوكي" ، فكانوا يؤازرونه ويبذلون له الرأى والمشورة، فاشتدت أركان مجده ودام له الملك زمنا طويلا (أما بالنسبة للطاغية جو) فقد كان كل شبر من الأرض فى تلك الفترة ملكًا له، وكل فرد من الرعية رهن إشارته تابعا مخلصا لعرشه، وهو ما لم يستطع تحقيقه الملك أون، برغم أنه استطاع بالكاد أن يقتطع لنفسه منطقة نفوذ لا تتجاوز مائة لى مربع؛ مما جعل مواطنى دولة تشى يتناقلون فيما بينهم حكمة سائرة مفادها أن.." الحيلة لا تغنى عن اغتنام الفرصة، ولا فائدة ترجى من الفأس والمحراث، لمن لا يقتنص مواقيت الزرع والحصاد ." (وأرى أن هذا الأوان مناسب تماما..) فاقتنص فرصة إقامة إمبراطورية على أسس من المجد، ولقد سعت من قبل الممالك لتأسيس عروشها (مثل دول ..شيا، وشانغ، وجو) فوق أرض لم تكن تزيد مساحتها، فى أحسن الأحوال، على ألف لى مربع، فى حين كانت أرض دولة تشى تزيد أضعافا مضاعفة، يقطنها عدد هائل من السكان تسمع فى جنباتها أصوات الطير والداجن. (إن بلدا كهذا..) لا ينبغى له أن يسعى لتوسيع نطاق حدوده ولا لزيادة عدد سكانه؛ (..لكى يؤسس مشروع إمبراطورية..) ذلك أنه إذا أقر سياسة تقوم على الإنسانية خضعت الممالك تحت سلطانه واتحدت جميعا تحت لوائه، وتخاذلت خصومه عن مناوأته، (واعلم أنه..) لم يشهد الزمان عهدا بعدت به الشقة عن الحكم الرشيد القائم على المبدأ الإنسانى، مثل هذا العهد، ولم يسبق أن جرب الناس ظلما حاق بهم، أورثهم البؤس والسقام، مثلما جربوا فى أيامنا هذه. حتى لقد تقلصت البطون جوعا ويبست الشفاه عطشا (فما عاد الجائع ينتقى مايأكل ولا عاد الظامئ يتأفف من فساد الماء.. وفى هذا الصدد فـ..) قد قال كونفوشيوس:

"تنتشر الفضائل بين الناس، فى زمن الحكم الرشيد، بأسرع مما تنتشر وتذيع الأوامر الملكية نفسها"، وفى ظل الأحوال الماثلة، فإن السعادة التى يمكن أن يتمتع بها شعب فى ظل حكومة قوية تطبق المبادئ الإنسانية لا تدانيها إلا مشاعر السعادة لدى من تحررت أعناقهم من أغلال العذاب والقهر، ومن ثم، فإن اتباع منهج الأقدمين، ولو بنصف طريقهم ومسلكهم الرشيد، حقيق بأن يقود إلى نتائج شديدة التفوق، بل قد تتجاوز أضعاف ما أنجزه الأقدمون أنفسهم، وهو أمرٌ سهل المنال حينئذ."

٣ - ٢ ذهب كونسون شو إلى منشيوس وسأله:" أترى ياسيدى، لو توليت حقا وظيفة مرموقة فى مجلس الوزراء، أكنت تضع وجهات نظرك ومبادئك السياسية موضع التنفيذ، دون أن تدهش لما قد يؤدى إليه ذلك من دعم قواعد الحكم الملكى أو حتى ، تعاظم الهيمنة الإمبراطورية (فوق الممالك) وطغيان السلطة الحاكمة. أترى لو وقفت حقا، مثل ذلك الموقف، أما كان يصيبك ارتباك وتتسرب الحيرة إلى قلبك؟"، فأجابه منشيوس:" كلا، ما كان ليصيبنى شىء من ذلك وقد جاوزت الأربعين من عمرى."، فسأله كونسون شو:" فأنت، إذن، أقوى إرادة وأصح عزما من السيد"منغ بن"، فأجابه:" ليس الأمر بالشىء الصعب، وقد رأيت السيد الفاضل"كاوتزى" بعينى رأسى، وهو فى أتم رباطة جأش وشدة بأس."، فسأله كونسون:" فما الوسيلة لكى يصبح المرء راسخ الإرادة، موفور الثقة بالنفس؟"، فأجابه:" ينبغى - أولاً - أن يتحلى المرء بما أوتى السيد "بيكون يو" من التحلى بالشجاعة ؛ بحيث لا يتألم إذا ما انغرس فى لحمه الشوك والإبر، ولا يرمش بعينه إذا ما وخزت أجفانه بالمخارز؛ وكلما عرضت له

المتاعب والنكسات، تاقت نفسه إلى الخلاص منها، كأنه يتخلص من عار أو فضيحة انتقصت من قدره على مرأى من الناس أو مسمع من ذوى النفوذ والسلطان؛ إذ إنه يأبى إلا أن يتعرّض لأدنى قدر من إهانة، سواء صدرت عن زرىً حقير، أو عن أمير أو بطل صنديد (.. يقود عشرة آلاف عربة عسكرية)، ثم إنه لا يهاب أن يأخذ بناصية أمير مثلما لا يرى بأسا من أن يحزّ عنق صعلوك حقير (لا يخشى امرءا ذا منصب رفيع ولا يهاب رجلا تدنت منزلته!) . لا يتورع عن أن يرد الإهانة بأقبح منها حتى لو صدرت عن كبير الولاة.

[وهناك وسيلة أخرى كتلك التى نجد مثالها الواضح عند..] "منغ شى شا" ذلك الرجل المشهور بالشجاعة الفائقة، الذى يؤثر عنه قوله:" يستوى عندى الجبار الذى لا قاهر له، والضعيف الذى لا خوف منه؛ إن أولئك الذين لا يبادرون إلى قتال أعدائهم إلا بعد تقصى الأحوال ودراسة احتمالات النصر أو الهزيمة، يخشون كثرة القوات والحشود التى يتعين عليهم مواجهتها، ولا أدرى كيف يمكن للمرء أن يضمن تحقيق النصر؟ إن كان ما يعنينى هو أن أتقدم بغير خوف." وهذه الطريقة التى يسير على منوالها "منغ شى شا" تشبه إلى حد كبير أسلوب سنغ زى [أحد تلاميذ كونفوشيوس]، أما طريقة "بيكون يو" فتماثل نهج زيشيا [.. أيضًا من تلاميذ المعلم الأكبر]، ولا أستطيع أن أحدد أى الأسلوبين فى الشجاعة هو الأوقع والأجدى، وإن بدا نهج "منغ شى شا" أبسط كثيراً وأشد وضوحا وتركيزا. وكان سنغ زى قد تحدث إلى زيشانغ فيما سلف من الزمان فقال له: " أتحب الشجاعة حقا؟ كنت قد سمعت كونفوشيوس يتحدث فى هذه

المسـألة، فقـال.." إذا حـاسـبت نفسـى وراجعت ضـمـيرى ثم اكتشـفت بأنى مخطئ، ولو فى حق امرئ بسيط المكانة، وضيع الشأن فلن أجد فى نفسى الشجاعة على مواجهته، فضلا عن منازلته؛ أما إذا أظهرت لى، مراجعتى لنفسى بأنى على حق، فلن أتوانى عن مواجهة جيوش بكل عتادها وعدتها(حرفيا.. ألف كتيبة وعشرة آلاف فارس)".. إن موقف منغ شى شا، فى هذا الشأن، القائم على مبدأ التشبث بالشجاعة المطلقة، أدنى كثيرا من نهج سنغ زى فى بساطته ووضوحه .

(فقال له كونسون شو): " أتسمح لى بأن أتجرأ وأسألك، ياسيدى، عن الفرق بينك وبين (الفيلسوف) كاوتزى فيما تتحليان به من هدوء نفس وثقة؟"، (فأجابه منشيوس قائلاً:) "كنت سمعت كاوتزى، ذات مرة، وهو يقول:" إن ما لا تجد وسيلة إليه بالكلمات، فلا تسعَ إليه فى باطنك، فإذا لم تجد إلى معرفة الباطن وسيلة ، فلا تبحث عنه فى إحساسك (الإرادة والوعى والإدراك)"، وهو قول صحيح فى معظمه؛ ذلك أن قوله بعدم جدوى البحث فى الإحساس عما لم يجد لمعرفته وسيلة بالكلمات. يعد صحيحا تماما، أما ما يقوله من الحيد عن البحث فى باطن النفس عما لم يجد إليه سبيلا بالكلمات، فهو خطأ كبير، إن نوازع بواطن النفوس هى التى تقود الإحساس، والإحساس (الوعى) بدوره هو مكمن الطاقة فى الجسد كله؛ فالنوازع والتطلعات تأتى فى المرتبة الأولى من الأهمية، أما الإحساس فذو أهمية ثانوية؛ لذلك يقال بأنه.." ينبغى على المرء أن يكون ذا طموحات وتطلعات، دون التعويل على المشاعر والأحاسيس.".

ثم تحدث كونسون شو، قائلاً: "قد التبس الأمر على، ياسيدى، فأنت تقول فى الأولى إن.." التطلعات ذات أهمية فائقة، والإحساس يأتى فى درجة تالية لها".. ثم تقول فى الثانية.." ينبغى على المرء أن يكون ذا تطلعات، دون تعويل على المشاعر والأحاسيس!".. فهلا زدتنى شرحا وتفصيلا"، (فأجابه:) "إن التركيز الشديد على الطموح يؤثر فى الوجدان (يزلزل أركانه). مثلما أن توجيه الاهتمام كله إلى المشاعر يقلل من درجة الاستقرار المطلوبة لما يطمح إليه الإنسان، والأمر هنا أشبه ما يكون بما عليه المرء أثناء الجرى أو إذا تعثرت قدماه ووقع فى الطريق، فالمسألة عندئذ؛ لا تزيد على محض حركة بدنية إلا أنها تستدعى انفعالا وجدانيا ما.

وسأله كونسون شو:" معذرة ياسيدى إذا تجرأت وطلبت منك أن توضح لى ما يجعلك متميزا(عن كاوتزى) بخصالك هذه؟"، فأجابه منشيوس، قائلا:" قد وعيت معانى الكلمات، وثابرت على الترقى فى درجات التسامى النفسى واكتساب الخصال النبيلة ورحابة الصدر.".

فسأله كونسون شو:" هلا أوضحت لى معانى تلك الكلمات؟"، فقال منشيوس:" هى أشياء يصعب شرحها، فهاتيك الخصال هى الأكرم مادة والأعظم قدرا، فالاستقامة غذاؤها الذى به تقوى وتشتد، فلا يخشى عليها بأس، بل يذيع أريجها بين السماوات والأرض. هى الروح التى تلتقى مع العدل والعقل على طريق.

هى الروح التى لا طاقة للحياة بغيرها. خزائن العدل ذخرها الثمين، طريقها طريق العدل القويم الذى اقتضته النوايا وعقد عليه العزم، لا طريق

العدل الذى جاءت به المقادير، وحلت به المصادفات عفو الخاطر؛ هى الروح التى إذا اقتحمت النفس مواطن الزلل، عصف بها الوهن وسقطت فى إسار الذل؛ لذلك كنت أقول دائما بأن كاوتزى لم يفهم معنى العدل على الوجه الصحيح، لأنه خرج به من مجال الإرادة الباطنية.

إنه لا معدل عن أن ندرب أنفسنا عليه (العدل) ونسلك فى طريقه حتى النهاية (بغير توقف فى منتصف الطريق) وقد انطبعت النفوس بطابعه، فلا يغشاها النسيان. (علينا أن نجاهد فى إنماء ثمرته، لكن..) لا ينبغى أن (نخالف النمط الطبيعى للأشياء، و..) نجذب أوراقه وسيقانه لندفعها دفعًا كى تنمو رغم أنف دورتها الطبيعية فى النمو والازدهار. وبمعنى آخر، فلا يجب أن نتصرف. فى هذا الأمر على نحو ما هو معروف عن أحد مواطنى دولة سونغ؛ (إذ يقال إن رجلا من سونغ) كان فى قديم الزمان، يزرع أرضا فلما تأخر النبات عن النمو، خاف أن يفقد محصوله فراح يجذب الأعواد والأوراق وهو يظن أن سعيه هذا يضمن للزرع سرعة الإنبات، وعاد إلى بيته آخر النهار مرهقا لاهثًا، يجر قدميه من التعب، قائلا لأهله: "كم لاقيت فى يومى هذا من المشقة؛ إذ شددت من أزر المحصول كى أساعده على النضج قبل الأوان! "، فقامّ أولاده وأسرعوا إلى حقله، فوجدوا الأوراق متساقطة والسيقان ذابلة .

(فإذا تأملنا كل ما تحت السماء جيدا لوجدنا) أن قليلين جدا هم الذين لا يجبرون زرعهم على النمو رغم أنفه (.. ولا يدفعون معنوياتهم إلى النماء والازدهار..) اعتقادا منهم بأن جهد الرعاية والمثابرة سعى خائب عقيم، يجدر بهم أن يعدلوا عنه فيقعدوا عن العمل والدأب، فأولئك هم الذين

يبذرون زرعهم ويتكاسلون عن إزالة الأعشاب (أما المخالفون للنمط الطبيعي ف ..) يدفعون سيقان زرعهم للاستطالة كي ينمو سريعا ، فهم الذين يشار إليهم بأنهم.."يضيعون الجهد ويفسدون الزرع ".. فلا هم جنوا شيئا من كدهم، ولا هم تركوا النبات لينمو حسب طبيعته.

وراح كونسون شو يسأله:" فما معنى قولك إنك تعي تماما معاني كل الكلمات؟"، فأجابه:" أقصد بذلك أني عندما تكون الكلمات مائلة (منحازة) فأستطيع أن أهتدي إلى سر هذا الميل؛ فإذا كانت الكلمات ماجنة، فلا يصعب على أن أسبر غورها؛ وإذا كانت الكلمات فاسدة بغيضة الغرض، فليس أيسر على من أن أدرك منطقها الماكر ومغزاها الخبيث، أما إذا وجدت الكلمات مراوغة، فما أسرع أن أصل إلى منطلقاتها (الالتفافية) الخرقاء. فمثل تلك الكلمات الصادرة عن اجتهادات النفوس، تحمل في طياتها أفدح المخاطر فيما يتصل بالشئون الحكومية ؛ ذلك أنها إذا صارت موضع التطبيق في الجوانب المتعلقة بشئون الحكم الداخلي، جلبت على الوطن الكوارث. وإني لأقول لك قولا إذا سمع به الحكماء القدامى، قاموا من أجداثهم يسعون إليّ، وما وسعهم إلا الموافقة على كلامي حرفا حرفا .".

فقال له كونسون شو:" كان كل من.."تسايوو"، و"زيكون" (تلميذي كونفوشيوس).. يجيد الخطابة، أما "رانيو" و"مين تسي" (اثنان من التابعين) فقد أجادا أصول الأخلاق وآداب المعاملات؛ وبالطبع فقد كان كونفوشيوس يجمع بين المهارتين، وبرغم ذلك فقد تحدث (في هذا الشأن)، فقال:"لساني في الخطابة عييٌّ؛ فلم أُوهب بيانا فصيحا ولا تعبيرا

بليغا."، (فإذا كان الأمر كذلك عند كونفوشيوس!)، فهل تستطيع أن تعد نفسك، يا سيدى، واحدا من الحكماء القديسين؟"، فأجابه:" ويلك يا هذا، قد شطت بك الكلمات (أبلغ بك الاجتراء أن تتحدث فى هذا أيضا؟)، كان زيكون (أحد أتباع المعلم الأكبر) قد سأل كونفوشيوس فيما مضى من الزمان ، قائلاً: " أتراك يا سيدى جديراً بلقب القديس حقا؟"، فأجابه.. "كلا، لم أبلغ بعد تلك الدرجة، فلست إلا واحدا من الدارسين الذين لا يرهقهم طلب العلم، ومعلمًا لا يمل التدريس!"، فقال له زيكون:" الدأب فى طلب العلم، حكمة؛ والتدريس بغير ملل، إنسانية ورحمة، فما دمت قد جمعت بين هاتين الخصلتين فقد صرت قديسا.".

فإذا كان كونفوشيوس نفسه لم يجرؤ على أن يدعى لنفسه درجة القديسين، فكيف (تسمح لنفسك بأن) تشطح بك الكلمات إلى هذا الحد؟".

قال كونسون شو:" قد بلغني، من أخبار الحكماء مثل"زيشيا"، و"زيو"، و"زيجانغ" (أتباع كونفوشيوس) أنهم كانوا يتّسمون ببعض مزايا أستاذهم الأكبر، أما "رانيو"، و"مين تسى"، ويانيوان"؛ (من التابعين أيضا) فقد كانوا يقتربون من خصال أستاذهم فى معظم الأحوال، إلا أنهم كانوا في غير قليل من المواضع يقصرون تقصيرا بالغا، فأين تجد نفسك من هؤلاء السادة؟".

فأجابه" فلننحّ هذا الموضوع جانبا، الآن!"، فسأل السائل:" فما قولك في الحكيمين"بويبي"و"إيين"؟".

فقال: "شتان ما بينى وبينهما؛ وذلك لأن المبدأ القائل"بأنه لا يمكن للمرء أن يخدم إلا السيد الذى يراه محل تقديره، ولا يترأس نفرا من المعاونين إلا الذين يراهم أهلا للعمل معه، ولا ينبغى للمرء أن يعمل بوظيفة رسمية إلا فى ظل أحوال مستقرة، فإذا ما اضطربت الظروف، كان الاعتزال هو الحل الأمثل".. هذا المبدأ هو الذى يسيطر على آراء وتوجهات"بوييى"؛ أما المبدأ الآخر الداعى لأن :"يعمل المرء تحت إمرة سيد مادام هناك السيد الآمر، ويقوم على أمر العمال، مادام هناك من يرغبون فى العمل معه؛ ويتولى وظيفة محترمة سواء استقرت الأحوال أو ساءت،" فهو المبدأ الذى ينادى به السيد"إيين".

فإذا قيل إن هناك مبدأ آخر يدعو إلى أن.." يلتحق المرء بوظيفة مناسبة إذا قامت الدواعى الموجبة لذلك، ويعتزل العمل العام إذا كانت هناك مبررات كافية ومقبولة ، ويحتفظ المرء بمنصبه مادامت الأحوال ملائمة، ويتصرف على نحو حازم إذا كان الحزم واجبا".. فذلك هو المبدأ الذى كان يعمل كونفوشيوس بمقتضاه، فأولئك جميعا بضعة من القديسين القدماء الذين لا أجد نفسى مؤهلا للقيام بمثل أدوارهم، فإذا سألتنى عما أستطيعه، وعما أحلم بإنجازه، إذن لقلت بأنى لا أطمح فى شىء قدر طموحى إلى أن أظل دارسا وتلميذا لـ كونفوشيوس (للمذهب القديم!)

- "أترى أن كلا من "بوييى"، و"إيين"، ليسا جديرين بمكانة مساوية لقيمة مايمثله المعلم الأكبر كونفوشيوس؟"
- "أجل؛ فلم يكن على الأرض، منذ بدء الخليقة كفء له، يساويه ويناظره علما ومكانة."

- "فهل تجمعهما وإياه صفات أو خصال مشتركة."

- "نعم؛ فمثلا لو قدر لهذين الشيخين الفاضلين أن يصيرا ملوكا فوق دولة تترامى حدودها وراء التخوم وأطراف الممالك (محيط أرضها مائة لى!) فسوف يبلغان من السؤدد مبلغًا تدين لهما به الأمراء وحكام المقاطعات والأقاليم فيخضع الجميع لهما مهابة وتعظيما، فتتحد الرايات وتأتلف الأقاليم إذعانا لسلطانهما، فإذا دعتهم الضرورة إلى ظلم الأبرياء أو انتهاك قواعد العدل تحقيقا للسيادة فوق الأرض، فسيعرضان عن ذلك فى إباء شريف؛ فتلك هى المسألة التى يتفقان فيها مع أستاذهما.".

فعاد كونسون شو يسأله:" فهل لى أن أسألكم عما يتناقضان فيه من خصال معه؟"، فأجابه منشيوس:" إن ثلاثة من تلاميذ كونفوشيوس كانوا خير من يدرك خصال الحكماء (ويعملون بها) وهم: "تسايوو" و"زيكون"، و"يوروا"، ثم إنهم ما كانوا أبدا - حتى فى أسوأ الأحوال، وبافتراض تدنى أخلاقهم! - لينافقوا أو يجملوا صورة رجل أحبوه، وما كانوا أبدا ليمجدوا صفات رجل وقع فى قلوبهم موقعا حسنا فرضوا عنه فمدحوا خصاله، قال تسايوو (ذات مرة) "إنى أرى كونفوشيوس أعظم كثيرا من الإمبراطورين الحكيمين "ياو"، و"شون" [أنبياء العهد الصينى القديم، مع الفارق طبعا!] "وقال زيكون:" يعرف الحكام بطقوسهم؛ ففى المراسم الملكية والطقوس تكمن ملامح السياسة، وفى الموسيقى التى تعزفها قصور الحكم تكمن أسس الأخلاقيات ومبادئ السلوك، (ومع ذلك فهناك حالة واحدة يكفى فيها أن نطالع أحوال مائة جيل فائت..) فيمكننا الاستدلال بأن مائة من الحكام والملوك فوق مائة عرش فيما هو قادم من السنين لن

يسعهم إلا التزام أسس الأخلاقيات ومبادئ السلوك التى أقرها(كونفوشيوس) فهو الشيخ الأكبر الذى لم يكن فى الدنيا كلها، منذ بدء الخليقة، نظير له فى علمه ومكانته.".

وقال عنه"يوروا":" لا تقتصر الفوارق الشخصية على بنى البشر فقط، ولكن، حتى فى عالم الحيوان، فهناك تمايزات واختلافات أيضا، فمثلا يتميز"وحيد القرن" بصفات فريدة بين ذوات الأربع، والعنقاء ليست ككل الطيور، وبالمثل فإن جبل"تايشان" نسيج وحده بين كل الكثبان والمرتفعات؛ ولا يمكن أن يتساوى النهر الكبير بالجداول والغدران، مع أن كل أولئك يندرجون فى أقسام مختلفة، كل قسم منها يعد نوعا قائما بذاته يشترك أعضاؤه فى صفات واحدة؛ وكذلك القديسون والحكماء يشتركون أيضا فى صفات واحدة مع باقى الناس إلا أنهم يتفوقون ويتميزون (عن بقية بني البشر) فكذلك يتفرد كونفوشيوس وحده بمكانة شريفة وقدر عظيم بين الناس جميعا ولم يكن له، منذ بدء الخليقة نظير من جنسه."

٣ - ٣ تحدث منشيوس فقال:" إن اللجوء إلى القوة بوصفها الوسيلة (الذريعة) المثلى لتحقيق العدالة والإنسانية يجعل من الحاكم ملكا متوجا ذا سطوة ونفوذ فوق الممالك والإمارات؛ ثم إن الملك المتوج ذا العرش والسطوة فوق الممالك لابد أن يكون تحت قيادته إمبراطورية قوية عملاقة (يستند إليها فى بسط نفوذه وتكون بمثابة التجسيد الملائم لقوته)، أما اتخاذ الفضائل وسيلة لتطبيق الرحمة والإنسانية ، فهو السيادة الحقة فوق عروش الممالك، حيث لا يتطلب الأمر وجود إمبراطورية أو مملكة مترامية الأطراف؛ (ومثلا فـ..) لم يكن لدى الملك"شان طانغ" سوى أرض لا يزيد محيطها على

سبعين ميلا، ولم يكن تحت الملك أون (دولة جو الملكية) إلا أرض يبلغ محيطها مائة لى (.. هى كل موارده من القوة التى تحفظ له مكانته وهيبته فى أعين الناس..)، إن إخضاع الناس بالقهر لا يعنى إمكان إقناعهم بذات الوسيلة؛ لأنها قد تذل أعناقهم ويحال بينهم وبين القدرة على المقاومة، لكن نفوسهم تظل عنيدة، وتأبى الخنوع، أما إقناعهم بواسطة الفضائل فهو الطريق الوحيد لضمان خضوعهم الطوعى بمحض إرادتهم، تماما مثلما هو الحال عند السبعين شيخا من أتباع كونفوشيوس أولئك الذين وردت بشأنهم تلك الأبيات من كتاب الشعر القديم، التى مطلعها:

" أقبلت من الغرب الوفود،

ومن جهة الشرق،

والشمال والجنوب.

أقبلت عليه من كل صوب،

حشود وراء حشود..

والكل تحت لوائه..

طاعة وإيمان."

٣ - ٤ إذا كان الأمير يحكم بالعدل والإنسانية، ففى هذا رفعة شأنه، أما إذا كان على غير هذا النحو، فهنالك الخزى والعار، والماثل أمامنا أنهم (الملوك) يأنفون من كل ما يجلب لهم السوء، ومع ذلك، يتفيئون ظل سياسات غير عادلة، فمثلهم كمن يكره أن تبتل ملابسه برذاذ الماء بينما يقيم بأدنى منخفض عند مصب الأنهار (.. كمن يكره البلل ويقعد حيث يصيبه وابل

المطر!) ذلك أن من بغض السوء حقا، خليق به أن يبذل اهتماما كبيرا بالفضائل وتهذيب السلوك ثم يبجل الحكماء ويعظم الدارسين، فيقرّ لهم بالمكانة المتنفذة، ويكبر شأن الأكفاء فيوليهم الوظائف العامة، ولينتهز فرصة استقرار الأحوال فيطالع المبادئ السياسية ويستبصر باللوائح القانونية، مما يثير الرهبة فى قلوب جيرانه الأقوياء.[هكذا حرفيا]، وقد جاء فى كتاب الشعر القديم، ما نصه:

" ها قد أظلمت السماء،

وتكاثفت السحب،

وأوشك السيل أن ينهمر،

فلأسرع قليلا

إلى جذع شجرة؛

أنزع عنها لحاءها،

كى أوارى ثقبا فى الجدار

وباب البيت ،

ومصراع نافذة كاد أن ينكسر.

فمن ذا يقدر ، ساعتئذ،

أن يقتحم بيتى؛

فيهزأ بى ويوردنى موارد الخطر."

(.. وعندما طالع كونفوشيوس هذه الأبيات)، قال :" إن صاحب هذا الشعر يدرك المبادئ السياسية جيدا، فهو يذهب إلى أنه بعد إذ استتبت

الأوضـاع الداخليـة فى الوطن، فلن يملك أحـد أن يقـوم بتـهـديده على أى نحو."

ولئن كـانت أوضـاع الممالك الحـاضرة مسـتقـرة تمامـا، فلم يعد الأمـراء يعبأون إلا بحياة الترف والدعة وهو ما سوف يقود إلى الكوارث . وعموماً، وسـواء تعلق الأمـر بالأفـراح والمسـرات أو الكوارث والنازلات، فـالإنسـان وحده الذى يجلب لنفسه هذه أو تلك، حتى قيل فى كتاب الشعر القديم :

" من اهتدى بهدى السماء،

بلغ مصاف السعادة العظمى" .

وجاء فى كتاب التاريخ (فصل تايجيا) ما مفاده:

" إذا تنزلت من السماء كارثة ،

تنزلت من السماء نجاة منها وخلاص.

وإذا جلبت يد الإنسان الشر ،

فليس مفر من

معاناة المحنة التى صنعها بنفسه الإنسان."

فتلك هى غاية المعنى المقصود."

٣ - ٥ تحدث منشيوس فقال:" لو جرى تقدير ذوى الكفاءة واحترام الأماجد الفضلاء، ووزعت المناصب الرفيعة على المتميزين المشهود لهم بالدراية، لعمّت البهجة قلوب رجال العلم ولبذلوا جهدهم وعلمهم وسط أروقة البلاط فى ظل سلطان الحكم بكل امتنان وتفانٍ؛ وإذا جرى عرض السلع فى

مخازن الأسواق دون فرض رسوم ضريبية عليها لئلا تتكدس فتركد حركة البيع والشراء، فسوف يغتبط التجار لذلك، ويسارعون إلى عرض بضائعهم فى الأسواق؛ وإذا اقتصر عمل نقاط التفتيش (بين المقاطعات) على فحص الأمتعة دون تحصيل الرسوم الضريبية فسوف يسعد المسافرون وتنشط حركة التنقل بين الأقاليم؛ وإذا صدر أمر ملكى يطلب من المزارعين المعاونة فى أعمال الزراعة الجماعية - حسب النظام المعمول به فى نمط إنتاجى، اسمه "نظام المربعات التسعة" - دون تحصيل رسوم ضريبية، فسوف يفرح الفلاحون بهذا الخبر، ويتطلعون إلى المشاركة فى العمل؛ وإذا تقرر إعفاء السكان المقيمين فى التجمعات الإيوائية (الأهلية) من إيجار الأراضى وضريبة الأجرة الإضافية (تلك التى يتم تحصيلها منهم مقابل تشغيلهم) فلسوف تعمّ الفرحة كل الأهالى ويتمنى الجميع لو أتيحت لهم الفرصة أن يهجروا موطنهم ليأتوا ويقيموا فى أرضك.

إذا استطاع الملك الحاكم أن يأخذ بهذه النقاط الخمس المذكورة (فى الاعتبار) فسوف ينظر إليه أهالى الممالك المجاورة بوصفه الأب الحانى والأم الرؤوم (فإذا ما خطر فى ذهن حكام الدويلات الغريبة أن تشن على مثل هذا الحاكم أية حملة هجومية) فكيف يمكن أن يتم تجنيد مثل هؤلاء الناس فى حملة ضد من يعدونه فى مكانة أمهم وأبيهم، (مع العلم..) أنه لم يحدث قط طوال تاريخ البشر على الأرض أن نجحت مثل تلك الحملات فى أغراضها؛ ذلك أن مثل هذا الصنف من الحكام لا يوجد له على الأرض أعداء، فإذا وجد بين الأمم ملك بغير أعداء، فهو بحق وزير السماء، ولم نسمع قط فيما مضى من تجارب الإنسانية أن حاكما بلغ هذه المرتبة دون أن تتحقق على يديه وحدة الممالك التى فوق الأرض جميعا."

٣ - ٦ قال منشيوس:" إن التعاطف الإنساني فطرة جُبِل عليها البشر، وقد كان الملوك فيما مضى يمتازون بهذا الحس الإنساني على نحو استفادوا به في تطوير سياسات حكم الممالك، مما جعل من أمور الحكم (وتطبيقات السياسة الداخلية، في غاية اليسر والمرونة (.. وكأن الحاكم يدير شئون الحكم بين أصابعه) ولئن كنت أزعم أن الناس جميعا مفطورون على التعاطف، فدليلي على ذلك أنه ما من أحد من البشر رأى طفلا قد أوشك على السقوط في بئر إلا فزعت نفسه وتحركت فيه نوازع التعاطف والرحمة، حتى لو لم يكن من بين مقاصده الوفاء بحق صلة القربى أو صداقة حميمة تربط بين المرء وأهل ذلك الطفل أو دافع يدفع المرء لنيل حظوة أو تقدير أو ثناء جيرانه وأقاربه، حتى بتأثير ما قد يبعثه بكاء الطفل وصراخه من ضيق أو حرج في نفس عابر سبيل.

بالتعمق في ملاحظة تلك الظاهرة، نجد أن التعاطف طبيعة إنسانية أساسية، تماما كالإحساس المرهف، والخجل والتواضع، والإدراك السليم (التمييز الفطري بين الصواب والخطأ).

إن التحلّي بروح التعاطف هو أساس الإحسان؛ والحياء هو رأس الاستقامة؛ والتواضع أول طريق الخلق القويم؛ والإدراك السليم مقدمة الحكمة.

فمن حاز تلك المبادئ الأربعة، كان كمن حسنت هيئته بتمام الخلقة، وقد ولد بأطراف أربعة كاملة وصحيحة. فإذا عجز المرء عن تقدير خصاله القوية بما اكتسب من تلك المبادئ الأربعة، فقد اختلس حظ النفس من

تمام القيمة (.. بما فقد من الثقة فى نفسه!)، ومن ظن أن الأمير يعوزه شيء من تلك الخصال، فقد ظلم. إن من يجد فى نفسه شيئًا من تلك المبادئ الأربعة فينبغى عليه أن يجدّ فى الحفاظ عليها وتنميتها، كأنها عين ماء انبجست تحت قدميه أو شعلة نار اقتدحها بزنديه. إذا ثابر على موالاتها بالجد والرعاية أثمرت ففاضت على الدنيا بأسرها(ماء عذبا ونورا وهّاجا) وإذا أهملها كان أعجز عن أن يعول نفسه فضلا عن والديه ."

٣ - ٧ قال منشيوس:" هل من المعقول أن يكون صانع السهام أشد قسوة ووحشية من صانع الدروع؟ بمعنى أن صانع السهام يهمه فى متانة بضاعته وجودة صنعته أن تكون قادرة على الفتك بالناس؛ بينما تتحدد مهمة صانع الدروع فى حماية الأرواح من شر السهام الطائرة. ثم إن الطبيب الكاهن (الذى يعتمد على طرق سحرية من أسرار التعويذ فى شفاء الأمراض)، وصانع التوابيت (النجّار المتخصص فى صناعة صناديق حفظ جثث الموتى) كلاهما ينطبق عليه الحال نفسه، (الطبيب يسعى فى شفاء المرضى، والنجار المشار إليه يرجو ألا يطول بهم البقاء على قيد الحياة) ومن ثم، نرى أن اختيار المهنة أمر يتطلب منتهى الحذر. وقد قال كونفوشيوس ذات مرة:" ينبغى على الإنسان أن يجعل من الفضائل دار إقامة؛ إذ لا يجدر بالعاقل أن يقيم بمكان تجافت عنه الأخلاق!"

إن الرحمة درجة شريفة تنزلت بها من السماء أعظم آيات الإجلال والتكريم، وهى أيسر موطن يقيم بين جنباته البشر، وليس للعاقل أن يبرح

فناء الرحمة كلما وجد إلى ذلك سبيلا (إذا ما ظل قادرا على ذلك دون أن تقف فى سبيله العوائق)، ذلك أن من تغاضى عن الرحمة وتجافى عن الحكمة فقد وقع فى حمأة الظلم وسوء الأدب. (ومن اقترف ذلك الخطأ فقد استوجب..) من ثم أن يصير ألعوبة فى يد الناس تتقاذفها كيف تشاء، فمن صارت هذه حاله، انحط إلى حضيض العبودية ولقى خزيًا وهوانا، فكأنه - فى تلك الحال - مثل برّاء السهام والأقواس الذى لا يجد فى مهنته سوى الشعور بالخزى والعار، (فإذا كان الأمر، على هذا النحو..) أليس من الأفضل للمرء، إذن، أن يوطد نفسه على الرحمة، فالسالك فى طريق الرحمة كالرامى عن القوس؛ ولما كان الرامى يهيئ لنفسه وضعا مناسبا ويتخذ الإجراء المطلوب عند الرمى، فهو إن لم يصب الهدف، لا يلوم الرماة الذين ضربوا فسددوا، بل يستدير ليراجع موقفه ويحاسب نفسه وحده."

٣ - ٨ قال منشيوس:" كان "زيلو"(تلميذ كونفوشيوس) يفرح كثيرا عندما يخبره الناس بما وقع فيه من أخطاء، وكذلك كان الإمبراطور "يو"(أشهر ملوك التاريخ القديم، المعروف بأنه أول حاكم لأسرة شيا، المشهور بالفضائل والخلق الكريم) ينشرح صدره لما يوجه إليه من النصح والإرشاد بل إن أعظم أباطرة العصر القديم"شون" (خليفة"يو" على العرش، ثانى أشهر الملوك القدامى من ذوى الفضائل الجمّة) كان أبرز من اتسم بتلك الخصال الطيبة؛ إذ كان يتخذ قاعدة مراجعه الأخلاقية مما وافق رأى جموع الناس من حوله ولم يكن يستنكف أن يتراجع عن رأيه الشخصى (وأفكار رأسه!) ويأخذ بما استقر عليه رأى الناس، ما دام ذلك مؤديًا لعمل الخير، وقد

كان طوال حياته، حتى (قبل أن يترقى إلى الوضع الذى مكنه من الوصول إلى مصاف الحكم الإمبراطورى) وهو يعمل مزارعا بسيطا فى الأراضى، ثم وهو يعمل فى صناعة الفخار، أو عندما كان يحترف صيد الأسماك وإلى أن صار ملك الملوك؛ لم يكن يتوانى عن التحلى بالفضائل واكتساب السمات الخلقية الفريدة مما يقترحه عليه ويشير إليه به الناصحون.

إن تعلم الفضائل من الناس ، لعمل الخير؛ يعد أفضل وسيلة لامتداح مبادئ السلوك العامة. ولابد للعاقل من أن يجعل اهتمامه الأساسى منصباً على امتداح الفضائل دعما للخير العام (للصالح العام!)."

٣ - ٩ قال منشيوس: "لم يكن "بوبيي" ليسمح لنفسه بأن يتفانى ويعمل بكل إخلاص ، إلا للأمير الذى يظن أنه أهل لذلك؛ ولا كان يصادق إلا من يستحق الصداقة عن جدارة ؛ (وهكذا..) فلم يكن له أن يلتحق بالعمل فى بلاط مملكة فاسدة ولم يصادق رجلا سيئ السمعة. (ذلك أنه كان يعتقد بـ) أن يعمل المرء فى خدمة أمير فاسد، أو أن يصادق رفيقًا موصوما، فمثله كمن يرتدى أفخر الثياب ويتزين بأبهى زينة، ثم يجلس وسط الأوحال أو يستلقى على كومة من رماد.

فإذا تفحصنا حالته تلك بمزيد من الدقة (ورحنا نتابع المزيد من التفاصيل فى..) علاقته مع أهالى بلدته البسطاء الذين إذا تصادف أن التقى بواحد منهم ووجد أنه لا يرتدى ثيابه [قبعته.. حرفيا] على النحو اللائق (حسب الأصول والآداب المعهودة)، فما أسرع أن يستدير وينصرف عنه غاضبا مشمئزا كأنه يبتعد عن قاذورات نتنة؛ (وهكذا ..) فبالرغم من كل المحاولات التى بذلها كثير من الأمراء لملاطفته وملاينته سعيا لتوظيفه (وسنالته فى صفهم)، إلا أنه اعتذر عن عدم قبولها جميعا، وكان السبب

وراء ذلك هو أنه لا يريد أن تكون هناك أية صلة تربط بينه وبين أى من أولئك الأمراء والحكام.

غير أن رجلا آخر مثل ليو شياوى (أحد كبار رجال البلاط فى دولة لو - زمن الدول المتحاربة ٦٣٤ق.م) لم يكن يخزيه أن يعمل فى خدمة أمير ذائع الفساد، ولا كان يحط من قدره أن يعمل بوظيفة غير مرموقة، بل كان يبذل جهده ليثبت قدرته وكفاءته على طيب نفس منه، مادام يعمل فى البلاط الملكى؛ ولم يكن يشكو أو يتبرم إذا أهمله رؤساؤه (فى الترقى) وتجافت عنه نظراتهم، ولا جزعت نفسه إذا ساءت حاله وأصابته الفاقة، وكثيرا ما كان يقول: " ليلزم كل امرئ شأنه، فحال الناس ليس حالى، فإذا تعرى أحدهم وتجرد من ملابسه وجلس إلى جوارى فلن ينقص ذلك من قدرى شيئا! لذلك فقد عاش حياة سعيدة تعرف فيها إلى أخلاط من الناس وألوان من البشر دون أن يغير شيئا من عاداته أو أن تتبدل طبيعته، حتى إذا صدر له الأمر بالبقاء فى خدمة الأمير (ولو جاء ذلك على غير ما يود ويرغب..) فسرعان ما كان يمتثل للأمر. وامتثاله، حينئذ، لا يعدو كونه نزولا على الأمر الواقع وصدوعا بالأوامر، كما تقتضى القواعد والأصول - وأتم منشيوس كلامه قائلا - .." وأرى أن " بويبى" كان ضيق الأفق قليل الصبر، بينما أن ليوشياوى قليل الاعتداد بالنفس، لا مروءة له، ولا ينبغى للعاقل الحكيم أن يتخذ أحدهما أو كليهما نموذجا ومثالا".

(الجزء الثانى)

(جملته أربعة عشر فصلا)

٤ - ١ قال منشيوس: " عندما تكون الظروف المناخية والجغرافية مواتية وملائمة فعندئذ تصبح أفضل كثيرا من ضربات الحظ " التى تأتى مصادفة مع الزمان (المكان الملائم أفضل من الصدفة السعيدة)، ثم إن التقاء العزم (عزم جموع الناس وإرادتهم) ووحدة الإرادة أعظم من كل خيرات الأرض (الظروف الجغرافية المواتية) .

إن مدينة عظيمة محيطها ثلاثة لى، يدور حولها سور هائل يبلغ متوسط محيطه سبعة لي، يحاصرها العدو طويلا ويهاجمها فلا يقدر على اقتحامها على الرغم مما أكدته حسابات الوقت الملائم (الزمان) للهجوم، إلا أن كل محاولات الاقتحام تبوء بالفشل؛ وذلك لأن تلك الحسابات أخذت فى اعتبارها عنصر الزمان دون مراعاة للخصائص والظروف الجغرافية والمناخية (.. هذا مثال لما أريد قوله، وهاك مثال آخر؛ ذلك..) إن مدينة أخرى يحيط بها سور عظيمة الارتفاع ونهر (مانع مائى) شديد العمق، ويتسلح أهلها بأمضى الأسلحة الهجومية والدفاعية (معًا)، ووراءهم مؤن وذخائر لا تنفد؛ لكنهم لا يصبرون على قتال، فإذا دهمهم العدو، هجروا الديار وولوا الأدبار؛ فذاك دليل على أن احتمال البأس

وشـدة العـزم ووحــدة الإرادة أنفـذ وأهــم من الظـروف الجـغـرافـيـة والبيئـيـة [الشـروط المعنوية أبقى من الأحـوال الطبـيـعـية]؛ لذلك نقـول بأنه " ليس ترسيم الحدود وتخطيط المواقع هو الذى يمنح السكان مكانا للإقامة داخل وطن، وليست حال الجبال والأنهار هى التى تحدد درجة أهمية الموقع الجغرافى (.. من الوجهة الأمنية) من حيث منعته كحاجز دفاعى على الحدود، وليست الأسلحة الفتاكة هى الضمان الوحيد لتهديد الأمم والممالك التى "تحت السماء" (يعني: فى كل مكان) ليس هناك سوى السياسة الرشيدة هى التى تلقى كل مساندة وتأييد، فكلما جنحت أساليب الحكم بعيدا عن مبادئ الرحمة والرشاد، تناقص الأنصار، حتى إذا بلغوا الحد الأدنى، تنكر الناس لملوكهم وأظهروا العصيان، أما إذا كثر المبايعون للقصر الحاكم فهذا ضمان له بالتأييد التام، والهيبة الوافرة، مما يمكّن(الحاكم) من تسليط قوة المناصرين على فلول العصيان والتمرد (فتردها إلى صوابها)، فمن ثم، كان العاقل الذى يتخذ من الرحمة سياسة شرعية لا يجد نفسه فى حاجة للجوء إلى القوة، فإذا دعته الظروف إلى ذلك فهو المنتصر المظفر."

٤ – ٢ لما كان منشيوس يستعد للذهاب إلى القصر الملكى لمقابلة الملك، كان جلالته، قد أرسل مبعوثا من طرفه لمقابلة الفيلسوف الحكيم ليبلغه بما يلى.. "كان من المقرر أن ألتقى بك، لكن الحمّى أصابتنى فأرقدتنى الفراش، وخشيت أن تتفاقم حالتى إذا خرجت للقائك، فإذا رأيت أن تحضر أنت فأبلغنى حتى أقوم إلى الديوان فأستعد لاستقبالك، ولا أدرى إن كنت ستتفضل بإتاحة الفرصة لنا كى نلقاك؟".. فكتب منشيوس ردا

على الرسالة، بما نصه:" من سوء الحظ، أنى أنا أيضا يامولاى، قد أقعدنى المرض عن الذهاب إلى القصر للقائك." .

وفى اليوم التالى، قصد منشيوس إلى منزل "دونكو" - كبير رجال القصر بدولة تشى - لتقديم واجب العزاء فى فقيد لديه، وهناك التقى بالسيد كونسون شو، الذى ابتدره قائلا له:" أراك قد تذرعت يوم أمس بالمرض، ثم إذا بك تأتى اليوم للعزاء، ألا يبدو ذلك خرقا لقواعد الآداب العامة على نحو غير لائق؟"، فأجابه قائلا:" ولماذا ينبغى أن يبدو الأمر كذلك، مادمت كنت مريضا بالأمس ثم شفيت اليوم، فما الذى يحول دون القيام بواجب العزاء بعد إذ بلَلَت من المرض؟".

وفى تلك الأثناء كان جلالة الملك قد أرسل إلى منشيوس فى السؤال عن صحته وأوفد مع الرسول طبيبًا يُمرِّضه، فخرج إليهم تلميذه وتابعه"منجوتسى" [تربطه بالفيلسوف صلة قرابة] فكلمهم، بغير اكتراث، قائلا:" كان جلالة الملك قد أرسل بالأمس فى استدعاء أستاذنا إليه، لكنه لم يستطع الذهاب بسبب وعكة صحية طارئة، فلما تماثل اليوم للشفاء خرج مسرعا إلى القصر وربما يكون قد وصل الساعة إلى هناك أو كاد."

ثم إن منجوتسى أسرع من فوره بإرسال عدة أشخاص وأمرهم بانتظار منشيوس على قارعة الطريق، فى أماكن مختلفة وأن يشيروا عليه، عند لقياه، بالتوجه مباشرة إلى القصر الملكى دون إبطاء إلا أن منشيوس أصر على أن يذهب خفية إلى بيت جين شو (أحد كبار رجال الحكومة فى دولة تشى) ليبيت ليلته هناك، وكان أن قال له جين شو:" إن أصول العلاقة

الإنسانية تقوم على تمجيد الرابطة بين المرء وأبويه داخل المنزل وتقديس العلاقة بين الفرد من ناحية والوزراء والملوك من ناحية أخرى فيما يتعلق بالأمور العامة خارج العائلة؛ فالأساس فى العلاقة بين المرء وأبويه هو العطف والإحسان بينما تقوم العلاقة بين الفرد ورجال الدولة على مبدأ الاحترام والتبجيل، فمالى أرى جلالة الملك يبذل لك الاحترام الواجب دون أن تقوم نحوه بالمثل؟"، فأجابه:" عجبا لقولك هذا، أما رأيت إلى أهل دولة تشى وهم يمتنعون رجالا ونساء عن أداء حقهم فى تنبيه الملك إلى وجوب السير فيهم بسياسة تقوم على الرحمة والعدل، أتراهم، إذن، يبغضون الرحمة والعدل؟ أبدا، وإنما كل ما فى الأمر أنهم فى قرارة أنفسهم يرون أن مثل ذلك الرجل (الحكيم) ليس أهلا لمناقشتهم فى أمور تتصل بالرحمة والعدل، وهذا فى حد ذاته هو أفدح مثال لانتهاك قواعد الاحترام مع جلالة الحاكم، أما فيما يخصنى، فما كنت لأجسر أن أتحدث مع الملك حول تلك المسائل لولا ما أرساه كل من الملكين "ياو" و" شون" من مبادئ مقدسة فى قديم الزمان، ومع ذلك فلم أجد بين أهالى دولة تشى من يبدى للملك احتراما يساوى ما أشعر به تجاهه."

فقال له جين شو مستنكرا:" لم أقصد ما فهمت، وإنما أردت أن أذكرك بشىء ورد فى" كتاب الطقوس" فيما نصه.." ليس لنداء الوالدين سوى الطاعة فى صمت وهدوء، ولا لطلب الأمير إلا الامتثال الفورى دون إبطاء [حرفيا .. دون انتظار حتى لعربة تجرها الجياد تقلّنى إليه!] لأنك كنت قصدت الذهاب إلى القصر فى بادئ الأمر، فلما جاءك الأمر بالمثول بين يدى جلالته، عدلت عما اعتزمته من زيارته، فبدا ذلك منك مخالفا للقواعد والآداب العامة!".

فقال له منشيوس: " أمعقول أن تذهب ظنونك فىّ إلى هذا الحد؟ على أية حال، فقد كنت سمعت "سنغ زى" (تلميذ كونفوشيوس)، يقول: " كان فى حوزة دولتى "جين" و"تشو" من الغنى والثروة ما لا مثيل له فى الممالك، ولئن كان ملكاها ينعمان بالجاه والمال، فإنى أملك ما لا يملكان، وهى الرحمة، فإذا كانا يملكان النبالة والشرف، ففى حوزتى العدل فلست أنقص عنهما شيئاً ". والآن تأمل معى، أكان يمكن لواحد مثل سنغ زى أن يقول كلاما مثل هذا، لولا أنه يفيض رجاحة وحكمه؟

فى الدنيا ثلاثة من أثمن وأعظم الأشياء جميعا وهى: المكانة الشريفة، والعمر الطويل، والفضائل الأخلاقية؛ فالمرتبة الاجتماعية الشريفة مكانها القصر الحاكم، والعمر الطويل هو ما يتفاضل به الناس فى مجتمعاتهم التقليدية، أما ما يسود به الأمراء على بقية الناس ويشد أزرهم ويقوى عزائمهم فهى الفضائل الأخلاقية، فمن أين، إذن، جاء تفضيل المرتبة والوجاهة الاجتماعية فوق الاثنتين الأخريين (العمر الطويل، والأخلاقيات) ومن ثم. فلا بد للأمير، ذى السلطة النافذة والسياسة القادرة، من أن يكون له وزراء يستدعيهم فى أى وقت، فإن لم يجيبوه من فورهم، سعى بنفسه إليهم للتشاور فى المسائل ذات الشأن.

ويجب دائما الاهتمام بالفضائل، والاجتهاد فى تطبيق السياسات القائمة على الرحمة والإنسانية بكل تفانٍ وحب وإلا (فمثل ذلك الأمير) لا يستحق أن يبذل له أى قدر من التعاون.

ومن ثم فقد راح (الملك) شان طانغ يتعلم على يدى"إيين"، ثم راح يُرقّيه حتى ولاه منصبا وزاريا، مما مكّنه فى نهاية المطاف من أن يفرض سلطانه فوق الممالك وهذا بالضبط ما فعله (الملك) "هوانكون" مع الحكيم"كوانجون" الذى تلقى العلم على يديه، ثم أنعم عليه فعينه وزيرا فى الحكم، فعظم أمر (الحاكم) جدا واستطاع أن يقهر الممالك ويعلن نفسه (إمبراطورا) تدين له الدول بالخضوع.

فإذا كانت الإمارات تتساوى اليوم، لا فرق بين صغيرها وكبيرها(لا تقوم فوقها دولة قوية تأخذ بناصية الأمور!)، والأفكار العامة تكاد تتوازى (دون إبداع!)، ولا يتفاضل أمير فوق آخر بشيء من مزايا التفوق؛ فليس هناك سوى سبب واحد (وراء كل ذلك)، وهو أن الأمراء لا يعينون فى المناصب الوزارية إلا من يصغون إلى آرائهم، ويبخلون بها على أساتذتهم ومعلميهم (يرشحون للمناصب من يصغى إليهم لا من ينبغى أن يصغوا هم أنفسهم إليه!)

وهكذا فلم يجسر كل من" شان طانغ" و" هوانكون" وهما الملكان المبجلان أن يقوما باستدعاء الحكيمين "إيين"، و"كوانجون"، فإذا كان قرار الاستدعاء الملكي قد تجاوز واحداً فى مكانة "كوانجون"، أفلا يمكن أن يغفل عن واحد أدنى كثيرا من ذلك الفيلسوف الحكيم؟"

٤ – ٣ راح تشين جين (تلميذ منشيوس) يسأل أستاذه قائلاً: " عندما كنت فى دولة تشى منذ أيام قليلة، أرسل إليك الملك بمائة "ييى" من الذهب [.. نحو مائة وعشرين كيلو غراما] فلم تقبلها، ثم لما ذهبت إلى دولة سونغ، أرسلت إليك هدية قيمتها سبعون ييى [نحو أربعة وثمانين كيلو غراما] من

الذهب فقبلتها دون تردد، ولما كنت فى طريقك عبر أراضى دولة"شيوى" جاءتك هدية تقدر بعشرة ييى من الذهب الخالص [نحو اثنى عشر كيلو غراما] فقبلتها أيضا بكل ترحيب، فإذا كان امتناعك عن قبول الهدية فيما مضى هو الصواب بعينه فإن قبولك لها بعد ذلك خطأ لا يغتفر، وإذا كنت تقبلها اليوم بصدر رحب فإن رفضك لها من قبل لم يكن من الصواب فى شيء، وعلى أية حال، فلا بد أن يكون تقديرك فى هذه الأمور مبنيا على معيار محدد.".

فأجابه منشيوس:" بل كنت فى ذلك كله على صواب، فعندما ذهبت إلى دولة "سونغ" كان طريق السفر المزمع طويلا وتكاليف الرحلة هائلة، فجاءت إلينا رسالة من القصر الحاكم تحتوى على مبلغ من المال بوصفه هدية من عطايا الملك نستعين بها على أداء مؤونة السفر، مما لم يكن ممكنا معه أن نرفض الهدية، فلما كنت فى دولة شيوى، عملت على اتخاذ كل التدابير الضرورية لمواجهة مخاطر الرحلة، فبلغتنا رسالة الأمير بما نصه.." قد بلغنا أنكم تعملون على تفادى ما يمكن أن يصادفكم من مخاطر الطريق، فأرسلت إليكم بمصاريف شراء ما يلزم من الأسلحة."، وبالطبع فلم يكن من المناسب رفض هذه الهدية.

أما السبب فى رفض قبول أموال من دولة تشى، فهو أنه لم يكن هناك أصلا أسباب تدعو لقبول أية هدايا، فبدا العرض وكأنه رشوة لشراء الذمة، وهل يمكن للحكيم العاقل أن يبيع نفسه مقابل رشوة؟"

٤ - ٤ لما وصل منشيوس إلى بلدة "بين لو" (بلدة نائية عند حدود دولة تشى)، والتقى رئيس المدينة (كون جى شن) فقد سأله، قائلا:"هب أن أحد أفراد

حرس الحدود عندك أهمل واجباته ثلاث مرات متتالية فى يوم واحد، أما كنت تطرده من وظيفته؟"

فأجابه:" بل ما كنت أنتظر أن يهمل عمله ثلاث مرات.(كنت أقصيه بعد ملاحظة إهماله لأول مرة!).

فقال له منشيوس:" فماذا إذن وقد أهملت أنت واجبات عملك أكثر من ثلاث مرات، أما رأيت أهالى المدينة، شبانا وشيبة، وهم يهيمون فى الوديان، والآفاق البعيدة جوعى ومشردين، إثر المجاعة التى ضربت أطنابها فيكم، أما كنت هناك عندما تجاوزت أعداد الموتى والمشردين آلافا مؤلفة؟"

فأجابه:" ذلك أمر لم يكن فى طاقتى (بمفردى) أن أتدارك عواقبه."، فقال منشيوس:" فماذا لو قام عندك رجل بتبعة تربية ورعى قطعان الغنم والماشية وكيلاً عن صاحبها الأصلى، أما كان يجدر به أن يتخير لها أحسن المرعى وأوفر العلف، فإذا لم يجد شيئا من ذلك، أفلا يجب عليه حينئذ أن يعيدها إلى مالكها، أم تراه يجلس جانبا يتفرج عليها وهى تهلك أمام ناظريه جوعا؟".

وهنا أجابه"كون جى شن":" أعترف لك الآن، بأنى مخطئ بكل تأكيد!"

ثم ما لبث منشيوس أن التقى بجلالة ملك تشى، فقال:" التقيت بخمسة من رؤساء المدن (الذين يعملون تحت تاجك) فلم أجد من بينهم من يملك الشجاعة على الإقرار بالوقوع فى أخطاء جسيمة سوى واحد فقط، هو (ذلك المدعو) كون جى شن"، وراح منشيوس يقص على الملك تفاصيل الأمر. فما كان من جلالته إلا أن صاح بقوله:" بل أنا المخطئ الأول."

٤ - ٥ تكلم منشيوس مع تشيوا (أحد كبار موظفى دولة تشى) فقال له:

" أراك قد فعلت عين الصواب عندما تخليت عن منصبك كرئيس لبلدة لين تشيو لتتولى العمل (فى السلك القضائى) قاضيا كبيرا بالدولة؛ فموقعك الوظيفى الجديد يمكنك من تقديم اقتراحاتك ونصائحك لجلالة الملك مباشرة، لكن الغريب فى الأمر، أنك الآن وبعد استلام مهام منصبك بفترة لا تقل عن عدة أشهر مازلت لم تتقدم بشىء من الآراء أو الاقتراحات (لجلالته)، أتراك عاجزا عن ذلك؟".

وبالفعل فقد تقدّم "تشيوا" لجلالته بآراء واقتراحات شتى، لكنها لم تؤخذ بعين الاعتبار، مما كان سببا فى استقالته من وظيفته.

وهكذا راح البعض في دولة تشي يرددون بأن.." الرأى الذى (عرضه منشيوس، و..) أخذ به"تشيوا" كان جيدا للغاية، لكن الطريقة التى تصرف بها هذا الأخير، هى التى طويت ضمن ما انطوى من أسرار غير معلومة للكافة.".

والعهدة فى هذه الرواية تقع على تلميذ منشيوس المدعو" كوندوتز"، (وهنالك) قال منشيوس:" إنه قد بلغنى أن من حيل بينه وبين ممارسة مسئوليات وظيفته الرسمية، فلابد له من الاستقالة، وكذلك من تقدم باقتراحات وتوصيات بحكم وظيفته الرسمية، وقوبلت جهوده بالتجاهل التام، فله أيضا أن يعلن احتجاجه بالتخلى عن مهام وظيفته، أما فيما يتعلق بى، وقد شاءت الظروف ألا يكون لى منصب وظيفى يخولنى سلطة تقديم التوصيات؛ فمن حقى الذهاب إلى القصر وقتما أريد أو الامتناع عن

ذلك حسبما أرغب، مادام أمامي مجال يسمح بالإقدام أو الإحجام بكل مرونة وسهولة، وسط أجواء هادئة تماما."

٤ - ٦ لما تولى منشيوس منصبا حكوميا مرموقا فى دولة تشى، صدرت إليه الأوامر بالتوجه إلى دولة"تنغ" فى مهمة رسمية للقيام بواجب العزاء والمواساة، وأرسل معه حاكم تشى أحد رؤساء المدن، وهو المدعو "وان هوان" (رئيس بلدة "كيه".. وكان "وان هوان" من أكثر الموظفين الرسميين توددا إلى جلالة الملك، حتى وثق به وجعله من خاصته) ليكون مستشارا ونائبا له فى مهمته، وهكذا سار معه هذا المسئول طوال مدة تنقّله بين البلدين، غير أنه لم يحدث أبدا أن تحدث منشيوس إليه بشأن أى أمر من أمور المهمة الرسمية الموكولة إليهما، ومن ثم راح كونسون شو يسأل منشيوس قائلا:" إن المنصب الذى تشغله ليس بالعادى، والمسافة بين دولتى تشى وسنغ، ليست بالقصيرة، فكيف - على طول الطريق واتصال الصحبة - تمسك عن محادثته فى شئون بعثتكما الرسمية؟"، فأجابه:" من ناحيته، فقد كان يتصرف فيما هو موكول إليه وحده دون تشاور معى، ففيم إذن كان لنا أن نتشاور؟"

٤ - ٧ سافر منشيوس من دولة تشى إلى دولة "لو" لحضور مراسم دفن والدته، وفى طريق عودته إلى تشى توقف قليلا عند بلدة"إينغ"، فجاء إليه أحد أتباعه (ويدعى تشونيو) وسأله:" كنت ياسيدى، فيما مضى قد تغاضيت عن جهلى وغباوتى ورضيت أن أصنع توابيت لموتاك؛ فلما كنت (سيادتكم) مشغولا آنذاك فقد خشيت أن أزعجك بأسئلتى أما الآن فقد حانت الفرصة كى أسألك عما دعاك إلى اختيار أجود أنواع الأخشاب لصناعة التابوت

الذى أودعت به جثمان والدتك؟"، فأجابه:" اعلم أن صناعة الأكفان الداخلية، والتوابيت الخارجية للموتى، فى العصور القديمة، لم يكن يتبع نمطا أو مقاييس محددة، فلما جاء العصر الوسيط، تم تحديد سمك التابوت الداخلى بما لا يزيد على سبع [تصون..، أى بوصة] بوصات، على أن يسرى القياس نفسه على التابوت الخارجي أيضا، وجرى توحيد وتعميم تلك النسب على طقوس دفن العامة والخاصة، من الإمبراطور إلى أفراد الشعب البسطاء، باعتبار أن مثل ذلك الإجراء يحفظ مقاييس جمالية تتوافق حولها مشاعر الأبناء البررة؛ فلو كانت الطقوس تنص - مثلاً - على شراء أجود الخشب بما لا تطيقه عامة الناس، لحزن الجميع على موتاهم ولتحسروا لعدم مقدرتهم على الوفاء بعادات الدفن لضيق ذات اليد؛ لذلك اتبع الأقدمون نهجا يوائم بين جودة الأخشاب المطلوبة لصناعة التوابيت بحيث تكون أسعارها فى متناول الجميع، فلئن كانت تلك عادة القدماء، فما الذى يجعلنى أحيد عنها وحدى، وبالإضافة إلى ذلك كله، أفلا تظن أنه مما يدخل السعادة على قلبى أن أحفظ جسد فقيدتى العزيزة) بعيدا عن الطين والتراب؟ وقد بلغنى أن العاقل لا يبخل على (طقوس جنازة) والديه بشىء مما يقوم به معاشه تحت السماء (فى الحياة الدنيا)!"

٤ - ٨ حدث أن أحد كبار الوزراء بدولة تشى (وهو الوزير شنتون) تقدم إلى منشيوس بسؤال يستطلع فيه رأى الفيلسوف - من زاوية اهتمام شخصى غير رسمى - قائلاً: " أتظن أن من الممكن مهاجمة دولة يان؟"، فأجابه:" نعم هذا ممكن جدا؛ (فلذلك) ينبغى على حاكم يان "تسيكواى" أن يسلم قيادة بلاده إلى يد أخرى، ولا يجب على رئيس وزرائه"تسى جى" أن

يتسلم مقاليد الأمور من الملك تسيكواى (والمسألة، ببساطة. يمكن أن نضرب مثلا لتوضيحها، على النحو التالى..) فإذا افترضنا أنك تصادق امرءًا، ما، وتفضله على بقية الناس وتخصه - سرا، ودون علم جلالة الملك - بأن تتنازل له طواعية عن رتبتك الاجتماعية وراتبك الملكى، ثم إن هذا الشخص نفسه - دون علم الملك أيضا، وبغير إذن رسمى- استولى خفية، على صلاحيات منصبك ومخصصاتك المالية (وتصرف بها كيفما اتفق له) فهل يعد ذلك تصرفا سليما؟".. فما الفرق، إذن، بين هذا المثال وبين ما يمكن أن يحدث فى دولة يان؟".

وبالفعل، فقد هاجمت تشى دولة يان. وذهب أحدهم إلى منشيوس وسأله:

" هل صحيح (ما بلغنى من) أنك قد نصحت لدولة تشى بمهاجمة يان؟"، فأجاب:" هذا غير صحيح! وإنما سألنى"شنتون" (سرا) بقوله:" هل يمكن مهاجمة دولة يان؟"، فأجبته حرفيا.." نعم، ممكن جدا".. فما كان (منهم)إلا أن قاموا بمهاجمة يان، أما لو كان قد توجه إلى بسؤال آخر عمن يستطيع القيام بمهاجمة يان، لكنت أجبته على الفور بأنه ليس هناك سوى ملائكة (وزراء) السماء، وحدهم، هم الذين يقدرون على ذلك، (وللتوضيح فلنضرب مثلا، فإذا كان..) هناك مجرم ارتكب جناية، وسألنى واحد من الناس عمن ينبغى أن يقوم بقتل (الاقتصاص من) ذلك المجرم، لأجبته بأن ليس هناك سوى القاضى وحده هو الذى يملك سلطة قطع رأس الجانى.

لكن أن تقوم دولة تشى بمهاجمة يان (.. التى لا تقل عنها وحشية وقسوة) فهذا ما لا يمكن أن أنصح به مطلقا!"

٤ – ٩ قام شعب دولة يان بأعمال المقاومة ضد احتلال بلاده (الإشارة هنا إلى قيام أهالى دولة يان بأعمال التمرد والعصيان ضد دولة تشى وذلك فى ٣١١ ق.م) وكان حاكم يان، الملك "زيكواى"، قد توفى إثر احتلال بلاده وهرب رئيس الوزراء"تسيجى" وشعر الأهالى بأن تشى تريد ضم بلادهم إلى أراضيها، وقاموا بعصيان أوامر بلاطها الإمبراطورى؛ مما اعتبرته تشى عملاً من أعمال العصيان والتمرد، وهنالك تحدث الملك شيوان حاكم تشى؛ فقال:" كم شعرت بالخجل من منشيوس (إذ قد اقترح عليه الفيلسوف الحكيم أن يصدر أمرا بإعادة المرضى والعجائز من الأسرى إلى ذويهم وإيقاف أعمال السلب التى عمت دولة يان وتنصيب حاكم جديد للبلاد استعداداً للانسحاب، لكن الملك لم يأخذ برأيه، فقام الأهالى بالتمرد..) فقال له"تشن جيا" (أحد كبار رجال القصر فى تشى): " لا تحزن يا مولاى، (وسأقول لجلالتكم شيئًا أثبت لكم به أن الأمر لا يحتاج إلى ذلك الشعور بالأسف، واسمح لى بأن أسألكم..) أيكما أكثر حكمة ورحمة .. جلالتكم أم جوكون؟ (مؤسس أسرة جو)"، فأجابه الملك: "ما هذا القول؟ وأين أنا منه (.. لست أهلا لأن يذكر اسمى مع اسمه، فكيف بك تقارن بيننا!)، فقال تشن جيا:" كان جوكون قد أرسل أخاه الأكبر كوانشو إلى دولة "يين"، مشرفا عاما على البلاد بأمر الملك، ثم فوجئ جلالته بأن أخاه هذا يقود دولة يين فى عصيانها الشعبى الجارف ضده (فإذا تصورنا أن ..) الملك جوكون كان يتوقع مثل هذا التصرف، وبرغم ذلك فقد ولى أخاه هذا المنصب، فذلك ما لا يتفق مع سياسة تقوم على الإحسان والرحمة، أما إذا قلنا بأنه ما كان يتوقع أن يتصرف أخوه

على هذا النحو وإلا لما عينه فى وظيفته المشار إليها؛ فذلك مما ينزع عن الملك صفة الحكمة، بل ينفى عن جلالته الحلم والكياسة معا، (فإذا كان ذلك هو الأمر مع جوكون، وهو من هو..) فما بالك لو كان الأمر بيدك؟ وأرجو من جلالتك أن تسمح لى بمقابلة منشيوس لأستوضح منه حقيقة تلك الأمور.".

فلما التقى بمنشيوس ابتدره بسؤاله:" ما رأيك فى جوكون؟"

فأجابه:" نعم الرجل هو، كان من الحكماء والقديسين ."، فقال له:" علمت أنه كان أرسل كوانشو مشرفا على دولة يين، فإذا به يقود حملة عصيان عامة ضد سيده الذى أرسله ليحفظ النظام! ألم يكن ذلك هو ما حدث بالضبط؟"

- " بلى ذلك هو ما حدث تماما!"
- " وهل كان جوكون يدرك أنه سيحرض الأهالى على التمرد، فعينه فى منصبه على الرغم من ذلك؟"
- " أبدا، لم يكن جوكون يعلم مسبقا ما سيقدم عليه أخوه؟"
- " إذن فالحكماء القديسون، هم أيضا يخطئون!"

فقال منشيوس:" جوكون كان الأصغر سنا بينما كوانشو هو الأخ الأكبر، ومن المعقول جدا أن يخطئ الصغير، أليس كذلك؟ (أليس من المعقول أن تقوم بين الإخوة الأحقاد والضغائن!)، ثم إن السادة من ذوى الخلق الكريم كانوا، فيما مضى يسارعون إلى تصحيح أخطائهم؛ أما سادتنا الأفاضل، فى زماننا هذا، فيقعون فى أخطاء بشعة ويغضون الطرف عن المراجعة والتصويب.

كانت أخطاء (الملوك) القدماء مثل كسوف الشمس وخسوف القمر، ظواهر كبرى تراها عيون الناس جميعا، تختفى حينما تنصلح الأحوال ويصحو المخطئون من غفلتهم (.. فيصححون أخطاءهم)، ويتجلى صلاحهم لكل عين ناظرة؛ أما أخطاء سادة هذا الزمان فلطالما ترك لها الحبل على الغارب، تسير وشأنها دون رقيب أو حسيب بل تحيط بها هالات من بديع الكلمات تدارى عوارها وتزين بالتزييف شنارها."

٤ – ١٠ استقال منشيوس من وظيفته التى كان معينًا بها (من قبل دولة تشى)، وأخذ أهبته للعودة إلى بلاده، والتقى أثناء ذلك بملك تشى الذى قال له:

" كنت أشتاق إلى التعرف إليك، فى أول الأمر، دون جدوى، ثم أتيح لنا أن نلتقى معا وأن نتعاون فى كثير من الأمور، مما أشاع فى قلبى السعادة، فأما ما تزمع عليه اليوم من مغادرتنا والرحيل عنا (فهو يحزننا كثيرا.. ويثير التساؤل عما ..) إذا كان ممكنا أن نلتقى بك ثانية؟".

فأجابه:" هذا ما لا أجسر أن أطلبه من جلالتك لكنه عين ما أتطلع إليه وأتمناه."

وبعد أيام التقى ملك تشى بأحد وزراء دولته (شتيز)، وقال له:" أريد أن أقيم منزلا لسكنى منشيوس فى قلب العاصمة، وأن أمده بكل ما يلزمه هو وتلاميذه من الطعام والشراب [حرفيا: له مئات الآلاف من أجولة الطعام] كى يقتدى به الوزراء ويتعلم منه الأهالى، فلماذا لا تذهب إليه، على الفور، فتكلمه فى هذا الأمر عن لسانى؟".

ثم ما لبث"شيتز" أن قام بتكليف "تشن تسى" (أحد تلاميذ منشيوس) بالتحدث مع أستاذه فى هذا الشأن، وبالفعل قام تشن تسى بإبلاغ الحكيم بما كلف بنقله، حرفياً.

فرد منشيوس على ذلك فى دهشة، قائلاً: "ولماذا يتصور"شيتز" أن الأمر بعيد المنال، (وأقول بهذه المناسبة..) إننى لو كنت أريد الثروة والمال حقا فهل يعقل أن أرفض راتبا نقديا مقداره مائة ألف وزنة من المال، فيما كان متاحا لى منذ زمان مضى، ثم أقبل هدية لا يزيد مقدارها على عشرة آلاف وزنة فقط! كنت قد سمعت أحد أتباعى (جيسون) يقول ذات مرة:" ليس فى الدنيا أغرب من المدعو "زيشوى"، ذلك الذى حاول جاهدا أن يعمل بوظيفة رسمية (بالقصر الملكى) فلما رفض طلبه، راح يسعى لكى يلحق أخاه الأصغر فى منصب حكومى مرموق.

وإذا كان من الطبيعى والمفهوم أن يسعى الناس إلى امتلاك الثروة والجاه، فإن الشىء غير المفهوم بالمرة هو أن يسعى أحدهم إلى احتكار كل الثروات والمزايا لنفسه دون الآخرين. كان الناس قديما، يتاجرون بمبادلة ما يملكون من أشياء مع ما يعرضه الآخرون مما يحتاجون إليه على أن عملية المبادلة لا تتم إلا تحت إشراف الأقسام الحكومية المسئولة، وأحيانا كان أحد التجار من السفهاء وأولاد الطريق يحاول أن يستأثر لنفسه بمكان بارز وسط السوق، يجعله محط الأنظار (يراه الزبائن إذا تطلعوا فى أى اتجاه) فلا يفلت من حبالته صيد الربح

الثمين، وكان مثل ذلك التاجر موضع كراهية وازدراء الناس جميعا بوصفه سفيها لا خلاق له؛ مما جعله عرضة (للعقاب الرسمى بواسطة دفع مبلغ يلتزم به كضريبة، ومنذ ذلك الحين وبسبب ذلك التاجر السفيه نشأ نظام الضريبة."

٤ - ١١ مر منشيوس فى طريق رحيله عن دولة تشى ببلدة تشو(بلدة صغيرة على الحدود الجنوبية الغربية لدولة تشى) فنزل بها ليبيت ليلته هناك، فجاء إليه أحد الأهالى وأراد أن يضيفه فى منزله (باسم جلالة الملك)، ثم جلس بكل الاحترام بين يديه وتكلم معه ببالغ التوقير، إلا أن منشيوس لم يكترث له ولم يحفل بكلامه، بل ظل متكئًا على سريره يتثاءب فى تكاسل واسترخاء، فغضب الرجل وصاح قائلا:" لقد ظللت يقظا(فى انتظارك) منذ يومين، ولم يدخل جوفى فيهما طعام حتى شرفتنا بزيارتك فجئت أتحدث إليك، فتشاغلت عنى بالتثاؤب وضربت صفحا عن محاورتى إياك، فلن أسعى، بعد اليوم، إلى مقابلتك."

فقال له منشيوس : "أقبل واجلس ها هنا أكلمك، واسمع منى قولا أحدثك به صراحة، أما علمت أن واحدًا مثل النبيل"لومو" ما كان له أن يدخل الهدوء على قلب"زيس" (حفيد كونفوشيوس) إلا بما قام به من ترتيبات يضمن بها السهر على رعاية حفيد الشيخ الأكبر العظيم؛ وبالمثل أيضًا، فما كان ممكنا لـ"لومو" نفسه أن يجد من يعتنى به إلا بفضل ما بذله من أجله كل من"شيليو"، و"شين شيانغ" (إذ عهدا إلى خادم بمرافقته والقيام على راحته). فكيف أصدق أنك تريد لى الراحة (وأنا الشيخ الهرم) وأنت لم تسلك معى بعد بالاحترام اللائق الذى بذله لومو لـ "زيس"؟ إلا أنك أنت الذى قصرت فى واجبك نحوى، ولم أكن أنا الذى أخطأت فى حقك!"

٤ – ١٢ لما غادر منشيوس أرض تشى راح "يين تشى" (أحد الأهالى) يردد أمام الناس قولا مفاده: "إن لم يكن منشيوس يدرى، من أول الأمر أنه سيعجز أن يصنع من الملك (حاكم تشى) رجلا فى قيمة (الملك المقدس) شان طانغ، أو فى مكانة الإمبراطور العظيم "أو"، فهذا دليل على سذاجته وقلة تبصره؛ فأما إذا كان قد جاء إلى جلالته وهو يعلم، منذ البداية، أنه لا جدوى من كل جهوده معه، فهو لم يأت، إذن ، إلا سعيا وراء المال والجاه والحظوة، ثم إنه بعد عناء السفر وطول الرحلة، لم يلبث إلا يسيرا حتى وقع الشقاق بين الملك وبينه، ومع ذلك فقد راح يتلكأ فى طريق عودته إلى بلاده، حتى أنه ظل يبيت عدة أيام فى بلدة "جو"، بدلا من أن يسرع الخطى براحلة السفر! يا لها من أمور تضيق بها النفس الكريمة!".. ثم إن كاوتزى أبلغ منشيوس بمحصلة ذلك، فقال الفيلسوف الحكيم: "وكيف يمكن لـ يين شى أن يدرك خفايا شئونى الشخصية على هذا النحو؟ فلم أقطع المسافات الطوال سعيا للقاء جلالة الملك؛ إلا لأنى كنت آمل فى التشرف بالمثول بين يديه، أما أنى رحلت عن بلاده بعد أن تبددت كل فرص التفاهم الودى، فهذا أمر لم أكن أريده ولا سعيت إليه؛ ولم يكن هناك مفر من مواجهته مهما فعلت! (..تلك أحكام الضرورة)؛ ولئن أقمت فى بلدة "تشو" ثلاث ليال، فلأنى كنت مرهقا بسبب السفر، ثم إنى ندمت على التسرع فى الرحيل، وظننت أن جلالة الملك قد تراجع عن أفكاره وهو ما يعنى أنه يمكن أن يأمر باستدعائى للقائه، فلما لم يحدث شىء من ذلك. رحلت عن البلدة المذكورة، وهو القرار الذى اتخذته بشكل قاطع. فهل يمكن (على ضوء تلك الوقائع) الوصول إلى استنتاج بأننى تباعدت عن جلالة الملك!.

هذا، ويعلم الجميع أن ملك تشي يراعي المصلحة العامة في كل قراراته فإذا قرر أن يسند إلي وظيفة ما، فلا بد أنه يدرك تماما أني، من خلال ذلك المنصب سأعمل لما فيه استقرار مواطني الممالك كافة، ليس فقط أمن وسلام مملكة تشي وحدها. (وكثيرا ما أتأمل وأفكر وأقول لنفسي..) لعل الملك يغير موقفه (.. فيما بيني وبينه من نقاط الاختلاف) فهذا ما أنتظره وأتمناه باستمرار، فليس لي أن أتصرف على نحو ما يفعل السفهاء (.. وقصيرو النظر أولئك..) الذين تتقلب جنوبهم على لهيب الغضب ويتطاير من عيونهم شرر الاستنكار، إذا ما أغفل الملك آراءهم وتوصياتهم برفض الأخذ بنصائحهم، فيستقيلون من مناصبهم ويخوضون في متاهات طرق السفر والترحال ولا ينزلون عن رواحلهم إلا بعد طول مشقة وعذاب!"

فلما تناهت تلك الكلمات إلى سمع يين شي، تنهد قائلا: " يا لحقارتي وضعة نفسي!"

٤ - ١٣ تقدم "تشون يو" إلى منشيوس، وهو على طريق الرحيل عن دولة تشي وسأله قائلا: " ما لي أرى سحابات الحزن تغمر وجهك ياسيدي، وقد سمعتك تقول فيما مضى بأنه لا ينبغي للماجد الكريم أن يعبس بوجهه غضبا من قدر السماء ولا أن يطرق برأسه حزنا من ظلم الأرض.".

فرد عليه منشيوس: "ما كان منذ حين فقد مضى في حينه، وما يكون الساعة فهو الكائن (وفي دورات التاريخ المتعاقبة)، لا يكاد ينقضي من الزمان خمسمائة عام حتى يظهر حاكم قديس وأعوان تذيع شهرتهم في الأسماع. وإذا أحصينا الأعوام منذ بداية عصر أسرة جو (.. منذ أول

سنى حكم الملك أو) حتى الآن، وجدنا أنها تبلغ سبعمائة عام تامة فهى قد تجاوزت، بالأعداد، خمسمائة عام المشار إليها، أى أنه من المعهود أن تشهد الأحوال الحاضرة (ظهور القديس - الملك، وأعوانه) غير أن إرادة السماء تأبى أن ينزل على الأرض السلام؛ ذلك أنها لا ترضى أن تمدنى بمن يشد أزرى فى مواجهة الأحوال العامة التى تحيط بى من كل جانب، أفلا يصير ذلك مدعاة للحزن والأسى؟"

٤ - ١٤ لما غادر منشيوس دولة تشى وأقام فى بلدة شيو (القريبة من مسقط رأسه) ذهب إليه كونسون شو، وسأله:" هل من آداب المعاملات (المستقرة من قديم الأزل) أن يظل المرء قائما بمهام وظيفته الرسمية، حتى دون أن يتسلم راتبه المقرر؟"، فأجابه:" لا، ليس ذلك من أصول المعاملات فى شىء، (وحقيقة الأمر أنى) بعد لقائى بجلالة الملك فى منطقة "تشون" عدت وفى نيتى أن أستقيل من وظيفتى، ولما كنت قد عقدت العزم على ذلك، فلم يكن لى أن أقبل استلام أى راتب رسمى، وفى تلك الأثناء، قامت الحرب، وتعطلت إجراءات وترتيبات السفر، فاضطررت للإقامة الطويلة فى تشى، وهو الأمر الذى لم يخطر لى ببال ولا كنت أصبو إليه."

الباب الثالث

تنغ وان

(الجزء الأول)

(وجملته خمسة فصول)

٥ - ١ لما كان الماجد الأشرف"أون" عظيم دولة تنغ فى مرتبة الإمارة (قبل أن يترقى إلى سدة الحكم) قاصدا الذهاب إلى دولة"تشو" فقد مرّ فى طريقه بدولة "شونغ"، والتقى بالفيلسوف منشيوس الذى كان منهمكا فى أقواله حول "الطبيعة الإنسانية المجبولة على الخير" وبطبيعة الحال فقد امتد الحديث حتى ذكر طرفا من سيرة (الملكين الحكيمين)"ياو"، و"شون".

ثم إن عظيم دولة "تنغ "[الأمير أون وقتئذ] مر فى طريقه وهو عائد من دولة تشو بالحكيم منشيوس أيضًا. فقال له:" هل تشك فى كلامى يا سمو الأمير، إذا قلت لك ليس هناك سوى مبدأ واحد صحيح لكل الأشياء، وقد حدث ذات مرة أن تكلم "شنجيان" (أحد أبطال دولة تشى) مع عظيم دولة تشى، "جينكون" فقال له:" إن هؤلاء جميعا بشر، مثلما أنا بشر أيضًا، لا فرق بين أحد من الناس، فلماذا ينبغى أن يخشى بعضنا بعضا؟"، وبهذا المعنى تحدث يان يوان، فقال:" إن مثلى مثل الملك الحكيم شون،

بل كل من قدم إنجازا تاريخيا خالدا، يقف معه على قدم المساواة ويحظى بمثل مكانته القديرة."

وقال "كون مينغى" (من تلاميذ سنغ زى، الشيخ الكونفوشى الكبير): " قد كان الملك أون أستاذى ومعلمى الذى عرفت الحكمة على يديه، فكيف يمكن لواحد مثل النبيل الماجد "تشو" أن يخدعنى" (.. من تعلم على يد الملوك فلن يمكن لأعظم الأمراء أن يخدعه بسهولة!) وأرى أن دولة تنغ تقع على مساحة من الأراضى يبلغ محيطها ما يقرب من خمسين لى متكاملة (وهى مساحة صغيرة، لكنها..) تتوافر فيها شروط تأسيس دولة ناجحة. وقد ورد فى كتاب" الشعر القديم"، ما نصه:

"لن يذهب عنك الداء،

ما لم يتجرع حلقك مرالدواء،

ويتخبط رأسك الألم وتدمع الأجفان ."

٥ - ٢ لما توفى الملك" دين" عظيم دولة "تنغ" ذهب الأمير يستشير أستاذه " رانيو"، قائلا له:" كنت قد التقيت - وأنا بدولة سونغ، منذ زمان - بالحكيم منشيوس، وقال لى كلاما مازلت أذكره حتى هذه اللحظة، أما وقد ألم بنا هذا المصاب اليوم فإنى أريد أن أرسلك إلى منشيوس تسأله النصح والمشورة قبل البدء فى طقوس الدفن والعزاء."

وبالفعل فقد ذهب رانيو إلى دولة "تسو"، حيث التقى بالشيخ الحكيم وطلب إليه أن يشير عليه بما يجب عمله (.. فى هذه الظروف..) فقال له:" إن كنت جئت تسألنى عما ينبغى عمله، فنعم مجيئك إذن؛ لأنه يجب على المرء أن يبذل كل اهتمامه وعنايته فيما يليق بطقوس دفن والديه، وكان الحكيم

سنغ زى قد قال ذات مرة:" لابد أن يكون الوالدان موضع رعاية الأبناء وهم على قيد الحياة، فإذا قضيا نحبهما، أقيمت لهما طقوس جنائزية على النحو الذى تقضى به الأصول والآداب، وقدمت لهما الأضحية عند قبريهما، فذلك من البر والرحمة"، فأما بخصوص آداب إقامة طقوس الدفن عند الأمراء وقادة الممالك، فليس عندى شيء مما تقضى به الأصول (.. المدارس الفكرية) فى ذلك إلا أنى كنت سمعت (أن الأعراف تفرض) ارتداء ثياب الحداد الخشنة غير المخيطة مدة ثلاث سنوات، وألا يقدم على الأسمطة من الطعام إلا حساء الأرز، فريضة على كل من مات والداه، يستوى فى ذلك الكل من ملك وحاشية ورعية، من أرفع القوم قدرا إلى أدناهم، فذلك هو التقليد الراسخ منذ أيام الأسرات الملكية الثلاث القديمة (شيا،شانغ، جو)."

وعاد رانيو أدراجه فأبلغ الأمير بما دار، وهنالك قرر سموه أن تقام مراسم العزاء مدة ثلاثة أيام، إلا أن شيوخ القوم وكبار رجال الدولة ضجوا بذلك القرار ولم يذعنوا له، قائلين إنهم لم يسمعوا بشيء من ذلك، فيما عرفوا من سيرة أجداد وملوك دولة "لو" الأقدمين، ولا ورد لهم خبر يقضى بصحة تلك الطقوس فيما عرفوا من آبائهم وأجدادهم فى دولة "تنغ"، فليست هذه إلا بدعًا وضلالات من لدن" أمراء هذا الزمان" وهو ما لن يقبلوا به أبدا، هذا فوق ما طالعوه فى كتاب"التاريخ" حيث ورد ما نصه:" يجب الالتزام فى إقامة طقوس العزاء ومراسم تقديم القرابين بما قرره الأجداد من قديم"، واجتمعت كلمتهم فى ذلك بأنه" يجب اتباع ما تواصى الأقدمون بالعمل به" وعندئذ قال الأمير لأستاذه:" لم أحظ

من مطالعتى فى العلوم بالشىء الكثير؛ ذلك أنى كنت أهوى الفروسية وألعاب السيف، وأرى أن جهلى (بأمور الحداد والعزاء وطقوس الدفن) قد أثار علىّ غضب الشيوخ والحكماء والمقدمين من رجال الدولة، وربما كان من نتيجة ذلك أن أقع فى مزيد من التقصير عن إقامة الحداد الرسمى وطقوس التعزية، فاذهب ثانية، إلى منشيوس وانظر ماذا تجد عنده من المشورة فى هذا الأمر." فسافر رانيو إلى دولة تسو مرة أخرى وقابل الشيخ الجليل الذى أجاب بقوله:" نعم، هذا عين الصواب، وليس من الحكمة أن نطلب من الناس إتيان ما يتجاوز طاقتهم، وقد قال كونفوشيوس فى هذا المعنى قولا مفاده:

" إذا توفى الملك، آلت شئون الحكم إلى رئيس الوزراء (.. أما الأمير فـ) لا يرفع إلى فمه إلا حساء الأرز، حتى يمتقع وجهه كمداً وحزناً، ويظل مقيما بمكانه وهو يذرف دموع الحزن وعلى الوزراء وكبار المستشارين الاجتهاد فى إظهار مشاعر الأسى؛ اقتداء بأميرهم وكبيرهم، إن إرادة الكبار غالبة وواجبة على كل من هو دونهم، إن سلوك النبلاء كالريح الرامح فى الأجواء، أما تصرفات العامة والدهماء فكأنها أعواد النبات التى لا معدل لها عن الميل باتجاه الريح، فالأمر كله يصير إلى الأمير، فى أول الأمر ومنتهاه ."

وعاد رانيو ليبلغ الأمير بما سمع، فإذا بسموه يقول له:" هذا هو القول الصحيح، فالأمور تصير إلىّ فى كل الأحوال!" ثم إن الأمير راح ليقيم فى كوخ الحداد مدة خمسة أشهر (كما هى العادة بالنسبة للأمراء، حيث

يقيمون فى أكواخ جافة غير مبنية بالطوب، ولو أن القاعدة الأخلاقية تنص على ألا تقل مدة الإقامة للأمراء عن سبعة أشهر، وللنبلاء خمسة أشهر متصلة) دون أن يتدخل فى سلطة إصدار أية قرارات قيادية [حرفياً: دون إصدار قرارات بالتصديق أو الحظر].

وهو الأمر الذى لقى استحسان الكافة، من العامة والخاصة، حيث عُد سلوكه على هذا النحو مطابقا للمفهوم والمعهود من الشرائع والعادات، فلما حان موعد إقامة طقوس الدفن، توافدت الجموع لمشاهدة المراسم، وظهر وجه الأمير متجهماً مغبراً تعلوه مشاعر الحزن الشديد، تفيض على وجنتيه الدموع، فكان ذلك من دواعى الغبطة والرضا [هكذا] عند وفود المعزين جميعا.

٥ – ٣ التقى الأمير"أون" عظيم دولة "تنغ" بمنشيوس، فسأله فى عدة موضوعات بشأن مبادئ سياسة الممالك، فقال الشيخ الحكيم:" إن شئون الحكم ومصالح الناس ليست من الأمور التى تحتمل الإهمال، وقد ورد فى كتاب" الشعر القديم" ما نصه:

" أكرم بمن خرج فى نهاره ليحتطب،

وعاد فى المساء ليفتل بأكف صلبة أوتاده،

وظل ساهرا يرتق ثغرات فى الجدار،

ثم صحا ليحرث أرضه،

ويبذر زرع الربيع."

أما الأحوال العامة التى تكتنف حياة الناس فهى على هذا النحو. لطالما كان ذوو الدخول الثابتة من الناس يعيشون حياة هادئة والعكس صحيح،

فإذا تكدرت الأحوال بسبب عدم ثبات الدخول، انتشرت الفوضى ودب الانحلال وعم الفساد (.. وصار كل فعل جائزًا، وكل أمر يؤتى بغير ضبط ولا ربط)، حتى إذا شاعت الجرائم أخذت بنواصيها أحكام القضاء وعقوبات القانون؛ مما يعد اتهاما كيديا ومزورا يمس شرف الناس، فكيف يمكن أن يقال بأن نظام الحكم قائم على الرحمة والإنسانية بينما هو يتهم الناس زورا وبهتانا؟

وهكذا فينبغي على (الملك) الحكيم أن يأخذ الأمور بالحذر والحيطة وأن يتواضع فى خُلقه، ويقتصد فى نفقاته، ويتقرب إلى البسطاء ويلين لهم جانبه، ولا يفرض على الناس ضريبة إلا بقدر محدد ومعلوم. ولقد تحدث يانخو (أحد كبار الوزراء بدولة لو) مرة، فقال:" إن الباحث عن المال لن يكون رحيما، والساعى إلى العطف والشفقة لن يصير ذا مال." (كان نظام جباية الضرائب فى الأسر الملكية الثلاث الماضية كالتالى..) فى أسرة"شيا" جرى فرض نظام "قونغ" (التحصيل الجبرى) على كل أرض بلغت مساحتها خمسين"مو" .

وأثناء حكم أسرة شانغ، كانت الضريبة المسماة بـ "تشو" (أى المعونة) تجبى من كل أرض مساحتها سبعون"مو".

أما فى أسرة"جو" فقد كانت تؤخذ ضريبة الـ (تشى) [الخراج التام] عن كل مائة" مو" كاملة من الأراضى: والحق أن نسبة الضرائب فى كل ذلك لم تتجاوز مقدار العشر.

والمقصود بنظام (التشى) "الخراج التام"، هو العمل على التحصيل الكلى للضريبة؛ أما نظام الـ(تشو) [..المعونة] فهو يشير إلى الاستعانة بالعاملين فى زراعة الأراضى التى فى الحيازة العامة.

وقد قال "لونزى" (أحد حكماء العصر القديم) ذات مرة:" عند العمل بنظام التحصيل الضريبى على الأراضى، فليس هناك أفضل من نظام"المعونة" وليس أسوأ من نظام الـ (قونغ) [التحصيل الجبرى]"، ففى هذا النظام الأخير، يجرى احتساب متوسط حصاد عدة سنوات كمعيار محدد لتحصيل الخراج، وعندما يحل عام حصاد وافر، توضع الغلة أكواما مكدسة، وتزاد نسبة الضريبة المقررة عليها شيئا قليلا بما لا يبلغ حد التجنى الفادح؛ أما فى سنوات القحط، عندما تقصر الأرض والحصاد عن الوفاء بما بذل فى التسميد والبذار من جهد، فليس أقل عندئذ من تحصيل النسبة التامة للضريبة المقررة.

كيف لمن يزعم لنفسه مكانة الأب الحامى والأم الرؤوم لشعبه، عندما تمتلئ صدور الناس منه غضبا(وتنظر إليه العيون شزرا) ولا يفيد أحد من جهده مهما اجتهد لأجل الغير، بل يجد رعاياه من الفاقة والمشقة ما يضطرون معه إلى الاستدانة للوفاء بما تقرر عليهم من جزية، مما يؤدى ببعضهم إلى الهلاك، (.. فتجد الشبان والشيوخ، والآباء والأبناء قد لقوا حتفهم فى قيعان الوديان) أيستحق من يتعذب الناس تحت سلطانه، أن يسمى نفسه مثل هذه الأسماء (الأب الحامى..) .

ثم إن كبار الموظفين ينعمون على مرّ الزمان بالحصول على رواتب حكومية متميزة وهو نظام تأخذ به دولة تنغ من زمان بعيد (.. فى حين لا يملك العامة شيئًا يقيم أودهم) وقد ورد فى كتاب الشعر القديم - فى هذا المعنى - ما نصه:

" فلتسقط قطرات المطر

فوق كل الأرض [.. الحيازة العامة]،

حتى إذا فاض القطر،

ارتوت منه حقول آحاد الناس."

ومن ثم فلن تقوم لنظام الحيازة العامة قائمة إلا بواسطة تطبيق الجباية الضريبية المسماة بـ "المعونة"، ويتضح من أبيات الشعر السابقة أن دولة "جو" كانت (فى قديم الزمان) تطبق هذا النظام أيضا. ولابد من إقامة مؤسسات تربوية لنشر العلم والأخلاق بين الناس، (والمؤسسات من هذا النوع تنقسم إلى:) "شيانغ"، بمعنى المدرسة التأهيلية، و" شياو"أى ، المدرسة التوجيهية"، وشيو، التى تفيد"مدرسة الرماية"، وكانت تلك المؤسسات التربوية المحلية تتخذ أسماء مختلفة فى كل أسرة ملكية على حدة (فمثلا) كان يطلق عليها فى أسرة شيا الحاكمة اسم "شياو"، ثم أصبح الاسم "شيو" إبان أسرة شانغ، أما فى عهد أسرة جو فقد صار اسمها"شيانغ" (هذا بينما أطلق عليها جميعًا فى الأسر الثلاث مؤسسات تربوية محلية ، اسم "شيوى")وكانت مهمتها إرساء قواعد المعاملات والأخلاق العامة، وهى مجموعة المبادئ التى إذا ما استقرت فى وعى وسلوك السادة المهذبين (النبلاء، كبار الموظفين) نشأ الود والتفاهم بينهم وبين العامة (ذلك أنه) إذا تأسس سلطان الحكم على الحكمة والفضيلة، اقتدى به الناس جميعا. وهو ما يجعل من عرشكم (إذا ما وعيتم هذا النصح) منارا للحكمة، (ويجعل من جلالتكم شيخا وأستاذا لكل مريد).

وقد جاء فى كتاب الشعر القديم، ما نصه:

"لما أصابت يد البلى ،

دولة قديمة العهد ،

كدولة جو .

أفاء عليها القدر ،

بنعمة الشباب المتجدد ،

(.. فى شخص الملك الأكرم!!)

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأبيات وردت فى مديح الملك أون (حاكم دولة جو)، فما عليك ، يامولاى، لو بذلت جهدا أكبر لتحقق الازدهار المنشود، فيتجدد شباب وطنك بعزمك وإرادتك."

ثم إن الملك "ون" (حاكم دولة تنغ) أرسل وزيره"بيتشان" إلى منشيوس ليسأله حول موضوع نظام تقسيم الأراضى (.. نظام المربعات التسعة)، فلما استقبله الحكيم قال له:" مادام أستاذك (مليكك) قد اختارك، دون الآخرين جميعا، لأمر يريد به سياسة رشيدة تقوم على الرحمة والإنسانية، فلابد أن تعمل كل جهدك لإتمام ما جئت لأجله على خير وجه، أما بالنسبة للسياسات التى تستهدف العمل بمبادئ الرحمة والإنسانية، فإن أول ما ينبغى أن تأخذ به هو تعيين حدود تقسيم الأراضى الزراعية؛ ذلك أن العبث فى هذا الأمر أو التقسيم غير المتكافئ يتسبب فى توزيع جائر للأجور والمرتبات، وهو الأمر الذى يفتح الطريق أمام استبداد الحكم وفساد الإدارة الحكومية كى تتمادى فى العبث بحدود التقسيم، وهكذا،

فليس هناك سوى حل واحد لضمان تحديد الأجور وتوزيع أنصبة الأراضى على نحو عادل بين الناس، ألا وهو التقسيم المتكافئ لحدود الأراضى.

من المعلوم أن أرض دولة تنغ ضئيلة المساحة، (ومع ذلك فأيًا كانت مساحة الأراضى فى أى بلد)، فيجب أن يدخل الإدارة الحكومية موظفون رسميون (جُدد)، ولابد أيضا أن يكون هناك فلاحون لزراعة الأراضى، فبدون رجال الإدارة يتعذر تنظيم عمل المزارعين، وبغير فلاحين، لن تقوم لرجال الإدارة الحكومية قائمة (لن يجدوا من يعول حياتهم) ومن ثم فيجدر اقتطاع نسبة التسع، فى المناطق البعيدة عن مراكز المدن الكبرى عملا بنظام الجباية" بالمعونة"، أما فى المناطق الحضرية ومراكز الأقاليم فيجرى العمل بنظام الـ"قونغ" أى خراج الأراضى الإلزامى، حيث تقتطع نسبة العشر من حصيلة إنتاج الأرض الإجمالية، ومن حق كبار الموظفين وصغارهم، سواء بسواء، أن يحوزوا أراضي مخصصة لإقامة طقوس القرابين (قويتيان)، لكل فرد منهم خمسون"مو"، على أن تزيد تلك النسبة خمسة وعشرين "مو" إضافية، إذا كان هناك فائض فى عدد العاملين بالأراضى، ولا يجوز لأى شخص أن يجاوز حدود القرية أو المدينة محل إقامته لأى غرض كان (حتى لو كان الغرض إنشاء مقبرة للدفن أوالانتقال إلى مسكن جديد) وكل من يشتركون بحكم الجوار فى قطاع واحد من تسعة مربعات (من الأرض) يحافظون على علاقات طيبة ويسود بينهم حسن الجوار، سواء فى الذهاب والإياب أو الإقامة والسفر، يتناوبون الدفاع عن ممتلكاتهم، ويتزاورون فى حال المرض والأزمات فيعم بينهم التآخى والتآزر.

(ويكون التقسيم قائما على أساس أن..) لكل ميل مربع منطقة من المربعات التسعة، كل منطقة منها تبلغ تسعمائة" مو"، ووسط كل مائة "مو" يقع حقل جماعى، ويوزع على كل ثمان عائلات أرض خاصة بهم تبلغ مائة مو، على أن يشترك الكل فى زراعة الحقل الجماعى؛ بحيث لا يملك أحد أن يباشر شئونه الخاصة إلا بعد الانتهاء من العمل المكلف به تجاه الأرض ذات النفع العام، هنالك يكمن الفرق بين مسئوليات الموظفين العموميين والمزارعين.

وليس هذا كلّه سوى إطار عام (للأفكار،) أما فيما يتعلّق بكيفية الضبط، والإنجاز على أتم وأكمل وجه ممكن، فذلك شأنك أنت وجلالة الملك (.. حيث يبرز دوركما ومقدرتكما الفذّة على العمل والإبداع)"

٥ – ٤ نزل على الملك " تنغ" – حاكم دولة "أون"، ضيف قادم من دولة تشو، يدعى" شيوشين"، وهو من أتباع مذهب الإله "شن نونغ" (إله الزرع والحصاد، فى قديم الزمان، الذى علّم الناس كيفية استخدام أدوات الزراعة واكتشف أسرار الطب والدواء، ثم إنه تحدّث إلى جلالته، فقال:"بلغنى أن جلالتك تحكم بسياسة تقوم على الرحمة والعدل، فجئت من أقصى البلاد قاصداً أرضك آملاً أن تمنحنى داراً للسكنى وتجعلنى تحت تاجك، واحداً من رعيتك." فأعطاه الملك ما طلب. وكان رفاق الرجل وأتباعه كثيرين يرتدون خشن الثياب، ويتكسّبون معاشهم من صناعة الحصير والسلال والأحذية الكتانية.

وفى ذلك الوقت كان "تشن شيان" (أحد تلاميذ "شن ليانغ") وأخوه الأصغر "تشن شين" قادمين من دولة سونغ، فى طريقهما إلى "تنغ" يحملان أدوات الزرع والفلاحة، فلما مَثُلا بين يدى الملك، قالا له:" سمعنا

أن جلالتك تسير فى الناس بسياسة رحيمة، مثل الحكماء القديسين، وإنا نراك شيخا فاضلا حكيما، وينبغى أن نكون من رعاياك."، فلما التقى تشن شيان مع شيو شن، اغتبط كلاهما بتعارفهما، ونبذ تشن شيان ما كان قد تعلّمه على يد أستاذه السابق" تشن ليان" وصار تابعًا لصاحبه الجديد، يترسًّم خطاه، ويتعلّم على يديه.

وكان تشن شيان قد التقى مع منشيوس، فحدّثه بما قال شيو شن من أن .. "جلالة الملك أون - حاكم تنغ - هو الشيخ الحكيم، والرجل العاقل حقًا، لكنه، برغم ذلك، لا يفقه القاعدة الأساسية لحكم الممالك؛ ذلك أن الحاكم الفاضل هو من يفلح أرضه بنفسه، ويرتب مائدة طعامه بيديه، مثلما يدير شئون الممالك، ثم إن دولة تنغ أصبحت الآن ذات مخازن هائلة للغلال والأمتعة والأموال، مما يعد إضرارًا بحياة الناس وأرزاقهم .. [بما يقف بينهم وبين استثمار الموارد المكتنزة] فكيف يمكن أن يتسم الحاكم بالنجابة والقداسة؟".. وعندئذ تساءل منشيوس،قائلا: "أيمكن، إذن، أن يكون شيوشن ممن يزرعون أرضهم بأنفسهم، ويكسبون قوت يومهم بعمل أيديهم؟"، (فأجابه تشن:) "نعم، هو ذاك حقًا."،(فسأله منشيوس":) أيمكن أن يكون شيو شن ممن لا يرتدون إلا الثياب التى ينسجونها بأنفسهم؟

- كلا، بل لا يرتدى إلا ثيابا صوفية خشنة.

- وهل يرتدى قبعة؟

- نعم.

- وما شكلها؟

- قبعة من حرير أبيض.

- أهى من غزل يده؟

- كلا، بل ابتاعها مبادلة ببعض الحبوب.

- فلماذا لم يغزلها بنفسه؟

- لأنه لا يريد أن يهمل زرعه.

- وهل يستعمل آلات الحرث الحديثة فى فلاحة أرضه، والقدور فى طبخ طعامه؟

- نعم

- أهى أدوات من صنع يده؟

- كلا، بل أشياء ابتاعها مبادلة."

فقال له منشيوس:"أعندما يبتاع امرؤ أدوات الفلاحة وآنية الطبخ بمبادلة الحبوب، لا يعد هذا إضراراً للحدادين والفخارين، أما إذا أجرى هؤلاء مبادلة مع الآخرين، فأعطوهم الأوانى وآلات الحرث، ليحصلوا بالمقابل، على الحبوب، أفلا يكون فى ذلك بالغ الضرر بالمزارعين؟ ولماذا يتقاعس الفاضل الأكرم شيو شن، عن أن ينشئ القمين فيصنع فيه الأوانى، ويشعل التنُّور فيصهر فيه حديد المحاريث كى يضمن أن تكون كل أدواته من متاع بيته، دون أن يدخل فى صفقة مبادلة بغير داع مع الحرفيين والصناع؟ لماذا يثقل كاهله بمتاعب لا لزوم لها؟".

(فأجابه تشين..) "إن طبيعة عمل الحرفيين لا تسمح لهم بمزاولة تصنيع الأدوات بجانب فلاحة الأرض؛ فإما هذا أو ذاك.".

فقال منشيوس:" مادام الأمر كذلك، فكيف نطلب من المسئول عن إدارة مملكة كبرى، أن يملك القدرة على زرع الأرض وحرث الحقول ومتابعة مهامه فى إدارة الشئون الحكومية، فى الوقت نفسه؟

إن لكلٍ عمله الموكّل إليه بإتمامه؛ فكبار المسئولين لهم مسئولياتهم المحدودة، وصغار الموظفين لهم أعمالهم المعهودة، ثم إن المطالب الحيوية للناس تحتاج فى إشباعها، للجهود الوظيفية التى يقوم بها صاحب كل حرفة فى مجاله.وإلا فإن اشتراط قيام الفرد نفسه بصنع وإعداد كل ما يلزمه بيديه سيجعل من قيادة الدول والممالك مطلبا يفوق حدود طاقة الجهد الإنسانى؛ لذلك يقال عادة (فى الأمثال السائرة) بأن الناس صنفان،" صنف يبدع بطاقته الذهنية وآخر يعمل بقدراته الجسمانية"، فالأول هو من يقود الناس والثانى هو من يقاد غالبًا؛ فصاحب القدرة الجسدية هو الذى يقوم بما يحتاج إليه الناس فى معاشهم من حاجات، أما صاحب الإبداع الذهنى فهو الذى يعتمد على العامل بيديه فى سد احتياجاته. وهذا مبدأ نافذ وشريعة عامة تحت السماء (.. فى كل مكان).

ولقد جاء على الأرض زمان لم تكن تنعم فيه بالسلام والاستقرار- إبان حكم الإمبراطور الحكيم "ياو" - إذ فاضت الأنهار وسالت ضفاف البحار، وأغرق السيل كل الأنحاء، وصار العشب كثيفا وتشابكت أشجار الغاب وامتلأت الأرض بالوحشى من الدواب والطير، ولم تعد الحقول تنبت زرعا مما يأكله الإنسان (المحاصيل الخمسة: البُرّ، والأرز، والذرة، والشعير، والدخن) وصارت وحوش الطير تتهدد حياة البشر، وقد امتلأت اليابسة بالسباع الهائمة فى كل درب وآثار مخالبها محفورة فوق الأديم، مما أوقع

الغم والضيق فى نفس الملك الحكيم"ياو" ، فأرسل مساعده"شون" ليضع الأمور فى نصابها ويشرف على المسئوليات الجسام. وكان أول ما قام به شون هو أنه كلف"بوى" بالإشراف على آلات إشعال الحرائق؛ مما ساعده على القيام بإشعال لهب النار فى الحشائش الكثيفة حول البرك والمستنقعات وفوق الوديان والجبال، فاندفعت أسراب الطير الهائمة تهرب إلى أعشاش بعيدة، وصدرت الأوامر للمسئول"يو" بتطهير القنوات النهرية [.. للبحار التسعة "حرفياً"، بمعنى: معظم القنوات والأنهار] وهكذا فقد تمكن من تعميق نهرى"تشى"، و" طاء"؛ مما ساعد على تصريف مياههما فى البحر الكبير، بل إنه شق أنهارا جديدة، مثل نهرى: "رو"، و"هانشوى"، وقام بتطهير المجرى المائى لكل من نهرى"هواى، و"سيشوى"، وأوصلهما بمجرى نهر جيانغ [أى: اليانغتسى]، وعندئذ، صار من الممكن لأهالى المناطق الوسطى أن يقوموا بزراعة الأرض وكسب العيش.

ثم شاءت الظروف للمسئول الكبير" يو" أن يواصل مهمة إصلاح القنوات والأنهار طيلة ثمان سنوات أخرى دون انقطاع، حتى أنه تصادف أن مر بمنزله ثلاث مرات، دون أن يجد وقتا لزيارة أهله وعشيرته لكثرة ما وكل إليه من مسئوليات، فانظر، وتأمل.. أيمكن لهذا المسئول الحكومى البارز أن يجد وقتا لزراعة الأرض وحرث الحقول (.. وهو الذى يكاد لا يجد فرصة لزيارة عائلته!!)

كانت "هوجى" (إلهة الزرع والحصاد) هى التى علمت الناس الزرع والحصاد وإنبات الحبوب الخمسة (كل أنواع الحبوب) مما كان يقيم أود الرعية ويشبع بطونهم ويحفظ حياتهم. ثم برزت مسألة مهمة فى العلاقات الإنسانية وهى أن الناس إذا أكلوا فشبعوا وارتدوا حسن الثياب فنعموا

بالدفء ورغد العيش بعد إذ استقر بهم المقام فى منازل آمنة دون أن يصيبوا شيئا من العلم، صاروا كالبهائم والوحوش والجوارح؛ مما أثار قلق واهتمام الملك الحكيم خشية أن يصل الحال برعيته إلى تلك الدرجة، فكلف الوزير"شيه" بمسئولية الإشراف على توعية الناس وتنويرهم بمبادئ الأخلاقيات (كى يفهموا ويحسنوا إدراك) أن العلاقة بين الأب وولده تقوم على المودة، وبين الملك ووزرائه، فالعلاقة أساسها الاحترام والتقدير، أما ما بين المرء وزوجه فالأساس هو تقدير الفارق الجوهرى بين وظيفة كل منهما ودوره، وبين الصغير والكبير، فهناك فارق السن، وما بين الأصدقاء ترتكز المعاملات على الوفاء والإخلاص.

وقد قال الإمبراطور الحكيم" ياو" – فى هذا الشأن – (وهو ينصح وزيره المكلف بمهمة التثقيف الشعبى)، قائلا له:" ابذل لهم (الناس) كل التقدير والتحية، والرفق، والتوعية، والإرشاد والعون، والحماية والاهتمام الصادق، كى يجد كل واحد منهم بغيته فيما تقدمه له من توعية، بل عليك أن تتفضل على الجميع بمزيد من الدأب والمؤازرة والإنعام"..

فلئن كان الأباطرة القديسون يوجهون اهتمامهم على هذا النحو تجاه شعوبهم.. فترى، متى كانوا يجدون من الوقت ما يكفل لهم حرث الأرض وإنبات البذور؟

إن أشد ما كان يجلب الضيق إلى قلب الملك"ياو" هو خشيته من ألا يجد بجانبه رجلاً حكيمًا مثل "شون"، وكذلك فقد كان أكثر ما يدخل الحزن والغم إلى نفس"شون"، هو ألا يعثر بين المسئولين من حوله، على رجال من أمثال"يو"، أو "كاوياو"، أما الوحيد الذى كان يرتعد خوفًا وقلقًا من احتمال

ضياع الفرصة المناسبة لزراعة محصول جيد فيما يملكه (من قيراط الأرض الوحيد) فهو المزارع المسكين.

إن إغداق المال على الناس (المحتاجين) يسمى العطف، ومعاملة الآخرين بالحسنى، هو الإخلاص، أما الاجتهاد في البحث عن الشخص الكفء الجدير بخدمة الممالك على نحو يظهر مزاياه الفريدة فهو أفضل وجوه الخير جميعا. لذلك كان يقال دائما بأنه من السهل جدا تسليم سلطة إدارة الممالك لأى قادم جديد، لكن الأمر الصعب حقا يتمثل فى المقدرة على ترشيح الرجل المناسب ذى الكفاءة والخلق. وقد قال كونفوشيوس، ذات مرة: " ما أعظم مكانة " ياو" حاكما قديرا للممالك، لكن السماء أعظم كثيرا، ولئن كان لـ ياو نصيب من الجدارة فى شىء، فلأنه يقتدى بمبادئ السماء.. نعم، ما أحلمه وأجدره بالثناء الجليل! وما أكرم الملك" يو" ذلك المتواضع برغم واسع ملكه وأزهر نور بهائه"، فهل يمكن أن نتصور كلا الحاكمين وقد خلت ساحتهما من أى نشاط يقومان به لمصلحة شعبهما ومملكتهما سوى أن يتفرغا لفلاحة الأرض وزرع الحقول؟

قد سمعت أن التحضر والتمدن الذى اشتهرت به المناطق الوسطى، هو الذى أوقع التأثير الهائل فى القبائل الشمالية البربرية المتخلفة، لكنى لم أسمع قط أن العكس قد حدث .

قد كان "تشين ليانغ" واحدا من أبناء دولة تشو، تربى فوق أرضها وترعرع بين أهلها، فلما كان معجبا غاية الإعجاب بتعاليم وأفكار كونفوشيوس وجوكون؛ فقد غادر بلاده الجنوبية ورحل صوب الشمال طلبا للعلم، ثم إنه بلغ فى ذلك درجة عالية لم يبزّه فيها دارس ولا أستاذ؛ مما جعله جديرا بأن يلقب بأعظم الألقاب العلمية فى زمانه. وأتيحت لكم الفرصة أن

تتلمذوا جميعا على يديه سنوات طوال، فما إن مات حتى لفظتم كل ما علمكم إياه وكفرتم بتعاليمه. وهو الشيء الذى لم يجسر تلاميذ وأتباع كونفوشيوس أن يفكروا فيه قط إبان وفاته، بل ظلوا مقيمين إلى جوار مدفنه ثلاث سنوات كاملة قبل أن يتجهزوا للرحيل إلى أوطانهم، فلما حانت ساعة سفرهم أعدوا أمتعة السفر وذهبوا إلى زميلهم "تسيكون" ليلقوا إليه تحية الوداع، فلما مثلوا بين يديه، تأثروا جدا وظلوا يبكون ساعة قبل أن ينطلقوا فى طريق السفر، أما تسيكون فقد أصر على أن يقيم وحده بجوار مقبرة أستاذه ثلاث سنوات أخرى، قبل أن يعود إلى موطنه، وحدث أن المريدين الثلاثة: زيشيا، وزيجانغ ، و زيو؛ رأوا ثلاثتهم فى زميلهم" يورو" شبها قريبا من ملامح معلمهم الأكبر (كونفوشيوس) فأرادوا أن يقدموا له طقوس الاحترام التى كانوا يفعلونها أمام أستاذهم، فى حياته، و(يبدو أن زميلا آخر لهم - سن زى - اعترض على مشاركتهم فى ذلك فـ) حاولوا إثناء سن زى عن رأيه المضاد لهم، إلا أنه أبى قائلا:" مستحيل أن أوافق على ما ترونه. فكيف يمكن لما ابتل بمياه نهر الهان واليانغتسى واستضاء بنور شمس دافئة، حتى جفّ وصار نقيا طاهرا نقاء النور الساطع أن تجدوا له شبيها من جنسه (.. فمن ذا يشبه كونفوشيوس؟).

وأتطلع الآن حولى، فأرى (شوشين) ذلك الهمجى الجنوبى المتكلم بلسان الزيف فى فم الحماقة، وهو يذيع آراءه ومقولاته التى ينال فيها من مكانة الملوك الأقدمين، وقداسة الحكماء الأبرار، والأسوأ من ذلك أنك أنت نفسك قد خالفت نهج أساتذتك واتبعت أهواءه، فأين هذا من موقف "سن زى"!

وقد بلغنى، (فيما سمعت من أبيات كتاب" الشعر القديم ") أنه قيل:

" تهجر الطيور أوكار الظلا م ،

لتحط فوق رؤوس الشجر ،

حيث الرفعة والسمو ،

والنور الولى ،

والبيت السامق وبهجة الأغاريد ."

لكنى لم أسمع أبدا أن الطيور قد تركت أعشاشها فى الذرا والنور؛ لتتخذ مساكنها فى كهوف الوديان المحفوفة بالظلمة والخطر. جاء فى كتاب "لوسونغ" (مدائح دولة لو) ما نصه:

" (أكرم بالأمير إذ . .) طارد قبائل الشمال البربرية ،

وسلط سيف الغضب والاستنكار ،

ضد قبائل الجنوب الهمجية ."

وكانت تلك القبائل هدف غارات الأمير جوكون فيما مضى من الزمان، فما بالك أنت (تأتى اليوم وتخالف المعهود فـ) تطلب العلم بين أظهرها، فشتان بينكما .. وياله من فرق هائل عجيب!

فقال تشين:" لو قدر لأفكار"شيوشين" أن تكون موضع تطبيق، لصارت أسعار السلع فى الأسواق ثابتة لا ينالها غش ولا تلاعب، ولاختفت، على الفور، كل السلوكيات الفاسدة، كالخداع والنصب والتحايل، حتى كان بمقدور صغار الأطفال أن يبتاعوا السلع فى الأسواق فلا تزاد عليهم

أثمانها، وقد تباع الأثواب القطنية والحريرية بسعر واحد لا خلاف عليه، وربما بيعت أكداس القطن والكتان معا بنفس السعر دون زيادة لأحدها فوق الآخر، بل كان يمكن أن تعرض كل أنواع الحبوب للبيع تحت سعر ثابت بغير زيادة فاحشة أو نقصان معيب وكذلك الأحذية وباقى المشتريات."

فرد عليه منشيوس بقوله:" إن الأشياء (المصنوعات) تتفاوت فى النوع والكم والمقياس، وذلك بحكم واقع الحال، ومن ثم تختلف الأسعار، وقد يبلغ الفرق ضعفا أو خمسة أو عشرة وأحيانا مائة حتى عشرة آلاف ضعف، فإذا أردت أن تفرض سعراً موحداً (رغم أنف الواقع) فسينجم عن ذلك اضطراب يعم كل الأسواق، وإذا افترضنا أن أسعار الأحذية الجيدة (الفاخرة) ستتساوى مع سعر الأحذية الأقل جودة (الخشنة الثقيلة) فالسؤال هو: من سيقوم بصناعتها ومن سيرضى بذلك؟

إن العمل وفق تصورات شيوشن سيدفع الناس إلى ألوان من التواطؤ ومزيد من الغش والتحايل والخداع، فكيف يمكن، عندئذ، إصلاح أحوال الممالك وإدارة شئون الحكم ؟"

٥ – ٥ كان التابع الموهى (أحد مريدى الفلسفة الموهية، نسبة إلى الفيلسوف،"موتسى") المدعو"إيتش" يسعى إلى مقابلة منشيوس، فكلم فى ذلك"شيوبى" (أحد أتباع الشيخ الحكيم) فأجابه منشيوس:" قد كنت أريد أن ألتقى به غير أنى مريض الآن، فلنؤجل ذلك حتى أقوم من فراش المرض، فلا يرهقن نفسه بالحضور، بل سأبادر على الفور بالذهاب إليه."، ولم يمض زمان طويل، حتى عاد الزائر يطلب لقاء منشيوس، فقال: "يمكننى، الآن، مقابلته (وسوف أتحدث إليه بصراحة تامة) فالمرء إن لم

يضع الأمور فى نصابها على نحو صريح، فلن تتجلى الحقيقة فى أى شىء. وسوف أتكلم معه بوضوح؛ إذ علمت أنه من أتباع موتسى. أولئك قوم يقولون بوجوب إقامة طقوس دفن وتعزية فى غاية البساطة، فذلك هو مبدأهم، ولابد أن"إيتشى" يسعى إلى تغيير العادات الاجتماعية لتتلاءم مع ذلك المبدأ الجديد، معتبرا أن ذلك واجب ذو شأن، لكن الشىء الغريب فى الأمر، هو أن"إيتشى" نفسه، قد أقام لوالديه - عند وفاتهما - طقوسا مبالغًا فيها على نحو تفصيلى شديد الدقة والتعقيد، فكيف سمح لنفسه أن يتصرف هكذا حيال دفن والديه، متخذا طقوسا هو نفسه يبغضها ويدعو إلى التخلى عنها؟!".

وسارع شيوبى بنقل ذلك التساؤل إلى إيتشى الذى أجاب: "إن تعاليم الـ "روجيا" (الكونفوشيين) يحلو لها أن تردد دائما بأن الملوك القدماء كانوا يحبون الشعب مثلما يحبون صغارهم، فما معنى هذه العبارة؟ ويبدو لى أن المعنى يذهب إلى أن مشاعر الحب لا تعرف أى فروق فى الدرجات، ويقصد أيضا أن تلك المشاعر تنشأ، أساسا، بين أحضان الوالدين. فلما نقل شيوبى هذا الكلام إلى منشيوس أجاب قائلا: " أيعتقد السيد المهذب/ إيتشى أن المرء يمكن أن يحب أبناء جيرانه مثلما يحب أبناءه سواء بسواء؟" وليفكر جيدا فى المسألة على هذا النحو: هب أن رضيعا راح يحبو فوق الأرض حتى أوشك على السقوط فى بئر، فهل يكون ذلك خطأ الطفل الرضيع، كلا.. بل إن السماء قد خلقت كل الأشياء وفق مبدأ واحد بينما أن السيد إيتشى يريد أن يجعلها مبدأين. (وربما كان منشأ الأمر كله أن) الناس فى الماضى لم يكونوا يعرفون طقوس دفن آبائهم، فما إن يمت الوالدان حتى يلقى بجثتيهما فى واد سحيق، وبعد أيام، تكون

الثعالب قد تكالبت على الموتى وراحت تنهشها الجوارح ويتكاثر فوقها الذباب، فيصيب أهل المتوفى شعور بالخجل فتزورّ أعينهم عن المشهد، ليس خشية لما قد يعايرهم الناس به، وإنما هو شعور حقيقى بالخجل والعار ينتابهم ويؤرق وجدانهم ويتبدى على الوجوه برغم كل محاولات الكتمان، مما يدفع أبناء الموتى إلى إهالة التراب على الأجساد التى جيفت فيما يشبه عملية الدفن المعهودة، وبالتالى فدفن الموتى تصرف صحيح بل هو من علامات البر والرحمة بالآباء."، فلما نقل شيوبى هذا الرأى إلى إيتشى، تردد قليلا وبانت على وجهه علامات الحيرة وقال:" قد وعيت وفهمت!".

(الجزء الثانى)

(وجملته عشرة فصول)

٦ – ١ تحدث تشن طاى (تلميذ منشيوس) إلى الشيخ الحكيم، فقال له:

" أرى ياسيدى أنك بامتناعك عن مقابلة كبار الأمراء، تقيد نفسك بأغلال واهية، فماذا لو سمحت لنفسك بالخروج عن تلك القاعدة؛ ذلك أن مجرد التقائك بالكبير منهم يساهم فى دعم إمكانية وصوله إلى مصاف العرش الملكى، كما أن مقابلتك للأقل مكانة فيهم يمكن أن تمنحه فرصة الترقى إلى درجة ذات شأن، وقد جاء فى كتاب "تشى" (حوليات التاريخ)، ما نصه:

"يمكن للمرء أن يمد ذراعة ثمانية أشبار، إذا تحامل على نفسه مرة، وضمها إلى صدره شبراً واحداً فقط، (يعنى.. يمكن للمرء أن يتحمل العسر مرة واحدة وفى مسائل بسيطة، مقابل أن يطالب باليسر مرات كثيرة) وأتصور أن ذلك أمر يمكن القيام به بسهولة."

فقال منشيوس:" كان حاكم دولة تشى الملك"جينكون" فى رحلة صيد بالحقول العامة ذات مرة، وحدث أنه أشار براية مزدانة بريش الطيور، تجاه أحد حراس الحدائق الملكية يريد منه المثول بين يديه، فلم يمتثل الحارس للنداء فيما اعتبره إهانة له فهمّ الملك بقتله، إلا أن الشجاع

لا يهاب أن يلقى حتفه بأية وسيلة (بالسقوط فى بطن الوادى، أو بقطع الرأس) أتعرف بماذا امتدح كونفوشيوس ذلك الحارس الشجاع؟ لقد أثنى على إصراره على الحفاظ على كرامته وإبائه؛ إذ رفض الامتثال لإشارة الاستدعاء التى صدرت عن الملك بطريقة غير لائقة ولا صحيحة.

فإذا بادرنا بالذهاب إلى كبار الأمراء دون انتظار دعوتهم لنا، فما القصد من وراء ذلك، ثم إن القول بفكرة.."ضم الذراع شبرا واحدا ريثما يحين الوقت كى تمده ثمانية أشبار"..لهو قول يقوم على فكرة السعى لتحقيق المصلحة الذاتية قبل كل شيء، ومادام الأمر كذلك فليس مهماً إن ضممت ذراعك إلى صدرك شبرا أو مائة شبر، مادمت ستتمكن فى كل الأحوال من أن تمد ذراعك إلى الأمام ولو شبراً واحداً فقط !

(وتحكى كتب التاريخ) أن الأمير جاوجيان (عظيم دولة جين) أصدر أوامره ذات مرة، إلى" وانغ ليان" (من أشهر ذوى الخلق الكريم فى زمن "الربيع والخريف") كى يقود المركبة المخصصة للصيد بحيث تكون فى خدمة الوزير الأثير لدى سمو الأمير والملقب باسم"شى"، ومضى النهار كله دون أن يتمكن سيادة الوزير من اصطياد طائر واحد، فكتب تقريراً جاء فيه.." إن "وانغ ليان" من أغبى قادة المركبات على الإطلاق".. فلما بلغ هذا الكلام" وانغ ليان" نفسه قال: "فلنجرب الخروج للصيد مرة أخرى إذن، وسأقود المركبة أيضًا."، وهنالك وقعت فى نفس الوزير"شى" ألوان من الحيرة والاضطراب، ووافق أن يخرج للصيد ثانية، على مضض، فما كادت تنقضى سحابة النهار حتى كان الصيد، يومذاك، وفيرا،

فكتب"شى" فى تقريره.. "إن أذكى وأبرع شخص فى الدنيا كلها هو السيد"وانغ ليان". (فلما بلغ ذلك الأمير جاوجيان..)، قال للوزير:" مادام الأمر كذلك فسوف أعينه قائدا لمركبتك." (وجرى إبلاغ وانغ ليان بهذا القرار..) فأبدى اعتذاره عن عدم الامتثال، قائلاً: " كنت - لما توخيت الالتزام بالقواعد والمبادئ والتقاليد المتبعة (فى حالات الصيد) أثناء قيادتى فى المرة الأولى - قد آثرت العمل حسب الأصول، لكن النهار كله انقضى دون أن نصطاد شيئا؛ أما المرة الثانية، وبرغم أنى لم ألتزم بشىء من قواعد (رحلات الصيد) على النحو المعهود، فقد كان الصيد ، فى أول ساعات النهار، هائلاً جداً.

وقد جاء فى كتاب الشعر القديم، (ما معناه):

" مادامت الحجة واضحة،

والعرف والتقاليد

موضع تقدير رسمى،

فى موكب للصيد الملكى؛

فالسهم مصيب،

والرمية قانصة،

وبشائر الغنيمة سانحة."

وبناء على ذلك، فإنى أتقدم بطلب إعفائى من وظيفتى؛ لأنى لم أعتد العمل فى خدمة مسئول متهاون (حرفياً: وضيع الرتبة، حقير المنزلة)".

فإذا كان سائق للمركبات يرى فيمن يخالف مبادئ وقواعد رحلات الصيد عارا مشينا، حتى لو كان فى تلك المخالفة ما يأتى بالغنيمة الوافرة وأكداس من الصيد الثمين. [وأتفق مع سائق المركبات فى موقفه هذا]، فما الداعى إلى أن نجبر أنفسنا على السير فى الطريق المعوجة، تبعا لأهواء أولئك السادة (الأمراء) لهذا أرى أن تفكيرك قد جانبه الصواب؛ إذ إن المرء لا يمكن أن يمشى فى طرق معوجة ويطالب الناس بالسير فى طريق مستقيم."

٦ - ٢ كان جين شون (أحد معاصرى منشيوس) قد تحدث إلى الشيخ الحكيم، فقال له:" ألم يكن كل من كونسونيان وتشانغى من أعظم رجال الدولة الكبار؟ (الأول، رئيس وزراء إحدى الدول القديمة، من أصحاب النظريات السياسة؛ والثانى، رئيس وزراء دولة تشين، كان كلاهما - قديمًا - من أشهر رجال السياسة.) ألم تكن غضبتهما - إذا غضبا - كفيلة بأن تهز عروش الدويلات وتقذف الرعب فى قلوب الأمراء، ثم كان سلمهما، وقت الصفاء، يشيع فى كل الأنحاء الأمن والسكينة؟"

فأجابه منشيوس:" لا أدرى كيف لمثل هذين أن يكونا من أعظم الرجال؟ ألم يسبق لك أن درست شيئا من آداب وطقوس المعاملات؟ (كان من آداب وطقوس التربية أنه..) إذا بلغ الشاب الحُلُم، أقيمت له طقوس البلوغ حيث تعقد له ضفائر شعره ويتزوج، ويتلقى أصول المعاملات على يدى والده؛ أما الفتاة فكانت إذا بلغت قامت والدتها بتلقينها النصح والإرشاد، وهيأتها للزواج، حتى إذا جاء يوم عرسها، ودَّعتها حتى باب بيتها وهى تنصح لها قائلة:" كونى له (للزوج) زوجة مهذبة، وحاضرة الفهم والإدراك، فلا تعصى له أمرا."

وهكذا فقد كانت الطاعة هى مدار الأمر كله عند النساء، (أما الرجال) فإنهم يقيمون بساحة الدنيا (الرحمة)، وينزلون بموضع الاستقامة (القيم الأدبية)، ويتقدمون على ألمع الطرق استنارة (العدل)؛ فإذا تحققت لهم الغايات وبلغوا ما طمحت إليه إرادتهم، فإنهم ينهجون السبل التى تقودهم، مع الناس، نحو الطريق الصحيح، أما إذا تعذر عليهم تحقيق مآربهم، فإنهم يواصلون السير على الطريق دون أن يحيدوا عن المبادئ، ثم إنهم لا يصيبهم فساد أو غرور مع الغنى والجاه، ولا يقع بهم الخذلان مع الفقر، ولا يتجبرون مع القوة والسلطان، فهؤلاء فقط هم الذين يستحقون أن يقال عنهم بأنهم أعظم الرجال."

٦ - ٣ ذهب جوشياو (أحد مواطنى دولة وى) إلى منشيوس وسأله: " هل كان الحكماء (حرفيًا: السادة المهذبون، مثل الفلاسفة والدارسين وكبار المتعلمين والمثقفين..) فى العصر القديم يعملون بوظائف حكومية؟،" فأجابه:" نعم، وقد جاء فى كتاب " تشوان" (المرويات التاريخية)، ما يلى:" كان المعلم الأكبر كونفوشيوس إذا بقى ثلاثة أشهر كاملة دون أن يكلفه الحاكم بعمل رسمى، يبتئس ويبدو مهموما حزينا، وإذا سافر إلى إحدى الممالك، كان يحمل هدية تعارف مناسبة لتقديمها إلى جلالة الملك (فى هذه الدولة أو تلك)، "وهنالك تحدث" كونمين آى"، قائلا:" كان القدماء لا يطيقون البقاء ثلاثة أشهر دون عمل رسمى يكلفون به من قبل القصر الملكى، وإلا استدعى الأمر (مواساتهم) وتهدئة نفوسهم."

وعندئذ، قال (جوشياو):" ألا يبدو الأمر على هذا النحو ["مواساة" العاطل عن العمل مدة ثلاثة أشهر] مبالغا فيه، أو على درجة من العجلة

والتسرع؟"، فأجابه منشيوس: " إن رجلا مهذبا (مؤهلاً عملياً واجتماعياً) بلا عمل، مثل أمير بغير إمارة أو ملك بغير دولة."

قد ورد فى كتاب "لى" (الطقوس)، ما نصه: " على الأمير أن يحرث أرضه بيده كى تنبت له المحاصيل التى يقدمها قربانا مقدسا (.. لأجداده) بينما تقوم الزوجة بتربية ديدان القز تمهيدا لعمل الملابس الحريرية المخصصة بطقوس القرابين. وليعلم (الأمير) أن الماشية الهزيلة، والمحصول الذى تتم تنقيته جيداً (من شوائبه) والملابس غير الكاملة (الأطقم) كلها لا تصلح لعمل طقوس القربان. وإذا لم يكن لدى الرجل الفاضل الحكيم ساحة لتقديم القرابين، فلن يقدر على إتمام الطقوس المقدسة، وكذلك إذا لم يكن لديه المقدار الكافى من المواشى، والأوانى، والملابس، فلن يتيسر له عمل القربان، وبالتالى فلن يتمكن من عمل وليمة الحفل السعيد، أى أنه سيجلس ساهم الطرف مطرقا حزينا، أفلا يحتاج مثل هذا البائس للمواساة؟"، فسأله جوشيان: "ولماذا ينبغى على المسافر أن يحمل معه هدايا التعارف؟"، فأجابه منشيوس: "مثل المتعلم المشتغل بوظيفة رسمية، كمثل المزارع الذى يفلح حقله، هل رأيت مزارعا مسافرا خارج البلاد دون أن يأخذ معه الفأس والمحراث؟"، فقال جوشيان: " إن هذه الحال ليست غريبة على دولة جين، فهناك أيضا يسعى السادة المتعلمون إلى الوظائف الرسمية (داخل البلاد وخارجها) لكن الفرق الوحيد هو أن أحداً لم يسع إلى التوظف بهذه الدرجة من الاستعجال واللهفة، (هذا من ناحية، ومن جهة أخرى) فإذا كان الناس يتلهفون على العمل (فى بلادكم) فلماذا يقعد

السادة المحترمون عن ذلك؟" فأجابه منشيوس قائلاً: "منذ أن يولد لأية أسرة ولد ذكر حتى يصبح من المعلوم أن والديه سيسعيان يومًا إلى تزويجه، وأما الأنثى فإن أهلها يعملون جهدهم، منذ أول يوم فى حياتها، على إعدادها للزواج، فتلك كلها أمور معلومة للكافة (يشترك فيها كل الآباء والمربين)، فإذا أسرع الشابان (الذكر، والأنثى) إلى تبادل العلاقات الغرامية بطريقة سرية، دون علم الآباء، وبغير واسطة من الأعراف والتقاليد المتبعة كان نصيبهما الازدراء من أولياء أمورهم ومن كل الناس. و(بالمثل) لم يكن السادة المحترمون، فى العصر القديم زاهدين فى التوظف بالمهن الرسمية، لكنهم كانوا يترفعون عن اللجوء إلى وسائل غير ملائمة أو مقبولة (يندى لها الجبين خجلا) فى الحصول على وظائف مرموقه، تماما مثلما يتعفف الشباب (الشاب، والفتاة) المقبلون على الزواج، من الوقوع فى أحابيل العلاقات الغرامية عبر شقوق الجدران والنوافذ (بوسائل سرية لا أخلاقية)".

٦ - ٤ ذهب بنكنغ إلى أستاذه منشيوس، وسأله:" أراك، ياسيدى، تمشى فى مواكب إثر مواكب، تسير فى إثرك مركبات وأعوان يتنقلون معك أينما ذهبت، وأنت تخرج من مملكة لتسافر إلى إمارة حتى لم تدع مكانا إلا قصدته ولا مائدة إلا أكلت عليها، أليس ذلك من قبيل الإسراف وتجاوز الحدود المعقولة؟"

فأجابه:" إذا كان مسلكى مجاوزا للمعقول، فما كنت أسمح لنفسى بأن أقبل كسرة خبز [حرفيا: سلة طعام] من أحد؛ أما إذا كنت قد تصرفت فى الحدود المقبولة والمعقولة، فإنى لم أبلغ ما فعله الإمبراطور

الحكيم"شون" عندما تسلم صولجان الملك من سلفه العظيم الإمبراطور "ياو" [كلاهما موضع تقديس فى العصر القديم بوصفهما نماذج"أسطورية" للحكم الرشيد] وهو التصرف الذى لم يوصف بأنه يمثل تجاوزا من أى نوع، إلا إذا كنت أنت تراه كذلك !"، فأسرع التابع بقوله: "كلا ياسيدى، لست أراه إفراطا من أى نوع، لقد ظننت دائما أنه ليس من حق السيد المهذب أن يمد يده إلى صحفة طعام، ما لم يكن قد بذل ما يستحق أن تبسط له الأسمطة ."، فرد عليه منشيوس، قائلاً: "ما لم تساعد على تبادل السلع والمنتجات، وتأخذ من الزيادة لتسد عجزا أو نقصا هناك، فستتراكم لدى المزارعين كميات وافرة من الحبوب، ويتكدس لدى ربات المنازل قطع زائدة من الملابس (زائدة عن الحاجات الضرورية)، فإذا جئت أنت وساهمت فى تداول تلك السلع الزائدة، فستكون قد فتحت باباً يرتزق منه النجار والحداد وصانع المركبات . (هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ف..) ترى لو كان بيننا الآن رجل يبر والديه (داخل بيته) ويبجل كبار السن (خارج المنزل)، ويستمسك بسنة الحكماء الأقدمين، كى تنشأ الأجيال اللاحقة على هدى من المثل والمبادئ المتوارثة، ثم إذا به يقصد بيتك، فلا يجد لديك نصيبا من الرزق، فى حين أنك كنت حريصا على أن يجد النجار والحداد حظهما من موارد الحياة، أفلا نعجب لإهمالك شأن السيد المهذب البار المؤدب الذى يحرص على الالتزام بقواعد الرحمة والعدل (الأخلاق)؟"،

فأجابه بنكنغ: "النجار والحداد وصانع المركبات يهدفون إلى تحصيل معاشهم، تلك هى نيتهم وغرضهم الأساسى، فماذا يا ترى غرض السيد المهذب من التزامه قواعد السلوك الأخلاقى، أهو تحصيل

مورد الرزق؟"، فقال الشيخ الحكيم: "وماذا يعنيك من استقصاء أغراض الناس ونواياهم؟.

إن أهم شيء بالنسبة لك هو ما يقومون به من أدوار، وما يقدمونه من خدمة، ومقابل تلك الخدمة فأنت تمنحهم موارد الرزق، بمعنى أنك تدبر لهم وسيلة الحصول على الطعام الضروري، ولا أدرى إذا كنت تدفع للناس مقابل ما يهدفون إليه من أغراض أم ما يؤدونه من عمل وما يقومون به تجاهك من تصرف؟"، فأجابه:" بل نظير نواياهم ومقاصدهم بالطبع!"، فقال الشيخ:"هب أن رجلا جاءك الآن وحطم أثاث بيتك، ولوث جدار منزلك بدعوى أن الأثاث قديم والجدار آيل للسقوط، وطلب منك أن تعطيه حاجته، مقابل ما يضمره فى قلبه من نوايا؟"، فقال الرجل:" كلا بالطبع، لن أعطيه شيئا."، فقال منشيوس:" هو ذا أنت لا تأبه لمقاصده وإنما ترصد سلوكه وتصرفاته، ولا تدفع له إلا نظير ما يؤديه، لا ما ينتويه."

٦ – ٥ ذهب وانجان إلى أستاذه منشيوس وسأله قائلا:" إن "سونغ" دولة صغيرة، ضئيلة المساحة، وقد اجتهد حاكمها في تطبيق سياسات الحكم الرشيد (الرحمة والعدل) مما أثار عليها حقد جارتيها "تشو"و" تشى" اللتين تعدان العدة للإغارة عليها، فما العمل؟"، فأجابه الشيخ: "كان (المدعو: شان طانغ) مقيما بأرض" بو" (مدينة قديمة) بمحاذاة دولة" كى"، إبان حكم الملك "كيبو" لها، وكان ملكا غشوما مسرفا، ماجنًا طائش التقدير والتصرف، عازفا عن المبادئ الخلقية، لا يؤدى طقوس القربان المقدس، فأرسل إليه "شان طانغ" يستقصى سبب امتناعه عن أداء ما يلزم للقربان، فأجابه قائلا إنه لا يجد ما يلزم ذلك الغرض من الماشية والدواب،

فأرسل إليه شان طانغ ما يكفيه منها، فأكلها ولم يقدم قربانا وعاد شان طانغ يسأله عن عدم قيامه بالطقوس المقدسة، فأجاب بأنه لا يملك ما يكفى لذلك الواجب من الحبوب والمحاصيل، فأرسل إليه شان طانغ أهالى بلده يحرثون ويزرعون أرضه، وكلف الصبية والعجائز بإمداد ذويهم بالأكل والغذاء طوال مدة عملهم فى زراعة أراضى جيرانهم، فما كان من "كيبو" إلا أن قاد حملة من شعبه للتصدى لحاملى الغذاء وخطف ما معهم من مؤن وأمتعة، ولم يتورع عن قتل الممتنعين عن الإذعان لبطشه، بل إنه لفظاعة جرمه، وفساد خلقه، أقدم على قتل صبى كان يحمل الطعام لذويه، فنهب متاعه وسلب منه آنية الطعام، حتى ورد فى كتاب" التاريخ" شىء من ذلك؛ حيث يقول (فى أحد فصول الكتاب، ما نصه..)، "لم يبغض كيبو أحدا قط مثل حاملى صحائف الطعام."، وهى عبارة تشير على نحو مضمر إلى حادثة مقتل الصبى على يديه.

ثم كانت هذه الحادثة هى السبب فى قيام شان طانغ بحملة تأديبية ضد جاره، وتحدث أهل الممالك فى ذلك قائلين:" لم تكن حملة الملك طانغ، تهدف إلى الفوز بغنائم الحرب وإنما للثأر ممن اعتدوا على أبناء البسطاء."، وكانت حملة الملك قد بدأت أول زحفها ضد دولة " كى" (ثم استمرت لتدحر عدة ممالك أخرى) وقد بلغت غاراته إحدى عشرة غارة، لم تقم بعدها لأعدائه قائمة (وتوسلت به الأهالى لنجدتهم من الطغيان؛ حتى..) إذا شن هجومه ناحية الشرق، ندب أهل الغرب حظهم (أنه لم يبدأ بهم فينقذهم مما هم تحته من الاستبداد)، وإذا بادر (بالهجوم) صوب الغرب، اشتكى أهل الشرق سوء أقدارهم (إذ تأخر عنهم فلم يسعفهم

بالخلاص)؛ وكذلك إذا تقدم تجاه الجنوب، حزن الشماليون لأنه تأخر عنهم وبدأ بغيرهم، ولسان حالهم جميعا يقول :" لماذا لم يبدأ زحفه إلى بلادنا ليخلصنا مما نحن فيه؟" فكان شوقهم وتطلعهم إلى قدومه عليهم مثل لهفتهم على نزول الغيث زمن الجدب، (وأدل شيء على أنهم كانوا يسعدون بتلك الغزوات إلى بلادهم أنهم..) لم يكونوا يتوقفون عن مزاولة أعمالهم اليومية التى يكسبون منها أقواتهم؛ فلا التاجر هجر تجارته، ولا الزارع ترك الحرث والغرس؛ (إذ إن الغازى الباسل) كان يسلط سيفه على رؤوس البطش وهامات الطغيان فيخلص الناس من شرورهم، فأراح الناس مما كابدوه، وكان كالمطر النازل فى حينه فوق أرض عطشى ترتوى منه الوديان وتسعد به القلوب.

وقد جاء فى كتاب"شو" (التاريخ) ما نصه:" كم نتطلع إلى مجيء جلالة الملك إلى أراضينا؛ فمجيئه راحة للقلوب، وتفريج للكروب".

ليس سوى دويلة صغيرة (دولة يو) رفضت الإذعان لسطوة جلالته، فسار إليها من جهة الشرق ودخلها منتصرا، وفرض الأمن والسلام بين ربوعها، فاطمأنت نفوس رجالها ونسائها [هكذا حرفيًا]، وخرجوا جميعا لتحيته وهم يحملون صناديق الديباج الملون، ويهتفون له بالنصر والتأييد والبيعة له ملكا متوجًا بالبهاء والعزة والإباء، قانعين بأن يكونوا أتباعا لدولة جو الكبرى".

بل جاء إليه رجال الدولة (دولة يو) صاغرين فمثلوا بين يديه وهم يحملون إليه أثمن المتاع (الذهب والحرير) بينما حمل إليه بسطاء العامة الخبز والخمر [حرفيًا: صحائف الأرز والزجاجات المعبأة بالخمر] فمدوا

الأسمطة له ويبسطوا الولائم تحيةً وعرفانا؛ إذ كانت غاراته وهجماته كلها تستهدف إنقاذهم من التردى فى لُجة لا قرار لها، ونيران لا فرار منها إلا بالتخلص من الطغاة الجبارين.

وقد ورد فى كتاب" تشين شى" (البيان الأكبر..) "سأرفع راية القوة، وأتأهب لمنازلة الدويلات المتاخمة لحدود بلادى، وأطيح برأس الطغيان، وأبدد كل الملاعين، وأسطر فى صفحة الدهر مآثر تفوق ما خلده الملك طانغ من مجد باهر".

(ولنعد الآن إلى موضوعنا، فمن المعلوم أن دولة سونغ..) يمكن لها ألا تكترث بتطبيق سياسات تقوم على العدل والأخلاق، لكنها إذا ما أخذت فى اعتبارها بتطبيق سياسات الحكم الرشيد، فسوف تتطلع الممالك إلى أنوار مجدها عارفة بمكانتها تنشد عونها ونصرتها حافظة لمقام مليكها وسيدها الأكبر، ولن ترتعد فرائصها خوفا من دولتى تشى وتشو، مهما بلغتا من القوة والغلبة."

٦ – ٦ تحدث منشيوس إلى" داى بوشنغ" (أحد وزراء دولة سونغ) قائلاً: " أتريد حقا لحاكم بلادكم أن ينتهج سياسة أخلاقية؟ إنك إذا كنت سترد بالإيجاب، فسأخلص لك النصح بغير مورابة، ولأضرب لك (أولاً) مثلا بما أريد قوله لك.. ماذا لو أراد – مثلاً – أحد كبار رجال دولة تشو أن يعلم ابنه كيفية التحدث بلسان أهل تشى، أيأتيه بمعلم من أهل تشى أم بأستاذ من أهل تشو؟"، فأجابه الوزير: " بل بمعلم من تشى."، فقال منشيوس: "فماذا لو جىء له بمعلم من تشى، يعلمه كيفية التحدث بلغة بلاده، ثم إذا هو يتعرض لتهكم وسخرية ومضايقات مواطنيه من دولة تشو، بدرجة

تجعل من الصعب عليه مواصلة دراسته حتى لو ضرب ضربا مبرحا، (فإذا) سيق إلى أكبر وأشهر شوارع دولة تشى (شارع "جوانيو") ليقيم فى أرضها عدة سنوات، فلن يفتح فمه متحدثا بلسان أهل تشو، حتى لو تعرض للعذاب الأليم.

قد أفضت فى ذكر جميل أخلاق الوزير الفاضل"شيوجى جو"، ومدى ما يتمتع به من فضل وشرف وأخلاق كريمة، وقد أثنيت عليه فأكثرت الثناء، إذن فليتبوأ ما يستحقه من مكانة داخل أروقة القصر الملكى (مستشارا لجلالة الملك)، فإذا صار الناس جميعا صغيرهم وكبيرهم، عظيمهم ووضيعهم، على شاكلة ذلك الوزير، فلن يجد الملك أحدا يبطش به عما يخرجه عن نهجه الأخلاقى المعهود عنه!

(أما إذا) كان جميع العاملين فى القصر الحاكم (تحت توجيه جلالة الملك) كبيرهم وصغيرهم، شريفهم ووضيعهم، على النقيض من أخلاق وسجايا الوزير الفاضل شيوجى جو، فأنّى لجلالة الملك أن يقيم سياسته وفق المبادئ الأخلاقية (على أسس من الرحمة والعدل ..؟ فتأمل ذلك وانظر ..) ما الذى يستطيع أن يفيد به وجود رجل فاضل واحد، كسيادة الوزير المشار إليه، إلى جانب جلالة الملك؟"

٦ – ٧ راح كونسون شو إلى منشيوس، وسأله، قائلا: "ما سر امتناعك عن مقابلة الأمراء وكبار رجال الحكم؟"، فأجابه: " لم يكن من المعهود، فيما سلف من الزمان، أن يلتقى عامة الناس بالأمراء، ما لم يكونوا من الوزراء أو رجال الحكم المسئولين بصفة رسمية، حتى لقد (حدث ذات مرة أن) ألقى الشيخ الحكيم " توان كانمو" بنفسه من فوق الأسوار، هربا من

مواجهة الأمير (أنهو) لما ذهب لزيارته وكذلك قام الفاضل الكريم "شيلو" بإغلاق بابه دون الأمير " لومو"؛ على ما في هذا كله من الغلو والغرابة، ثم إن الضرورة قد تفرض على المرء أن يلتقى بتلك الشخصيات العامة (الأمراء ورجال الحكم) لأسباب طارئة (ومثلا) فقد أراد الأمير يانخو (عظيم دولة"لو") أن يطلب إلـــى كونفوشيوس المجىء ، بنفســـه، إلى دار الإمارة ليلتقى به، دون أن يتجاوز - فى ذلك - حدود اللياقة، فما كان منه إلا أن أصدر أمرا باستدعائه، (متعللاً فى ذلك بما) تفرضه الأصول من ضرورة حضور الشيوخ العلماء بأنفسهم إلى مقر الإمارة، لاستلام ما تفضل عليهم به الأمراء من هبات ومكافآت، وهو ما يلزم المدعوين بضرورة الحضور إلى مقار التشريف لتقديم واجب الشكر الرسمى، حسب ما تقضى به الآداب، (.. ذلك إذا تصادف أن كانوا وقت إرسال الدعوة خارج مقار إقامتهم) ومن ثم فقد انتهز سمو الأمير فرصة غياب كونفوشيوس عن منزله، فأهدى إليه خنزيرا مشويا، وبدوره فقد راح المعلم الأكبر يترقب فرصة خروج الأمير، حتى إذا تأكد من خروجه فى بعض شئونه، ذهب إلى دار الإمارة لتقديم واجب الشكر مثلما تقضى التقاليد وأصول المعاملات . ولو كان الأمير"يانخو" قد بادر أولا (إلى زيارة كونفوشيوس، بنفسه) لكان الشيخ الأكبر قد حرص على أن يرد الزيارة بأفضل منها.

قال سنغ زى مرة:" إن من يتمايلون فى نفاق ظاهر ويبتسمون فى ود متكلف، يبذلون جهداً أشقى وأضنى من المزارعين فى حقل أشواك، فى صيف شديد الحرارة."، وتحدث زيلو (تلميذ كونفوشيوس) فقال:" لا أحتقر أحدا [حرفياً: ليس لى أن أتخذ تابعا على هذه الشاكلة] قدر احتقارى

لمن يعرضون أنفسهم لمواقف مخزية؛ بسبب أنهم يجهدون أنفسهم للثرثرة مع آخرين حول موضوعات لا تربطهم بها نقاط اهتمام مشترك".

وهكذا تتبدى لك من هذا كله، على نحو واضح تماما، الطريقة التى ينبغى للرجل المهذب العاقل أن يتبعها حرصا على تأكيد انضباطه ومراعاته لقواعد السلوك الأخلاقى."

٦ – ٨ ذهب "تايين" أحد كبار رجال دولة " سونغ" إلى منشيوس، وقال له: " لن نتمكن هذه السنة من تحصيل ضريبة العشر، ولا من إلغاء ضريبة الأسواق والجمارك، فما رأيك في تخفيض مقدارها، تسهيلا على المسددين، ريثما تحل السنة الجديدة، فنقوم بالإلغاء الضريبى على نحو تام ونهائى؟"، فأجابه: "بلغنى أن رجلا كان يسرق كل يوم من بيت جاره دجاجة، فنصحه أحدهم بالانتهاء من ذلك باعتبار أن السرقة ليست بالشىء الذى يقترفه المهذبون الفضلاء، فرد عليه قائلا.. " فلأحاول أولا التقليل على نحو متدرج؛ بحيث آخذ دجاجة واحدة فقط فى كل شهر، حتى إذا جاء العام المقبل امتنعت عن السرقة تماما على سبيل الاستقامة والصلاح."...

وبرغم ذلك، فإذا كان المرء يدرك، حقا، فداحة ما سوّلته له نفسه وكسبته يداه، فينبغى له أن يتوقف، فورا، عن ارتكاب المزيد من الأخطاء؛ فما الحكمة فى الانتظار مدة عام آخر؟!"

٦ – ٩ تحدث كونتوتسى (تلميذ منشيوس) إلى أستاذه فقال له: " يقال بأنك تحب أن تجادل الناس دائما فى أمور شتى، فهل تسمح لى بأن أستفسر عن

السبب فى ذلك؟"، فأجابه: " هذا غير صحيح، ولم ألجأ إلى مجادلة أحد إلا اضطررا، إن هذا العالم موجود منذ الأزل، ولطالما تعاقبت عليه الأوقات؛ أوقات أمن وسلام ورخاء، وأيام حرب وصراع وبلاء، وقد وقع فيضان كبير، فى زمن الإمبراطور "ياو" فأغرق أرض المملكة الوسطى، حتى فزعت الحيات والزواحف (التنانين) إلى الشقوق العالية، ولم يجد الناس بيوتا تأويهم، فأقام أهل السهول المنبسطة فيما يشبه أوكار الوحوش بينما هرع سكان المرتفعات إلى مبيتهم بالكهوف.

وقد ورد فى كتاب" شانغ شو" (كتاب التاريخ) ما نصه:" كان الفيضان إيقاظا لغفلة الناس، و"الفيضان" المشار إليه بهذا المعنى هو ما يقصد به انسياح الماء فى أنحاء الأرض إلى أقصى مدى؛ وهنالك صدر الأمر إلى (أصدر الملك " ياو" أوامره إلى..) الوزير "يو" بتصريف مجارى السيل وإصلاح ما حطمه الفيضان، فما لبث حتى حفر القنوات وشق الترع فصرف السيل إلى البحر، وطارد الزواحف حتى هربت إلى المستنقعات العشبية الكائنة فى لُجّة البحر، فلما سالت المياه فى القنوات زمنا طويلا، تعمق المجرى وطالت المصارف فصارت أنهارا تجرى بين شاطئين، فهى (إلى اليوم) نهر اليانغتسى والنهر الأصفر ونهر "هواى"، ونهر"خان"؛ ثم إنه أزال كل العوائق (التى اعترضت مصارف المياه) والمخاطر والوحوش (المتربصة ببنى البشر) من الطير المجنح والجوارح، فوطئ الإنسان السهول واتخذ بها مسكنه. فلما مات الملكان الحكيمان "ياو" و"شون" تبددت بعدهما تعاليم الأباطرة القديسين الحكماء واشتد ساعد الطغاة، فبرزوا فوق عروش الحكم يهدمون المساكن ويخربون الأراضى؛ فتشرد الناس ولم يجدوا المبيت والمأوى، واقتلعت عيدان النبات وصارت

الحقول اليانعة ملاهي وحدائق يتنزّه فى أرجائها الملوك، بينما شحّ الملبس والمأكل، وشاعت الآراء الفاسدة والمقولات الضالة وراجت أساليب البطش والطغيان، ولما كثرت الحدائق والغابات، (فقد لحقت بها فى الزيادة) المستنقعات والبرك الموحلة، وعادت الوحوش والجوارح تأوى إليها، كسابق عهدها، فما إن حل زمن الملك "تشو" (طاغية أسرة شانغ الحاكمة) حتى نزل الدمار والخراب على الأرض (ثم جاء زمان آخر، حيث..) قام الوزير جو إلى جوار الملك "أو" يشد عزمه ويعمل على نصرته، (مما كان له أعظم الأثر؛ إذ..) استطاعا أن يخلصا الناس من شر الطاغية "تشو" وشنّا الغارة على دولة " يان"، فما انقضت ثلاث سنوات، حتى كانا قد خلعا حاكمها (الفاسد) وسحبا الوزير فيليان (رأس الفساد) إلى شاطئ البحر فقتلاه وأراحا الناس منه، بل استطاع كلاهما أن يقضيا على خمسين دويلة، وطردا السباع والذئاب والأفيال وكل وحوش البر إلى أقصى الأرض، فانزاح الكرب عن صدور الناس وتنفسوا الصعداء.

وقد جاء فى كتاب " التاريخ" ما نصه: "ما أعظم وأجل ما اختطّ الملك أون من سياسات باهرة، وما أنبل وأكرم ما قام به الملك "أو" من مآثر خالدة، تعلّم منها الأبناء والأحفاد فكانوا خير سلف لخير خلف؛ إذ لم تنسد مسارب القبح وتعلُ رايات الحسن إلا بفضلهما.".

ثم ساءت الأحوال ثانية، وضعفت شوكة الأخلاق واندحر العدل، وأطل الضلال برأسه، وفى إثره جاء الطغيان، وشاعت الهمجية حتى جاء زمان أصبح الوزراء، فيه، يذبحون ملوكهم، والأبناء يقتلون آباءهم، حتى ذهل كونفوشيوس وتحيّر، ثم قرر أن يضع مؤلفه الشهير "شون شيو" (حوليات

الربيع والخريف (مدونة تاريخية) وكان يهدف (بوضع هذا الكتاب) إلى وجوب انتباه الملوك (أبناء السماء) إلى ضرورة الالتفات إلى مسئوليتهم فى تمجيد الخير وتحقير الشر؛ وهو الأمر الذى دعا كونفوشيوس إلى القول (صراحة) بأن : " السبب الرئيس فى ذيوع شهرتى بين الناس هو كتاب الحوليات، وربما كان هذا الكتاب نفسه هو أيضًا السبب فى كل ما لاقيته من لوم وكراهية وتأنيب.".

(ومن ثم) أفل نجم الملوك القديسين، واستبد الطيش بالأمراء، فساروا فى الحكم على هواهم وتبذّلوا غاية التبذل، وتكلم فى السياسة وشئون الحكم من لا يفقهون شيئًا من مادته وأصوله، وشاعت فى كل الأنحاء (نظريات) ومقولات "يانغشو" [رائد الفلسفة الطاوية، قبل الشيخ الأشهر "لاوتسى"]، و"مودى" (مؤسس الفلسفة الموهية)، حتى صار الناس فريقين (فمن لم يتبع يانغشو "الطاوى" فهو على مذهب مودى "الموهية").

فأما يانغشو فقد راح يدعو الناس إلى الاهتمام بشئونهم الذاتية (بحيث يكون مدار الأمر فى حياة المرء ما يعود عليه، هو نفسه، من فائدة) دون الاكتراث بمصلحة جلالة الملك؛ ومن الناحية الأخرى، فقد نشطت الموهية فى التبشير بالمحبة لكل البشر، دون الاقتصار على (ما كانت توليه العادات من) الحب والود والطاعة للأب وحده دون الآخرين؛ (ولعمرى فإن جمعًا من الناس) لا يولى الآباء ما يستحقونه من الود ولا يدين للملوك بالطاعة والاحترام، لهو جمع من البهائم والوحوش. وقد قال كون مينغى، ذات مرة: " لقد كان أولئك قومًا تمتلئ حظائرهم بالجياد القوية، وتعمر خزائنهم باللحوم الدسمة، فى حين كانت الناس مصفرة الوجوه من شدة

الجوع، والأجساد عارية كأشباح موتى فى القفار البعيدة، وهو أمر ليس بالجديد ولا الغريب على من تسيدوا سيادة الوحوش الآكلة لحم الإنسان."

(وعلى ذلك) فإن لم يتم تجاهل واستبعاد مقولات وآراء يانغشو ومودى، فلن تقوم للمذهب الكونفوشى قائمة؛ إذ تفشت الآراء المضللة فى عقول الناس، وانطبعت الأذهان بطابعها فوقفت (تلك الأفكار) فى طريق الخير والعدل والصلاح.

فإذا تعطلت طرق الخير والصلاح أنشبت الوحوش مخالب الافتراس، بل صار الناس يأكل بعضهم بعضا، فذلك هو الأمر الذى يثير قلقى واهتمامى و(يجعلنى أحشد كل طاقتى كى..) أحفظ مقولات الشيوخ القديسين ذخرا للأجيال، وقاعدة صلبة للسلوك، فى وجه آراء يانغشو ومودى تفنيدا لمادتها وكشفا لخلطها وفساد منطقها؛ حتى يراجع أتباعهم مواقفهم ويصمت الخطباء عن التحدث بها إلى الناس؛ ذلك أنها محض أباطيل تولدت فى النفوس وتبدت آثارها فى التصرفات والمعاملات، وهو ما يؤذن بامتداد الآثار السيئة لتنال من شئون الحكم السياسى. (وإنى لعلى ثقة من صواب تقديرى فى هذه المسألة.. بل) لقد ظننت أن لو بعث القديسون الحكماء من مرقدهم الآن، لما وسعهم إلا نصرتى واستحسان قولى.

يذكر التاريخ للإمبراطور " يو" أنه الرجل الذى استطاع أن يقهر الفيضانات العاتية؛ مما كان له الفضل فى تحقيق الأمن والسلام فى ربوع الممالك، (وكذلك) يذكر للملك "جوكون" أنه قام بإخضاع القبائل الشمالية

والغربية (الهمجية)، وضمهما إلى أرض الوطن وطارد الوحوش البرية حتى قطع دابرها؛ فأمن الناس شر الوقوع فى براثن السباع (ولا يمكن أن يغفل التاريخ لـ..) كونفوشيوس أنه قد وضع كتاب " حوليات الربيع والخريف" وهو الكتاب الذى ينسب إليه الفضل فى ردع الأمراء المتمردين، وزجرهم عن المضى فى خروجهم على سادتهم الملوك الحكماء وتهذيب الأبناء وهدايتهم إلى طاعة آبائهم، وقد جاء فى كتاب الشعر القديم (هذا المعنى) :

" كان حصنا حصيناً،

يصد القبائل الهمجية،

ويلقن المارقْين (" جين" و"فو")

دروساً نارية،

حتى شُلت يد أعادينا،

وهجست فى صدور خصومنا الهواجس."

وضرب جوكون بيد من حديد على من يتجاهلون مكانة الآباء ويتغافلون عن نفوذ وقداسة الإمبراطور. وبالمثل، فأنا أيضا أريد - من جهتى - أن أقوم بتصحيح مفاهيم الناس ودحض الأفكار الخاطئة والمضللة، وأن أواجه كل سلوك متطرف؛ كى أكشف زيف وغش المقولات الخادعة استكمالاً واستمراراً لجهود الحكماء القديسين الثلاثة (يو - جوكون - كونفوشيوس).

فكيف يمكن أن يوصف جهدى، فى هذا المضمار، بأنه مجرد أو مساجلة نظرية! خصوصًا إذا كانت الدوافع (لما أقوم به) اضطرارية ! إذ أجدنى ملزمًا بالرد الفكرى واللفظى (فقط، دون أية وسيلة أخرى) على أتباع كل من يانغشو، ومودى؛ فذلك هو السبيل الوحيد أمام من يريد أن يستحق، عن جدارة، أن يكون تابعًا وتلميذا للحكماء القديسين."

٦ - ١٠ تحدث " كوان تشان" إلى منشيوس، فقال له: "ألا ترى أن الشيخ "تشن جونزى" أشدّ الناس استقامة وعفة نفس؟ لقد اختار لنفسه أن يقيم بأرض " أولينغ" وظل يبيت على الطوى ثلاثة أيام كاملة (لا يذوق فيها طعاما ولا شرابا) حتى صمّت أذناه وغشى على عينيه، فلما أبصر (ذات يوم بصيصًا من نور) ورأى على حافة البئر شجرة خوخ، وكانت يرقات كثيرة ذات صدفات ذهبية قد أكلت حواف أوراقها، فتسلق الشيخ جذع الشجرة واقتطف عددا من الأوراق فالتقمها، فما كاد يلوكها حتى عاد إليه البصر، وأرهفت أذناه السمع. فقال منشيوس: " أرى الشيخ "جونزى"، وسط الحكماء الأفاضل، قطب الرحى وواسطة العقد (.. مثل الإبهام فى الإصبع)، أما تفرده عن الآخرين بعفة النفس والزهد، فتلك مسألة تستحق التمعن قليلا، ومثلا، وحسب ما رويت عنه، فإننا إذا أردنا تعميم طريقته (السالف ذكرها) فى الزهد والتقشف، بين الناس، فلن تجدى بأحد نفعا إلا إذا تحول البشر إلى ديدان الأرض، والدود يقتات على الأوراق الذابلة المطروحة فوق الأرض وبين شقوق الطين والوحل، ويمتص عصارة التربة (الصفراء!) الكامنة فى باطنها (..وهذا فى حد ذاته، ولا شك، بيان على الزهد والتقشف..) لكن هل يسكن الشيخ المذكور فى بيت على شاكلة المنزل الذى ابتناه " بوييى؟"، أم أنه يقيم

بنزل كالذى أقام فيه " ليوشياجى" (أحد عتاة اللصوص فى زمانه)، وهل يأكل مثل الحبوب التى استزرعها بنفسه الشيخ الجليل " بوييى" أم أنه يتغذى بمثل الطعام الذى ينعم به السارق الأشهر "ليوشياجى"؟ فتلك كلها – كما ترى– مسائل ونقاط أساسية لم تتضح بعد (فكيف لى أن أعطيك جوابا شافيا؟!)، فقال له "كوان تشان": " كيف يمكن أن يلتبس الأمر عليك إلى هذا الحد، وهو كما قد علمت، يصنع نعله بيديه، ولا تجد زوجته ما يسد رمقها إلا من أثواب الكتان، تنسجها بيديها وتبيعها مقابل ما يقيم أودها.".

فقال له منشيوس: " كان الرجل، فى الأصل، ابن عائلة ميسورة الحال فى دولة تشى، حتى بلغ راتب أخيه "تسن داى" المقيم فى إقطاعية خاصة به (بأرض كيه) ما مقداره عشرة آلاف وزنة، فوقع فى ظنه أن أخاه إنما حصل المال بطرق غير مشروعة، فأبى أن يذوق شيئا من طعامه، وجال فى فكره أن المسكن الذى يقيم به أخوه قد أقيمت أركانه بمال تم تحصيله بطرق غير شريفة، فرفض أن يقيم وإياه تحت سقفه، فقام وترك أمه وإخوته وذهب ليقيم بمفرده فى ضيعة "أولينغ"، ثم إنه عاد يوما إلى دار أهله فرأى أوزاً ودجاجات قد أرسلت إلى أخيه على سبيل التحية، فقطب جبينه وذهب مغضبا وهو يقول لأخيه: " ماذا يعود عليك من دجاجات تقأقئ من حولك؟"، ثم قامت أمه وذبحتها بعد هنيهة وقدمت إليه بعضاً من لحومها، وتصادف أن كان أخوه عائدا إلى البيت فى تلك اللحظة، فصاح به: "هأنت ذا تطعم لحم الداجن الذى استنكرت صوته يومئذ ."، فقام وخرج من البيت وألقى مضغة الأكل من فمه، فلم ينزل جوفه شيء مما أطعمته إياه والدته، فى حين أنه أقبل على طعام زوجته (بشهية مفتوحة)

ثم إنه أقبل على السكنى بضيعة أولينغ، بعد إذ استنكر أن يقيم بدار أخيه؛ فهل ترى (فى مثل هذا التصرف الأحمق لرجل يغضب أهله ليرضى نفسه..) ما هو جدير بأن يكون نموذجا يحتذى فى الزهد والتقشف؟!، إن أمثال "جونزى" هذا لابد، أولا، أن يتحولوا إلى ديدان تسعى بين شقوق الأرض قبل أن تصير نماذج منتقاة للأخلاق المهذبة والسلوك القويم".

الباب الرابع

ليلوة
(الجزء الأول)

(وجملته ثمانية وعشرون فصلا)

٧ - ١ قال منشيوس: " مهما عرف عن " ليلو" من حدة بصر (رجل اشتهر في زمن توحيد الصين بقوة البصر) ومهما كانت عند "كونشو" من مهارات صناعية (نجار، في زمن دولة لو، اشتهر بمهارته فى صناعة الأثاث ولوازم البناء؛ حتى أنه صنع سلما استخدمته قوات دولة تشو فى حصارها للدول المتحاربة معها) فلم يكن لأى منهما أن يحدد شكلا مربعا أو دائريا دون استخدام الزاوية (الهندسية) والفرجار؛ وبرغم ما تميز به الموسيقار" شيكوان" (الكفيف البصر ابن دولة جين، أقدر الموسيقيين القدماء على ضبط الأنغام وتمييزها) من دقة وبراعة فى تمييز درجات النغمات الموسيقية، إلا أنه ما كان ليستطيع أن يحدد النغمات الخمس (السلم الموسيقى) على نحو دقيق وصحيح، إلا مستعيناً بآلة الضبط النغمى (ذات الأوزان الستة)؛ ولم يكن ممكنا لمبادئ الحكم التى أرساها (الحاكمان القديسان) " ياو"، و" شون" أن تثبت دعائمها وتسير على هديها الممالك إلا بسياسة رشيدة (رحيمة).

وعلى الرغم مما هو ذائع ومعروف عن كثير من الأمراء ،الآن، من نوايا طيبة وتجارب حقيقية فى العمل بسياسة تقوم على البر والرحمة، إلا أن الناس لم يلمسوا بعدُ الآثار الطيبة لتلك السياسات الرشيدة، (فهى إذن سياسات) غير جديرة بأن توليها الأجيال القادمة أى اعتبار، (حرفيًا: تضعها موضع المتابعة والتقدير)؛ وذلك لأن أولئك الأمراء لم ينهجوا على منوال الأباطرة الحكماء الأقدمين، فمن ثم (نقول بأن..) لا يكفى فى حكم الممالك الاعتماد، فقط، على النوايا الحسنة، ولا يكفى كذلك، اعتماد (آليات!!) أنظمة تنفيذية طيبة لضمان الوصول لنتائج ممكنة التطبيق، وقد ورد فى نصوص كتاب الشعر القديم هذه الأبيات:

" ليبق الكل ذاكراً،

وليبق الجميع مخلصاً،

لنهج الأولين..

سرمدا.. دائما"

لم يحدث،قط، أن كان الالتزام بسيرة الملوك والحكماء الأقدمين مؤديا إلى الضلال أو الوقوع فى الخطأ. قد بذل القديسون، من قديم، غاية جهدهم ونظروا بثاقب بصرهم، واستعملوا باقتدار كل أدوات التشييد والبناء (من فرجار، وزاوية معدنية، وموازين استواء، وخيوط تسوية) لعمل كل التصميمات الهندسية المختلفة (من مربعات، ودوائر، واستواء واستقامة) وهى كلها تصميمات ذات استخدامات متعددة ودائمة، (وكذلك فقد) أرهف الأقدمون أسماعهم فاستخدموا آلة (الميزان السداسى) لضبط السلم الموسيقى (..الأصوات الخمسة)، فعزفوا كل الأنغام بأصوات

لا تنتهى درجاتها ولا يفنى إبداعها، ولم يبخل الأقدمون بجهد، فى سبيل انتهاج سياسة تحمى الشعب من الوقوع فى شرك (الأزمات)، تعميماً للبر فى ربوع الممالك؛ لذلك فقد قيل إنه لابد لمن أراد تشييد سور حجرى عالٍ من الاستناد إلى تلٍ سامق الارتفاع، ولا مفر لمن أراد تعميق بحيرة، من البدء بأقل منسوب فى قاع بركة ضئيلة؛ (وهكذا فليس من الحكمة فى شىء، محاولة إصلاح شئون الممالك دون الاستناد إلى نهج الحكماء الأولين، ولا ينبغى لغير المتوسلين بالبر والرحمة اعتلاء مواقع الحكم؛ ذلك أنه لو أتيح لغير هؤلاء الصعود إلى مراتب القيادة لاتخذوها منبرا لإشاعة السوء وتعميم الشر والفساد وسط الناس .

إذا لم يجد الأمراء معايير صارمة لاختبار صدق ونزاهة مرؤوسيهم، فى الوقت الذى يفتقد فيه الوزراء (من تحتهم) قواعد ملزمة من القوانين والنظم، لضاعت هيبة العدالة داخل ردهات القصور الحاكمة، ولضرب الأهالى بالقوانين عرض الحائط، فخرج الكبار (السادة المهذبون) عن مبادئ الأخلاق، واجترأ الصغار (عامة الناس) على مخالفة اللوائح (مواد العقوبات)، وصار بقاء الوطن نفسه ضربا من ضروب الحظ السعيد أو الصدفة الطيبة.

ومن ثم ، فقد قيل إنه ليس مما يفتّ فى عضد الأوطان أن تكون حصونها متداعية، وجنودها أقل عدة وعتادا، ولا من قبيل الخطر أن تكون البلاد قليلة الموارد المادية ومحدودة الأرض المستصلحة للزراعة؛ بل الخطر كله ألا تجد المبادئ الأخلاقية طريقا إلى إقناع الأمراء (فى مواقع الحكم) ولا تجد التعاليم المقدسة طريقها إلى عامة الناس، مما يجعل مقاليد

الحكم فى يد الغوغاء المتمردين، ويصير ذلك إيذانًا بسرعة سقوط البلاد فى براثن الضعف والانحلال.

وقد جاء فى كتاب "الشعر القديم" ما معناه:

" لما أذنت السماء

بسقوط عروش حاكمة (يقصد أسرة جو الملكية)،

فقد كنت خليقا

بأن تنفض عنك

الهدوء والدعة،

وأن تسارع إلى

تدارك الخطر !"

أما كلمتا "الهدوء"، و "الدعة" الواردتان فى هذا المتن، فتشيران إلى معنى " التبلد و الخمول".

و(مما يعد من قبيل "التراخى"و" التبلد"..) الإهمال فى مباشرة أمور الدولة الكبرى [مراعاة شئون جلالة الإمبراطور، والتفانى فى خدمته] وتجاوز حدود الآداب، سواء فى تولى الوظائف الرسمية أو فى التقاعد عن أدائها، وتناول سيرة الحكماء الأقدمين بما يسىء إليهم بالقول والتلميح اللفظى.

ولذلك فقد قيل إن من دلائل " تبجيل" الملوك حثهم على مواجهة العقبات (العمل بمبادئ الحكم الرشيد)، فأما الاهتمام بعرض "الجوانب الطيبة"

من الأمور على الحاكم وحجب كل "الخطط والأفكار السيئة"؛ فذلك ما يقال له "آداب الاحترام والتعظيم"، أما الاعتذار عن لسان (الإمبراطور) بالعجز عن تدبير سياسات رشيدة، فذلك هو مايسمى بـ "الضّعة الحقيرة".

٧ – ٢ قال منشيوس: " لئن كان الفرجار وزاوية الرسم الهندسى، هما معيار ضبط الشكل الدائرى والمربع، فإن القديسين هم معيار ضبط السلوك الإنسانى؛ فينبغى لمن أراد أن يحوز مكانة السيادة بين قومه أن يجتهد فى تحصيل أسباب السيادة والشرف، مثلما يجب لمن أراد الترقى فى المنصب الحكومى البارز أن يتفانى فى تحقيق شروط الجدارة التى تؤهله للفوز بأرقى منصب رسمي، وكلاهما بالغ مبتغاه إذا ما ترسم خطى القديسين الحكيمين " ياو"، و"شون"؛ فمن لم يتفان فى خدمة سيده، على نحو ما تفانى "شون" من أجل مليكه "ياو"، فقد أساء إلى مكانة أستاذه بالغ الإساءة؛ ومن لم يقم على أمر الناس وبذل نفسه لرعاية شئونهم مثلما فعل " ياو" تجاه مواطنيه (فى زمنه) ، فقد أوقع شعبه فى أخطر شرك.

وقد قال كونفوشيوس، ذات مرة: " ليس هناك (فيما يتعلق بإصلاح شئون الوطن) سوى طريقتين اثنتين لا ثالثة لهما، إما الرشاد (بالحسنى) أو نقيض ذلك." ومن ثم، فمن كان، من الملوك، على أهله فظًا مستبداً، فقد خسر النفس (تعرض للاغتيال) وأضاع الوطن؛ وأما من تراخت قبضته، وفترت عن القيام بضبط الأمور عزيمته، فقد عرض للخطر حياته، وأظهر التخاذل وبدد هيبة الوطن وصار يلقب (بعد موته) بـ الغشوم الجهول [حرفيًا: المجهول، غير معلوم الأحوال!]، ومهما كان له من أبناء بررة

وأحفاد طيبين، فلن يمكنهم - على طول المدى - تغيير سوء القدر (الملازم لهم) (تعديل اللقب السيئ الذى أورثهم إياه)

وقد جاء فى كتاب الشعر القديم، ما نصه:

"إذا ما أرادت دولة شانغ ،

أن تأخذ عبرة من دروس الزمان ،

فإن الدرس ليس ببعيد ؛

ليس إلا أن تتأمل

أحوال دولة شيا ،

فيما قبلها بزمان قريب" .

٧ - ٣ قال منشيوس: " ما استطاعت الأسر الحاكمة الثلاث: شيا، شانغ، جو؛ أن تحكم قبضتها فوق الممالك، إلا (بتطبيق) سياسة رشيدة (رحيمة)؛ (وبالمثل) فلم تفقد سطوتها وتضيع عروشها وتبدد سلطانها فوق الأرض، إلا عندما حادت عن سياستها الرشيدة، وهو الحال نفسه الذى نلاحظه فى قيام وسقوط الإمارات، وبناء وفناء الدويلات.

إنه لا يثبت الحكم فوق الدول لملك إلا بسياسة رشيدة، ولا تقوم لحكم الأمراء قائمة (فوق الدويلات) إلا بالعدل والرحمة؛ ولا يستقر للنبلاء قرار فى معابدهم (إقطاعاتهم) إلا بتطبيق مبادئ إنسانية، ولا يملك السادة المهذبون وأولاد الناس (عامة الشعب) أمرهم ويحيون حياتهم إلا باتباع مبادئ الرحمة والعدل.

فإذا ما قيل (الآن) إن البعض يحرصون على الحياة حرصهم على معاندة المبادئ الإنسانية، فهذا أشبه ما يكون بمن يخشون أن يسكروا بينما يفرطون فى شرب الخمر".

٧ – ٤ قال منشيوس: " إذا أحب المرء الناس ولم يبادلوه مشاعر الحب والود، فينبغى عليه مراجعة نفسه [حرفيًا: أن يسأل نفسه، بصدق، أيحب الناس حقا؟]؛ وإذا كان يلى أمرًا من أمور الناس وقام بمسئوليته على خير وجه، ثم تبدى له وجه التقصير، فيجب عليه، حينئذ، أن ينظر فى رجاحة عقله وحكمة تدبيره؛ فإذا كان يقوم بواجب الاحترام تجاه الناس، دون أن يردوا عليه بمثل ذاك، فلابد أن يسائل نفسه عن مدى صدق تبجيله وتقديره للآخرين.

إن كل سلوك لا يأتى بالنتيجة المرجوة أو المتوقعة، يتطلب من المرء أن يراجع نفسه وأن يقوِّم تصرفاته، حتى تنقاد له الدنيا كلها طوع بنانه.

وقد ورد فى كتاب الشعر القديم، شىء من هذا المعنى، فى هذه الأبيات:

" إن الاهتداء بإرادة السماء (مثلما فعلت دولة جو)،

جالب للحظ السعيد (.. طول البقاء للأمم)،

فالسعادة قدر،

يبلغه المرء

بما سلك من الطريق".

٧ – ٥ قال منشيوس: " إذا تحدث الناس فى حواراتهم الذائعة (عن الوطن) فهم يطلقون عليه اسم " كوجيا" ("الموطن"، وهو ما يشير إلى دلالة..) أن الأساس فى تقسيم حد الأرض هو الوطن الكبير [كو: الدولة]، وأن

الوحدة الإنسانية التى يقوم عليها الموطن الأكبر هى الموطن الأصغر [جيا: الأسـرة]؛ (وهو مـا يشـيـر، بالتـالى إلى أن ..) عـمـاد الموطن الأصـغـر (الأسرة) هو الفرد.".

٧ - ٦ قـال منشـيـوس: " إن الإدارة السـيـاسـيـة ليست بالشىء الصـعب على الإطلاق؛ إذ إن الأسـاس الذى تبنى عليـه أمـور كـثـيـرة يكمن فى عـدم الإسـاءة إلى كـبـار المسـئـولين والمتنفـذين (أصـحـاب النفـوذ الأكبـر..، وبالتـأكيد) فـإن من يرونه أهلا للإعجاب والتقدير، سيراه الناس فى الدولة كلها كذلك، ومن تراه الدولة جديرا بالثقة والتـأييد ستراه الممالك كلـها على النحو نفسه، وهو مـا سيؤدى (فى المحصّلة النهائية) إلى ذيوع وانتشار المبـادئ الأخـلاقـيـة (التى يمـثلهـا ويحـمل لواءهـا جـلالة الإمـبـراطور شخصيا)".

٧ - ٧ قال منشيـوس:" عندما يسـوء الحكم الرشـيد فى الممالك، يخـضـع الأدنى شرفـا للأعلى مكانة ورفـعـة، ويذعن الأقل تأدبًا للأسمى خلقـا؛ فإذا فـسـد الحكم، كـانت يد الأكبـر سلطة فـوق يد الأقل نفوذا، وإرادة القوى غـالبـة فوق الضـعيف وذلك مـا قدرته السـمـاء (فـوق الجـمـيع)؛ فـمن وافق إرادة السماء فاز بالبقاء، ومن خالفها أصابه الفناء".

وقـد تحـدث الأمـيـر جـينكـون (حـاكم دولة تشى) قـائلا: "إن العـجـز عن إصـدار الأوامر للآخرين (وتوجيـههم) مع القـعود عن الاستجابة لما يوجه إلينا من أوامر معناه انقطاع الصلة مع العالم والأشياء من حولنا"، ثم إن الأمـيـر فـاضـت عيناه بـالدمـوع وهـو يصـــدر قـراره بتزويـــج ابنته لعظيـم دولة وى.

قـد صـارت الدويلات الصـغـرى، الآن، تتـخـذ من الإمـبـراطوريات الكبـرى نموذجًـا ومـثـالا يحـتـذى به، ومع ذلك فـهى ترى فـى الخضـوع لأوامـر تلك

الدول العظمى عارا ومهانة، تماما كما يقبل التلميذ على أستاذه ليتعلم منه، لكنه يستنكف أن ينصاع لما يمليه عليه (ويرى فى ذلك انتقاصًا من الكرامة).

(وقد يستشعر المرء العيب فيما يأمره به أستاذه..) إلا إذا كان ذلك الأستاذ هو الملك أون؛ ذلك أنه أفضل أستاذ يمكن أن تتعلم الممالك على يديه نظم إقرار السلطة فى أنحاء الأرض، فيما لا يزيد على خمس سنوات فقط للدول الكبرى، وسبع سنوات للدويلات الصغرى.

وقد جاء فى كتاب الشعر القديم (شىء بهذا المعنى، فحواه):

" قد بلغ أحفاد ملوك آل شانغ،

أعظم ملوك الأرض ،

ما لا يحصى ولايعد،

وشاءت إرادة السماء،

أن يطأطئوا رؤوسهم

لمن ملك من آل جو .

فما كان لهم أن يصيروا إلى تلك الحال ،

إلا أن أقدار السماء لا تثبت ،

(بأحوال الناس) على حال ؛

وقد قيل إن أكابر آل شانغ،

برغم ما توقد فى ذهنهم من نباهة ،

وتبدى فى وجوههم من ملاحة ،

قد ساروا مع السائرين فى ركب

إلى عاصمة آل جو"هاو" ؛

ليصبوا الخمر للشاربين

فى أوانى القربان المقدس."

وقد قال كونفوشيوس: " إن قيمة الإنسانية لا تقاس بعدد أو مقدار أو كمية محددة من الناس، فإذا كان الحاكم محباً لقيم الإنسانية، فلن يكون له على الأرض بموجب ذلك الحب ، أى خصوم."

والآن، فإننا لو تصورنا أنه بالإمكان أن تخلو الدنيا من كل الخصوم، دون أن ننشد الرحمة والإنسانية، فسنكون أشبه بمن يقاسى شدة الحر، دون أن يستحم بماء بارد، وقد ورد شىء بهذا المعنى فى كتاب الشعر القديم؛ كالتالى:

" من ذا يقاسى حر الهجير ،

والماء دونه،

فلا هو يستحم

ولا من الرمضاء يستجير !" .

٧ - ٨ قال منشيوس: " أمن المعقول أن يستطيع المرء محاورة (أولئك الأمراء) غير المتّصفين بالبر والإنسانية؟ ألا إنهم يستسلمون للدعة وقت المحنة، ويتطلعون إلى الكسب والمنفعة وسط أجواء الكوارث، ويتخذون من أسباب بلاء الأوطان مادة للسخرية والدعابة. أما إنه إذا كان من الممكن محاورة غير العاملين بالبر والإنسانية، لما تدهورت أحوال الوطن وتخربت البلاد!

من بين ما حفظه الزمان لنا أغنية كان يشدو بها صبى صغير، تقول كلماتها :

" ماء البحر الصافى،

أغسل فيه قبعتى وخصلة من شعرى؛

ماء البحر العكر،

أغسل فيه قدمى الحافى."

وقد قال كونفوشيوس لتلاميذه من حوله (تعليقا على تلك الكلمات):

"وهكذا ترون أيها الحاضرون، فإن الماء الصافى يصلح لغسل القبعة، ويصلح أيضًا وهو كدر لغسل القدمين؛ فالماء فى الحالتين هو العنصر الذى حدد قيمة استعمالين متناقضين.

ومن ثم، فلابد أن المرء، بذاته هو الذى يحدد، أولا، أسباب اجتلاب المهانة على نفسه فيجلب على نفسه، بأعماله، العار فى مبتدأ الأمر، قبل أن يسبه الناس ويكيلون له الشتائم؛ وكذلك تفعل العائلة حيث تسعى بنفسها إلى أسباب خرابها وتشتت علائقها قبل أن يقوم الآخرون بتفكيك ما بين أفرادها من أواصر؛ وبالمثل تفعل الأوطان، حينما تضع بيديها أسباب استلابها ومداهمة الكوارث لها قبل أن يقدم الآخرون على شن الغارات عليها ومحاربتها، وقد جاء فى أحد الفصول (فصل "تايجيا") "كتاب التاريخ القديم" (شانغ شو)، ما نصه: "ما أسهل أن يتجنب المرء مصيبة نزلت عليه من السماء، لكن الشر الذى يجلبه على نفسه بيديه، هو الذى يودى به إلى الموت (مهما حاول الخلاص منه)".

٧ - ٩ قال منشيوس: " ما كان لكل من (الطاغيتين) "جيه"، و" تشو" أن يضيعا المالك من أيديهما، إلا لأنهما خسرا (مساندة) الشعب، وما كان لهما أن يخسرا المساندة الشعبية، إلا بما تسببا فيه من تحول أماني ومشاعر وقلوب الناس عنهما. إن أفضل وسيلة لضمان السيطرة التامة على المالك كلها هى أن تكسب الناس فى صفك، فتلك هى الوسيلة المثلى لأن تضع المالك نفسها فى جعبتك؛ أما أحسن وسيلة لضمان كسب الناس فى صفك، فهى أن تكسب مشاعرهم؛ لأنك إذا كسبت مشاعرهم ضمنت ولاءهم المطلق لك؛ والطريقة الفريدة التى تحوز بها مشاعر الناس هى أن تحقق لهم أمانيهم، وألا تفرض عليهم ما يكرهونه رغماً عنهم، فذلك يحقق لك غرضك.

إن الناس تتبع الإنسانية والبر مثلما تنحدر المياه تجاه مصب الأنهار، أو كما يتلمس الوحشى طريقه إلى البرارى، (فمن ثم نفهم) كيف تنطلق أسراب السمك إلى أعماق البرك إذا ما هاجمها ثعبان الماء، (فهى تلوذ بركن حمايتها عند مواجهة الخطر) ومن ثم أيضا، كانت هجمة الباشق تعجّل بفرار الطير إلى الأدغال، وكانت (السياسة الحمقاء للطاغيتين " جيه"و "تشو" هى التى دفعت الناس إلى الفرار نحو القائدين (العادلين) الملك طانغ، والملك أون (أسرة شانغ).

أما اليوم، فلو ظهر بيننا ملك يميل إلى البر والإنسانية، لتدافعت إليه جموع الناس (هربا من طغيان الأمراء)، ولصار فى مقدوره توحيد المالك كلها (ولو لم يكن ذلك ضمن تطلعاته).

لكن ليس هناك (على الساحة الآن) سوى البعض ممن يأملون فى توحيد المالك، بطريقة أشبه ما تكون بالمريض الذى ألم به الداء طوال سنوات

سبع، ثم إذا هو يريد الشفاء بتعاطى دواء لم يختمر فى قنينة التحضير سوى ثلاث سنوات فقط (زهرة من عشب طبى تتطلب وقتا طويلا كى تؤتى قيمة علاجية)؛ وهو ما لن يفيد المريض شيئًا أبدا طوال حياته، ما لم ينقضِ وقت كافٍ كى يؤتى الدواء مفعوله.

أى أن الأمراء يحتاجون للعزم والتصميم على اتخاذ سياسات إنسانية وعادلة، لئلا يقعوا فى براثن القلق والفشل المهين، بل قد يتجاوز الأمر إلى المساس بأمن حياتهم وبقائهم نفسه.

وقد ورد فى كتاب الشعر القديم (هذا المعنى):

" كيف للأحوال أن تنصلح،

وأن توضع الأمور فى نصابها

(مادامت) الأطراف كلها تتناحر،

ويشد بعضها بعضا؛

ليسقط الجميع فى لجة عميقة،

لاخروج منها".

٧ - ١٠ قال منشيوس: " لا يمكن أن يجرى المرء حوارا مع من يتعمد إيذاء نفسه، ولا يمكن مصادقة من يحطّون من قدر أنفسهم؛ فالمتكلمون بما يسيء إلى الآداب والفضائل هم أولئك المتعمدون إيذاء أنفسهم، أما المسيئون لأنفسهم (بحطهم من قدرها)، فهم الذين لا يقيمون مبادئهم على قاعدة من الإنسانية، ولا يسلكون فى طريق العدل والرحمة.

الإنسانية [.. أو الإحسان، فى معنى ما..] هى موطئ راحة النفوس والضمائر البشرية؛ والاستقامة [أو العدل فى صياغة أخرى..] هى أقوم

الطرق جميعا؛ فإذا ما فرغ الضمير من الراحة، وتاهت أقدام السائرين عن دليل الاستقامة، كانت تلك هى الداهية الكبرى (المأساة الكبرى)!".

٧ - ١١ قال منشيوس: " برغم أن الطريق قريب جدا، إلا أن الناس يطلبونه فى الأفق البعيد، وبرغم أن الأمور سهلة ميسورة ، إلا أن الجميع يجولون فى الطريق الصعب، ألا إن المودة للآباء واحترام كبار السن وتوقير الأجداد (كل ذلك) جدير بأن ينتشر فى ربوع الأرض السلام".

٧ - ١٢ قال منشيوس: " لا يمكن للعاملين فى أدنى الدرجات الوظيفية، ممن لا يحوزون ثقة رؤسائهم، أن يقدموا خدمات مفيدة للناس، (ومع ذلك) فهناك من يضمنون لمثل هؤلاء الحصول على ثقة رؤسائهم؛ (ذلك أن) من يعجز عن الفوز بثقة الأصدقاء فلابد سيخفق فى الحصول على ثقة المديرين والرؤساء .

(ومع ذلك) فهناك طريقة مثلى للفوز بثقة الأصدقاء؛ (ذلك أن) من تفانى فى خدمة والديه بكل عرفان، دون أن يدخل الرضا والبهجة على قلبيهما، فلن يمكنه الفوز بثقة أصدقائه.

(وبرغم ذلك) فهناك مدخل لإضفاء الرضا والسعادة على مشاعر الأبوين؛ ذلك أن من يحاسب نفسه ثم يكتشف بأنه لا يحمل فى قلبه أدنى قدر من المودة الصادقة، فلن يستطيع بالقطع أن يرضى والديه. (ثم إن) هناك حلاً يمكن بواسطته تبنى موقف تتحقق فيه مراجعة النفس على أساس من المودة الصادقة؛ ذلك أنه إذا لم يستطع المرء فهم معنى الخير، فلن يمكنه أبدا تقدير المودة الصادقة، ومن ثم، فالإخلاص هو طريق السماء، (المذهب السماوى الطبيعى) فالبحث عن تقدير الإخلاص هو مسعى الإنسان.

ولم تشهد الحياة الإنسانية، قط، تجربة إنسان استطاع أن يتصف بالإخلاص دون أن يؤثر فى مشاعر الناس من حوله. إن من لم يتحقق بالإخلاص معدنه لن يقدر على النفاذ إلى قلوب البشر".

٧ - ١٣ قال منشيوس: " كان الأمير "بوييى" (الابن الأكبر لآخر حكام أسرة شانغ الملكية) عازفا عن رؤية (الملك الطاغية) "تشو" فذهب واختار السكنى بجوار شاطئ بحر "بيهاى"، فلما بلغته أنباء ولاية الملك"أون" للعرش، قام من فوره قائلا.. " لم يعد لى أن أبقى ها هنا، فلأذهب ولأكن فى صحبة جلالته، خصوصا بعدما بلغنى من حسن قيامه (يقصد الملك أون) على أمر الشيوخ والمسنين". وكذلك كان "تايكون" (أحد تابعى الملك "أو") قد قرر أن ينأى بنفسه بعيدا عن صحبة (الملك الطاغية) "تشو"، وذهب للإقامة بجوار شاطئ بحر" دونهاى" ، فلما سمع بقيام الملك أون على عرش البلاد، قام من مكانه (منفاه الاختيارى) قائلاً: " فيم جلوسى، هنا، دون أن أكون فى معيته، تابعا مخلصا، (وما لى لا أذهب..) وقد بلغنى أنه يرعى شئون العجائز والكهول!؟

ثم إن هذين الشيخين الهرمين (بوييى وتايكون) كانا أشهر، وأعظم كبار السن فى الممالك كلها، فلما ذهبا ليتبعا جلالته، فقد سار على أثرهما كل العجائز فى كل البلاد، وهو الأمر الذى نتج عنه (بطبيعة الحال) خروج كل الأبناء – مثل آبائهم – تأييداً ونصرة لجلالة الملك (فلم يكن يسع الأبناء مخالفة آبائهم!!) ولو قدر للأمراء أن يسيروا على نهج وسياسة الملك أون، لصارت لهم، فى سبع سنوات فقط، سلطة إقرار السيادة والقانون فى ربوع الممالك كلها".

٧ - ١٤ كان" رانشيو" (تلميذ كونفوشيوس) يعمل فى منصب رفيع لدى جيكانزى (أحد كبار رجال دولة لو)، ولم يكن برغم منصبه قادرا على تغيير سلوك وتصرفات سيده، بل إنه زاد ضريبة الحبوب المقررة إلى الضعف، مما دفع كونفوشيوس إلى مصارحة تلاميذه، بقوله:" لا أعد رانشيو واحداً من تلاميذى بعد اليوم، فقوموا وأطلقوا نفير الحرب عليه."
وإذا تأملنا تلك المسألة لاحظنا أن السيد المشار إليه لم يكتف فقط بالامتناع عن اتخاذ سياسة قائمة على الإنسانية والإحسان، بل راح يدعم مسعى سيده فى الكسب والإثراء على نحو غير مشروع (وهو الأمر الذى جلب عليه سخط) المعلم الأكبر، وخصوصا ذلك الجانب الذى يبدو فيه المرء نشيطا ومتحمسا لأن يقوم بدور المهاجم والمحارب متبنيا موقف سيده؛ فتمتلئ السهول بدماء القتلى فى حروب ليس لها هدف سوى الاستيلاء على مناطق للنفوذ، وتتكدس أشلاء القتلى حول أسوار المدن فى حروب للاستيلاء على الحصون، وكأن الأمر كله بمثابة خطة تهدف إلى إرواء الأرض بمزيد من الدماء بعد إشباع نهمها من أشلاء الجثث، وعندما يصدر حكم بالإعدام على القتلة والسفاحين يصير الحكم بلا جدوى، إذ لا يعوض مقدار الخسارة الناجمة عن الجرائم المرتكبة.

وترتيبا على ذلك، فينبغى توقيع أقصى العقوبة على كل من يجيد فن القتال والحرب من الجنود، ويأتى بعدهم فى الدرجة الثانية ممن يستحقون العقاب كل من يقومون بتحريض الأمراء على التكتل فى مواجهات دامية بين دويلاتهم، وفى الدرجة الثالثة من العقوبات

القصوى يأتى كل من يرغم أفراد الشعب قسرا على استصلاح الأدغال (حتى لو كان الغرض طيبًا ..) لتحويلها إلى أراض تصلح لإنتاج المحاصيل.".

٧ – ١٥ قال منشيوس:" إذا أردت أن تختبر إنسانًا، فانظر جيداً فى عينيه، فليس هناك ما هو أفضل من العين، فى كشف بواطن الإنسان؛ فهى لا تجيد إخفاء النوايا الشريرة، إنها لا تلمع فى وضوح ونقاء إلا عين امرئ سليم الطوية صريح الرأى، ولا تنطفئ مثل عين انطوى باطنها على الدهاء والمكر والخبث، انظر مليا إلى عين المتحدث؛ فلن يخفى عليك ما استتر بين جوانحه من خير أو شر ."

٧ – ١٦ قال منشوس:" إن المهذبين لا يسبون أحدا، والمقتصدين فى معيشتهم لا يسلبون أحدا ماله؛ إن الأمير الذى يسب شعبه وينهب أمواله، (لا يفعل ذلك إلا لأنه..) يخشى، من أعماقه، ألا ينصاع له الناس بالطاعة والخضوع. (فالسؤال هو..) كيف يمكن (للأمير) أن يتحلى بالأدب والنزاهة معا؟ فذلك أمر لا يمكن تحقيقه بالكلام وحده وبتكلّف تعبيرات الوجه واصطناع المظهرالمناسب!"

٧ – ١٧ ذهب " تشون يوكون" (أحد رجال المناظرات السياسية فى دولة تشى) إلى منشيوس ، وسأله قائلاً: " أمن قواعد السلوك المهذب ألا تتلامس أيدى النساء والرجال عند تبادل الأشياء بينهما، سواء عند استلامها أو تقديمها؟"، فأجابه: " نعم، ذلك ما تنص عليه قواعد الأدب."، فعاد الرجل يسأله ثانية: "أيمكن للرجل أن يمد يده لينقذ زوجة أخيه التى انزلقت فى النهر؟".

فأجابه:" إذا سقطت زوجة الأخ فى النهر فامتنع الرجل من أن يمد يده إليها فهو ذئب جهول (ضال غشوم)؛ فلئن كان من الأدب ألا تتلامس أيدى الرجال والنساء ، حفاظا على قواعد الأدب والأخلاق، فإن مد يد العون لزوجة الأخ الغارقة أمر استثنائى (له ما يبرره) من دواع عاجلة ومؤقتة."

فسأله السائل:" فها هى ذى الممالك كلها تسقط فى الماء (غارقة فى وحل الأحداث) دون أن تتفضل (سيادتكم) فتمد لها يد العون، فما السبب فى ذلك؟"، فأجابه:" إن سقوط الدول والممالك والإمارات فى النهر يتطلب" مبادئ كبرى" تعين على الإنقاذ، أما سقوط امرأة بالقرب من الشاطئ فلا يتطلب سوى أن أمد لها كف يدى؛ فها هى ذى يدى إن كنت تظن أنها تكفى (بكل بساطة) لإنقاذ أهل الممالك جميعا؟".

٧ – ١٨ ذهب كونسونيان إلى الشيخ الحكيم منشيوس، وسأله: "لماذا يمتنع المربى الفضل عن تعليم أولاده بنفسه؟"، فأجابه: "لأن مثل هذا الموقف (الذى يتخذه المعلم العاقل بشأن تدريس العلوم لأولاده) غير ذى نفع لكلا الطرفين؛ فلابد للمعلم أن يمارس قدرا من التقويم والجدية (مع طلابه) فإذا لم يأت ذلك بنتيجة، استولى عليه الغضب، وحينئذ، فربما تصرّف على نحو يؤذى مشاعر تلاميذه، وهنالك يتناجون قائلين:"ها أنت تنهرنا وكأنك أنت نفسك لا تخطئ أبدا"، فيقع بين الأب وأولاده من الأسى ما لا مفر منه، وهو أسوأ ما يمكن أن يقع بين والد وولده.

كان المعلمون فى قديم الزمان يتبادلون الأبناء فى فصول الدراسة فلا يقوم أحد منهم بالتدريس لأولاده؛ تجنبا لما يمكن أن يقع من جفاء بسبب الحرص على النصح والتوجيه (من جانب المعلم) مما قد يصل إلى جرأة الأبناء على مقارعة حجج آبائهم، فيحدث الشقاق بين الطرفين الذى تنجم عنه أفدح النتائج".

٧ - ١٩ قال منشيوس:" ما أفضل وجه للقيام بحق إعالة الآخرين وخدمة الناس؟ ليس أفضل من أن يعول المرء والديه؛ وما عماد الأخلاق؟ تهذيب النفس هو ذاك. ولقد سمعت بمن أخذ نفسه بالحزم وتفانى فى خدمة أبويه، لكنى لم أسمع أبدا أن سفيهًا لا خلاق له، استطاع أن يرعى والديه حق الرعاية.

الكل يعرف واجب الرعاية، لكن رعاية الأبوين هى الأساس الأول. الجميع يعرفون السلوك الأخلاقى، لكن صون النفس بمبادئ الاستقامة هو القاعدة الأصلية.

لما كان" سنغ زى" (أحد تلاميذ كونفوشيوس) يقوم بإعالة والده"سنغ شى" (هو أيضا أحد تلاميذ الشيخ الأكبر) فقد كان يقدم له - أزكى الطعام - [حرفيًا: يقدم له آنية مليئة بالطعام وكئوسا مترعة بالخمر] فإذا حان وقت رفع الأطباق عن المائدة، سأل أباه عمن يستحق أن ينال ما بقى من الطعام. وعندما كان أبوه هو الذى يبتدره مستفسرا منه عما إذا كان قد بقى من الطعام شىء، فقد كان يرد عليه بالإيجاب. فلما مات الوالد سنغ شىء، راح سنغ يوان (يواصل ما تواضعت عليه التقاليد من أن يقوم الولد) برعاية أبيه (سنغ زى) فكان يمد أمامه أسمطة بأطباق

الطعام وكئوس الشراب، لكنه لم يكن يسأله عند فراغه من الأكل عمن يستحق الحصول على ما تبقى فى الأطباق، وكان إذا سأله أبوه عما إذا كان قد بقى شىء على المائدة فكان يرد بالنفى؛ لأنه ينوى - فى نفسه - أن يقدمه إليه مرة أخرى، فهذا (اللون من الرعاية) يطلق عليه"إطعام الفم ورعاية الجسم"، أما ما فعله سنغ زى (مع أبيه) فهو ما يقال له"إشباع الروح وتلبية حاجات النفس"؛ فهذه الطريقة التى تصرّف بها سنغ زى نحو والديه هى الطريقة المثلى".

٧ - ٢٠ قال منشيوس: " لا يصح أن يكون القائمون على إدارة الشئون الحكومية العليا موضع انتقاد ممن هم أدنى منزلة ولا أن تكون سياستهم (التى يحكمون بها) محل مراجعة ونقد من أولئك (المسئولين الأدنى مرتبة)، ليس سوى " ذوى الشأن" فقط هم الذين يحق لهم تقويم ما يقع فيه "صاحب السيادة" من أخطاء.

أما إن الحاكم الملتزم بالإنسانية، سيقود كل الناس تجاه التخلق بخلق إنسانى رحيم. والعدل إذا تحقق على يد الأماجد، كان خليقا بأن يدفع الناس كلها إلى التماس العدل فى سلوكهم، ثم إن الاستقامة عند أرفع الناس قدرا، تشيع جوا من الخصال القويمة عند كل الناس. ولا يحل الأمن والاستقرار إلا ببلد استقام أمر قادته. [حرفيًا: جرى تقويم أخطائهم]" .

٧ - ٢١ قال منشيوس:" قد يفوز بالثناء من لم يسع إليه وقد يجنى الحسرة (والذم) من تجاوز كل الحدود المعقولة؛ للحصول على أوسمة المديح والثناء.".

٧ – ٢٢ قال منشيوس: " ليس للمرء أن يعتب على من يفرطون فى كلامهم ."

٧ – ٢٣ قال منشيوس: " آفة الناس جميعا فى كل زمان ومكان، أنهم يريدون القيام بدور المعلم الواعظ والناصح الأمين."

٧ – ٢٤ ذهب "يوجين" بصحبة "وان زياو، إلى دولة تشي، ثم إنه التقى هناك بالشيخ الحكيم منشيوس، الذى ابتدره بسؤاله:"أفأنت أيضا قد جئت لتراني؟"، فأجابه "يوجين": "لا أدرى ما الذى يدعوك ياسيدى إلى أن توجّه لى مثل هذا القول!"، فسأله منشيوس:"كم مضى عليك من الوقت منذ أن وصلت (إلى هذه البلاد)؟"، قال:"قد وصلت منذ أمس الأول"، فقال منشيوس:"إذا كنت قد حضرت منذ أمس الأول، أفلا يبدو قولى لك (الذى تستغربه منى) مناسبا وصحيحا تماما؟".

وعندئذ قال له يوجين:" لم أكن منذ وصولى، قد استأجرت المسكن الذى أقيم به"، فقال له الشيخ:" شىء لم نسمع به من قبل فى عمرنا كله؛ فمن ذا الذى أخبرك بأنه ينبغى (للطالب المخلص) أن يجد المسكن المناسب، أولا، قبل أن يلتقى بالشيخ (المعلم) الأكبر سنا؟".فلم يملك يوجين إلا أن قال:"أعترف بأنى مخطئ ياسيدى".

٧ – ٢٥ تحدث منشيوس مع يوجين فقال له – فى معرض كلامه معه – :

"ما أراك جئت مع "وان زياو"؛ إلا لتملأ فمك بالطعام وبطنك بالشراب، وما كنت أظنك، وأنت (المثقف) الدارس المطّلع على كتب (وأفكار الأقدمين أن تقودك) نهمة المأكل والمشرب ."

٧ – ٢٦ قال منشيوس:" عقوق الأبناء لآبائهم ثلاثة، [.. لم يذكرها المتن تفصيلا]، أسوأها جميعا عدم إنجاب ذرية (تحمل لقب العائلة، وبالتالى؛

تحفظ بقاءها حتى لقد قيل..) إن الإمبراطور الحكيم شون تزوج بغير علم أهله، خشية ألا يرزق بأنجال وأحفاد (فيكون قد أساء إلى أجداده، مرتكبا أعظم الآثام، ويرى العقلاء الأماجد (أنه لم يرتكب خطأ بعدم إبلاغ أبويه وإحاطتهم علما بظروف زواجه، أى..) أنه فى هذه الحالة بالذات، كأن قد أبلغهما، ولا يؤاخذ بشىء!"

٧ - ٢٧ قال منشيوس:" إن الجوهر الحقيقى للإحسان هو طاعة الوالدين؛ والمحتوى الفعلى للعدل هو طاعة الأخ الأكبر؛ والمعنى الجوهرى للحكمة هو الوعى بهاتين المسألتين والسير على هديهما بغير ميل؛ والمغزى الأصلى لآداب المعاملات هو الحرص والدأب على العمل بهما؛ والمفهوم الجذرى للموسيقى (قانون الجمال.. والأخلاق أيضا!) يقوم على استلهام هاتين النقطتين بمنتهى الحب؛ مما يعمل على تحفيز الطاقة الإبداعية فتؤتى ثمارها، فإذا آتى الإبداع ثماره صار من المستحيل الوقوف فى وجه تياره المتدفق، وإذا استحال صد تيار الإبداع، دقت الأقدام طربا ومالت الأيدى (بغير إرادة واعية) واهتز الجسم إيقاعا ورقصا."

٧ - ٢٨ قال منشيوس :" أن ينصاع الناس جميعا (أهل الممالك) خضوعا لسلطان رجل حكيم، ثم لا يساوى مثل هذا الخضوع مجرد حشيشة ذابلة فوق الأرض، فهذا ما لا يتكرر كثيراً على مر التاريخ؛ إذ كان ذلك هو الحال ما بين أهل الممالك والإمبراطور الحكيم " شون".

إن من لم يفز برضا الأبوين، فقد خسر إنسانيته، ومن عصاهما فقد تناءت عنه صفة البر.

لقد ظل القديس الحكيم شون يرعى والديه فى تفان حتى نال رضا أبيه "كاوصو"، وكان لهذا الرضا الأبوى صدى فى كل الممالك؛ حيث جعلته التقاليد والأعراف الاجتماعية مضرب الأمثال؛ فذلك هو ما يطلق عليه "كاشياو" [أى: البرّ العظيم بالوالدين]".

(الجزء الثانى)

(وجملته ثلاثة وثلاثون فصلا)

٨ - ١ قال منشيوس: "ولد القديس الحكيم شون فى بلدة "جوفنغ"، ثم انتقل إلى "فوشيا"، وكان موته بأرض "مين تياو"؛ فهو - بحسب موقع الميلاد والممات - ينتسب إلى المناطق الشرقية (.. المتاخمة للقبائل الهمجية).

وولد الملك "أون" فى بلدة شيجو، ومات فى مدينة "بينغ"، فهو ابن المناطق الغربية (.. القريبة من القبائل البربرية) وبرغم ما بين مواطن كليهما من طول المسافة، وما بين زمن ميلادهما من فارق السنين والأيام (إذ الفرق يبلغ ألف سنة كاملة) إلا أن ما حققاه فى الممالك من إنجاز باهر بعزم أصيل، يقرب بينهما بالدرجة التى تنمحى بها فروق الزمان والمكان، بل ويتطابقان كوجهى خاتم واحد، فالسابق منهما واللاحق، قد سار على نفس الطريق."

٨ - ٢ لما كان شانزى (أحد كبار رجال دولة جنغ) يتولى منصبا حكوميا رفيعا فى بلاده، فقد كان يعير الناس - تطوعًا - عربته الخاصة لتساعدهم فى عبور نهرى "تشن"، و"وى" (فلما بلغ ذلك الحادث منشيوس، علّق قائلاً:) "هو كرم بالغ ومبادرة شخصية نبيلة لمسئول حكومى بارز. إلا أن مثل هذا التصرف، إن كان يدل على شىء، فهو يدل على عدم تمرس و قلة مهارة

فى الشئون السياسية؛ ذلك أن مسئولا حكوميا كبيراً مثله ، لو استطاع أن ينشئ جسرا على النهر للمشاة فى شهر نوفمبر (مثلا) ثم قام فى الشهر التالى بإقامة جسر آخر لمرور العربات، لأعفى الناس من مشقة عبور النهر على نحو جذرى.

إن العاقل هو الذى يملك ناصية الإدارة السياسية الفعالة؛ (فيعرف بذلك وسط الناس)، حتى إذا خرج بموكبه سائرا فى الطرقات، قرعت لأجله الأجراس وأفسحت لعربته الدروب، (فالطبيعى، هو أن تسير بين الناس عربته الفخمة، اللائقة بمسئول محنك..)، وليس طبيعيا أبدا أن يتولى بنفسه عملية عبور الناس إلى الشاطئ الآخر؛ لأن المسئول الحكومى الكبير الذى يقدم على مثل ذلك التصرف (تقرباً وخدمة للناس) لن يجد أبدا الوقت الكافى للعمل طوال مدة منصبه".

٨ – ٣ قال منشيوس للملك شيوان، وهو ينصح له:" إذا صار ما بين الملك وبين وزرائه مثلما بين الإخوة والأشقاء، لأصبحوا طوع يديه ولانطبعت المودة والإخلاص له فى أعماق قلوبهم؛ أما إذا عدهم زمرة من الأغبياء الجهلة [حرفياً: كالحمير والكلاب!] فسوف تسقط مكانته فى نظرهم، ويعدونه كواحد من العامة (الدهماء)، وإذا نظر الملك إلى وزرائه بوصفهم حشائش ذابلة على قارعة الطريق (مجرد نباتات أرضية بغير قيمة)، أضمروا له العداوة والكراهية."

وقال له الملك: "يقضى نظام الآداب و(الطقوس الرسمية) فى حال وفاة أحد الأمراء، بأن يلتزم، حتى الوزراء السابقون، بارتداء ملابس الحداد، فما هى الوسيلة لإقناع الوزراء بالتصرف على هذا النحو؟".

فأجابه منشيوس:" إذا ما لاقت نصائح الأمير قبولا لدى وزرائه، وقوبلت اقتراحاته بآذان مصغية، بحيث أفضت الأمور - في نهايتها - إلى ما يعود بالخير والنفع على أفراد الوطن كله، كان الأمير ملزما، حينئذ، بأن (يتصرف بقدر كبير من المسئولية مع الوزراء، فمثلا..) يرسل مبعوثا خاصا من طرفه لمرافقة الوزير الراغب في مغادرة البلاد لأمر ما (أيًا كان هذا الأمر) فيرتب له الخروج من البلاد دون أية تعقيدات، ويبادر أيضا إلى إرسال مبعوث إلى الجهة التي يقصد الوزير الذهاب إليها لعمل الترتيبات اللازمة، ولا يتم البدء في إجراءات من شأنها انتزاع حق الوزير الغائب عن البلاد في الملكية العقارية، إلا بعد مرور ثلاث سنوات كاملة منذ تغيبه خارج الوطن.

وهو النظام المسمى بـ (الطقوس الأخلاقية الثلاثة) وبتلك الطريقة سيلتزم الوزير بالتصرف (حيال الأمير المتوفّى) طبقا لنظام ارتداء شارة الحداد. لكن النصائح لا تجد مصغيًا، وليس للاقتراحات أدنى اعتبار، ولا يصل الإحسان إلى مستحقيه من الناس، وإذا اضطر الوزراء إلى مغادرة البلاد لأمر ما، جرى القبض عليهم وعوقبوا وأهدرت كرامتهم، أو (إذا نجحوا في الإفلات من تلك القبضة بالسفر خارج الوطن) جرى تعقّبهم والنيل منهم وخلق العقبات لهم في كل المكان، بل تم حصار ومصادرة ممتلكاتهم، قبل أن ينقضي اليوم الذي غادروا فيه البلاد؛ فهذا كله مما يقال له (الإفراط في العداوة والكراهية) أي أن المرء يُعامل وكأنه عدو غادر ولص أثيم، فما الذي يدعو أيًّا من الوزراء إلى ارتداء شارة حداد إذن؟".

٨ – ٤ قال منشيوس: " إذا وقع السيف على رقاب المفكرين (الدارسين المتنوّرين) بغير ذنب، هرب رجال الحكم الكبار خارج حدود الممالك، وإذا ذبحت رقاب الأبرياء من الناس، تفرق المتعلمون المستنيرون فى البلاد بددا، وارتحلوا إلى أوطان بعيدة.".

٨ – ٥ قال منشيوس:" مادام الأمير رحيما، فلن يسلك الناس بغير الرحمة، فإذا كان عادلا، فأينما سار الناس فثم طريق العدل."

٨ – ٦ قال منشيوس:"إن صاحب الخلق الكريم، لن يرضى لنفسه أن يأتى أمراً ظاهره استقامة وعدل، وباطنه خواء وزيف."

٨ – ٧ قال منشيوس: " على كل ذى خلق كريم أن يكون نموذجًا يقتدى به الأدنى خلقًا، وليسارع كل ذى اقتدار أو موهبة من علم أو حرفة إلى تعليم الآخرين شيئا مما أجاده وأتقنه؛ فالناس لا يسعدون بشىء قدر سعادتهم بأن يجدوا بين رجالهم النخبة ذات العلم والجدارة؛ أما إذا استنكر ذوو الخلق القويم أن يأخذوا بيد إخوانهم الأدنى حظًا صوب الرشاد، ونأى أصحاب المهارات والمواهب بأنفسهم عن تلقين الناس أسرار العمل والإجادة، صارت المسافة بين الحكماء والسفهاء ضيقة جداً، تكاد تقل عن مقدار البوصة الواحدة".

٨ – ٨ قال منشيوس: " لا يتصوّر المرء ما يتوجّب عليه أن يعمله، إلا إذا أدرك، أولاً، ما لا ينبغى عمله".

٨ – ٩ قال منشيوس : " ياله من مستقبل ملىء بالمتاعب ينتظر أولئك المولعين بفضح أخطاء الناس دون حياء".

٨ – ١٠ قال منشيوس: "لم يكن جونى [أحد ألقاب كونفوشيوسج] يتجاوز الحد الأوسط في كل أفعاله".

٨ – ١١ قال منشيوس: "قد لا يكون الرجل المهذّب أخا ثقة فى كلامه، وربما لا يكون أيضًا أخا عزم فى أفعاله؛ لكنه، في كل الأحوال ينطلق في كل ما يعمله من قاعدة تقوم على الحق والعدل.".

٨ – ١٢ قال منشيوس: " إن الرجل العظيم هو ذلك الذى لم يفقد، بعدُ، نقاء الطفولة وبراءة القلب الوليد".

٨ – ١٣ قال منشيوس: " إن القيام على خدمة الوالدين فى حياتهما، ليس بالشيء الكثير؛ ذلك أن أهم وأعظم خدمة (يقوم بها الابن البار) هى إقامة طقوس الدفن والودا ع الأخير لهما."

٨ – ١٤ قال منشيوس: " إن العاقل من يسلك طريقًا (فى كل ما يعمل) يبتغى به التعمّق والإجادة وصولاً إلى الدرجة التامة من التحصيل (..التى يصبح فيها الموضوع المستهدف، أو مادة العمل..) تحت سيطرته بإرادة كاملة، ثم إن تحصيل الأشياء بإرادة تامة يعنى القبض على زمام مادتها بيد صلبة، ولا شك أن التحكّم الراسخ فى مادتها يؤدى إلى التراكم الوئيد الذى يستقطر عنصر الإجادة، فإذا ما أمكن لمثل ذلك التراكم أن يستصفى معدن الإجادة، بلغ المرء درجة الإتقان ورسوخ القدم، وسلاسة الاستخدام ودام له النجاح والتوفيق؛ لذلك ينبغى للعاقل أن يطلب طريقًا للعلم والتحصيل.".

٨ – ١٥ قال منشيوس: " إن التوسع فى التحصيل العلمى بالإضافة إلى القدرة على الملاحظة التفصيلية، يمكن (المرء) من الوصول إلى مرحلة استخلاص المبادئ الأساسية (الخلاصة) فى المعرفة".

٨ – ١٦ قال منشيوس : " لا المهارة ولا التفوق وحدهما استطاعا أن يقنعا الناس بأى شيء، بل التمكن من استخدام وسائل الإرشاد والتوجيه، كان هو الذى أخضع الممالك بقوة الإقناع. ثم إنه لم يحدث أبداً فى تاريخ الإنسانية أن تحققت وحدة الممالك تحت راية واحدة بغير الاقتناع التام (.. من جانب أهل الممالك أنفسهم).".

٨ – ١٧ قال منشيوس: "من سوء الحظ (سوء الطالع) أن يقول المرء كلاماً بغير معنى حقيقى، وقد كان الكثير من الكلمات الغامضة، هى التى حجبت عدداً هائلاً من الحكماء الطيبين عن الظهور."

٨ – ١٨ جاء شيوزى إلى منشيوس وسأله: " كان كونفوشيوس يمتدح الماء كثيراً، حتى أنه كان يتغنّى به من حين إلى آخر، ترى ما الذى رآه جديراً بالاهتمام فى تلك المسألة (المائية)؟"، فأجابه: "لطالما انبجست المياه من عيون الآبار، ولم تتوقف عن الجريان ليل نهار، تتدفق من بين الشقوق المنخفضة فتملأ القيعان، وتطفو فتسيل فتجرى فى الجداول صوب الأنهار، لطالما كان ذلك حالها على مرّ الزمان (.. قانونها الأبدى الذى لم تغيره واتجاهها المعهود من قديم!)؛ فذلك هو ما لفت انتباه كونفوشيوس من سماتها فقال ماقال، صحيح أنه بغير آبار، كانت مياه الأمطار تسقط فى الشهر السابع والثامن بغير انقطاع فتمتلئ منها المصارف والوديان، إلا أنها سرعان ما تجف وتغيض (وتصبح أشبه شيء بالشهرة التى

تنزل على المرء سريعًا وتزول بنفس السرعة)، فالشهرة الطيبة إذا ما تجاوزت إمكانات الواقع تعود وبالاً على صاحبها مهما ذاع صيته (.. فذلك ما دعا كونفوشيوس إلى التغنّي بمياه الآبار!)".

٨ – ١٩ قال منشيوس: "برغم أن الفرق بين الإنسي والوحشيّ (من الطيور والنبات) ضئيل جدا، فإن الأشخاص العاديين يخصمون هذا الفرق الضئيل (فتبدو تصرفاتهم وسلوك الوحشى سواء بسواء) إلا السادة الأماجد، فهم وحدهم الذين يحافظون على بقاء تلك المسافة لتحفظ عليهم إنسانيتهم. وقد أدرك الحكيم القديس شون طبائع الأشياء كلها، ولاحظ نمط سيرورتها وتفحّص أحوال البشر، فاختار لنفسه طريقًا (فى الحياة) يقوم على مبادئ الاستقامة والإنسانية، لكنه أبدا لم يكن يسعى لتطبيق الإنسانية والاستقامة؛ (سعيًا وراء الشهرة الكاذبة "إذ إن استلهام المبادئ يختلف عن الادعاء السطحي بامتلاك مادة حقائقها كاملة").

٨ – ٢٠ قال منشيوس: " كان الملك "يو"، يكره الخمر ويحب الكلام ذا المعانى الجميلة، أما الملك "طانغ" فقد كان يلزم نفسه باتباع مذهب الوسطية، ويختار للمناصب العليا أكفأ الناس وأنسبهم دون ميل أو محاباة. وراح الملك أون يعامل مواطنى بلده (بكل عطف وتفان)، كأنهم خرجوا توًا من كارثة، (هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد ..) كان يبحث عن الطريق الصحيح كأنه يبحث عن كنز دفين (أرهق نفسه بالبحث عن الصواب ولم يعثر عليه!).

ومن جهة الملك "أو"، فلم يحدث أبدا أن استهان بمكانة وزرائه القريبين، ولا أهمل وزراءه البعيدين.

وفيما يتعلّق بأمر عظيم أسرة جو (الملك جوكون) فقد أراد أن يجمع في شخصه مزايا الملوك القديسين المؤسسين للأسر الملكية الثلاث القديمة: (شيا - شانغ - جو) بالإضافة إلى، إنجازات الملوك الأربعة: (يو - طانغ - أو - أون) فكان إذا التبست عليه مسألة، تعجزه عن اقتفاء آثارهم، راح يتأمل دقائقها بعمق، يواصل الليل بالنهار، بحثًا وتفكيرًا، حتى إذا اهتدى إلى ضالته فيها نهض صباح يومه عازما على الشروع في اتخاذ الوسائل التنفيذية.".

٨ - ٢١ قال منشيوس : " قد اندثرت التقاليد الملكية القديمة التي كانت تحرص على اقتفاء الآثار الشعرية وتدوينها، ومن ثم فلم يعد هناك (تدوين مقدّس، مثل..) كتاب الشعر القديم (وبانتهاء ذلك اللون من المدونات التراثية) ظهر كتاب " تشو نشيو" (حوليات الربيع والخريف) وكتاب "شانغ" (العربة الحربية) وهو سجل تاريخي لـ دولة تشو، وكتاب" تشونشيو" (أيضًا، بعنوان "حوليات الربيع والخريف"، لكنه يحوي، هذه المرة، السجلات التاريخية الخاصة بـ..) دولة لو؛ وهي كلها كتب ذات طبيعة (تاريخية) واحدة، ولا يخرج محتواها عن أن يكون تدوينًا (تراجم شخصية) للملوك: هوانكون؛ ملك تشي، أون؛ حاكم جين، وأسلوب السرد فيها يتسم بطابع التدوين التاريخي.

وقد قال كونفوشيوس، (بخصوص تلك المدونات الكبرى): " كنت أنا - كونفوشيوس - الذيّ قمت، بقلمي هذا، بصياغة المبادئ (الخطوط) الكبرى لمحتويات تلك المدونات كلها".

٨ – ٢٢ قال منشيوس: " لم تكد التقاليد العظيمة التى ميزت سيرة شخصيات تاريخية مجيدة تستمر خمسة أجيال، حتى تلاشت تماما. بل إن آثار التقاليد التى وضعها السفهاء من الرجال انقضت، هى أيضا، بعد خمسة أجيال، ورغم أنى لم أدرس على يد كونفوشيوس نفسه (ولا التقيت به وجها لوجه) إلا أنى تلقيت عنه العلم عبر اطلاعى الفردى على ما سجله الآخرون".

٨ – ٢٣ قال منشيوس: " إذا تساوت الكفة بين الحصول على الشىء وتركه، كان الحصول عليه ماساً بمعنى النزاهة والشرف، وإذا تساوت الكفة بين المنح والمنع، كان المنح انتقاصا لفضيلة الإحسان؛ وإذا تعادلت كفتا الموت والحياة، صار الموت إهدارًا للشجاعة.".

٨ – ٢٤ (قيل قديما) إن " بنغ مان" كان قد تعلم الرماية على يد "إى"، فلما مهر فيها للغاية وأتقن كل فنونها راح يجوب البلاد والممالك (لينازل من هو أشد منه دراية)، فلم يجد سوى أستاذه الذى علّمه إياها فقتله، فقال منشيوس فى ذلك: "إن هذه لجريمة كبرى، لكن "إى" له نصيب أيضًا فيما حاق به، (..فهو المخطئ الأول)، وتكلم كون مينغى (مجادلاً:) ، قال: "لا يبدو من الوقائع أنه مخطئ فى شىء أبدا."، فرد منشيوس، قائلاً: "هو مخطئ ولو بالقدر اليسير، لكنا لا نعفيه، برغم ذلك ، من المساهمة بذلك القدر الزهيد فيما حاق به، وقد حدث أن قامت دولة "جنغ" بتكليف رجل اسمه "زيجورو" بمهمة مهاجمة دولة "وى". ثم ما لبثت، هذه الأخيرة (بعدما علمت بالأمر) أن أرسلت فى أثره "إيكون" ليتعقبه ويقتله، وكان أن قال زيجورو لنفسه .."إن المرض قد اشتدّ بى وما عدت أستطيع

رفع القوس فى وجه خصمى، فأنا هالك لا محالة!" ثم سأل قائد مركبته عمن يجرى وراءه على الطريق، فأجابه بأنه المدعو"إيكونغ تشيس"، وهنالك تهلل زيجورو فرحًا وهو يقول: " إذن، فقد بقى لى فى العمر بقية!"، فقال له الحوذى: " أما علمت أن إيكونغ تشيس، هذا، أمهر رام بقوس وسهم فى طول دولة وى وعرضها، (فكيف ترى لنفسك النجاة برغم ذلك!) فلا أدرى لم تهللت هكذا؟"، فأجابه زيجورو: " لأنى علمت أن إيكونغ تشيس قد تعلم الرماية على يد "إيكون تشيطا"، الذى كان أحد تلاميذى ، وهو أكثر الرجال نزاهة واستقامة، ولابد أن أصحابه على شاكلته."، وفى هذه الأثناء كان إيكونغ تشيس قد وقف قبالة المركبة ونادى عليه وابتدره بسؤاله: "لماذا لا ترفع قوسك على؟"، فأجابه: " قد اشتد بى المرض طوال يومى هذا؛ فلا أستطيع التحكم فى القوس."، فقال له إيكونغ تشيس: " كنت قد تعلمت فن الرماية على يد تشيطا، وهو تلميذك الذى عرف أسرار القوس والسهم على طريقتك، ولا أدرى كيف يطاوعنى قلبى على أن أؤذيك بما تعلمته فى مدرستك؛ غير أنى موكل بمهمة رسمية من قبل جلالة الملك، وأنت تعرف أن الأوامر الملكية ملزمة، ولا يمكن الامتناع عن تنفيذها بأى حال"، ثم إنه أخرج السهام من جعبته وهوى بها على عجلة المركبة (الحديدية) فكسر رؤوسها وأخذ أربعة منها فأطلقها فى الهواء، عشوائيًا، واستدار وعاد أدراجه.".

٨ – ٢٥ قال منشيوس: " كانت السيدة الجميلة "شيس" (امرأة فاتنة عاشت إبان عهد الربيع والخريف، يضرب بها المثل فى الملاحة والجمال) قد خرجت تمشى بين الناس، ذات يوم ، وقد علقت بقميصها بعض القاذورات

النتنة، فلما فاحت الرائحة الكريهة صار الناس يمسكون أنوفهم ويتحاشونها ويجرون مبتعدين عنها. (والعبرة البادية فى هذا تتمثل فى..) أن أى إنسان حتى لو كان دميم الوجه - يستطيع إذا ما طهّر جسده وثيابه - أن يقف بين يدى (أباطرة) السماء (.. ويقدم قربانه) .".

٨ - ٢٦ قال منشيوس: " الناس فى كل مكان تحت السماء مشغولون، جميعا ، بالبحث والجدل حول طبيعة الإنسان، ولو كانوا قد أنفقوا جهدهم فى تقصى أحواله (.. ظواهر أحواله) لكان ذلك أفضل كثيرا، وتلك الأحوال (الظواهر) الإنسانية هى المبدأ الأصلى الذى يقوم عليه استقصاء "حالته الطبيعية".

ولئن كان الناس يمقتون التحايل (والتقعر الفلسفى..) فلأنه، دائما أبدا، أسلوب التحذلق وتكلّف الحجج والتخريجات الواهية، ولو كان أولئك الأذكياء (المتحذلقون) قد حذوا مثال الملك يو [إبان أسرة "شيا" الملكية] فى بطولته الأسطورية وهو يصد الفيضانات ويروض الأنهار، لما كانت العبقرية والذكاء محل كراهية واستهزاء (كما هو حاصل الآن!).

ماذا لو جرى استقصاء الأحوال الطبيعية للسماء، تلك العالية المترامية فى الأجواء، أو النجوم السابحة فى الفضاء البعيد؛ (ذلك أنه لو جرى شىء من ذلك)، لتمكن الإنسان من حساب الفصول والظواهر المناخية (المحتملة) لمدة ألف عام ، وهو جالس، لا يغادر مكانه قيد أنملة.".

٨ - ٢٧ لما توفى ولد الوزير الأعظم كوهان (بدولة تشى) فقد ذهب "يوشى" ليقدم واجب العزاء لأهله، وما كاد يدلف من باب الدخول، حتى اقترب منه أحد الأشخاص وراح يتكلم معه، وبعد هنيهة اقترب من مجلسه شخص آخر

وراح يحادثه، ثم راح يتكلم فى الحاضرين، قائلا:" إن كنت أعجب لشىء، فهو أن كثيراً من رجال الحكم الكبار قد اقتربوا منى الليلة، وتحدثوا معى فى أمور شتى، إلا منشيوس، فهو الوحيد الذى لم يعرنى أدنى اهتمام، وهو ما أراه تقصيرا شديدا فى حقى، واستهانة بشخصى."، وهنالك أجابه منشيوس، بقوله: " طبقًا لما تقضى به أصول المعاملات وطقوس المجاملات، فلا يصح ، فى مثل هذا المجلس، أن يتجاوز أحد مكانه المخصص له، ولا أن يتجاذب أطراف الحديث الجانبى مع الجالسين، بل ليس من المسموح، حتى ،أن يقوم الشخص من مكانه لتقديم التحية لأى فرد أيًا كان ، وكنت - طوال الوقت - حريصا على الالتزام بتلك الأصول والمبادئ، ومع ذلك فها هو السيد المهذب " تسياو" يقرر بأنى تصرفت على نحو مهين وغريب؟!".

٨ - ٢٨ قال منشيوس: "الفرق بين (الرجل) الماجد الجليل، و بين الوديع الحقير، يتضح فيما استقرّ عليه باطن كل منهما؛ ذلك أن الماجد يطوى سريرته على الإنسانية والاستقامة (الأخلاقية)؛ فالإنسان (فى أعماقه) يحب الناس ويتودد إليهم، والمهذب المستقيم (داخله) يحترم دائما الآخرين. ومن يحب الناس، فالناس بالطبع يحبونه، ومن يبجّلهم فإنهم يعاملونه بالمثل".

وإذا افترضنا، مثلاً، أن بيننا الآن رجلاً عاملنى بغلظة، وجفاء (وكان علىّ أن أتصرف، فى هذا الموقف، كما ينبغى أن يتصرف الرجل المهذب..) فسوف أراجع نفسى وأحاسب ضميرى متسائلا فى أعماقى: أكنت غليظًا معه أنا الآخر.. أأكون قد خرجت عن حدود الأدب واللياقة؟! لابد

أنى كنت كذلك بالفعل، وإلا فكيف حدث ما حدث؟ وهكذا، فالسيد المهذب يظل يراجع نفسه وسلوكه حتى يستعيد، فى ضميره، مبادئ الإنسانية ويستحضر، فى وجدانه، أصول المعاملات الأخلاقية، وبرغم كل هذا يظل الرجل الآخر على حاله الأول.. غليظًا لا يريم. ثم يعود المهذب الفاضل يستقصى كوامن نفسه متسائلا حائرا.." لابد أنى لم أكن مخلصًا صادقًا مع نفسى ومع الآخرين، على حد سواء.".. ثم إنه يجاهد كى يتحقق سلوكه بالإخلاص، فإذا الرجل الآخر باقٍ على جفائه وغبرة سحنته، فلا يجد المهذب سوى أن يقرر بجلاء.. "إن هذا لرجل معتوه، لا فرق بينه وبين الوحوش والبهائم، فمتى كان للإنسان أن يضع الأمور فى نصابها مع الوحش والدواب غير العاقلة؟".. ومن ثم، يسيطر القلق طويلا على وجدان الرجل الفاضل، ولا يقتصر على لحظات قصيرة محددة، ومثلا، فمن أمثلة الأمور التى يفكر فيها الإنسان وتثير القلق الدائم، أن يقول المرء لنفسه.." قد كان الملك الحكيم شون إنسانا مثلى، لا فرق بينى وبينه فى هذه الناحية، إلا أنه استطاع أن يصير نموذجا ملهما للبشرية، وأسطورة تتناقلها الأجيال، بينما لا أزيد أنا على كونى رجلاً بسيطًا.".. ومثل هذه الفكرة تحرك كوامن القلق بالتأكيد.

فماذا نصنع مع هذا القلق إذن؟ فقط نحاول أن نتعلم درس وتجربة الحكيم المقدس شون، وهنالك، يتبدد قلق السادة المهذبين، فلا يقدمنّ المرء على عمل مخالف للإنسانية، ولا يقربن سلوكا مغايراً لقواعد المعاملات، وبعد ذلك فمهما تراكمت المصائب فوق الرؤوس، فلن يتولد أى إحساس بالقلق.".

٨ - ٢٩ عاش (الحكيمان القديسان) "يوى"، و"جى" في زمن استقرار سياسى، وقد بلغا من الجدية فى محاولة بسط رايات الاستقرار فوق الممالك؛ أنهما لم يعرجا على منزليهما ثلاث مرات متوالية (حينما كانا مشغولين بمصالح الناس) فامتدحهما كونفوشيوس، وأثنى على فضائلهما الجمّة.

وعاش (قديس حكيم آخر يدعى:) "يانزى" فى زمان متقلّب وأحوال مضطربة، وكان يقيم فى زقاق ضيق وليس فى بيته سوى كوب من الأرز ومغرفة خشبية، وقد لهجت الألسنة بالشكوى وضجّ الناس من قسوة الظروف وشدة الأحوال، وبقى وحده، مستبشراً عاقد الأمل، وكم أثنى عليه المعلم الأكبر "كونفوشيوس"، فلما تكلّم منشيوس (عن أولئك القديسين المذكورين، قال) : " كان ثلاثتهم (يوى - جى - يانزى) على خصلة وفضيلة واحدة؛ إذ كان يوى، فى مواسم الفيضانات الطائشة، يحزن للمنكوبين ويبتئس لأجلهم، حتى بدا كأنه أوقع بهم فى الكارثة بيديه، فراح يعذّب نفسه، بضمير مثقل؛ وكان (القديس) جى يرى ويعيش بؤس المجاعة الضاربة فى الأنحاء بأطنابها، (ويستميت فى البحث عن خلاص) كأنه ألقم مرّ الجوع فى الأفواه. وكأن المأساة التى امتدت إلى كل بيت مأساته.

لو افترضنا أن ثلاثتهم تبادلوا المواقع، فما كان ذلك ليغير من موقفهم وسلوكهم شيئا. ثم إذا افترضنا أن شجاراً نشب بين جيران يقطنون منزلا واحدا، وتطلب الأمر سرعة التدخل لفض النزاع، فما كان لهؤلاء الرجال (مشيراً إلى يوى وجى، تحديداً) أن يتأخروا عن ذلك الواجب، حتى لوخرجوا من بيوتهم بشعور مشعثة، وقبعات متهدّلة.

أما إذا كان الشجار مع جيران فى نفس الحى، وخرج المهذب الفاضل (يقصد يانزى) ليفض المشاجرة بشعر أشعث وهيئة مضطربة، فهو الأمر الذى ما كان ليرضاه لنفسه أبدا العاقل المهذب، رغم أنه لو أغلق بابه وبقى مكانه لما عاب عليه الناس فعله.".

٨ - ٣٠ قال كوندوتسى: (لـ منشيوس، وهو يحادثه) "يقول الناس فى كل أنحاء البلاد، بطولها وعرضها، إن "كوان تشان" رجل عاق لوالديه، ومع ذلك،فلم ينقطع ما بينك وبينه من ود، بل ظللت تجلّه وتحترمه كثيرا، فما السبب فى ذلك الأمر المثير للدهشة والاستغراب؟"، فأجابه منشيوس قائلاً: "هناك خمسة مظاهر مختلفة للعقوق، أولها التقاعس عن رعاية الوالدين ، خمودًا وتكاسلا؛ وثانيها: التغاضى عن رعاية الوالدين، بسبب معاقرة الخمر والانغماس فى اللهو البغيض [اللعب بالنرد والشطرنج، حرفيا]؛ ثالثها: التغافل عن خدمة الأبوين؛ بسبب الميل والانجذاب نحو الزوجة والأبناء، ورابعها: جلب المهانة والتجريح للوالدين بسبب ضلالات الوشاية والنميمة ، وخامسها: التنغيص على الأهل وتكدير صفو حياتهم بكثرة المشاحنات واستعراض الشجاعة فى المشاجرات (والسؤال الذى يبرز الآن هو..) أى لون من العقوق ذلك الذى يصم تصرفات "كوان تشان"؟ إن أسوأ ما وقعت فيه العلاقة بين كوان تشان وأبيه، هو الجفاء المتبادل بينهما؛ إذ كان كل منهما يشجب تصرفات الآخر، لحمله على الالتزام بالفضائل إن الحضّ على الفضائل واستنكار الرذائل أمر معهود بين الإخوة والأصدقاء، وليس بين الولد وأبيه؛ إذ من شأن ذلك أن توغّر الصدور وتقع الحسرة فى القلوب، ألم يكن كوان تشان يرغب فى

أن يجد الهناءة فى بيته، بين امرأته وأولاده (مثل كل الناس؟ .. بلى قد كان..) إلا أن إحساسه بأنه أخطأ فى حق أبيه، دفعه إلى الابتعاد عن زوجته ومجافاة أطفاله، وظل حتى آخر يوم فى حياته يأبى أن يرعاه أو يتكفل به أحد من أولاده؛ فقد حسب أنه لو لم يتصرف على هذا النحو، لبدت خطيئته فى حق والديه أكبر من أن تغتفر. ذلك هو الوجه الحقيقى (لحكاية) كوان تشان بغير زيادة أو نقصان.".

٨ - ٣١ كان (الفيلسوف) سنغ زى مقيما بمدينة "أوتسن" عندما راحت قوات دولة يوى تتقدم لمهاجمة تلك المدينة الصغيرة. فنادى عليه بعض الناس قائلين: " فيم قعودك هاهنا. اهرب بجلدك معنا من الغزاة القادمين."، فقام معهم وهو يقول لخادميه (أثناء رحيله) احرسوا مسكني أثناء غيابى فلا تدعوا أحدا يدخله لئلا يحطم الشجيرات والنباتات"، فلما انسحبت القوات المعتدية، وصار من حق المهاجرين العودة، أرسل إلى الخدم بالمنزل يقول لهم.."أنا عائد إليكم على جناح الطائر، فأصلحوا المنزل وجهزوا الإقامة.".. فلما تأكد للناس أن سنغ زى قد عاد بعد انسحاب القوات المعتدية، ذهب إليه أصدقاؤه قائلين له: "إن الناس - كما علمت - يحترمونك، ويكبرونك ويعرفون لك قدرك ومكانتك ، لكنك لم تقم وزنًا ولم تعبأ بتلك المكانة عندما هربت فور قدوم الغزاة؛ وهو أمر يشوه سمعتك ويشينك، وقد كنت من قبل نموذجًا طيبًا يحتذى به، فكيف بك الآن ؛ وقد رآك الناس وأنت تعود أدراجك فور علمك بانسحاب المعتدين، وهو تصرف أحمق لا يليق بك!"، وهنا تكلم شن يوهانغ (تلميذ سنغ زى) قائلاً: " تلك أمور دقيقة تعزب على الفهم، ولا أراكم قادرين

على استجلاء مغزاها، وقد سبق لى - شخصياً - أن تعرضت أنا وأهلى لمحنة قاصمة على يد"فوتشو" (ذلك العربيد الذى راح يطارد جامعى الحشائش البسطاء وأعلنها عليهم حربا! وكان مع أستاذنا أكثر من سبعين تابعا، فروا بجلدهم جميعا، ولم يصمد واحد منهم.".

وعندما كان زيس (حفيد كونفوشيوس) مقيما بدولة وى، فقد تصادف أن قامت قوات دولة تشى بشن الغارات والزحف عليها، وذهب إليه من قال له: "فيم جلوسك والعدو آتٍ لا محالة، قم وانج بنفسك!".

فقال له: " فمن إذن يشد أزر جلالة الملك ويقف معه مدافعا عن البلاد وأنا كما عرف الناس (حفيد الشيخ الأكبر والمعلم الأول)؟"

قال منشيوس: "إن كلا من" سنغ زى" ، و"زيس" يمشيان على نهج واحد؛ لكن سنغ زى هو الشيخ المعلم؛ وزيس، هو التابع المريد، وإذا (تخيلنا أنهما) تبادلا المواقع فستبقى كلمات كل منهما وأفعاله دون تبديل.".

٨ - ٣٢ قال "تشوتسى" (موظف رسمى لدى سلطات) دولة تشى (مخاطبًا منشيوس): " قد أرسل جلالة الملك عيونا تتجسس عليك، ياسيدى، لترى ما إذا كنت مثل باقى الناس العاديين .. أأنت حقا لا تختلف عن بقية الناس، أيها الشيخ الحكيم؟"، فأجابه منشيوس: "وما الذى يجعلنى مختلفا عنهم؟ لقد كان (الأباطرة العظماء) "ياو" و "شون" أيضا مثل باقى الناس سواء بسواء.".

٨ - ٣٣ كان فى دولة تشى رجل يقيم فى بيت واحد مع زوجته ومحظيته، ولطالما خرج بالنهار وعاد بالليل وقد أكل وشرب مريئًا، يتغنى ويرقص منتشيا

بالسعادة، تسأله الزوجة عمن كان يقضى ليلته معهم ، وبصحبة من طاب له الطعام، فيجيب أنهم أصحابه من الوجهاء الأماجد ذوى الجاه والشرف من علية القوم، فما كان من الزوجة إلا أن مالت على أذن صاحبتها (محظية الرجل) فقالت لها: "هو ذا الرجل، زوجنا، يخرج ويرجع متخماً بالأكل والشرب، مفعماً قلبه بالسعادة، فكلما سألته عمن كان بصحبته، أجاب بأنهم رفاقه من الوجهاء، سادة البيوت العامرة، مع أنى لم أر واحداً منهم جاء لزيارته، ولو مرة واحدة، وقد بدا لى أن أخرج وراءه، وأراقبه خفية، علّى أطّلع بعينى رأسى على خبيئة أمره.".

فما إن أشرق نهار اليوم التالى حتى قامت من مرقدها ومشت فى أثر زوجها تلاحقه أينما ذهب، فلم تشهد أحدا من وجهاء المدينة تجاذب مع زوجها أطراف الحديث ولا أرخى وإياه حبال الكلام، ثم إذا به يعرّج على مدافن الضاحية الشرقية من المدينة، ويندس وسط الزائرين المقيمين لطقوس الدفن وعمال المقابر، فيستجدى منهم فتات الموائد وثفالة أقداح الشراب، وإذا لم يستوف مقدار ما يشبع نهمه، يمّم شطر حشد آخر واتخذ هيئة الراكع المستعطف لعله يظفر بمبتغاه.

ذلك إذن هو سر الرجل الشبعان الريّان العائد آخر اليوم يتراقص طربا!

عادت الزوجة أدراجها وقصت على المرأة الأخرى ما عاينته بنفسها، قالت:

" إن زوجنا معقد أملنا، ورجائنا حتى آخر العمر .. اتضح اليوم من أمره كيت وكيت.." وصارت الزوجة والمحظية تقلدان حركاته وأقواله،

سخرية واستهزاءً، ثم جلستا فى الفناء متقابلتين، وراحتا تبكيان وتندبان حظهما العاثر.

وإذ لم يدر الزوج أن دفائن سره أصبحت ظاهرة للعيان، فقد دلف كعادته، داخلاً إلى البيت هانئا مغتبطًا، يهز رأسه خيلاء ويرقص متعاجبًا فخورا.

وهناك من العقلاء (السادة المهذبين) من يرى أن البعض ممن يتحايلون، بوسائل شتى، سعيا وراء الجاه العريض والثروة الطائلة، لن يصل بهم الأمر إلى (ما لمسناه فى القصة المذكورة من..) تعريض الزوجات والمحظيات للانكسار وخيبة الأمل، ثم دموع الحسرة فى آخر المطاف. وربما ، كان ذلك صحيحا؛ عند عدد قليل جدا من الناس!".

الباب الخامس

(الجزء الأول)

وان جـــان

(وجملته تسعة فصـول)

٩ – ١ ذهــب وان جــان إلى الشــيخ الحكيم منشــيــوس، وســأله: " لما ذهب الإمبراطور شون فى زيارة إلى الحقول، والأراضى الزراعية، فقد تطلع مليا إلى السماء وأجهش بالبكاء، ترى ما السبب فى تأثره البالغ على هذا النحو؟"، فأجاب منشيوس، قائلاً:" لابد أن شعورا بالندم قد اجتاحه وقتئذ (..لإحساسه الدقيق بسخط أبيه عليه و..) لشدة شوقه (.. إلى أن تصفح عنه روح أبيه)"، فعاد وان جان يقول:" كثيرا ما سمعت الناس يرددون.." من نال رضا والديه، غمرته السعادة واستقرت ذكراهما فى قلبه، أما من حاق به سخطهما، فقد طغى عليه الشقاء وانقبض فى جوفه لسان الشكوى فبقى، حياته مبرّحا كظيما، تتنازعه مشاعر الألم والمرارة، ولا يقدر على الشكوى".. فهل كان شون حانقا على أبويه؟".

فأجابه منشيوس:" قيل إن تشانشى (تلميذ كون مينكاو) سأل أستاذه، ذات مرة، قائلا: " أن يخرج شون إلى الحقول ويتجول بين المزروعات، فهذا أمر مفهوم، أما تطلعه إلى السماء وبكاؤه (ومشاعره

الفياضة تجاه والديه)، فهو موضوع يحتاج لمزيد من التوضيح."، فقال له أستاذه:"تلك مسألة عويصة، بعيدة الغور، لا أظنك تبلغ مراميها". والمعنى الذى قصد إليه كون مينكاو هو أن الطاعة موضوع لا يحتمل الإهمال بل يؤخذ بجدية (.. وقد يسبب للأبناء شيئًا من الارتباك النفسى، وكأنى بـ شون يقول فى نفسه..) هأنذا قد فعلت كل ما فى وسعى، ومع ذلك فقد حاق بى غضب والدى، فما حيلتى إذن؟"، (وأراد الإمبراطور"ياو" أن يبدد أحزانه، ويمد يد العون) فأرسل إليه أولاده التسعة، وبنتيه الاثنتين، وحشودا من الجنود ، يسوقون أمامهم الأبقار والنعاج ويحملون على ظهورهم أحمال الحبوب عونًا له ، ودعما لمعنوياته، بل إن جماعات من الدارسين وطلاب العلم قصدوا إليه (بأمر الإمبراطور"ياو" الذى) كان يهيئ له الأمر ليخلفه على عرش الممالك .

ومع ذلك ، فلم يكن فى الدنيا كلها شىء يمكن أن يزيل الكرب من صدر شون، وصار يشعر كمن سدت أمامه السبل وفرغت من جعبته كل وسيلة ، وذلك لإحساسه بالعجز عن إرضاء أبويه، ولئن كان مبتغى أى واحد من الناس هو أن يكون موضع تقدير الدارسين وطلاب العلوم، إلا أن إعجاب وتقدير كل الدارسين فى أنحاء الممالك لم يكن ليخلص شون من همومه.

ثم إن شون تزوج كريمتى الملك كلتيهما (وكانتا جميلتين) والجمال فتنة آسرة لا يفلت من حبائلها بشر؛ لما تشيع فى النفوس من بهجة، وبرغم ذلك فلم تعرف البهجة طريقها إلى قلب شون.

الثروة مطمح كل إنسان على وجه الأرض، ولقد صار مُلك شون مترامىا (بطول وعرض الممالك كلها) ومع هذا، فلم يفارقه الحزن. من المعلوم أن

الشرف مبتغى أصيل، ما من إنسان فى الدنيا بأسرها إلا يتوق للفوز بأعظم درره، وقد حظى شون، مبجلا، بموقعه الأثير، مقربا من العرش الحاكم، أميراً فوق الدويلات المترامية، ولما يزايله الانفعال بمأساة عمره.

(ومن ثم) فإن ما أتيح له أن يفوز به من الحب والتقدير، والجمال، والجاه (كل ذلك) لم يثمر أية نتيجة؛ ذلك أن الأمر الوحيد الذى كان من شأنه أن يمسح عن صدره لواعج الأسى، هو رضا والديه.

يتطلع الإنسان، فى طفولته إلى والديه تعظيما وإكبارا، فإذا ما بلغ فتوة الشباب صار يتودد إلى أنثاه ويبحث عن فتاته؛ فإذا أمست له زوجة تعلق بها وأقام معها شطر حياته؛ أما إذا التحق بوظيفة، ذات شأن، راح يتقرب لرئيسه، فإن لم يحظ بثقته، تكالبت عليه ألوان الهموم، واستولى عليه القلق؛ ليس سوى الرجل البار بأبويه، هو الذى يظل ،طوال حياته، محبًا (ونصيراً ؟!) لوالديه.

أما أن يبلغ المرء الخمسين من عمره، دون أن يخفت صدى الحنين إلى أبويه، فهو الأمر الذى تبدّى أمامى بوضوح، متجسدا فى شخص القديس الحكيم شون.".

٩ - ٢ ذهب وان جان إلى منشيوس وقال له: "مما جاء فى كتاب الشعر القديم (أبياتًا مطلعها):

" ألا أيها الرجل الذى

عقد العزم على الزواج بامرأة،

لن تصير لك فى الدنيا كلها فتاة،

إلا إذا أبلغت والديك

بأنك ستبني بامرأة ."

ولم يكن من بين كل الرجال، على الأرض؛ من يصدق (ويسير على هدى) تلك الكلمات، مثل القديس الحكيم شون، وبرغم ذلك، فهو (لم يتصرف حسب تلك الوصية، أى أنه قد) تزوج دون مشورة أبويه، فما الحكمة فى ذلك؟"، فأجابه منشيوس:" لو كان أبلغهما بهذا الأمر، لما كان قد تزوج على الإطلاق؛ كانت تقاليد الزواج تتبع قواعد وأعرافًا استقرت عليها المفاهيم والعادات؛ فلابد أنه لو استشار والديه - حسب تلك التقاليد المعهودة - لما حظى بموافقتهما؛ مما كان من شأنه أن يثير المرارة فى نفسيهما، فمن ثم، حسم"شون" أمره، بعدم إبلاغهما بما استقر عليه فى أمر زواجه.".

وعاد وان جان يقول له:" الآن، فهمت لماذا أخفى شون زواجه عنهما، لكن الأمر الذى يحيرنى حقا هو موافقة الإمبراطور"ياو" على تزويج ابنته له وهو يعلم تماما حقيقة إخفاء هذا الخبر عن أهل الرجل، فما الذى دعاه إلى ذلك؟".

فأجابه منشيوس، قائلاً: " لأن جلالة الإمبراطور كان يدرك استحالة إتمام الزواج لو عرض الأمر على والدى صهره."، وعندئذ قال له وان جان:" (..ثم كان من الوقائع ما قد علمت من أن..) والديه طلبا إليه أن يصعد إلى الطابق العلوى من صومعة الحبوب ليصلح ما تهدم منها، فما إن بلغ القمة حتى سحبا السلالم بعيدا، وقام أبوه (المدمسو كوصاو: أى الرجل الأعمى) بإشعال النار فى الصومعة (.. ونجا شون من الحريق

بأعجوبة وفى محاولة أخرى..) طلب إليه أبوه وأمه أن يغوص فى البئر، ويزيل كدر مياهه فما إن نزل فيه حتى ردماه بالتراب (.. ولم يعلما أنه خرج بمعجزة من إحدى الثغرات الجانبية)، وكان أخوه (من أبيه ويدعى شيانغ) قد قال صراحة: "أنا صاحب المؤامرات الكثيرة التى استهدفت التخلص من شون، وإلىّ وحدى يعود الفضل فى التدابير للخلاص منه؛ إذ عزمت على أن أهب مواشيه ونعاجه وصوامع الغلال التى يملكها لأبيه وأمه، على أن أحتفظ أنا بأسلحته وقيثارته وسيفه الأحمر القاطع (اشتهر السيف تاريخيا باسم "ديكون") وكذلك زوجتيه الاثنتين، اللتين ستصيران إلىّ، وتبيتان على فراشى ."، ثم إنه قام وقصد مخدع أخيه (.. الذى من أبيه) فرآه متكئًا رائق البال يعزف على قيثارته؛ فتكلم معه، قائلاً: "قد اشتقت إليك واشتد بى الحنين.".

وبدا منه الوجه وجلا، والروح التى بين جنبيه انتفضت حيرى، تنزع فى كل منزع من الريبة والاضطراب، فقال له شون: " لست أكترث لشىء قدر اهتمامى بمن ورائى من العاملين والعمال (الوزراء والشعب)، فهل تقوم مقامى وتكفينى مؤونتهم؟" ولا أدرى - يقول وان جان لـ منشيوس- إن كان شون قد تنبه، فى سياق الأحداث، إلى ما دبره شيانغ من خطط للقضاء عليه أم لا؟".

فقال منشيوس:" ما كان يخفى عليه ذلك أبدا، إذ عرف دخائل أخيه، وأدرك أفراحه وأتراحه، والحق أنه كان قريبا من مشاعره دائما.. يضحك لما يسره، ويبتئس لهمومه وأحزانه.".

وهنالك علق وان جان قائلا:" أو تظن أن شون، في تلك الساعة، كان يتظاهر بتلك الأحوال؛ (لأمر في نفسه)؟"، فأجابه: "لا أظنه كان في حاجة لأن يتظاهر بشيء.. (ولأحك لك قصة، في هذا السياق..) كان رجل، فيما مضى، قد أرسل هدية لأحد مواطني دولة جنغ .. ويدعى [زيشان] وهي عبارة عن مجموعة من أسماك الزينة؛ ليتفرج عليها في منزله، فسلمها زيشان لأحد مشرفي المزارع السمكية ليحفظها- فترة من الوقت- في حوض كبير للأسماك، إلا أن المشرف وضع السمك على النار حتى نضج فأكله مريئًا، وراح يقول لـ زيشان :"كنت لما وضعت السمك في الحوض، بدا خامل الحركة، وبعد هنيهة نشط وتقافز ثم ما لبث أن غاص في الأعماق حتى لم يعد يرى له أثر"، فقال له زيشان:" لقد أوى إذن إلى موطنه الآمن .واستقر حيث قدر له أن يستقر"، فلما عاد المشرف إلى بيته قال للناس.. "ليس أكذب ممن زعم بأن زيشان على أي قدر من الذكاء، قد أكلت ما أعطانيه من سمك حتى استقر في أعماق بطني، ولما رويت له حكاية الأسماك اللائذة بالأعماق لم يكذب شيئا مما قلت، بل زعم أنها لاذت بمستقرها الذي قدر لها أن تبقى فيه أبدا.". فاعلم أن الحصيف العاقل، يمكن أن يتعرض للاحتيال أو الخديعة، لكن مستحيل أن ينطلي عليه، أبدا، هذيان الخرافة المنافية للمنطق، المجافية للمعقول، ولقد ذهب شيانغ إلى أخيه شون، الذي لم تساوره الشكوك في مشاعر الود الطبيعية بين إخوة البيت الواحد، فما الداعي إذن؛ لأن يتظاهر شون بالبِشْر والتهلل في وجه أخيه!".

٩ - ٣ ذهب وان جان إلى منشيوس، وسأله قائلا:"كيف يمكن أن نصدق ما قام به شون (.. وقد ارتقى سُدة الحكم إمبراطورا (ابن السماء) فوق الممالك،

من أنه اكتفى بنفى أخيه شيانغ (أخيه غير الشقيق) خارج البلاد، وهو الذى دأب على تدبير المؤامرات والدسائس للقضاء عليه؟".

فأجابه منشيوس، قائلاً: " الحق أنه أقطع أخاه بعض إقطاعات (بوصفه أميرا تابعا للقصر الحاكم) برغم ما ردده البعض (كذبا) من أنه قام بنفيه خارج الوطن، فقال وان جان:" قد اتخذ شون (عدة) قرارات تقضى بنفى" كون كونغ" إلى منطقة "يوتشو"؛ وإبعاد"هواندو" إلى جبل"تشونغ"، وطرد"سان مياو" إلى بلدة سان سوى (..النائية) وإعدام" كون" (يقال بأنه والد الملك ياو من أسرة شيا الملكية) فوق جبال "يو"، وبصدور تلك الأحكام ونفاذها فى حق أولئك المذنبين الأربعة، خضعت الممالك وأذعنت لجلالة الملك شون، فاستقرت الأحوال، بعد أن استقر فى وعى الناس جميعا أن العقاب قد طال رؤوساً قاسية ظالمة، تناءت عن الإنسانية والرحمة، غير أن شيانغ، وهو أشد الجميع غلظة وقسوة ومجافاة للإنسانية، تم إقطاعه دويلة" يوبى"، فأى ذنب جناه أهل يوبى حتى يصير شيانغ أميرهم؟ أمن المعقول أن يسلك الحكماء القديسون الذين يعرفون الإنسانية والرحمة على هذا النحو (تجاه القضايا الإنسانية الكبرى؟)، أمعقول أن تأتى أحكامهم رادعة حاسمة على أى فرد من الناس دون إخوتهم [أحكام قاسية ضد الغير؛ إقطاعات وافرة للإخوة والأقارب]؟".

فرد عليه منشيوس، قائلاً : " إن العاقل الرحيم لا يحمل على أخيه إصرا ولا يطوى جوانحه على بغضه والكيد له، بل يتودد إليه ما أمكن ويتمنى له الرفعة والمجد، يعطف عليه، ويرجو له الثروة والجاه، (ثم إن الإمبراطور شون قد أقطع أخاه دويلة يوبى) ليمكنه من الفوز بالمال والجاه

العريض معا، إنه الحب والمودة بين أفراد العائلة"، [..في معنى، ما، هو قرين الطاعة وروح التعاون الأسرى].

وعندئذ، قال نانجو:" فمن ذا الذى أشاع حكاية.. "النفى خارج البلاد".. وما مغزى هذه الكلمة (.. فى مثل هذا السياق)؟".

قال منشيوس:" لم يكن لـ شيانغ أن يتصرف، كما يحلو له فى شئون دويلته؛ مما دعا جلالته إلى إيفاد عدد من الموظفين الكبار المسئولين عن تصريف شئون البلد وجباية الضرائب إليه، فمن ثم، (راجت مقولة..) النفى خارج البلاد، (ولا أدرى) كيف يمكن لـ شيانغ أن يبطش بالناس (فى دويلته) أو أن يستبد بالحكم، على هواه؟ ثم، (وبالرغم من كل ماقيل فـ) إن جلالته يحرص على الالتقاء به دائما، حيث إنهما حريصان على المواظبة على اللقاء من آن لآخر؛ حتى ترددت عبارة (فى القصر الحاكم) مفادها.." لا داعى لانتظار مراسم تقديم الهدايا إلى القصر، نظرا لما تمليه الضرورات السياسية من دعم العلاقة مع دويلة يوبى" (.. وهى الكلمات التى صيغت، على نحو خاص، لتفيد المعنى المشار إليه فيما سبق)".

٤ - ٩ ذهب شيان تشومن (تلميذ منشيوس) إلى أستاذه - الشيخ الحكيم - وسأله ، قائلا: " هناك قول دراج مفاده أن.."أعظم الناس خلقا، لن يحظى لدى ملك الملوك بمنصب ذى شأن، لن يتخذه أبوه ولدا(.. يستكثر أبوه على نفسه أن يكون له ولد عظيم الأخلاق، وسيرى الملك أنه أجدر بما هو أرفع وليس هناك أرفع من الجالس على العرش!) وعندما اعتلى شون سدة العرش الملكى، وأحضر الملك الأعظم" ياو" كل الأمراء إليه وصار فى مقدمتهم وهم يسيرون إليه، فكان الجميع يتقدمون صوب الجهة الشمالية

حتى والد الملك شون (المدعو كوصاو) كان يتطلع، مثلهم جهة الشمال، فلما وقعت عين ابنه (جلالة الإمبراطور شون) عليه، ارتبك وظل حائرا هنيهة، وفي ذلك يقول كونفوشيوس:" كان الخطر يحدق بالممالك كلها.. في تلك اللحظة.. كان الخطر أقرب إلى الجميع من أي شيء!"، ولا أدرى ياسيدى إن كانت تلك الأقوال صحيحة أم لا؟".

وأجابه أستاذه، قائلا:" كلا، ليس في ذلك كله شيء صحيح على الإطلاق؛ فتلك أقوال لا ينبغي للعاقل ترديدها، بل هي جديرة بأن تصدر عن القبائل الهمجية الواقعة إلى الشرق من دولة تشي؛ (فالصحيح..) إن الملك ياو لما بلغ من الكبر عتيا، أسند إلى شون مهمة القيام بالإشراف على شئون الإمبراطورية وكيلا عنه، ليخلفه في أداء ما لم يقدر عليه هو بنفسه وقد ورد في كتاب"ياوديان" (أي معجم الأباطرة أو" ديوان ياو" وهو يرصد وقائع تنازل الملك ياو عن العرش لخليفته شون ويظهر جانبا من وقائع فترة مبكرة من تاريخ الصين)، ما نصه: "فلما انقضت ثمانية وعشرون عاما كاملة، توفي (الملك ياو) فأقام الناس الحداد مدة ثلاث سنوات، مثلما يفعلون في وفاة آبائهم وأمهاتهم، (وخلال تلك الفترة) توقف عزف الموسيقى في كل أنحاء الممالك (حرفيًا: فيما بين البحار الأربعة)"، وكان كونفوشيوس قد قال ذات مرة.." لم تسطع في كبد السماء شمسان، ولا قام على رأس بلد واحد ملكان يحكمان".. ولئن كان شون قد تولى مهام الحكم ملكا متوجا (.. قبل وفاة الملك ياو) فلابد أنه كان على رأس الأمراء والدويلات التي أقامت حدادا طوال ثلاث سنوات، وهو ما يعني (ضمنيا) قيام حاكمين اثنين على عرش بلد واحد (.. في وقت

واحد)، فقال تشيان تشومن: "قد عرفت السبب - فيما شرحت لى - فى عدم إسناد منصب وزارى لـ ياو فى البلاط الملكى تحت قيادة شون، وقد جاء فى كتاب الشعر القديم ما نصه:

" ليس فى أنحاء الممالك،

بقعة تتناءى عن ظلال السيادة الملكية،

وكل فرد، من شعبه الكبير،

رعيته، وتابعه العامل عنده.."

فلئن كان الأمر كذلك، فهل لى أن أسألك عن السبب فى استبعاد "كوصاو" وهو أبو الملك من أى منصب وزارى، بعد اعتلاء شون سدة الحكم؟"، فأجابه منشيوس:"إن الأبيات التى استشهدت بها من كتاب الشعر، لا تريد المعنى الذى قصدت أنت، إليه، بل يقول الشاعر، من خلالها، إنه يبذل جهده وطاقته كلها فى خدمة جلالة الملك، حتى لم يعد لديه ما يقوم به من واجب العمل على راحة أبويه. فكأنى بالشاعر يريد أن يقول: " صارت كل المهام والواجبات تتعلق بمصلحة القصر الحاكم، حتى لم يعد للفرد، أى فرد(بما فيهم أنا نفسى- الشاعر نفسه -) أية طاقة مدخرة لتصريف الشئون الفردية."؟

ومن هنا، فلابد أن يعى مفسرو الشعر بأنه لا يحق لهم تحميل العبارة الشعرية ما لا تحتمل بسبب فهم مغلوط للفظة أو كلمة، ولا يجب إغفال القصد العام للمقولة الشعرية كلها جريا وراء تأويل متكلف لعدة أبيات قليلة، فلابد من الاستدلال على المعنى العام من روح النص التام ومغزاه الأصيل، حتى تثبت أركان التفسير الصحيح؛ أما التفرغ و"التحذلق"

والتدقيق المتكلف فلا يثمر إلا ما يمكن أن نفهمه - مثلاً - من أحد أبيات قصيدة"يون هان" (نهر المجرة) حيث يقول القائل:

" حتى بقايا الفلول الشاردة ،

من شعب دولة جو ،

لم يعد يبقى لها . .

أى أثر . . " .

مما يرد فى التأويل الحرفى لظاهر معنى الكلمات، أن آل جو قد فنوا عن آخرهم [.. والمقصود تشتت جماعاتهم وتبعثرها وليس فَنَاءَها].

إن أعظم البر، احترام الوالدين، وأرفع درجة من احترام الآباء، تسييدهم فوق الممالك، وقد قام كوصاو والد الملك نفسه، الذى بادر إلى تقديم أسمى آيات الاحترام والتبجيل بمنحه موقع السيادة فوق الممالك، التى تحت السماء.

وقد ورد من أبيات الشعر القديم ما معناه:

" فلنتواص بالبر دائما . .

فالطاعة أعظم خلق يحتذى . . "

فالمعنى المقصود هنا هو ما يتضح بذاته .

وقد ورد فى كتاب "شوجين" (التاريخ)، ما نصه:

"استقبل الملك شون أباه "كوصاو" بكل حفاوة وتبجيل وقد أكبر والده وبالغ فى الحفاوة به وتقديره (.. حتى كاد ينحنى كل جزء فى جسده إكرامًا

لأبيه، الذى بدا هادئًا راضياً لا يكدر صفو حياته شيء.." فكيف لنا أن ننكر ما أظهره الأب بنفسه، من رضا وتقدير لولده وما قام به من أجله؟".

٩ - ٥ ذهب وان جان إلى منشيوس، وسأله قائلاً: "هل كان الإمبراطور الحكيم ياو، هو الذي أهدى عرش الممالك لـ شون؟ هل وقعت تلك الحادثة حقا؟"، فأجابه منشيوس، قائلا:" لم يحدث شيء من ذلك قط، فليس للملك أن يهب العرش لأحد."

وعاد وانجان يسأله:"إذن، فمن الذى أهدى العرش إلى شون؟"، فأجابه:

" كانت السماء هى التى منحته الملك."، فسأله:"هل كانت السماء، وهى تخلع عليه وشاح الملك، قد حدثته بوصاياها؟"، فأجابه:"كلا، لم تتحدث إليه السماء بكلام، بل كان فى عظيم خلقه وحميد سجاياه، ما يشير إليه بأنه موضع تقدير سماوى."، فسأل السائل:"كيف يكون فى كرم أخلاقه وحسن سجاياه ما يشير نحوه بقبول السماء له؟"، فقال :"قد يفضل الملك شخصا محددا ويرجو من السماء أن تؤيد اختياره، لكنه لا يملك أن يملى على الإرادة السماوية اختيار من يخلفه فى الحكم؛ وقد يرشح الأمير (للملك) رجلا، ما، يراه (لمنصب) ويراه الأنسب، لكنه لا يمكن أن يرغم جلالته على تعيينه، وقد يرى كبار رجال الدولة أن امرءاً(من بينهم) هو الأكفأ، لكنهم لا يستطيعون أن يجبروا الأمير على ترقيته.

فيما مضى، كان الإمبراطور الحكيم ياو قد اختار شون لخلافته واستشار السماء، فأجابته إلى ما أراد، فأعلن على الناس ترشيحه فقبلوا.

فالسماء لم تقل شيئا، بل كانت أخلاق شون وأدبه وخصاله الكريمة هى التى أوعزت بأن السماء تقبل بمنحه سلطة الحكم فوق الممالك.".

فسأله وان جان:"أريد أن توضح لى الملابسات التى اكتنفت ترشيح شون للعرش الملكى، وموافقة إرادة السماء لذلك الترشيح ثم إعلانه على الناس فقبولهم له .. إلخ"، فقال منشيوس:"(كانت البداية) بتكليفه مهمة الإشراف على طقوس القرابين، فكانت الأجواء الروحانية (الأرواح) مواتية وموافقة تماما لقيامه بهذا الدور؛ فلذلك قيل إن السماء أيدت ترشيحه، فلما أسندت إليه مهمة إدارة الشئون الحكومية. فقد أظهر السداد فى عمله، مما أثلج صدور الناس بقضاء حوائجهم؛ فلهذا قلت بأن الناس قد رضيت به (حاكما)؛ فلما كانت السماء قد أبدت رضاها باعتلائه سدة الحكم، بالإضافة إلى موافقة الإرادة العامة لأهل الممالك، قلت بأنه لا يجوز لحاكم أن يمنح عرش الملك لكائن من كان.

كان شون قد ساند الحكيم ياو، في حكم البلاد مدة بلغت ثمانية وعشرين عاما، ولم تك تلك إرادة بشر بل كان قضاء من السماء. وكان لما مات ياو وانقضت بعد موته مدة الحداد المقررة، قام شون واعتزل الناس حيث أقام(فى مكان قصى) جنوب نهر" نانجه"؛ وذلك ليعطى الفرصة لولد ياو أن يرث حكم البلاد بغير نزاع، غير أن أمراء الدويلات (القادمين إلى عاصمة الممالك) كانوا يقصدون إليه دون ابن الإمبراطور الراحل، وكذلك فعل المتقاضون إلى المحاكم (إذ وفدوا عليه ليقضى بينهم فى نزاعاتهم) وكثيرا ما تردد عليه المغنون والمداحون (شعراء المديح) دون أبناء الملك المتوفى؛ فمن ثم قلت بأنه (اعتلاء العرش) قرار من السماء؟.

ثم إن شون عاد إلى العاصمة، وقام حاكما فوق عرش الممالك (.. برغبة الناس وإرادة السماء) ولو كان قد انتزع الحكم عنوة ودخل إلى القصر الملكى بالقهر، وخلع الأمير عن الحكم بغيا واعتداء، بغير سند من رضا السماء، لعد قيامه على منصة الحكم اغتصابا للعرش.

وقد ورد فى كتاب"تايشى" (البيان الأعظم) : "قد نظرت السماء بعيون الناس على الأرض، وسمعت بآذانهم. فوافقتهم فيما رأوا وسمعوا".. وهو المعنى الذى يلخص الأمر كله.".

٩ - ٦ ذهب وان جان إلى منشيوس، وسأله، قائلاً: " كثيرا ما يرد فى الأقوال الشائعة بين الناس أنه" ما كاد يأتى زمان حكم الإمبراطور" يو"، حتى كانت الأخلاق قد انحطت، ولم يعد يقوم على عرش الممالك الحكماء بل الأمراء من أبناء الملوك"، فهل كان الأمر على هذا النحو حقا؟".

أجابه منشيوس، قائلاً: "غير صحيح على الإطلاق، لم يكن الأمر كذلك، فالإرادة السماوية (لا تخطئ التقدير؛ فهى) إذا أرادت أن يكون الحكم للحكماء، فسيصير الأمر إليهم، وإذا أرادت أن يكون للأمراء، فلن يكون لغيرهم.

كان الحكيم القديس شون - فيما سلف من الزمان - قد استشار السماء فى أن يخلفه" يو" على العرش، ثم مات شون بعد سبعة عشر عاما، فلما انتهت سنوات الحداد الثلاث، ذهب يو إلى مدينة يان تشن معتزلا شئون الحكم؛ وذلك ليتسنى لابن الإمبراطور شون أن يرث عرش أبيه؛ إلا أن قلوب الناس كانت تميل إليه، فحدث معه مثلما حدث بعد وفاة الملك ياو من إغفاء الطرف عن الأمير (الوريث الشرعى) والإقبال على الملك شون؛

وبدوره، فقد استشار الإمبراطور" يو" أمر السماء في تنصيب "إي" (تنطق كما في كلمة" إيزيس") وحدث أن قضى" يو" نحبه بعد سبع سنوات، فلما انقضت مدة الحداد المعهودة (ثلاث سنوات)، ذهب"إي" ليقيم في العزلة شمالي جبل" جي" ليتيح الفرصة للأمير، ولد"يو" ليقوم على عرش الحكم خلفا لأبيه الملك الراحل، إلا أن الوفود الرسمية وجماعات المتقاضين أمام المحاكم لم تلق بالا (هذه المرة) إلى الرجل المعتزل وراء الجبل (إي)، بل قصدت جميعها إلى الأمير تشي (ولد"يو") وهم يهتفون تأييدا له بوصفه .."ابن مليكنا وسيدنا".. (على حد تعبيرهم) ولم يكن المداحون والشعراء يتغنون بالمعتزل "إي" بل طافوا (في الأنحاء) يهتفون للأمير"تشي" قائلين عنه إنه أميرنا وابن مليكنا!".

ولم يكن للأمير دانشو (ولد"ياو") أن يحظى بالملك، ولا كان ابن الملك شون ليقدر على أن ينال المجد، ولئن كان الملك شون خير سند لسلفه"ياو"، وكان"يو" خير معين للملك شون، على مدى السنوات الطوال، حتى كانت العامة تلهج بذكرهم؛ لما نالوا من الخير والنعمة إبان حكمهم، فقد كان الأمير تشي رجلا فاضلا عاقلا، وقد أخذ على عاتقه أن يواصل ما بدأه الحكيم القديس شون من سياسة رشيدة .

وقد كان "إي" خير أعوان الملك " يو"، غير أنه لم يمكث زمانا طويلا، ولا كانت له على الناس أيادي الفضل الكثيرة (التي كانت للسابقين).

قد تفاوتت الأزمان بين الملوك: شون - يو - إي؛ وتراوحت الأيام فيما بين سني حكمهم، وكان من نسلهم أمراء تفاوتت أقدارهم في الحكمة والفضل؛ فكان ذلك كله تدبير السماء، إذ لم يكن باستطاعة بشر، مهما أوتي من طاقة، أن يبلغ في ذلك مبلغا ذا شأن.

أمـا وقـد بلغت الأمـور حـدودا لم يكن فـي طاقـة أى تصـور أو خـيـال أن يبلغـها، فـهذا أمـر من تدبيـر السمـاء، وأن تصل الغـايات إلى مـصـائر لم تخطر على بال فتلك هـى إرادة الأقدار.

ولم يكـن لشـخـص عـادى، من العـامـــة، من أوسـاط البسطاء أن يصل إلى مقام الحكم الملكى الرفيع، إلا بما حاز من أخلاق وفضائل تضـارع ما حازه الحكيم شون، وتزكية أبناء السماء (الأباطرة الحكماء) له. [لم يكن لرجل بسيط أن يعتلى الحكم حقا إلا بما زكاه به الملوك ، فمثلا..] لم يتمكن كونفوشيوس – وهو المهذب الحكيم الفاضل – من أن يبلغ تلك الدرجة العالية (العرش الحاكم) (للسبب الذى سقناه آنفا) وعندما يصبح تعاقب اعتلاء العروش الحاكمة صيرورة طبيعية، فإن السماء تقصى عن الحكم (أولئك الطغاة الجبارين من أمثال..) الطاغية جيه (أسرة شيا الملكية)، تشو (أسرة شانغ) بل آخرين لم يبلغوا أصلا سدة الحكم من أمثال:(الأمراء)"إى"؛"إيين"؛" جوكون"، (برغم أنه كان فاضلا حكيما). ولم يبـخل إيين على الملك" طانغ" بالمؤازرة والدعم المطلوب، حـتى دانت له الممالك بالخضوع وتمكن من توحيدها تحت رايته، فلما توفى الملك" طانغ"، لم يقدّر لـ " تاى دينغ" أن يخلفه على العرش،(ثم لم يلبث أن) مات، ثم جاء "واى يين" فتولى مقاليد الحكم لمدة سنتين، وخلفه"جون ون" ليبقى فى الحكم أربع سنوات، (ثم جاء)" تايجيا" الذى أطاح بالقوانين واللوائح والمبادئ التشريعية التى أقرها الملك" طانغ"، فقام إيين بإقصائه فورا عن العرش ونفاه إلى بلدة" تونغ"، فما هى إلا ثلاث سنوات حتى أقر" تايجيا" بذنبه، واعترف بخطئه ثم أعلن ندمه والرجوع عما اقترفه، بل يذكر له أنه،

أثناء إقامته ببلدة تونغ، كان حريصا على أن يسلك (مع الجميع) على أساس من العدل والإنسانية، فلما مرت ثلاث سنوات (أخرى)، كانت لديه الشجاعة فى أن يدرس الانتقادات التى كان يوجهها إليه إيين وكان من الحكمة بحيث استطاع أن يتعلم دروسا كثيرة ويستفيد منها، وتمكن أخيرا من أن يعود إلى العاصمة" بو" ليصبح حاكما (لإحدى الدويلات)، أما جوكون، فلم يتيسر له أن يصل إلى سدة العرش الملكى، فكان يشبه في ذلك (حال) "إى" فى أسرة شيا الملكية، و"إيين" إبان عهد شانغ .

وقد قال كونفوشيوس (فى هذا الشأن):" إذا كان الحكم فى أسرتى" طانغ" (الملك ياو) و" يو" (يقصد الملك شون) قائما على اختيار الحكماء والفضلاء، فإنه فى الأسر الثلاث: شيا، شانغ، جو، وأحفادها كان وراثيا، والأمر بين هؤلاء وأولئك سيان؛ فلم يكن ثمة فرق.".

٩ – ٧ ذهب وان جان إلى منشيوس ، وسأله:" يقول الناس(فى أحاديثهم العابرة) إن"إيين" قد سعى فى أن يجد حظوة لدى الملك "طانغ" متنكرا فى زى طباخ، فهل هذا صحيح؟"، فأجابه منشيوس:" كلا، لم يكن الأمر هكذا؛ إذ كان إيين يعمل مزارعا على حدود دولة تشين (دويلة قديمة) وكان محبا لسيرة وسياسة كل من الحكيمين" ياو"و" شون"، وإلى جانب ذلك فقد كان له اعتقاد عظيم فى التمسك بالعدل والمبادئ (الأخلاقية)؛ حتى أنه ما كان يلتفت بطرف عينه إلى أموال الممالك كلها حتى لو صارت بين يديه مادامت متحصلة بطريق ينافى صحيح العدل وثوابت الإنسانية، وما كان ليمد يده إلى آلاف الجياد الأصيلة لو سيقت إليه (موثوقة الأعناق جنبا إلى جنب)، ما كانت بغير الطريق الأخلاقى الذى آمن به والمبدأ الذى أخذ به

نفسه حتى أنه ما كان ليأخذ من أحد أو يعطيه مثقال ذرة، إلا إذا كان بوسيلة تتفق مع ما اعتقد بصحته.

وأرسل إليه الملك طانغ الرسل يحملون إليه الهدايا الثمينة (تشجيعا له على المضى إليه والعمل عنده)، فما كان منه إلا أن قابل ذلك بغير اكتراث قائلاً: " ما الذى يدعونى إلى قبول هدية الملك؟ وأين هى من هدوء النفس ورخاء البال الذى أجده وسط المزارع أهنأ بتأمل مبادئ" ياو" و" شون" وسيرتهما العطرة؟ وألح الملك فى إرسال الهدايا إليه يستميله بشتى الطرق، ومازال به حتى عدل عن موقفه، قائلا فى نفسه: " بدلا من القعود عند أطراف المزارع، أتأمل سيرة البطلين القديسين " ياو" و" شون"، فلماذا لا أحاول أن أحث رجال هذا الزمان على التأسى بسيرة الشيخين الحكيمين، لماذا لا أجرب أن أجعلهما المثل الأعلى الذى يقتدى به الناس فى كل الممالك؟ لماذا لا أعطى نفسى فرصة أن ألمس مباشرة، تجسيد تلك الأفكار فى السلوك الواقعى؟

لقد أوجدت السماء كل هؤلاء البشر؛ كي يهدى السابق منهم اللاحق، ويحرك الأول منهم وعى وإدراك الآخر.

فلما كنت قد سبقت بالوعى (كل الناس فى أنحاء الممالك) فلابد من أن أجعل ذلك المنهاج، الذى وعيته (سياسة ومبادئ ياو، شون) هو الوسيلة التى أدفع بها وعى الناس ، فما النفع إن لم أبث فيهم روح ذلك المنهاج إذن؟ (ومن يفعل ذلك غيرى؟). ورأى إيين، بعينى الفكر، أنه إذا تقاعس عن إرشاد الناس إلى المغنم الأخلاقى الكامن فى المبادئ المقررة على يد "ياو و شون"، فكأنه يدفع الناس دفعا إلى هاوية لا قرار لها، فأخذ على

عاتقه تلك المهمة الكبرى، وهو الأمر الذى جعله يذهب، من تلقاء نفسه إلى جلالة الملك طانغ، ليقنعه بضرورة غزو الطاغية " جيه" (آخر ملوك أسرة شيا) ليخلص الناس من بين براثن حكمه الجائر.

(أما بخصوص أنه تنكر فى زى طباخ ليقابل الملك ويقنعه بآرائه .. إلخ) فلم أسمع قط عن إنسان اتخذ من الأساليب الملتوية طريقا للإرشاد والتقويم وتبيان وجهة النظر (الأخلاقية)، ناهيك عن أن يتنكر (بطريقة مهينة) ليستطيع إقناع الممالك بآرائه (الإصلاحية) الفاضلة. (أعرف أن) لكل قديس طريقته الفريدة وأسلوبه المميز؛ فمنهم من يؤثر أن ينأى بنفسه عن دائرة النفوذ الكبرى (الملك الحاكم)، ومنهم من يفضل التقرب إليه، وهناك من يهجرون وظائفهم الرسمية، والبعض الآخر - على العكس من ذلك تماما - يحاول التشبث بعمله الوظيفى بكل جهده . فالعنصر الثابت فى ذلك كله (القاسم المشترك) يتمثل فى محاولة التمسك بعفة الناس ونقاء الضمير. (أما بخصوص سؤالك الأساسى فإجابتى..) هى: "إن كل ما سمعته هو أنه حاول أن يقنع الملك طانغ بتطبيق منهج "ياو" و"شون"، لكن لم يبلغنى أى شىء بخصوص اشتغاله بالطهى وتنكره فى زى طباخ..إلخ."..

وقد جاء فى كتاب"يين شوين" [مواعظ إيين]، مامعناه:"أول عقاب نزل من السماء حاق بقصر (الملك) جيه من أسرة شيا، وكان الحاكم المذكور هو الجانى على نفسه؛ فلم يقع فى التهلكة إلا بيده هو نفسه. أما بالنسبه لى أنا (إيين) فلست إلا مجرد رجل بسيط، قمت ذات يوم ، فخطوت بضع خطوات على الطريق، قادما من بلدة" بو" ، عاصمة أسرة شانغ."

٩ – ٨ ذهب وان جان إلى الشيخ الحكيم منشيوس، وسأله:" قيل إن كونفوشيوس أقام عند أحد الأطباء المتخصصين فى علاج الأورام (وهو فى الوقت نفسه أحد كبار الموظفين المقربين من حاكم دولة وى)، وذلك أثناء إقامته فى دولة وى، وقيل إنه لما ذهب لزيارة دولة تشى، أقام فى المنزل أحد خصيان القصر الملكى (واسمه" جيهوان") فهل هذا صحيح؟".

أجابه منشيوس قائلا:" كل هذا غير صحيح، بل هى محض أقاويل ليس وراءها إلا إثارة التشكيك بغير طائل،(والحق) أن كونفوشيوس كان يقيم في دار "يان تشويو" أثناء زيارته لدولة وى، وكانت زوجة هذا المضيف هى شقيقة امرأة السيد المهذب" زيلو" (أحد تلاميذ كونفوشيوس)، ثم إن" تيان تشو يو" قال لزيلو:" إن إقامة كونفوشيوس فى بيتي، تعزّز من فرصة حصولى على منصب حكومى بارز فى دولة وى".. فنقل زيلو هذا القول إلى كونفوشيوس، فقال له:

" فليكن مايشاؤه القدر!"، وبالفعل فقد التحق كونفوشيوس بالوظيفة عارفا بقواعد الآداب وملتزما بالأصول الأخلاقية، ثم إنه خرج منها- مثلما دخل فى بادئ الأمر - دون أن يضيع مبادئه أو أن يفقد اقتناعه بصحة منهاجه، وكان يردد باستمرار - فى الفوز أو الخسارة - عبارته المأثورة "فليكن ما تقضى به الأقدار" ولو(صحّ أنه) أقام بمنزل كبير المتخصصين فى أمراض الأورام، لكان فى ذلك أكبر انتهاك لأصول المعاملات والقواعد الإنسانية، وتجاوز (لما عرف عنه من إيمان بـ) أحكام القدر.

ولم تكن حال كونفوشيوس فى كل من دولتى "لو" و"وى" على خير ما يرام، بل قطعت به السبل، ولقى الحظ العاثر وكانت له الدنيا بالمرصاد؛ إذ تعرض (بالإضافة لكل ذلك) إلى محاولة اغتيال، دبرها له هوان تـوى (أحد سائسى الخيل) فاضطر إلى التنكر ومغادرة دولة سونغ خفية تحت جنح الظلام، ولما كانت أحواله قد اضطربت للغاية، فلم يكن أمامه إلا أن يقيم فى دار حارس المدينة (المدعو جنزى)، وقيل إنه اشتغل بالتدريس فى فصول خاصة لبعض الوقت) وعمل، لفترة، وزيرا لوالى دولة تشين.

ولطالما قيل إن من أراد أن يعرف سمات شخصية السياسيين أو رجال القصر، فلينظر إلى ضيوفه الدائمين، وإذا أراد المرء أن يعرف خبيئة المسئولين السياسيين (فيما وراء حدود الأوطان) فليراقب حال مضيفيه؛ (فبالضيف يعرف المضيف، والعكس صحيح!).

لو كان كونفوشيوس قد أقام، حقًا، لدى معالج القروح، والخصى التابع للقصر" جيهوان" لما استحق أن يحظى بالمكانة اللائقة والشهرة الذائعة، والاحترام الهائل الذى اقترن به وصار علامة عليه.".

٩ – ٩ ذهب وانجان إلى منشيوس، وقال له: "بلغنى، فيما يقول الناس، إن "باى ليشى" (أحد كبار رجال دولة يو) أُخذ أسيرا فى دولة تشو، عندما سقطت بلاده، فافتداه "موكون" (حاكم تشين) لما عرف عنه من فضله وحكمته وولاه منصبا بارزا عنده، فمهّد له ليؤسس إمبراطورية عظمى فوق (الدويلات)، قيل إن باى ليشى، هذا، قد باع نفسه بخمس قطع من جلود الماعز عند أحد تجار المواشى فى دولة تشين بل (وصل به الهوان أن)

يعمل راعى أبقار؛ وذلك ليتحين فرصة مقابلة موكون (حاكم تشين) فهل لهذه الرواية سند من الحقيقة؟".

قال منشيوس فى ردّه عليه:" ليس هناك أدنى قدر من الصحة لهذه الأقوال، بل هى أراجيف أذاعها المضللون. وقد علمت أن باى ليشى وهو من كبار رجال دولة يو، رأى - مثل كل الناس حوله - أهالى دولة جين يأتون إلى البلاط الملكى فى دولة يو بالهدايا الثمينة؛ من يشب (أحجار كريمة) وجياد أصيلة، يرجون السماح لقواتهم بالعبور من أراضى يو للهجوم على دولة "قوا"، فقام الوزير الأعظم فى يو (المدعو.. كونغ جيتشى) ونصح للحاكم بعدم الموافقة على ذلك الطلب، لكن باى ليشى لم يكن يرى هذا الرأى، وكان يعلم تمام العلم أن حاكم دولة يو لن يقبل النصح ـ فى هذا الموقف ـ فغادر(باى ليشى) البلاد قاصداً إلى دولة تشين، وكان عمره وقتئذ قد تجاوز السبعين، وهل يعقل أن يفكر رجل قد بلغ ذلك السن، وهو معروف بالحكمة فى أن تكون وسيلته المناسبة ـ للالتقاء بحاكم تشين ـ أن يتحايل على ذلك برعى الأبقار، وهو يعرف أن مثل هذا التصرف مشين للغاية ويحط من قدره، وهل من الممكن أن نتهم رجلا بالغفلة لأنه آثر الابتعاد والصمت ولم يحاول أن يثنى الحاكم عن قراره، وهو يعرف أن مثل ذلك الحاكم ليس ممن ينصاعون للنصح؟ أيمكن أن نتهم امرءاً بعدم التبصّر والتحوط؛ لأنه بادر إلى الخروج من مواطن التهلكة والابتعاد إلى أقصى الأرض، وقد عرف أن الرأس المدبّر للأمور فى دولة يو (حاكم البلاد) فى طريقه المحتوم للهلاك؟ وقد آواه حاكم تشين - وقتئذ - وهو الرجل المشهود له بالمكانة والاقتدار، فلم يبخل باى ليشى

عليه بما فى جعبته من أفكار، بل شدّ من أزره، وصار له عونًا على قضاء أموره؛ فهل نعد ذلك جهلاً منه وغباوة؟ ثم إنه لم يقصر فى خدمة سيده حتى صارت دولة تشين أقوى الممالك، وأصبح حاكمها]موكون [سيد البلاد التى تحت السماء، فانتشر ذكره فى الآفاق، وطبقت شهرته الخافقين، وتناقل ذكره الأبناء والأحفاد. فهل يمكن أن نصف صاحب الفضل فى هذا كله بأنه فطير الرأى خامل الفكر؟

أما مسألة أن يبيع المرء نفسه من أجل تحقيق آمال مولاه وطموحاته وآرائه (العنيدة) فهو ما لا يمكن أن يقدم عليه رجل ساذج، فما بالك بالعاقل الفطن الكريم؟"

(الجزء الثانى)

(وجملته تسعة فصول)

١٠ - ١ قال منشيوس: " كان بويى (حكيما فاضلا) يغضّ بصره عن مشهد السوء، ويعف أذنه عما يتأذى منه السمع، يأنف من أن يخدم حاكما غادرا غشوما لا يوثق به، ويستغنى عمن لا يؤتمن من عامة الناس. ينزل إلى ساحة العمل، إذا ما استتبت أركان الحكم الرشيد، ويعتزل منصرفا عن الانغماس فى الشئون العامة، إذا ما عمّت الفوضى وساد الارتباك. ولم يكن يرضى لنفسه أن يقيم فى ظلال حكومة غاشمة (مع المسئولين المتنفذين) ولا فى موطن يضرب فيه الظلم بأطنابه (مع عامة الشعب) وكان يتصور أن أية محاولة للاقتراب، أو العيش مع البسطاء تشبه محاولة الجلوس وسط أكداس من الوحل والطين والحجارة (حرفيًا: أحجار الفحم) مع الحرص على ارتداء الزى الرسمى المهيب والقبعة وكل لوازم المكانة الوظيفية المهيبة.

وكان عندما حل زمن حكم الإمبراطور تشو [الطاغية، آخر حاكم فى أسرة شانغ الملكية]، ارتحل وأقام وحده على شاطئ بحر بيهاى [يعنى: بحر الشمال] منتظرا عودة الأحوال إلى الاستقرار والهدوء.

إن سيرة بويى وذكريات أيامه، ومشاهد التزامه الخلقى، إذا ما تُليت على الأسماع جردت النفوس المتوثبة إلى الاستبداد من الصلف والجور، فعادت نقية شهباء، وانتزعت من بواطن الضعف والتخاذل كوامن الذل والاسترابة فأصبحت الإرادة أمضى عزما، والإقدام الجرىء، والمبادأة ثقة وشجاعة.".

قد تحدث إيين فقال: " لابد من خدمة وطاعة الملك، فما من حاكم إلا وجب له ذلك، والعمل فرض على العاملين (كل أهالى الممالك)، فما من أحد إلا قام بنصيب من الواجب عليه أداؤه."، (وكان اقتناع إيين تامًا وكاملا؛ حتى أنه..) كان يحرص على بقائه فى وظيفته الرسمية، سواء صلح الحكم واستقام، أو فسد ودبّت فى أركانه الفوضى، وكان يقول أيضًا.." ما وهبت السماء للبشر الحياة، إلا ليعلم الأولون (ممن أوتوا حظا من العلم) الآخرين، ويحرك السابقون (ممن استفاق لديهم الوعى) وعى اللاحقين. ولئن كنت قد أوتيت من الوعى ما سبقت به الأهل والعشيرة، فلن أتوانى عن أن أقوم بينهم مرشداً لمبادئ (القديسين الحكيمين: ياو، وشون)".. وحجته فى ذلك، أن أى تقصير منه فى توجيههم نحو استلهام أفكار ومبادئ ياو، وشون، سيكون بمثابة دفعهم للسقوط فى الهاوية؛ فمن ثم أراد لنفسه أن يتحمل أعباء تلك المهمة على عاتقه.

ولم يكن "ليو شيا هوى" يستشعر الحرج فى أن يكون عاملاً لدى ملك فاسد، ولا كان يرى فى الوظيفة الرسمية المتواضعة ما يمكن أن يمس كرامته أو يلحق به الإهانة (فلم يغادر وظيفة عمل بها طوال حياته) بل ظل حريصًا، أثناء عمله بالقصر الملكى، على إبراز جدارته والتفانى بكل

طاقته والعمل طبقًا للقواعد (المبادئ الأخلاقية) ولم يكن يضجّ بالشكوى إذا أهمل شأنه، ولا يساوره القلق إذا ما ألّمت به المحن. لم يكن يضيق صدره بصحبة البسطاء من الناس، بل كان يتحمّس لمودتهم، ولم يغادر لهم مجلسا إذا ما التأم وإياهم مجلسه، ولطالما ظل يردد مقولة (أصبحت مثلا سائرا من بعده).."لكلٍ شأن ولى شأنى [حرفيًا: أنت هو أنت، وأنا هو أنا] ولن يشيننى عيب صاحبى، ولن يمس نقائى ما شاب الناس من أوضار."..

لذلك؛ فقد صار "ليو شيا هوى" نموذجًا تنشرح به الصدور الضيقة، وتقرّ به العيون والنفوس التى أضنتها غمرات الأحوال.

عندما كان كونفوشيوس فى طريق الرحيل عن دولة لو (وقد استقر عزمه على السفر، وأراد أن يحمل معه زادا يكفيه، فقد..) أسرع إلى حفنات من الأرز المبلل بالماء، فانتزع لنفسه شيئا منه، ولم ينتظر حتى يحين إنضاجه (فقام ومشى، فلما أوشك على عبور حدود دولة لو - مسقط رأسه - قال..) "مهلا أيها المسافر..اتّئد فى خطوك، واعبر على رسلك؛ فذلك ما ينبغى لك أيها الراحل عن وطنك!".

وهكذا، فقد أسرع عندما كانت السرعة واجبة، وأبطأ وقتما كان الإبطاء ضرورة، وكان - قبلها - قد تنحّى عن منصبه؛ إذ كان التنحى لازمًا. والتحق، بعد ذلك، بالعمل عندما آذن الوقت بذلك.. ذلك هو كونفوشيوس، وتلك هى طبيعته!".

وأضاف منشيوس، قائلاً: "كان بويى من أشد القديسين عفة، وترفعًا (عن الحاجات الأنانية المادية) وكان إيين، أكثر الجميع التفاتا إلى (إقامة

المبادئ العليا عبر) العمل الوظيفى، أما " ليو شيا هوى" فقد كان أعظم القديسين بساطة، فى حين كان كونفوشيوس - من بينهم جميعا - هو أعظم من كان يدرك أحوال زمانه وطبيعة ظروفه الماثلة فى عصره. ويمكن القول بأنه كان التجسيد الكامل (للأفكار كلها) [وإذا استعملنا تشبيهًا من الموسيقى، لقلنا..] إن دوره أشبه ما يكون باللحن الموسيقى الجميل؛ إذ تبدأ أول نغماته بعد صوت دقات الطبول، وتختتم أصواته برنات الأوتار [حرفيًا: بعزف وترى على آلة تشينغ] فلطالما كانت دقات الطبول هى مفتتح الألحان، ورنات الوتريات هى خاتمتها، فأول النغمات يتمثل فى إيقاع "الحكمة" ونهاية الألحان تتجسد (تتبلور) فى القداسة.

فالحكمة أشبه ما تكون بالمهارة؛ والقداسة مثلها كمثل القوة.

وإذا ضربنا مثلا لتبيان المعنى (قلنا) إن الأمر أقرب ما يكون إلى التدرب على فن الرماية بمسافة تبعد عن الهدف مائة خطوة؛ فالقدرة على الرمى من مسافة مائة خطوة يتوقف على مقدار ما يملكه المرء من قوة، أما التمكن من التسديد فى قلب الهدف، فلا يمكن أن يتوقف على القوة وحدها.".

١٠ - ٢ ذهب بيكون تشى إلى منشيوس، وسأله، قائلاً: " ترى كيف كانت الدرجات المالية والاجتماعية المقررة فى عصر أسرة جو؟ هلا تفضلت بأن تذكر لى نظامها المقرر آنذاك!".

فأجابه منشيوس، قائلا: " كان من الصعب جداً أن تلهج الألسنة بذكر تفاصيل تلك المسائل؛ لذلك فلم يصل إلى أسماعنا شىء منها، ثم إن أمراء الأقاليم كانوا يسخرون من نظام الدرجات المالية والاجتماعية،

ويعدونه ضارا (بمصالحهم) فقاموا بإتلاف كل السجلات والمدونات الخاصة به، إلا أن (ذاكرتى) مازالت تحتفظ بالصورة العامة (الخطوط الرئيسية التقريبية) لنظام الدرجات القديم، (وبيانه كالتالى) :

(تيان تشى) ابن السماء (الإمبراطور الأعظم) الدرجة (الاجتماعية) الأولى؛ (كونغ) الوالى- أو المحافظ- ؛ [الحاكم العام] الدرجة الأولى؛ (خو) النبيل، الدرجة الأولى؛ (بو) الشيخ، الدرجة الأولى؛ (تسى) و(ناث) (الوجيه)، [الأمجد]، الدرجة الأولى، ومجموعها خمس درجات.

(جون تسى) الحاكم، الدرجة الأولى؛ (تشينغ) الوزير الأعظم، الدرجة الأولى؛ (شانغ شى) النابه [أو "الدارس"] من المستوى الأعلى، الدرجة الأولى؛ (جون شى) النابه من المستوى الأوسط، الدرجة الأولى؛ (شيا شى) النابه من المستوى الأدنى، الدرجة الأولى؛ ومجموعها ست درجات اجتماعية.

الأراضى المقررة لابن السماء (الإمبراطور الأعظم) تبلغ ألف لى مربع؛ أما المخصصة للوالى والنبيل - كليهما على حدة - فتبلغ مائة لى مربع؛ أما أراضى الشيخ فتبلغ سبعين لى مربعًا؛ وتبلغ الأراضى المقررة للوجيه والسيد المهذب - كليهما على حدة - خمسين لى مربعًا، ومجموعها أربع درجات.

فإذا كان مجموع مساحة الأراضى لا يكاد يبلغ خمسين لى من الإقليم ، فلا يحق أن يصبح إقليما تابعا لجلالة الإمبراطور مباشرة، بل يلحق بأمراء الدويلات ويسمى فويونغ [إقليم تابع].

يبلغ إقطاع الوزير الأعظم (لجلالة الإمبراطور) من الأراضي مثل ما يملكه النبيل سواءً بسواء، أما إقطاع الموظف العظيم من الأرض فيساوى ما يوزع على الشيخ سواء بسواء ونصيب الدارس، من المستوى الأول يتساوى مع ما يملكه الوجيه والسيد الأمثل.

يبلغ راتب الحاكم العام فى الولاية التى تبلغ مساحتها مائة لى مربع، عشرة أضعاف راتب الوزير الأعظم، ويبلغ راتب الوزير الأعظم أربعة أضعاف راتب الموظف العظيم [كبير رجال الحكومة]، أما راتب الموظف العظيم فيبلغ ضعفى دخل الدارس من المستوى الأعلى، والنابه من المستوى الأعلى يحصل على راتب يماثل ضعفى مثيله من المستوى الأوسط، ودارس المستوى الأوسط يحصل على ما يساوى ضعفى دخل الدارس من المستوى الأدنى، وراتب الدارس من المستوى الأدنى يتساوى مع ما يحصل عليه الموظف العادى من العامة؛ أى أنه يحصل على دخل هو فى الأساس بدل، وتعويض عن العمل فى زراعة الأراضى.

وراتب الحاكم العام فى دويلة متوسطة تصل مساحتها إلى سبعين لى مربع، يبلغ عشرة أضعاف راتب الوزير الأعظم، وراتب الوزير الأعظم ثلاثة أضعاف راتب الموظف الكبير، وراتب الموظف الكبير ضعفا راتب الدارس من المستوى الأعلى، وراتب الدارس من المستوى الأعلى ضعفا راتب الدارس من المستوى الأوسط ، وراتب الدارس من المستوى الأوسط ضعفا راتب من المستوى الأدنى، وراتب الدارس من المستوى الأدنى، يتساوى مع ما يحصل عليه الموظف البسيط من العامة، وهو دخل يكافئ بدل زراعة الأراضى.

أما راتب الحاكم العام فى بلد صغير لا تزيد مساحته على خمسين لى مربعًا، فيبلغ عشرة أضعاف راتب الوزير الأعظم ، وراتب الوزير الأعظم يبلغ ضعفى راتب الموظف العظيم، وراتب الموظف العظيم يساوى ضعفى راتب الدارس من المستوى الأعلى، وراتب الدارس من المستوى الأعلى يساوى ضعفى دخل الدارس من المستوى المتوسط، وراتب الدارس من المستوى المتوسط يبلغ ضعفى راتب الدارس من المستوى الأدنى ، وراتب الدارس من المستوى الأدنى يتساوى مع ما يحصل عليه الموظف البسيط من العامة، وهو الدخل الذى يحسب بدلاً من دخل زراعة الأراضى، أما بالنسبة للمزارعين، فقد كان كل مزارع يحصل على مائة "مو" من الأراضى، فإذا ما تم استصلاحها وتسميدها، فقد كان المزارع، من الدرجة الممتازة يعول تسعة أفراد، والأقل منه مرتبة يعول ثمانية، والمزارع من الدرجة الثانية يعول سبعة أفراد، والأقل يعول ستة أفراد، والمزارع من المستوى الأدنى يعول خمسة أفراد.

أما بالنسبة للموظف البسيط، فقد كان راتبه يتحدد وفقا لأقسام تلك الدرجات".

١٠ - ٣ ذهب وانجان إلى الشيخ الحكيم وسأله: "هل تأذن ياسيدى بأن تحدثنى عن القواعد التى تقوم عليها أسس الصداقة؟"، فأجابه منشيوس: **"لا يعتد فى الصداقة بالسن ولا بالمنصب والمكانة أو الثروة والجاه؛ فالصداقة الصحيحة تستند إلى الأساس الأخلاقى وحده، لا شىء غير ذلك. (ولنضرب أمثلة معروفة فى هذا الصدد)، فهذا منغ شيانزى [أحد كبار رجال دولة لو.. وهو الوجيه الأمثل، ابن الجاه والشرف] يملك مائة مركبة مجهزة بخيولها وقد جمعته الظروف بخمسة من أعز الأصدقاء**

(من بينهم :) " يوجن تشيو"، و"موجون" وثلاثة آخرين، لا أذكر أسماءهم، وقد كان حريصا، في علاقته بهؤلاء، ألا يظهر بهيئة الرجل صاحب الجاه والمال، سليل الأسر والبيوتات العريقة، ولا كانوا من ناحيتهم ينظرون إلى علاقتهم بصاحبهم من زاوية ما يتفوق به اجتماعيًا بل كثيرا ما قامت الصداقة على هذا المنوال بين حكام الأقاليم (حتى الأقاليم الصغيرة)، وقد قال "هويكون": (حاكم دويلة "في"، إحدى الدويلات الضئيلة في عصر الدول المتحاربة) "من بين كثيرين صادقتهم، فإني أنظر إلى زيك (تلميذ كونفوشيوس) بوصفه أكثر من صديق، فهو أستاذي ومعلمي، أما" يان بان" فهو أوفى الأصدقاء، وبالنسبة لكل من "وانغ شون" و"تشان شي"، فهما أخلص أتباعي (برغم أنهم من الخدم إلا أني أصادقهم!)".

ولم يقتصر ذلك الحال على حكام الأقاليم الصغيرة، بل إنا نجد مثيل ذلك لدى حكام الولايات الكبرى؛ فهذا" بيكون"، حاكم دويلة "جين" الذي قرب إليه صديق عمره "هاينان"، وربطت بينهما عرى الود والصداقة؛ لدرجة أن هاينان هذا كان يدعوه إلى منزله فيذهب إليه، ويجالسه ويأكل معه من طعامه (برغم أن الطعام لم يكن دسما ومع ذلك فقد..) كان يأكل حتى يشبع ويشرب (الخمر) فلا يدع في الكأس بقية، كما يليق برجل مهذب نحو صاحبه، لتستوفي الصداقة حقها بينهما لكن الأمر لم يكن ليتجاوز الحدود - على أية حال - فمع كل تلك المشاعر الودية، لم يكن الحاكم العام يشرك صاحبه في أية موضوعات تتصل بمهام الإدارة الحكومية السيادية، ولم يكن الحاكم العام يدعوه للاشتراك معه فيما

يتعلق بحكم المملكة، ولا فى ضبط أحوال البلاد ولا فى الاستئثار بالمخصصات المالية؛ (فقد كان الأساس الذى قامت عليه هذه العلاقة هو أن..) الحاكم يتصرف مثل أى واحد من الدارسين تجاه رجل، كل رصيده الأخلاق والمبادئ الإنسانية، ولم يتصرف - هنا - بوصفه المسئول الأكبر الذى يتوجب عليه إبداء الاحترام والتقدير لرجل فاضل كريم.

وقد التقى [قديمًا] شون، بالإمبراطور الحكيم "ياو" فدعاه [وكان شون فى تلك الأثناء، صهره، زوج ابنته] إلى الإقامة فى أحد دور الضيافة التابعة للقصر الملكي، وأقام له وليمة، وأكرم ضيافته للغاية، وتوثقت بينهما العلاقة - يومئذ - كأحسن ما تكون بين ضيف ومضيف، وصارت بعدها، مثالا لما يمكن أن يقوم من مودة وعلاقة حميمة بين ابن السماء [الإمبراطور] ورجل من العامة.

إن ما يبديه الوضيع من احترام لصاحب المكانة المرموقة يسمى احترام ذى الوجاهة والشرف الأسمى؛ أما تبجيل ذى الوجاهة للرجل الوضيع، فيسمى التقدير اللائق لذى الفضل والحكمة والخلق الكريم." فكلاهما (كلا النمطين من الاحترام) يقومان على مبدأ واحد، فليس ثمة أدنى فرق".

١٠ - ٤ ذهب وانجان إلى منشيوس، وسأله: " إئذن لى أن أسألك عما ينبغى مراعاته عند تبادل الهدايا (.. بين الأصدقاء).". فأجابه: "أشد ما ينبغى مراعاته عندئذ، هو الاحترام."، فقال وانجان: "(لطالما سمعت بأن) كثرة التعفف عن قبول الهدية ليس من قبيل الاحترام، فما السبب فى رأيك؟".

فقال منشيوس: "عندما يقدم امرؤ فاضل (من مرتبة اجتماعية ذات شأن) هدية لواحد من الناس ، فهو غالبا ما يظل يفكر، بينه وبين نفسه، عما إذا كانت الهدية جاءت بوسائل نزيهة تتفق مع قواعد الأخلاق الإنسانية أم لا؛ وذلك، قبل أن يوافق على قبوله إياها. فلما عُد ذلك التفكير (على هذا النحو) منافيا لأبسط قواعد الاحترام ، صار رفض الهدية (سلوكا لا أخلاقيا) ولم يعد الرفض مقبولا.".

وسأله وانجان، قائلا: " فماذا إذا كان المرء رافضًا قبول الهدية، من أعماقه، مع أنه لم يقل بفمه صراحة - وإن كان بأسلوب غير مباشر - إنه يرفضها، فقد يصور له تفكيره أنه لولا البطش والاستيلاء على أموال الناس ظلمًا وعدوانا لما أمكن تقديم مثل تلك الهدية، ألا يحسن بالمرء حينئذ أن يتخذ من هذا الاحتمال تكئة للرفض؟".

فأجابه منشيوس: " مادامت العلاقات - بين الناس بعضهم بعضًا - قائمة على أصول الآداب المتعارف عليها مثلما تلتزم المعاملات الجارية بينهم قواعد السلوك القويم، فإن كونفوشيوس نفسه، (لو كان مخيرا فى موضوع الهدايا)، لما كان وسعه إلا قبول الهدية."، وعاد وانجان يسأله: "فماذا لو قام أحدهم بالسطو على المناطق النائية، فسرق وسلب أمتعة الناس وأموالهم فلما اجتمع لديه من المال الشيء الكثير، راح يغدق الهدايا على أصحابه؛ فهل يصح قبول هدية من هذا النمط (وهى فى الأصل عبارة عن مسروقات) ما دامت تتوسل بالمعانى الطيبة وتسلك قواعد المعاملات؟".

أجابه منشيوس، قائلا: "بل لا يصح قبولها أبدا، وقد جاء فى "كانغ كاو" [لوائح كانغ الرسمية]، ما يلى .."إن القتلة والسفاحين، واللصوص،

والمعتدين على الناس الذين لا يرهبون الموت ولا رادع يردعهم، أولئك حقت عليهم كراهية الناس أجمعين، لا ينبو عنهم واحد أبداً".. فمثل هؤلاء لا يجدى معهم نصح ولا هداية، وليس أجدى من إنفاذ القضاء بإزهاق أرواحهم، وهو التشريع القانونى الذى توارثته العروش الملكية المختلفة [ورثته شانغ عن شيا، ثم أخذته دولة جو عن شانغ لاحقا عن سابق]، حكمًا لا يتبدل أبد الدهر؛ فهو باق حتى اليوم بغير أدنى تهاون. لذلك أقول بأنه من المستحيل قبول (تلك الهدية)".

وقال له وانجان: " لكن الأمراء صاروا يسرقون الناس، فى هذا الزمان، ويتسلطون عليهم بالنهب والسلب، مثل أى قاطع طريق، فإذا ما أقيمت أصول المعاملات (مجرد واجهة برّاقة تخفى وراءها ما تخفيه) صارت الهدايا محل تقدير الجميع، بما فيهم السادة المهذبون، فما قولك فى ذلك؟"، فأجابه منشيوس قائلاً: "أتظن، لو قام حاكم ملكى رشيد، يبادر إلى وضع كل الأمراء فى صعيد واحد، ثم يعمل فى رقابهم السيف جميعا؟ أم أنه يأمرهم بالتزام جادة الصواب، ثم يمهلهم فلا يقتل إلا من أفرط وتمادى فى غيه؟

إن الزعم بأن كل محاولة للاستيلاء على ممتلكات الغير تعد من قبيل السرقة والنهب واللصوصية؛ فهو زعم كفيل بأن يقيم من المعايير سيوفًا مسلطة، ويشحذ من المبادئ نصالاً حادة، وقد عمل كونفوشيوس - لفترة - فى دولة لو، بوظيفة رسمية، وكان أهل الإقليم يقيمون (حفلات) للصيد والقنص، ويتصارعون للاستيلاء على الفرائس، وكان كونفوشيوس يشاركهم فى ذلك ويقلدهم فيما يفعلون (يستولى على الغنائم مثلهم!)، فإذا كان هذا التصرف (على همجيته) جائزًا، فما بالك بقبول الهدايا ؟".

وهنالك قال له وانجان: "إذا كان الأمر هكذا، فلم يكن قبول كونفوشيوس بوظيفته الحكومية قائمًا على أساس (ما كان يزعمه دائما من أنه يريد بذلك أن يجد الوسيلة إلى..) تطبيق المبادئ الأخلاقية."، ورد عليه منشيوس بقوله: "كلا، بل كان هدفه من وظيفته أن يطبق المبادئ التى طالما دعا إليها وآمن بها.".

فقال وانجان: "فكيف يرضى لنفسه أن يشارك فى حفلات صيد يستولى فيها على الغنائم والفرائس؟"، فأجاب الشيخ: " لأنه اعتمد، فى إرساء قواعد القرابين على المدونات والسجلات (الصحيحة المثبتة)، بديلا عن فتات القرابين والأضاحى التى كان يتم تجميعها من بقايا الطعام المتناثر فى بقاع مختلفة [وهو ما كان يمثل ضربة قاضية لنظام التنازع والصراع حول فرائس الصيد].

وسأله وانجان: "ولماذا لم يحاول كونفوشيوس الاستقالة من وظيفته والرحيل إلى بلاد أخرى)؟"، فأجابه: "كان يحاول أن يجرب، فإذا ماجاءت النتائج لتؤيد وجهة نظره وتنتصر لمبادئه الأخلاقية، مع تحفظ الحاكم على إقرارها، صار مقتنعا بالسفر (ليجرب فى مكان آخر) وهو الأمر الذى لم يمكّن كونفوشيوس من البقاء أكثر من ثلاث سنوات فى بلد واحد، (كانت دواعى كونفوشيوس للالتحاق بوظيفة رسمية متعددة، فمنها..) أنه كان، يقبل أحيانا، بأداء عمل حكومى، ما؛ لأن فرص تطبيق القواعد الأخلاقية كثيرة ومواتية، أو، لما كان (يبديه بعض المسئولين) من استقبال حافل، وروح ودية وحفاوة بالغة، أو لما كان يبديه حاكم الإقليم من رعاية للحكماء والنابهين.

(ومثلا فبالنسبة لواحد مثل..) جيهوان، فقد رضى العمل بوظيفة رسمية؛ إذ كانت تلك وسيلته لتطبيق المبادئ النظرية، أما وى لينكونغ؛ فقد كان سبب قبوله العمل، الحفاوة والاهتمام والرعاية التى أبداها له المسئولون، وما كان "وى شياوكون" ليرضى أن يلتحق بوظيفة عامة، إلا لما أدركه بصورة واضحة من اهتمام الدوائر الحاكمة بأمره، ورعايتها وتشجيعها لأفكاره.".

١٠ - ٥ قال منشيوس (لا ينبغى أن يكون) الفقر هو السبب الأساسى فى البحث عن وظيفة رسمية، ولو أنه كثيراً ما كان هو السبب الوحيد فى ذلك؛ ولا يجب أن يكون الزواج وسيلة للبرّ بالوالدين وضماناً للرعاية الأسرية، ولو أنه طالما كان الزواج يقوم أساسا، لهذا الغرض.

إذا كان الفقر هو الدافع للبحث عن وظيفة رسمية، فلا ينبغى التطلع إلى منصب راق، بل يكتفى بموقع فى أدنى السلم الوظيفى، ذى راتب محدود وأن ينبذ المرء ما يفوق ذلك.

لكن ما هى الوظيفة التى تردّ الطمع فى منصب أرقى، ويقنع بها المرء براتب ضئيل وموقع (ذليل)؟.. ربما لم تكن تزيد هذه الوظيفة إلا على أن يعمل العامل ملاحظاً لبوابات القصور (بواباً) أو خفيرا، يتوكأ على عصاه فى الطرقات. وقد سبق أن عمل كونفوشيوس مراقباً بسيطا لمخازن الغلال، وكان يقول.."أهم شىء (فى هذه الوظيفة) هو أن أتحرى الدقة فى مراجعة الحسابات.".. ثم عمل ملاحظا فى أحد مزارع تسمين الماشية. وكان يكرر دائما قوله.." يجب أن يلتفت المرء (فى هذا العمل) إلى بذل كل جهد من شأنه إطراء نمو الأبقار وتقوية أبدانها."..

أما أن يقبع القابع فى أدنى مرتبة وأحقر وظيفة ثم يتشدق بالحديث حول شئون الدول وسياسات الممالك؛ فذلك إثم يصل إلى حد الجريمة. (ومن ناحية أخرى، فـ..) أن يتبوأ المرء منصبًا متنفذًا لدى القصر الملكى، ثم يعجز عن تطبيق مبادئ الحكم الرشيد؛ فذلك هو العار، وتلك هى المهانة بعينها.".

١٠ - ٦ تساءل وانجان: " لماذا ينبغى دائما على الدارس [المثقف] النابه أن يستقل (فى احتياجاته الضرورية) عن الأمير؛ بحيث يترفع عن سؤاله أن يقضى له حوائجه؟"، أجاب منشيوس قائلاً: "(تلك قاعدة أخلاقية ملزمة) لا يستطيع الدارس أن يتجاوزها.

إن الأمير إذا ضاعت منه أرضه، يستطيع أن يلجأ إلى كنف جيرانه من الأمراء والحكام الآخرين، ويصير تصرفه موافقا للمبادئ (الأخلاقية) المقررة؛ أما لجوء الدارس المثقف إلى الأمير طلبا للمساعدة، فليس من المبادئ فى شىء.".

فقال وانجان: "فهل للمتعلم النابه أن يقبل عطاء الأمير إذا أعطاه (ما يقيم أوده من) محاصيل غذائية [حرفيًا: حبوب الذرة الصفراء]؟"

- نعم ، له أن يقبل عطاءه؟

- فما الحكمة من قبوله مثل هذا العطاء؟

- من حق الأمير أن يقدم المساعدة والغوث والرعاية لضيوف بلاده واللاجئين إلى أرضه.

- أيقبل المتعلم النابه عون الأمير، ويرفض - فى إباء - مكافأته له؟

- أجل، هو ذاك.

- اسمح لى أن أسألك عن السبب فى عدم قبوله مكافأة الأمير.

- إن البواب الذى يراقب مداخل الدور والقصور، له وظيفة، معروفة محدودة، يتلقّى للقيام بها، عون ورعاية السلطة الحاكمة، وبالتالى فليس من اللائق، ولا من الاحترام أن يقبل المرء أى عون أو مساعدة من جانب المسئولين مادام لا يعمل فى نطاق وظيفة رسمية محددة.

- ألا يمكن إذن (على سبيل إيجاد حل مناسب لهذه المسألة) أن يداوم الأمير على مكافأة النابهين، ويواظب هؤلاء على قبول منح الأمير ومكافآته؟

- كان [المدعو] "لو ميو كون" يداوم السؤال عن أحوال "زيس" ويرسل له، بين الحين والآخر وجبات من اللحم المطهو الطازج؛ لكن زيس لم يشعر بالارتياح لهذا (الكرم غير العادى) وهكذا، فقد اعتذر - ذات مرة - لرسول الأمير، وقال له، وهو يرد إليه عطاء الأمير ويودعه عند الباب، وينحنى له أدبًا وتبجيلاً: "قل لسمو الأمير إنى أشكر له اهتمامه بى، وكأننى مجرد كلب أو بقرة فى حظائر حيواناته." وقد أحجم الأمير، بعد ذلك، عن إرسال عطاياه، منذ ذلك الحين، واكتفى بالتعبير عن حبه وإعجابه بالحكماء والفضلاء دون إسناد أى عمل مناسب لهم أو تكريم وفادتهم، فهل يمكن أن يكون فى هذا التصرف أى تبجيل، أو تقدير للحكماء وذوى الفضل؟

- قل لى إذن، ياسيدى، كيف يمكن أن تكون حفاوة الملك بالحكماء جديرة بمكانتهم وما يستحقونه من توقير؟

- عندما يجرى منح الهدايا الملكية [باسم جلالته] لواحد من أولئك النابهين، لأول مرة، فينبغى على المستلم أن ينحنى مرتين، ثم يستلم ما يقدم له، وتصرف له حصص دائمة من الحبوب واللحوم، دون أن يتطلب الأمر، فى كل مرة، التفضل بالتكرم عليهم بهذه المقررات باسم جلالة الملك؛ فقد ظن زيس أن سيكون مطالباً بالركوع والسجود لاسم الملك فى كل مرة يتم إرسال حصة اللحم المطهو إليه، وهو الأمر الذى بدا له مهيناً.

كان الإمبراطور الحكيم ياو يأمر أولاده التسعة بالقيام على خدمة تلميذه (وخليفته فيما بعد) شون، وقام بتزويج ابنتيه له، وأصدر أوامره بأن يكون السعاة والموظفون والدواب ومخازن الغلال، فى خدمته وطوع إرادته وجعل له الكلمة العليا فوق كل الأرض، بمزارعها وحدائقها، ثم رفعه - فيما بعد - إلى أعلى المناصب السيادية؛ لذلك يضرب المثل بجلالته فى احترام وتقدير ذوى الحكمة.".

١٠ - ٧ ذهب وانجان إلى منشيوس، وسأله: "أود أن أسألك ياسيدى، عن سبب امتناع (النابهين.. المتعلمين) عن مقابلة الأمراء؟"، فأجابه الشيخ: "إن من يدعون وزراء الأحياء والآبار الجوفية من سكان المدن، ومن يقال لهم "وزراء الأعشاب والنباتات" من أهل القرى، كل أولئك وهؤلاء (ليسوا وزراء حقيقيين، بل هم..) مجرد أفراد بسطاء من أبناء الشعب؛ ولأنهم لم يقوموا بالطقوس الواجبة التى تقضى بتقديم "هدايا التعارف الرسمية (لأمراء الأقاليم) فلا يحق لهم، حسب القواعد والأصول المقررة، مقابلة أمراء الولايات.".

وسأله وانجان: "(لكن الغريب فى أمر أبناء الشعب هؤلاء هو أنهم..) إذا صدرت إليهم الأوامر بأداء الخدمة العسكرية، استجابوا على الفور؛ أما إذا صدر إليهم طلب الحضور لمقابلة الحاكم العام، امتنعوا عن الاستجابة، فما السبب في ذلك؟"، فأجابه: "الخدمة العسكرية، واجب ومهمة إلزامية، أما لقاء الحاكم العام، فليس أمرًا ملزمًا، وإنى لأتساءل عما يدعو الأمير إلى الإلحاح فى طلب الالتقاء بواحد من العامة؟ (هل يمكن أن يكون الحاكم فى حاجة ماسة لمقابلة واحد من العامة إلى هذا الحد؟!)، فقال وانجان: "ربما أراد الحاكم أن يستزيد من سعة معلومات ضيفه، أو لعله أراد (بهذه المقابلة) تقدير نبوغه أو أدبه وكريم صفاته الأخلاقية."، فقال منشيوس: "(أما فيما يتعلق بالاستزادة من المعرفة) فإن جلالة الإمبراطور - ابن السماء - لا يملك أن يرغم متعلمًا على المثول بين يديه، فما بالك بأمراء المقاطعات؟ (و بخصوص تقدير الأمير للنبوغ والأدب والصفات الخلقية الجليلة)، فلم أسمع طوال حياتى، أن حاكمًا استدعى رجلا فاضلا إلى مقر الحكم، لمجرد الرغبة فى اللقاء به ومجالسته!

ولطالما التقى "لو ميو كون" بـ زيس، وكان يقول له.." قد جاء حين من الدهر، على الحكام [حكام الدويلات] الذين يحوزون القوة والمنعة والجاه [حرفيًا: يحوز الواحد منهم ألف مركبة عسكرية] كانوا يعقدون فيه صلات ودية مع الدارسين النبهاء ويتخذونهم أصدقاء، فما ظنك بأحوال تلك العلاقات وعلى أى نحو سارت، وإلى أى مصير انتهت؟".. وهنالك ابتأس زيس وقال.."بل يؤثر عن القدماء قولهم إن ولاة الأقاليم كانوا يتخذون من النابهين مؤدبين ومعلمين، (ودرجة العلاقة - هنا - تختلف كثيرا عما بين الأصدقاء)، فمن أين لك بذلك القول؟".. وأضاف زيس،

وقد بلغ به الحزن مبلغه.." أليس غريبًا أن تقوم الصداقة بين اثنين لكل منهما مكانته المختلفة؛ فهذا حاكم إقليم وذاك مجرد مسئول عام من ذوى الرتب والألقاب، فكيف يتأتى للصداقة أن تنشأ بينهما؟ (هذا من ناحية و..) من الناحية الأخلاقية.. فالأمير هو الذى يتلقى العلم على يدى المتعلم (فإذا كان أحد طرفى العلاقة تلميذاً والآخر مؤدبه) فكيف يمكن للصداقة (التى تنشأ بين طرفين متكافئين.. مكانة، وقدرا) أن تكون هى طابع مثل تلك العلاقة؟"..

فإذا كان حاكم الإقليم ذو المركبات العسكرية الألف - يقول منشيوس - لا يستطيع أن يضمن قيام علاقة صداقة بينه وبين المتعلمين فهل يملك أن يدعوهم فيجيبونه؟

حدث، ذات مرة، أن "تشى جين كون" كان فى رحلة صيد فرفع رايته وأشار ناحية أحد الجنود يأمره بالذهاب إليه، فلم يمتثل، فهمّ بقتله.

(وقد قال كونفوشيوس..) "إن المتعلم ذا القلب الذكى لا يأبه للموت بين شقوق الجبال أو فى مسارب الوديان، وكذلك لا يخشى الشجاع أن تسقط رأسه من فوق كتفيه".. فما الذى يريد كونفوشيوس التأكيد عليه هنا؟ إنه التأكيد على (شجاعة الحارس البسيط) برفضه الامتثال لدى الملك الذى أخطأ استخدام الراية الصحيحة واستعمل أسلوبا لا يليق، متنافيا تماما مع قواعد المعاملات.".

وسأله وانجان: " فما هى الإشارة الصحيحة التى كان يتوجب على الحاكم استخدامها؟"، أجابه منشيوس: "كان من المفروض أن يستخدم قبعة من الجلد، (وحسب الأصول المستقرة فى مثل تلك الأحوال..) فقد كانت الراية الحمراء تستخدم لاستدعاء الأفراد العاديين (من العامة)، والراية التى تسمى ["تشى"، وهى المزيّنة بصورة التنين] هى التى

تستعمل لاستدعاء المتعلمين من رجال القصر، أما كبار رجال الدولة فيتم استدعاؤهم بواسطة الراية التى يطلق عليها ["جى" وهى المعلمة بريشة تتدلى من رأسها]؛ فإذا استخدمت تلك الراية، مثلا، لاستدعاء أحد حراس ميدان الصيد، فلن يمتثل للأمر أبدا.. (ولو كان السيف على رقبته، فلن يستجيب للأمر؛ وكذلك..) إذا استخدمت الراية المخصصة لاستدعاء المثقفين بالإيماء ناحية واحد من العامة، فكيف يمكن لرجل بسيط أن يصدع لهذا الأمر؟ فماباك إذا استخدمت إشارة لواحد من النكرات فى استدعاء ذوى الحلم والكرم والمكانة الشريفة؟

إن (الأمير إذا طلب) الالتقاء بذوى الحكمة دون إعمال القواعد والأصول المناسبة، فهذا أشبه ما يكون بإغلاق الأبواب فى وجه الضيف المدعو للزيارة. إن الاستقامة هى الطريق، وقواعد المعاملات هى البوابة الكبرى؛ فالعاقل الحكيم، وحده، هو القادر على التزام جادة الطريق، والدخول عبر الباب الكبير؛ وقد ورد فى كتاب الشعر القديم، (ما نصه):

" تمهد الطريق، بغير عثرات،

تحت أقدام السائرين،

كأنه صفحة حجر منبسط بغير نتوءات،

كأنه رشقة سهم منتصب

على طول المدى.

صفحة طريق،

تخط عليها أقدام الحكماء خطى،

تترسمها أقدام اللاحقين." .

ثم عاد وانجان يسأل منشيوس: " كان كونفوشيوس قد استجاب لأمر استدعاء ملكي، (ومن شدة استعجاله للمثول بين يدي جلالته) استبطأ المركبة المخصصة لتنقلاته، فذهب يعدو إليه، ماشياً على قدميه، ألا يعد مثل هذا التصرف - من كونفوشيوس - معيبا؟"، فأجاب الشيخ: "كان كونفوشيوس، يومئذ، يتولى منصبا حكوميا متنفّذا؛ ومن ثم فقد استدعاه الملك بصفته مسئولاً رسميا.".

١٠ - ٨ قال منشيوس موجهًا حديثه إلى وانجان: " كثيرا ما يحاول المثقفون، من الطبقة العالية الشريفة، فى بلد، ما، إقامة علاقات من المودة والصداقة مع مثقفى بلد آخر.

وقد تجد مثقفى إقليم، ما، يحاولون عقد أواصر الصداقة مع نظرائهم فى إقليم ثان، بل إنك لتجد مثقفى الممالك كلها، أولئك الذين بلغوا أعظم مراتب الامتياز والحكمة والمكانة، يحاولون التواصل والتآخى مع باقى المتعلمين والمثقفين فى كل الممالك والدويلات التى تحت السماء، ثم إن منهم من يجد تلك الصداقة غير كافية (لا تشبع نهمهم المعرفى) فيعودون إلى صفحات التاريخ يقلبون أوراق (الشخصيات) القديمة، ينشدون أشعارهم ويطالعون أفكارهم ومدوناتهم. يتداولون النظر فى شتى أمورهم (دون أن يدركوا حقيقة ما كان فى ماضى زمانهم)، ويتعمقون، من ثم، فى درس وتمحيص أحوال الماضى والزمان الغابر؛ فتلك هى الطريقة (طريقتهم المعهودة) فى عقد أواصر الصداقة مع القدماء.".

١٠ - ٩ كان لدى الملك شيوان الكثير من الأسئلة المتعلقة بالوزراء والنبلاء. (فتكلم فى ذلك مع منشيوس)، فقال له الشيخ: " أى نوع من الوزراء والنبلاء تقصد بكلامك يامولاى؟"، فقال الملك: "أهناك فرق بين الوزراء والنبلاء

بعضهم بعضا؟"، فأجابه منشيوس: "أجل، هناك فرق كبير؛ فليس الوزراء والنبلاء من الأسرة الملكية، عشيرة الملك الأقربين، مثل الوزراء وكبار رجال الدولة (من ذوى الألقاب غير الملكية).

قال الملك: " فاذكر لى- إذن- أحوال الوزراء والنبلاء من أفراد الأسرة الملكية."، قال منشيوس: "هؤلاء مطالبون ـ إذا ما وقع الملك فى خطأ بالغ - أن يقدموا له النصح، فإذا ما عاندهم وأصر على موقفه، عزلوه وأقاموا على العرش ملكا آخر بدلا منه."

وهنالك امتقع وجه الملك فجأة، فواصل منشيوس كلامه، قائلا: "على رسلك، يامولاى، ولئن قلت لجلالتك ما قلت، فلأنى وزيرك الذى لن يتوانى عن أن يصدقك القول مادمت قد سألتنى الرأى والمشورة.".

فبدت أمارات الارتياح على وجه جلالته، وراح يسأل منشيوس عن طبيعة وأحوال الوزراء والنبلاء من غير ذوى اللقب الملكى، فأجابه منشيوس، بقوله..

" أما أولئك، فلهم أن يوجهوا النصح للملك المرة تلو الأخرى، إذا مابدا لهم أن الملك قد جانبه الصواب فى أحد شئون الحكم، فإذا ضرب جلالته صفحا عن الأخذ بآرائهم، صار لهم الحق فى أن يقدموا استقالاتهم من مناصبهم.".

الباب السادس

كـــاوتـــزى
(الجـزء الأول)

(وجملته عشرون فصلا)

١١ - ١ قال كاوتزى: (وهو فيلسوف سياسى عاش فى زمن الدول المتحاربة) "إن الطبيعة الإنسانية تشبه شجر الصفصاف، أما المبادئ الإنسانية فهى مثل الأكواب والأواني؛ ومن ثم يصبح تطويع الطبيعة الإنسانية لمقتضيات الاستقامة والمبادئ الأخلاقية، أشبه ما يكون باستخدام خشب الصفصاف فى صنع الأوانى الخشبية."

فقال له منشيوس:"أتستطيع أن تصنع آنية خشبية حسب ما تمليه عليك طبيعة الشجرة أم تضطر إلى تشويه وتفتيت سيقانها وزروعها قبل أن تشرع فى تشكيل مادة صناعتك؟ فإذا كنت ستعمد إلى تشويه جسد الصفصاف لتصنع الآنية المطلوبة، فلابد أنك (بالمثل) ستكون مطالبًا بتبديل الطبيعة الإنسانية كى تتفق مع ضرورات تطبيق مبادئ الاستقامة والأخلاق. ولا أرى إلا أنك تريد أن تقود البشرية فى طريق تدمير مبادئ الاستقامة والإحسان.".

١١ – ٢ قال كاوتزى: "الطبيعة الإنسانية مثل تيار الماء المتدفق، إذا شققت له قناة جهة الشرق، جرى فى ذلك الاتجاه بكل قوته، وإذا فتحت أمامه ممراً صوب الغرب تدفق فى الممر بكل العنفوان، الطبيعة الإنسانية لا تفرّق بين الخير والشر، تماماً مثل نهر جارٍ صوب الشرق أو الغرب، كيفما سبح التيار.".

فقال منشيوس: "صحيح أن الماء يمكن أن ينساب إلى الشرق أو الغرب كيفما كان اتجاه المجرى، لكن هل يمكن للمياه أن تتدفق إلى أعلى أو أسفل حسبما اتفق لها أن تنساب مع التيار؟ إن الطبيعة الإنسانية الطيبة مثل ماء ينحدر إلى أسفل؛ وما من طبع إنسانى إلا وهو مائل إلى الخير، مثلما تميل مياه النهر فى مصب جريانها، لكن للماء أيضاً طبعاً آخر لا يتبدّى لك، إلا حين تضرب صفحة الماء بيديك فتتطاير دفقات الماء إلى أعلى، إلى فوق قمة رأسك، أو تنزح الماء بدلو إلى مجرى آخر فيرتد التيار على أعقابه، أو أن ترفعه إلى حيث تسيل به الجداول فى قمم الجبال، فهل يمكن أن يكون للماء طبع واحد لا يتبدل؟ إنها الأحوال المتغيرة التى تتلّبس به، فتتبدل طبائعه وتسيل به فى غير مجراه (وكذلك الإنسان) إذ يمكن (بفعل التحريض) أن يرتكب أفظع الشرور والآثام؛ فقد يتبدل الطبع هنا مثلما تغير الأنهار هناك – مجراها.".

١١ – ٣ قال كاوتزى: " إن الطبع الغريزى هو الطبيعة نفسها." فسأله منشيوس: "إذا كان الطبع الغريزى هو الطبيعة نفسها فهل يمكننا أيضا القول بأن اللون الأبيض هو البياض نفسه؟"، فأجابه:" نعم، هو ذاك."، فسأله منشيوس: "(ولابد، بالتالى، أن يكون) بياض ريش الطائر الأبيض مثل

بيـــاض الثلج الأبيض، ويكون بيـــاض الثلج الأبيض مـــثل بيـــاض اليشب(حجر كريم) الأبيض، أليس كذلك؟"، فأجابه:"بلى، هو ذاك!"، فقال منشيوس: "إن الإقرار بهذا يعنى (يحتّم علينا أن نتساءل عما إذا كانت) طبيعة الكلب الغريزية تماثل الطبيعة الغريزية للثور، وهل طبيعة الثور، من ثم؛ تشبه طبيعة الإنسان!".

١١ – ٤ قال كاوتزى:" إن الطعام والشراب والجنس طبائع غريزية فى الإنسان، إن الرحمة خصلة باطنية وليست ظاهرية مشهودة؛ أما الاستقامة فسلوك ظاهر ملموس غير باطنى."، فقال منشيوس:"بأى معيار عرفت أن الرحمة باطنية والاستقامة ظاهرية؟"، فأجابه:"يتضح ذلك بما أوقّر به كبير السن، فتوقيرى إياه واحترامى له (سلوك ظاهر ملموس) ولم يكن ذلك طبع أصيل موجود من قبل؛ فهذا أشبه مايكون بشىء متلوّن باللون الأبيض، فنحن نراه أبيض، فذلك البياض الظاهر أوجد الانطباع بكونه لونا أبيض؛ لذلك أقول بأنه عنصر خارجى فى ظاهر الأشياء، "فقال منشيوس:"قد يكون البياض مشتركا فى لون الحصان والإنسان، فهو لون واحد فى كليهما، لكن السؤال هو: هل يتماثل – بناء على ذلك – توقيرى وإشفاقى بالرجل العجوز مع شفقتى بالحصان؟ وهل تقول بأن الاحترام (عنصر ظاهر) فى الكهل كبير السن وجزء من تكوينه الأخلاقى (الاستقامة والرحمة) أو هو خصلة مركوزة فى طباع الفرد الذى يوقر ويبجل كبار السن؟"، فأجابه كاوتزى قائلا:

"هذا أخى الصغير، أحبه وأترفق به، أما الأخ الأصغر لأى واحد من الناس، فليس بينى وبينه أية مودة، (فحبى لأخى) ناتج عن العلاقة التى

تربطنى به؛ لذلك أقول بأن الرحمة طبيعة باطنية. أما احترامى لواحد من كبار السن فى دولة تشين (مثلا) فهو كاحترامى (أيضًا) لكبار السن (فى عائلتى) وكلاهما نابع من سلوكى مع كبار السن عامة؛ فلذلك أزعم بأن الاستقامة مظهر سلوكى ملموس"، ورد عليه منشيوس، قائلا:"وما الفرق - إذن - بين أن تحب أكل اللحم المشوى فى دولة تشين أو أن تأكله فى بيتك، والأشياء الأخرى كافة على هذا النحو أيضا. فهل تكون الذائقة أو الرغبة فى أكل اللحم المشوى سلوكا خارجيا(وليست طبعا أصيلا فى النفس؟)".

١١ - ٥ ذهب منغ جيتسى (الأخ الأصغر لحاكم دويلة "رن"، حكم الدويلة فى غياب أخيه) إلى كونتوس وسأله:"على أى أساس تقول بأن الاستقامة صفة باطنية؟"، فأجابه:"على أساس أن الاحترام نابع من باطن النفس."، فعاد منغ جيتسى يسأله: "هب أن أحد أهل بلدتك كان أسن من أخيك الأكبر بعام واحد، فمن منهما جدير باحترامك؟"

- أخى الأكبر

- فكيف إذا صببت الخمر فى كأسيهما، فبأيهما تبدأ؟

- أصب الخمر فى كأس الرجل الذى من بلدتى أولا.

فقال منغ جيتسى:"هاأنت تبجل أخاك الأكبر فى البدء، لكنك عند صب الخمر أوليت احترامك لشخص آخر، مما يدل على أن "الاستقامة" عرض ظاهرى، وليست خصلة أصيلة فى الطبع."، فبهت كونتوس، ولم يجب بشىء، ثم قصد إلى منشيوس وأخبره بما دار بينهما، فقال له: "كان أحرى بك أن تسأله قائلاً:

"أتحترم عمك أكثر أم أخاك الأصغر؟" ولابد أنه كان سيرد عليك بقوله:" أحترم عمي الأكبر بالطبع"، فتقول له:"فماذا لو أقام أخوك الأصغر فى طقوس القرابين محل آبائك وأجدادك واكتسب صفة التقديس لهم، فمن تحترم أكثر؟"، ولابد أنه كان سيجيب بقوله:"أحترم أخى الأصغر"، فتقول له: "فلماذا اخترت عمك أول الأمر؟"، وعندئذ كان سيرد قائلاً: " إن ما يمثلانه من مكانة قد تغير كثيراً (بسبب قيام الأخ باكتساب صفة الأجداد فى طقوس القرابين) "وهنالك كنت ستقول له على الفور:" لو كان الأمر متعلقا بما يمثله المرء من مكانة لكان أخوك الأكبر أولى بالاحترام لكنك، فى ظروف طارئة أوليت احترامك للرجل الآخر!".

فلما بلغ هذا القول مسامع "منغ جيتسى"، قال.." سواء أكان الاحترام للعم أم للأخ الأصغر فالأمر سيان، لأن الاحترام يتحدد وفق أسباب ظاهرية وليس لموجبات باطنية.".. فأجابه كونتوس قائلا: "فى الشتاء نشرب الماء الساخن وفى الصيف نشربه باردا، فهل فى رأيك يتحدد الأكل والشرب حسب عوارض خارجية، (إذ لو كان الأمر كذلك لرغبنا فى شرب الماء الساخن صيفا والبارد شتاء!)

١١ – ٦ قال كونتوس:" يؤثر عن كاوتزى قوله.. "ليس فى طبيعة الإنسان – أصلا – ما هو طيب أو خبيث.".. ويقول بعض الناس: " من الممكن أن تتسم طبيعة الإنسان بالخير أو بالشر، على السواء، ومن الممكن توجيهها فى هذا الاتجاه أو ذاك، (ومثلا) فعندما اعتلى العرش (ملوك قدماء مثل:) الملك "أون"، والإمبراطور "أو"، كانت طبائع الناس تميل إلى الجانب الطيب؛ أما فى عهد الملك "يو" والحاكم "لى" فقد غلب على الناس المرارة

والكراهية."، وهناك من يقولون: "من الناس من يتسمون بالخير عموما، ومنهم من يوصمون بالخبث والسوء، وهكذا نجد في عهد حاكم طيب مثل الملك الحكيم" ياو" أناسًا موصوفين بالشر، منهم (مثلا) شيانغ (أخو الملك)؛ وعندما كان هناك خبثاء فاسدو الطوية مثل كوصاو (ذلك الأب اللئيم) ظهر رجل فاضل طيب هو الملك شون (الابن الذكى الطيب)، ولما كان هناك حكام فاسدون مثل ولد الطاغية الشهير تشو الذى تولى العرش (فى وقت من الأوقات)، ظهر رجال صالحون طيبون مثل "وى تزى شى" و" بيكان" (الأعمام الطيبين) فما بال هؤلاء الذين ذكرت لك؟"، فأجاب منشيوس بقوله:" يمكن تطويع الطبع الإنسانى لكى يصير خيّرا، ذلك هو ما قصدته من أن الإنسان مجبول على الخير، فإذا كان هناك البعض ممن يحيدون عن النهج الطيب، (فيمكنك أن ترد ذلك إلى أية أسباب)، لكن ليس من بينها ما يمكن أن يلقى بالتبعة فيه على الطبع الأصيل؛ فالتراحم (إحساس) مشترك بين الجميع، وكذلك الحياء، والتبجيل، والتمييز بين الخطأ والصواب.

فالتراحم من الإنسانية؛ والحياء من الاستقامة؛ والتبجيل من التأدب؛ والتمييز بين الخطأ والصواب من الحكمة. ثم إن الإنسانية والاستقامة والتأدب والحكمة جميعا، ليست عوامل خارجية مضافة للمرء، وإنما هى صفات باطنية قائمة فى طبيعته، كل ما فى الأمر أن المرء لم يسع إلى طلبها بالتأمل الذهنى؛ لذلك يقال بأن:"المرء إذا سعى فى طلب (تلك الصفات الجوهرية) فسوف يجدها، أما إذا أهملها فستنأى عنه أبد الآبدين."، ولئن كان حظ الناس منها يتفاوت؛ إذ ينقص ما لدى البعض

عما يملكه البعض الآخر والسبب فى ذلك يرجع إلى عجزهم عن استنهاض كوامن الطبع فى أعماق نفوسهم.

وقد ورد فى كتاب الشعر القديم، (ما نصه):

" خلقت السماء بنى البشر،

ووضعت كل شىء بمعيار،

وقدرت القدر،

فمن عرف معايير الأشياء ونظامها،

أدرك الجمال والروعة،

فى المسلك الطيب والخلق القويم."

وقال كونفوشيوس:"لقد فهم، صاحب تلك الأبيات الواردة فى كتاب الشعر، جوهر الطبيعة الإنسانية؛ إذ أدرك أن لكل شىء نظاما وقانونا محددا، وهو ما يشرح صدور الناس، إذا مافقهوا تلك النظم والقواعد الراسخة، للتأدب بالخلق الجميل.".

١١ - ٧ قال منشيوس:" فى مواسم الحصاد الوافر، يجد الناس ما يقيم أودهم (فيعم الخير)؛ أما فى أيام القحط، فتغلظ القلوب وتسوء الطباع (فيسود الشر) فلا تقولن إن الطبائع قد تبدلت، (بل قل) إن الظروف المحيطة (بالناس) قد أفسدت باطنهم.

ولننظر - مثلا - إلى (ما يحدث عند زراعة) الشعير؛ إذ تبذر البذور، وتفلح الأرض، ولما كانت الحقول كلها تربة واحدة (خصبة) ألقيت فيها الحبوب فى موسم زراعة واحد، فقد حقّ أن يكون النماء وفيرا، فإذا حل

الصـيف، وأزف تمام النضـج، ظهـرت فـوارق فى نـاتج الإنبـات(ولـم يكن الثمر كله تام الخصوبة) وذلك للفارق فى باطن التربة (بين خصوبة كاملة وجدب مـهلك) ومطر وافـر (هنا) وندى شـحـيح (هناك)،أو يكون الفـارق راجعـا لمقدار الجهد المتفاوت، وقت الزرع. فـمن ثم كانت الأشـيـاء ذات الطبـيعة الواحـدة تتمـاثل أحـوالها. (غيـر أن المرء يتسـاءل، برغم ذلك:) لماذا، حـينمـا يتعلق الأمر بالإنسـان، تثـور الشكوك (حـول تماثل أحـوال الطبيعة الواحدة تلك؟.. مع أن الواقع يؤكد بأن) القديسين الحكمـاء هم أيضا بشر مثلنا؟

وقد قـال (الحكيم) لونزى:" حتى لو لم ينتبه صانع الأحذية إلى مقـاس القدم بدقة كـافية، فهو سينتج(فى كل الأحوال) حذاءً للقدم، وليس سلة للفـاكهة."، فكل الأحذية تتشـابه على نمط واحد، لأن أقدام البشـر على شاكلة واحدة.

وكذلك حاسة التذوق متماثلة (بين البشر جميعا)، وقد سبق للوزير"إيا" (تنطق كمـا فـى" إيّاك" الوزير المقرب من الملك هوانكون، حـاكم تشى) أن تأمّل بعـمق، فى مـسـألة حـاسـة التذوق عند البشـر."، (ولابد أن عنصـرا مـشـتـركـا قـد لوحظ فـى هذا الشـأن)؛ ذلك أن اشـتـراك البـشـر فـى تلك الحاسة (على النحو الذى يمكن تأكيده) إذا مـا تأملنا الفارق بين التذوق عند الكلاب والحمـيـر، وبين بنى الإنسـان، يدعـونا للتسـاؤل عن العنصـر المشترك فى التذوق البشرى الذى أتاح لـ "إيا" ضمّ الصـفـات الإنسـانيـة المتجـانسة لهذه الحـاسـة فى بند واحد. فـفـيمـا يتعلق بالتـذوق، فـإن كل البشر يطمحون - لابد - إلى أن تتحد حاستهم مع التعريف البشرى لها عند إيا، وهـو ما يؤكد وجود السمات المشتركة لحاسة التذوق البشرى.

وكذلك يصح الموقف بالنسبة لحاسة السمع، التى لن يتوانى إنسان عن أن يطلب لأذنه رهافة السمع التى استطاع" شيكون" (أحد خبراء الأصوات فى العصر القديم) قياسها بدقة، وهو ما يثبت الصفات الإنسانية المتماثلة لتلك الحاسة بين الناس جميعًا.

والأمر نفسه يسرى على حاسة النظر؛ ذلك أننا إذا تطرقنا إلى الحديث عن "زيدو" (رجل اشتهر بالجمال البارع فى الزمن القديم) فلن نجد أحدا من الناس يجهل ما اشتهر به ذلك الرجل من جمال ووسامة وملاحة قسمات، ليس سوى العميان فقط هم الذين احتجب دونهم ذلك الحسن الفتّان.

فلذلك أقول إن هناك وجهًا مشتركًا فى التذوق بين الفم والمذاق؛ (وكذلك..) بين الأذن والصوت طبيعة واحدة فى الأسماع، وبين العين والألوان عنصر مشترك فى إدراك الجمال (بالنظر)، فماذا عن العقول والقلوب؟ أيمكن ألا تشهد، هى أيضًا، عناصر مشتركة (بين البشر)؟ وإذا وجدت تلك العناصرالمشتركة، فأين، وما هى؟ (وبالتأكيد فتلك العناصر توجد فى) الطبيعة (..الإنسانية) وفى الاستقامة (الحق والعدل؛ فذلك هو..) ما اهتدى إليه القديسون من مشترك جامع بين الناس كلهم، فبهاتين الصفتين تعرف القلوب البُشرى، وتنتشى (بالحياة) تماما، مثلما تجد الأفواه المذاق (مذاق لحوم الماشية!)، فتتجدد به شهية كل ذى فم يطعم الطعام.".

١١ – ٨ قال منشيوس:" قد مضى على أشجار جبل" نيوشان" زمان كانت تزهو فيه بالنضرة والنماء؛ إذ كان موقعها عند حافة ضواحى المدينة الكبرى،

فلما نكبت بالفئوس القاطعة (التى انهالت على جذوعها ضربا وتكسيرا) عجزت عن أن تحتفظ بنضارة نمائها ووفرة الأغصان والأوراق، كم مضى عليها دهر، كانت تتفتح فيه البراعم كل صباح ورواح، وكم هطلت فوق روابيها الأمطار وتعلق بأهدابها الندى. ثم ها هى ذى ما عادت تنبت برعما أخضر، ولا فروع ولا أوراق، بعد إذ صارت مرعى للماعز والأبقار فيبست غياضها وذبلت أوراقها وأقحلت ساحتها، وبدت لعين الرائى كأنها لم تعمر أبدا بوافر الخضرة والشجر، حتى تساءل المتسائل : أيمكن أن تكون تلك هى طبيعة الجبل فى البدء والمنتهى؟

(ونتساءل نحن): أيمكن أن تخلو طبيعة الإنسان من الرحمة والاستقامة؟ أتكون الرحمة والاستقامة قد استئصلتا من جوفه مثلما استئصلت أشجار الغاب؟ ولعمرى، كيف يثمر غاب تسلطت على شجره شفرات المعاول؟ إن ما يعتمل فى نفوس الناس فى كل صباح ومساء من نوايا طيبة تنشط وتستيقظ من غفوة، كيقظة نهار طالع بدأب وحماس، ويصير الحب والكراهية (فى النفس العامرة بالخير) مماثلاً لما فى كل النفوس من حب وكراهية، ولو بقدر زهيد ثم يطلع نهار يوم آخر، تتبدد فيه كل الأعمال الطيبة (حرفيًا: تتقيد بأغلال ثقيلة) ثم ترزح كل النسمات الطيبة تحت جنح ليل وأغلال مصفدة، وتصير إلى الفناء، تحتبس نسمات الخير تحت إسار الليل فتصير إلى العدم، وتمسى (نفوس البشر) أقرب ما تكون إلى (نزعات) الطير والوحش، فيبدو للناس كأنها لم تتحل، يوما، بالفضيلة. أفتكون تلك، يومئذ، هى طبيعة تلك النفوس وأولئك البشر؟

لذلك (أقول) إنه لا ضياع لما أوجدت، ولا هلاك لما أرشدت، ولا بقاء لما لم تتوسل إليه بالهداية والإرشاد. وقد قال كونفوشيوس:" لا خسارة مع الحرص، ولا بقاء مع التهاون، وإن ما لا ينضبط أداؤه بميقات (معلوم)، لا تعرف لاتجاهه غايات (مفهومة)".. فأظن أن هذا القول كان بصدد التعليق على (مسائل تتعلق بـ) النفس الإنسانية.".

١١ - ٩ قال منشيوس:" لا ينبغى أن نندهش إذا عرفنا أن جلالة الملك يفتقد أدنى قدر من الحكمة. فحتى أكثر النباتات نضارة وأشدها نموا وأصلبها عودا لن تحتمل حرارة القيظ يوما واحدا ولا زمهرير الشتاء عشرة أيام،(إذ سرعان ما تجف أو تذوى تلك الظروف بالغة القسوة)، ولطالما كنت مقتصدا فى زيارتى لجلالته فلم أزره سوى عدة مرات، فلما اعتكفت فى دارى، قام بيننا جدار من جليد. ولست أجد أى نفع فى براعم الخير التى تنبت فى قلبه (والأمر يبدو لى أشبه ما يكون بقول القائل.. (إنها لعبة شطرنج - أو قل - إنها مجرد حيلة بسيطة من مئات الحيل فى تلك اللعبة التى إن لم تصرف انتباهك بالكامل فى تعلمها، فلن تجيد منها قيد أنملة.

إننا لو طلبنا إلى "إيتشيو" (أبرع لاعب شطرنج فى الممالك كلها) تعليم اثنين من الدارسين لمهارات اللعبة، وكان أحدهما مكبّا على العلم بشغف، صارفًا كل انتباهه لما يتلقاه عن أستاذه "إيتشيو" من علم ومعرفة، بينما راح الآخر- وهو ينصت بانتباه إلى شرح الأستاذ - يتخيل فى رؤى خياله الواسع، منظر طيور سابحات فى أجواز الفضاء وهو يصوب إليها السهام المشرعة ويسدد إليها الضربات القاتلة، فستجد أن مستوى هذا الدارس الأخير يكاد لا يلحق بصاحبه، فالسؤال إذن،

هل يعود هذا الفارق فى المستوى بين الدارسين إلى تدنى مستوى ثانيهما فى الذكاء؟ والإجابة الواضحة، هى.. كلا، ليس ذلك هو السبب بالقطع!.

١١ - ١٠ قال منشيوس: "أحب الأسماك، وأحب أيضا مخالب الدببة، فإذا تعذر الحصول عليهما معًا، فيمكننى التنازل بسهولة عن طلب الأسماك تفضيلاً لمخالب الدب. والحياة، كذلك، جميلة فى عينى، وأحبها مثلما أحب الاستقامة ولو ضحيت بحياتى، وبرغم ذلك فهناك ما هو أحب إلى من الحياة؛ لهذا فلست أرضى لنفسى القبول بحياة زرية بائسة.

وبرغم أن الموت بغيض إلى نفسى، إلا أن هناك ما هو أبغض من الموت؛ ولهذا لا أجتهد كثيرا فى تجنب بعض ما قد يودى بى إلى التهلكة.

فإذا كانت الحياة هى أبقى ما يحرص عليه الناس، فلماذا يقعدون عن تلمس كل الوسائل التى تحقق لهم تلك الغاية؟

وإذا كان الموت هو أكثر ما تبغضه نفوسهم، فلماذا لا ينتهجون كل السبل التى تجنبهم مخاطر الهلاك؛ فمن شأن هذا السلوك أن يبقى على الناس حياتهم وهو ما يأنف منه (ذوو الخلق النبيل).

وقد يكون (فيما أشرت إليه آنفا) ما يضمن تجنب الوقوع فى الخطر الوبيل، إلا أن الرجل الكريم لن يتخذ هذا المسلك. (فاعلم) أن هناك ما هو أغلى من الحياة، وما هو أبغض من الموت، وهو (القول) الذى لا يقتصر ترديده على الحكماء وحدهم، بل إن كل الناس تردد تلك المقولة، غير أن الحكماء فقط، هم الذين يحفظونه فى طيات قلوبهم ولا يغفلون عنه لحظة واحدة.

(هب) أن هناك طبقا من الأرز وآخر من الحساء، و(هب) أنك إذا تناولتهما حفظت عليك حياتك، وإذا عففت النفس عنهما، ذقت الموت جوعا. (أما كنت ترى بأن) الإحسان المقترن بالسب والشتائم والإهانات لن يرضى به إنسان، حتى لو كان عابر طريق يتضور جوعا! وأن الصدقة التى تعطيها من تحت قدميك (بعد أن تدوسها بنعليك)، لن يقبلها، حتى أكثر الشحاذين إلحاحًا فى السؤال، (ومع ذلك فـ) هناك من يمد يد القبول إلى عشرة آلاف كيلة من الحبوب، يتلقفها (بغير تردد) دون أن يتأكد مما إذا كان الحصول عليها موافقا لآداب الاستقامة وأصول الأخلاق، فما يجديك نفعا عشرة آلاف وزنة من الحبوب؟

أمن المعقول أن (يقترف المرء ذلك الجرم) رغبة فى الإقامة بمسكن فاخر، والتمتع بالنساء والمحظيات، واستجداء مشاعر الامتنان من المساكين والفقراء؟ (والغريب) أن من كانوا يفضلون الموت على أن يرضوا لأنفسهم (بالوقوف ذلك الموقف)، قد صاروا الآن يقبلون (بما رفضوه آنفا) سعيا لسكنى بالقصور، والتمتع بألوان من الرفاهية. (نعم إن أولئك الذين كانوا يقبلون بالموت دون أن يسمحوا لأنفسهم بالانغماس فى تلك الأوحال)، قد أصبحوا الآن يقبلون (بما كانوا قد ردوا أنفسهم عنه)؛ رغبة فى اللهو فى خدور النساء والمحظيات. أجل، إن الذين كانوا يرضون بالموت دون أن يقبلوا بالانزلاق فيما كانوا يتعففون عنه، صاروا الآن يقبلونه بكل رضا ابتغاء المنّ على الفقراء بما أوتوا من النعيم؛ رياء ومباهاة. أما كان أجدر بهم ألا يلقوا بالاً إلى تلك الأمور؟

قد كان أولى بهم التنائى عما يقال له خسران المرء لنفسه (لطبيعته)."

١١ - ١١ قال منشيوس: "الإنسانية هى روح المرء وعقله؛ والاستقامة هى طريق حياته. فما أتعس أن يحيد المرء عن الدرب وليس أضل ممن تعامى عن العقل وتقاعس عن الاجتهاد فى التماس الطريق إليه!

إن من تاهت حيواناته الأليفة وشردت بعيدا عن مسكنه، سيبادر إلى البحث عنها بكل جد، (أمّا) من ضل عقله وتاهت روحه، فسيقعد عن البحث مكتوف اليدين، فارغ الحيلة.

إن طريق العلم لا يهدف إلا إلى غاية واحدة، هى استعادة العقل(الروح الطيب) الشريد.".

١١ - ١٢ قال منشيوس:" هناك رجل ذو إصبع ملتو (الإصبع البنصر)، وكلما حاول أن يبسطه مثل باقى أصابع كفه، امتنع عليه ذلك، (وعلى أية حال) فهذا الأصبع (غير الطبيعى) لا يسبب له أية متاعب ولا يعوقه عن العمل. (لكن الحق يقتضى منا أن نقرر بجلاء) أن لو حانت لهذا الرجل فرصة ليبسط أصبعه ولو عن طريق عملية جراحية فى بلد بعيد، مثل دولة تشين أو دولة تشو، فلن يتوانى عن الذهاب (حتى آخر الدنيا)، أملا فى أن يعود أصبعه البنصر إلى الحالة الطبيعية مثل كل الناس.

(وهكذا نلاحظ) أن إصبعا ضئيلاً مختلفا - فى هيئته - عن الحالة الطبيعية عند الناس، يثير فى نفس صاحبه الشعور بالضيق والأسى، أمّا من كان قلبه وروحه مختلفين عما خلق به الناس جميعا، فلن يساوره أدنى شعور بالاضطراب؛ فذلك ما يقال له تقديم الاهتمام بتوافه الأمور، وتجاهل الموضوعات ذات الشأن.".

١١ – ١٣ قال منشيوس: " إذا أراد أحدهم زراعة شجرة "تونشو"، أو زيشو (نوعان من الأشجار، يبلغ محيط جذع الشجرة الواحدة ذراعا أو ذراعين)، فلن يعجز عن أن يجد إلى ذلك وسيلة (مما خبره الناس من معرفة واسعة فى هذا المجال)، أما من أراد تهذيب النفس (وتنشئة) الذات على أساس من السلوك القويم، فلن يجد كثيراً من المعرفة. فهل يعنى ذلك أن غرس أشجار تونشو وزيشو أهم كثيراً من اعتناء المرء بغرس الفضائل فى نفسه التى بين جنبيه؟ كلا، بل هو العجز عن تأمل الأمور بما تستحق من الجدية!".

١١ – ١٤ قال منشيوس: "إن الناس يصرفون جل انتباههم لأجسادهم بل لكل جزء منه مهما بدا ضئيلا؛ لهذا يهتم الناس بكل موضع من الجسم بغير استثناء، والوسيلة المعهودة فى ملاحظة اهتمام الناس المفرط بأجسادهم لا تتجاوز مجرد الانتباه إلى ما يركزون عليه بشدة، فى العناية الزائدة بمواضع محددة.

والجسم الإنسانى (ينقسم إلى جزءين) أحدهما ذو مرتبة عظمى فى الأهمية، والآخر ذو أهمية ثانوية، (أى:) إلى ما هو عظيم وما هو ضئيل، فليس ينبغى أن يهتم المرء بالجانب الضئيل على حساب الآخر العظيم، ولا بالجزء ذى الأهمية الفائقة على حساب الآخر الأقل أهمية.

ولا يصرف انتباهه للجانب الضئيل، إلا (الشخص) الدنىء، ومن يكترث للجزء العظيم من جسده، هو (الإنسان) العاقل الحكيم.

لو أن واحدا من البستانيين تغافل عن (رعاية) أشجار "أوتون"، و"جياشو"؛ لانشغاله الزائد بأشجار الشوك والسنط والعناب البرى

(ذى الثمار مُرة المذاق) لعده الناس واحدا من أغبى العاملين فى حقل البستنة. إن من يتكلف عناء الاهتمام الفائق بإصبع يده (المصاب) دون الالتفات إلى (آلام) الظهر والعمود الفقرى، لهو امرؤ جاهل أصابه الخبال فى عقله.

إن المنهوم الذى لايفتأ يملأ بطنه بالطعام والشراب، يصير مرذولا فى عين الناس؛ لأنه بذل حرصه لأحقر الأمور متغافلا عن أعظمها خطرا وأشرفها حظًا من الأهمية .

(هب) إن منهومًا لم يفقد شيئا ذا شأن، ولم يضيع أمرا ذا بال (من الأشياء والأمور، البسيطة العادية السانجة)، فهل كان اهتمامه الزائد بالطعام والشراب يهدف، فقط، إلى إشباع ذلك الجزء الضئيل جدا من فراغ المعدة؟ (أكان ذلك هو اهتمامه، حين أراد أن يهتم بأمور ذات شأن؟!).

١١ – ١٥ ذهب كونتوس إلى منشيوس وسأله: " لماذا يكون هناك إنسان كريم وآخر لئيم، مع أن الكل أناسى والكل بشر؟"، فرد قائلا: " من انشغل بتلبية حاجات النفس الكريمة (النبيلة) فهو الكريم؛ أما من اهتم بإشباع غرائزه الوضيعة فهو الدنىء اللئيم.".

وعاد كونتوس يسأله: "فلماذا أيضا، يكون هناك، من الناس، من يسعى إلى إشباع حاجات النفس الكريمة، ومن يجتهد فى تلبية رغباته الدنيئة، مع أن الكل إنسان والكل بشر؟"، فأجاب عليه بقوله: "إن أعضاء الجسد الإنسانى، مثل: الأذن، والعين لا تقوم بالتفكير؛ ولهذا فهى (كثيرا) ما تتعرض للتضليل والخداع؛ إذ إنها تطالع الموجودات

من حولها فتسقط فى حبائل غوايتها. (أما) القلب (العقل) فهو ذلك (الموضع) المسئول عن التفكير؛ هو الجزء الذى إذا أطلقت له العنان، وحركت كوامن طاقاته، (عرف كل موضع فى الجسد محله، فـ..) ارتدعت أعضاء الجسم (المنفعلة) عن أن تكون لها اليد العليا (حرفيًا: امتنعت أعضاء الجسم الثانوية عن أن تسلك على نحو ما يسود به المضيف الضيف!)؛ فبذلك يصير المرء نبيلا عاقلا كريما.".

١١ - ١٦ قال منشيوس : "(هناك مرتبتان للشرف والمجد..) مرتبة الشرف الطبيعية، ودرجة النبالة الاجتماعية؛ فالإقبال على الإنسانية والاستقامة والإخلاص، والأمانة وغيرها من الفضائل، بروح لا يخامرها اليأس وإرادة لا يدانيها الملل، هو ما يشار إليه (بتعبير) مرتبة الشرف الطبيعية؛ أما المكانة الاجتماعية التى تتسم بها وظيفة الوزير الأعظم، (أو) القيمة التى تحوزها وظيفة "كبير رجال القصر". فتلك كلها مما يشار إليه بـ "درجة النبالة الاجتماعية"؛ ولقد كان الأقدمون يولون اهتماما بالغا بمراتب الشرف الطبيعى، (وهو الأمر الذى أدى فيما بعد إلى أن..) ظهرت درجة النبالة الاجتماعية.

وإذا كان الناس يهتمون، فى زماننا الحالى بالتخلق بسلوك "الشرف الطبيعى". فإنهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء الحصول على "درجة النبالة الاجتماعية" فإذا ما تحقق لهم ذلك انصرفوا عن سلوكهم الأول، وألقوا عن كاهلهم مسئولية الشرف الأولى، وهو مما ينذر، فى المحصلة الأخيرة، بانهيار كلتا المنزلتين فى وقت واحد.".

١١ – ١٧ قال منشيوس: " إن الرغبة فى الصعود إلى مرتبة النبلاء، طموح إنسانى يشترك فيه كل الناس، (ومع أن) لكل واحد سماته الجديرة بالتقدير والتى تؤهله لأرقى مراتب الوجاهة والشرف، إلا أن أحدا لا يجيد الانتباه الكافى إلى ذلك الجانب. إن درجات الشرف والنبالة التى تمنح للناس، لا تحمل مضمونًا حقيقيًا لأية وجاهة أو أى شرف. إن ما يمنحه " جاومن" بيده اليمنى من درجات النبالة، يستطيع أن يسحبه بيده اليسرى بكل سهولة [جاومن، وزير أعظم بدولة جين تولى قيادة الجيش، ثم خلع الحاكم عن العرش ونصب نفسه حاكمًا بديلاً له.

قد جاء فى كتاب الشعر القديم:

" قد صبت الأقداح،

وانتشت الرؤوس بالخمر،

وكرمت السجايا،

فانعقدت لها ناصية الأمر." .

ويريد القائل بهذا المعنى أن يعرب عن استيفاء صفات الأخلاق والسجايا الكريمة لكل حظوظ المرء فى حياته، حتى أن الكريم (الذى انعقدت له ناصية الأمر)، صار كمن أسكرته نشوة الأخلاق فما عاد يطمع فيما يغوى نهمة الأكل من الطعام والشراب، وما عاد يطمح إلى أوسمة أو نياشين الشرف وأردية الجاه المميزة لحاملى مراتب الشرف الاجتماعى؛ إذ قد نال مما تلهج الأفواه بحسن سيرته وذيوع ما طاب به الذكر له بين الناس، ما قد أغناه وأوفى له حقه.".

١١ – ١٨ قال منشيوس: " إن الرحمة تقهر أضدادها، مثلما يقهر الماء النار. إلا أن أولئك السالكين بمبدأ الرحمة والإنسانية، فى أيامنا هذه، يتصرفون على شاكلة من يريد إطفاء حقل من البارود بكوب من الماء، فإذا لم تخمد ألسنة اللهب، زعموا بأن الماء أعجز من أن يطفئ جوف النار. (غافلين عن أن..) ذلك هو ما يدفع غائلة التجبر والقسوة إلى أقصى حدود الوحشية؛ مما يودى، فى آخر المطاف، بذلك القدر (الضئيل) من الإنسانية، فيضيع بددا.".

١١ – ١٩ قال منشيوس: "إن الحبوب الخمسة [بذور الكتان، الأرز، القمح، الشعير، اللوبياء] هى أفضل الحبوب جميعا، فإذا لم يتم لها النضج الكافى، صارت أسوأ من الدخن، والـ "باى" (نوع من الأرز يستخدم علفا للماشية)، وكذلك الإنسانية (الرحمة) لا بد من أن تستوفى تمام النضج.".

١١ – ٢٠ قال منشيوس: " كان (المدعو) "إيا" (أمهر الرماة فى العصر القديم) وهو يعلم تلاميذه دروس الرماية، يطلب إليهم أن يمدوا القوس عن آخره، فكان على كل راغب فى العلم أن يشبع مد القوس كما بيّن له. (وكذلك فـ..) النجار البارع يجعل من أدواته [الزاوية والفرجار] الأساس اللازم لتدريس فنونه ومهاراته فلا غنى لطالب العلم على يديه من اتخاذهما أساساً ومقياسا."

(الجـزء الثـانـى)

(وجملته ستة عشر فصلا)

١٢ – ١ ذهب رجل مـن دولة "رن" إلى أولوتس (تلميذ منشيوس) وسـأله، قـائلاً: "مـا الأهـم ، فى رأيك، الأدب أم الطعـام"، فـأجـابه : " الأدب هو الأهـم."، فسأله الرجل: " ترى الأدب أفضل أم النساء؟"، فأجابه: " الأدب أفضل." فـسـأله: " فـمـاذا إذا كانت وسيلتى المهـذبة للحـصـول على الطعـام، هـى السـبب فى هلاكى جـوعـا، بينمـا كـان الطريـق غـيـر الأخـلاقـى هـو الذى أعطانى كفـايتى مما أطعم وأشـرب، أيجب علىَّ، حينئذ، الالتزام بأصـول الآداب والأخلاق؟ ثم ماذا إذا كان سلوكى الطريق للزواج، لم يهدنى إلى الزيـجـة المطلوبة؛ بينمـا كـانت وسـيلتى غـيـر المهـذبة، هـى التى جـاءت بالنتيجة المرغوبة؛ أينبغى علىَّ، بعد ذلك، أن ألتزم بتقاليد الأخلاق (فيما يتصل بمراسم وتقاليد التعرف إلى الزوجة المناسبة؟)".

فلما لم يحر أولوتس جوابا، قصد فى اليوم التالى إلى دولة "تسو" وأبلغ منشـيـوس بكل مـا دار بينـه وبـين السـائل، فقـال له الشـيـخ الحكيـم: " مـا أيسـر الإجـابة على السـؤال، (تـأمل مـعـى فن المعـمـار وانظر..) إذا لم يستطع المرء تقدير ارتفـاع الأرضـيـة، وانصـرف إلى قـيـاس ارتفـاع قـمـة الأسطح، فلابد أن خشبة لا يتجاوز محيطها شبرا واحدا (توضع فى قمة

البناء) يمكن أن تفوق فى الارتفاع أعلى النباتات (بطريقة تنافى الذوق السليم).

(ومن المعلوم) أن الذهب أثقل من ريشة الطائر، لكن أيمكن القول بأن دبوسًا صغيرًا من الذهب أثقل من حمولة عربة بريش الطيور؟ ثم إذا عقدنا مقارنة بين أهمية (تناول الإنسان) للطعام، والمقدار الأدنى من الاهتمام الذى نوليه للمراسم الأخلاقية وأصول المعاملات، فهل يمكننا القول بأن الطعام أكثر أهمية؟ ولنأخذ موضوع العلاقة الجنسية، ولنقل - مثلا - إن الجنس مهم جدا للإنسان، بالمقارنة مع أصول المعاملات وقواعد الأخلاق، لكن هل يعنى ذلك، القول بأن (إقامة) العلاقات الجنسية أكثر أهمية من (الالتزام) بقواعد الآداب والأخلاق؟ اذهب (إلى صاحبك)، وقل له: " يمكنك ياسيدى أن تقصد إلى بيت أخيك الأكبر، وتقبض على ذراعه، فتشل حركته ثم تستولى على طعامه (قهرًا) فيصير لك أن تأكل مريئًا، فإن لم تفعل، تعذر عليك أن تأكل شيئا. فهلا أخذت أهبة الهجوم على أخيك؟ ولك أن تتسوّر حائط جارك؛ فتهبط فى بيته، وتعانق امرأته وتدلف إلى خدرها، فتصير لك امرأة تقضى منها وطرك وإلا بقيت فى فراشك بغير امرأة، فهلا أعددت العدة لتسلق الجدران ومغافلة الجيران؟".

١٢ - ٢ ذهب"تساوجياو" إلى منشيوس، وسأله: " أصحيح ما قيل من أنه يمكن لأى فرد من الناس أن يصبح مثل الإمبراطورين الحكيمين "ياو"، و"شون" ؟"، فأجابه الشيخ: " نعم، قد قيل ذلك."، فسأله السائل: " قد بلغنى أن الملك أون كان طوله يصل إلى عشرة " تشى" [أذرع، تقريبا]،

وأن طول الملك طانغ كان يبلغ تسعة " تشى"، أما أنا فأبلغ من الطول أكثر من تسعة أذرع وأربعين تسون [بوصة تقريبا] ، وهأنذا أقبع مكانى لا أفعل شيئا (ذا قيمة) سوى تناول الطعام، فكيف لى أن أبلغ مثل ذلك (مثل مكانة الأباطرة الحكماء؟)"، فأجابه منشيوس، قائلا: " فما علاقة هذا بذلك (ما علاقة طول الجسم بما ذكرت من طموحك المذكور؟) فالمهم هو الكيفية التى تسلك بها، فإذا افترضنا أن بيننا الآن رجلا لا يقدر على رفع دجاجة بكلتا يديه، فسنعده خائر القوى، أما إذا استطاع رفع ما مثقاله ثلاثة آلاف جين [ألفى كيلو جرام، تقريبا] فهو القوى الشديد، (وبالمثل) فإن من يقدر على أن يرفع أثقالا فى وزن وحجم ما كان يرفعه البطل "أوهو" (رافع أثقال مشهور، فى العصر القديم) فهو إذن نسخة مكررة من أوهو (.. نموذج متكرر للبطل نفسه)، فما الذى يجعل المرء حزينا كاسفا لمجرد أنه يعجز عن مجاراة الآخرين فيما يستطيعونه؟ ليس للإنسان أن يحفل بشىء من ذلك.

إن إبطاء الخطو خلف مسيرة الإخوة الكبار من حسن الخلق، أما التكالب على مزاحمتهم وتخطيهم فليس من الحكمة فى شىء.

فلتسلك على مهل. ولا أظن أن ذلك بالشىء الصعب، (فى الحق، لم يكن ذلك صعباً أبدا) فالمشكلة أن أحدا لم يحاول قط أن يتمهل.

ليس فى دعوة القديسين الحكيمين " ياو"، و" شون" شىء أكثر من مجرد الدعوة إلى البر بالوالدين وتبجيل الإخوة الأكبر سنا؛ فإذا ارتديت قميص ياو وتحدثت بكلامه، وتأسّيت بسيرته فسوف تصبح أنت القديس الحكيم "ياو"، أما إذا ارتديت ملابس "جيه (الطاغية) وتكلمت بلسانه، وانتهجت

منهاجه، فسوف تصير "جيه"، بلحمه ودمه."، وهنالك قال له "تساوجياو":
"أود أن أشرف بمقابلة حاكم دولة "تشو"، وأن يتكرم عليَّ بأن ينزلنى منزلاً كريما فى بلده؛ كى أبقى عندك تلميذا وتابعا، أتلقى العلم على يديك."، فقال منشيوس: "إن الحكمة كالطريق، فهل يصعب عليك المسير؟ ليس لطالب (العلم) إلا أن يواصل السعى والدأب، فعد إلى بلدك وابحث وتأمل، ففى كل مكان قاعة درس ومعلم.".

١٢ – ٣ ذهب كونسون شو إلى منشيوس، وقال له: " بلغنى ما قاله كاوتسى من أن قصيدة " شياوبيان" (إحدى القصائد المشهورة بكتاب الشعر القديم) لم ينظمها إلا شاعر متحذلق، ليس على شيء من سجايا الحكماء [حرفيًا: شاعر دنيء النفس مرذول العبارة]"، فسأله منشيوس: " فما علة قوله هذا؟"، فأجابه: "لأن القصيدة (حسب زعمه) لا تحمل إلا لواعج الأنين والشكوى.".

فأجابه منشيوس: "ياله من مكابر عنيد، كيف يزعم مثل هذا، وكيف يفسر الشعر على هذا النحو؟ (إن المعنى الذى تشتمل عليه الأبيات يحتمل تأويلات عديدة، فمثلا..) لو كان معنا الآن، أحد الرجال ممن تترصدهم دولة يوى، ثم إذا هو وجهًا لوجه مع أحد الرماة، وقد جذب سيّة قوسه يريد أن يسدد السهم إلى قلبه، فسوف يسارع (صاحبنا المطلوب حيا أو ميتا) إلى إنشاد تلك الأبيات الواردة فى قصيدة "شياو بيان"، مستشهدا بمعانيها على الجفاء والكراهية والغلظة التى يلقاها على يد أهل دولة "يوى"؛ فإذا كان الرجل المصوب بالسهم إلى قلبه هو أخوه الأكبر، فسوف ينطلق (المطلوب القبض عليه) فى إلقاء كلمات القصيدة نفسها، باكيا منتحباً، لا لشيء، إلا لأن قاتله هو أخوه ابن أمه وأبيه.

إن الشكوى التى يبثها الشاعر من خلال أبيات " شياوبيان" تنطق بشجونه وتعبر عن رغبته الدفينة فى التودد إلى أهله، والتودد إلى الأهل فرع من الأخلاق الكريمة، وأحد مظاهر الرحمة والإنسانية. يا له من أحمق ذلك المدعو كاوتسى.. يا له من ظالم عنيد (إذ يقحم تلك المعانى الغريبة على القصيدة وهى أبعد ما تكون عن مراميها).

ثم قال كونسون شو: " فلماذا خلت قصيدة (كاى فنغ) (إحدى قصائد كتاب الشعر القديم) من مشاعر الألم والشكوى إذن؟"، فأجابه: " كانت الهفوات التى وقعت فيها الأم، فى تلك القصيدة، قليلة وبسيطة (لذلك لم يتألم الشاعر على نحو ما نجد فى القصيدة الأخرى) أما فى قصيدة "شياوبيان"، فقد كانت أخطاء الأب شنيعة (فلذلك لمسنا دلالات الشكوى).

(ولنعلم جميعا) أن عدم الشكوى مما يجده المرء من هفوات كبيرة من والديه (ليس من المرغوب فيه)؛ فذلك دليل على (النية المبيتة) للشروع فى المجافاة والابتعاد عن الأهل (وكذلك)، فإن الشكوى المريرة مما يعانيه أحدهم بسبب أخطاء بسيطة يقع فيها آباؤه، دليل على السخط والتأثر السريع بشحنات الغضب ودواعى الانفعال. (والحق إن..) الجفاء من العقوق، والغضب أيضا من أبغض ما يعق به الولد أبويه (ولذلك) فقد قال كونفوشيوس.." كان (القديس الحكيم) ياو من أكثر الأبناء براً بوالديه؛ إذ بقى محافظا على مودتهما حتى بعد أن تجاوز الخمسين من عمره."

١٢ - ٤ كان سونكين (أحد دعاة نبذ الحرب لإقامة السلام العادل بين الممالك) قاصدا دولة تشو، فالتقى فى طريقه، بالحكيم منشيوس، وذلك عند منطقة " شى تشيو"، فابتدره الشيخ بسؤاله عن الجهة التى يتوجه إليها فى سفره، فأجابه: " قد بلغنى أن القتال قد نشب بين دولتى تشين وتشو، فأردت الذهاب لمقابلة ملك تشو؛ لحثه على إيقاف القتال، فإذا لم أجد لديه آذانا صاغية، فسأسرع للقاء ملك تشين، كى أستحثه على الغرض نفسه، عسى أن أجد فى أحدهما أو كليهما من يتفق معى فى الرأى !".

فقال منشيوس: "لا أريد أن تقص على تفاصيل خطتك بل اشرح لى المبادئ العامة؛ فحدثنى عن الفكرة الرئيسية التى تحاول أن تقنعهما بها.".

فأوضح له قائلا: " أفكر فى أن أبيّن لهما الأضرار الفادحة التى ستعود عليهما من جراء القتال."، فقال منشيوس: "الهدف سامٍ وعظيم، لكن الفكرة (العامة) سقيمة جدا؛ ذلك أن سيادتكم ما دمتم تهدفون إلى حث حاكمى البلدين تشين وتشو (باتخاذ ذلك المنهج لإيقاف القتال) فقد تروق لهما الفكرة وينظران إلى فض الاشتباك من باب النفع وتحقيق المصالح، وهو ما يعنى أن قادة وجنود الجيوش المتحاربة سيجدون فى إيقاف العمليات ما يعود عليهم بالنفع والفائدة. فإذا (صارت تلك الفكرة هى المحرك الرئيسى للحياة، فإن..) الوزراء وكبار رجال الدولة (أيضًا) لن يتعاونوا فى خدمة جلالته إلا بمعيار ما يحقق لهم النفع، بل إن الأبناء سينظرون إلى حق رعاية الأبوين من زاوية الفكرة القائلة بالبحث عن

النفع وما تتحقق به المصالح، وعندما يتعامل الإخوة الصغار مع الأكبر سناً على أساس مراعاة النفع والمصلحة، فسوف يتجه الجميع: الملك ووزراؤه، الآباء والأبناء، الإخوة الكبار والصغار؛ وجهةً يدوسون فيها بأقدامهم على مبادئ الإنسانية والاستقامة، حيث يتخذون من فكرة " ما يحقق المنفعة" أساساً لعلاقتهم المتبادلة بينهم، وهو ما يجعل من ضياع وتفكك الوطن أمرا وارد الاحتمال.

(أما إذا) حاولت الدعاية لأفكارك على أساس مبادئ الإنسانية والاستقامة، فإن استجابة حاكمي الدولتين المذكورتين لنداء إيقاف القتال بين القوات المتحاربة، سيكون قائما على اقتناعها بتحقيق المبدأ الأخلاقي، وهو ما يعني أن قادة وجنود الجيوش سيتوقفون عن القتال استجابة لمبادئ الإنسانية والاستقامة وعندما يخدم الوزراء في دولة جلالته على أساس من تلك المبادئ، (وكذلك) يبرّ الأبناء بآبائهم وفق متطلبات إنسانية وأخلاقية، وتقوم العلاقة بين الإخوة على هدى المبادئ الإنسانية، تسود العلاقات بين الكافة: الملك ووزرائه، والآباء وأبنائهم، الإخوة بعضهم بعضاً، في ظل المبدأ الإنساني والاستقامة؛ وهو ما يعني أن نهضة البلاد حدث تؤكده أقوى الاحتمالات، فما الذي يغريك بالاستناد إلى فكرة "تحقيق المنافع؟".

١٢ – ٥ عندما كان منشيوس مقيما بدولة "تسو"، كان "جي رن" قد قرر أن يبقى بدولة "رن"؛ ليتولى شئون الحكم هناك (نائبا عن الحاكم الأصلي)، وحدث أنه أرسل هدية قيمة إلى منشيوس، على سبيل المجاملة لتقوية أواصر الصداقة معه، وقبل الشيخ هديته دون أن يرد عليها بالمقابل.

(وفى مناسبة أخرى، عندما) كان منيشوس مقيما بمنطقة "بينلو"، أرسل إليه " تشوزى" - الوزير الأعظم بدولة تشى - بهدية ثمينة، استجلاباً للود والصداقة معه، وقبلها منشيوس دون أن يبادل الرجل التحية المناسبة.

وتصادف، فيما بعد، أن كان منشيوس فى طريقه إلى دولة رن، فذهب لزيارة " جى رن"، ثم لما خرج من منطقة "بنيلو"، قاصداً التوجه إلى دولة تشى، لم يقم بزيارة الوزير الأعظم "تشوزى"، وتهلّل أولوتسى (تلميذه النجيب) فرحًا وهو يقول.."ها قد وقع أستاذنا فى ثغرة (خطأ) فاحشة".. ثم ذهب إليه وسأله، قائلاً: " كنت لما ذهبت، ياسيدى، إلى دولة رن، قصدت إلى "جين رن" لزيارته، لكنك عندما زرت دولة تشى، لم تكترث لمقابلة تشوزى، فهل كان ذلك التصرف منك بسبب أن هذا الأخير مجرد وزير؟"، فأجابه الشيخ: "كلا، وإنما قد جاء فى كتاب "شان شو" (التاريخ)، ما نصه:

"إن تقديم الهدايا يتطلب العديد من المراسم (المعقدة)، فإذا لم تتم هذه المراسم على النحو الكافى، بطلت قيمة الهدية، مهما تضاعفت." (ورداً على سؤالك.. أقول إن السبب فيما بدر عنّى هو أنه..) لم يستكمل مراسم تقديم الهدية بالطريقة التى تقتضيها الأصول."

وقد سعد أولوتسى بهذا الرد كثيراً، فلما سأله أحدهم (عن حقيقة ما حدث) أجابة، قائلاً: " لما كان جى رن متوليا مسئولية الإشراف على الشئون السياسية فلم يستطع مغادرة البلاد (من تلقاء نفسه) للحضور إلى دولة تسو، أما تشوزى فقد كان يملك حرية التنقل والحضور شخصيا إلى منطقة بينلو(إلا أنه لم يفعل)؟".

١٢ – ٦ ذهب " تشون يوكون" إلى منشيوس، وقال له: " إن من يضعون أهمية كبرى على السمعة الطيبة والإنجازات الهائلة، هم وحدهم الذين يستطيعون تقديم المساعدات والخدمات للناس من حولهم؛ أما أولئك الذين ينظرون بعين الازدراء إلى تحقيق الإنجازات والطموح إلى السمعة والشهرة، فهم الذين ينحصر تفكيرهم فى ذواتهم، ولا يقصدون بالخير إلا وجه مصالحهم الذاتية، وأنت ياسيدى، واحد من أعظم ثلاثة رجال فى الدولة، ثم ها أنت تغادر منصبك دون أن تقوم بما ينبغى عليك من التعاون مع جلالة الملك، ولا المساندة لبنى وطنك؛ (لا ملكًا ساندت، ولا رعية آويت) أهذا هو سلوك الحكماء؟".

فأجابه منشيوس: "لا يمكن لمن كان يشغل منصبا وضيعا أن يسلك بالحكمة الواجبة والخلق الحسن لخدمة رجال، لا طائل من نصحهم، ولا يرجى لهم صلاح، فهذا هو " بويى" (خير مثال على ذلك.. ولنأخذ مثالا لرجل آخر حاول بكل جهده أن يساند رؤساءه؛ إذ..) راح يلهث فى خدمة الملك طانغ خمس مرات متوالية؛ (وفى مناسبة أخرى) كان يهرع إلى خدمة الحاكم جيه خمس مرات أيضا، فذلك هو"آيين".

(أما النموذج الثالث فقد كان خير من يمثله..) " ليوشياهوى"، ذلك الذى لم يأنف من خدمة سيده (الملك) الأحمق ولم يكن (قبل ذلك) قد أبدى أدنى اعتراض على العمل بوظيفة بسيطة (من الدرجة الوضيعة)، فهؤلاء الثلاثة يمثلون أساليب متباينة وإن كان الهدف واحدا، فما هو هذا الهدف إذن؟ إنه العمل بالمبدأ الإنسانى؛ إذ لا يكترث الحكيم الفاضل إلا بقواعد الأخلاق، لا أكثر من ذلك ولا أقل (ومادام ذلك هو الهدف) فما الذى يدعوه إلى التقييد بأسلوب واحد؟"

وهنالك قال له "تشون يوكون": "عندما كان موكون قائما على عرش دولة "لو"، كان "كون إيتس" (كبير العلماء) يتولى إدارة شئون الحكم الرئيسية، أما "شيلو"، و"زيس" (أحد تلاميذ كونفوشيوس) فقد كانا وزيرين - وقتئذ - في البلاط الحاكم، ومع ذلك (وبرغم وجود هؤلاء العباقرة في مواقع السلطة) فقد سقطت دولة " لو" سقوطا مروعا وانهدمت أركانها، ولم ينفعها وجود أولئك الحكماء في شيء؛ إذ لم يحولوا دون بلوغ الأحزان فيها حدا لا مثيل له (في بشاعته)"، فقال الشيخ: "(لكن في التاريخ أمثلة أخرى تثبت العكس) فهذا حاكم دولة"يو" يصدر قراراً بالاستغناء عن خدمات "باى شيلي"، (أحد حكماء الزمان) فيكون ذلك سببا في سقوط بلاده بين براثن الاحتلال، ويسارع الملك "مو"، حاكم تشين، في تعيينه بالبلاط الحاكم لديه (فترتفع مكانة الملك فوق الجميع..) وتبسط دولة تشين سيطرتها فوق الممالك.

إن الاستغناء عن الحكماء يودي بالأوطان إلى التهلكة، فلا تقوم لها من بعد ذلك قائمة."، فرد عليه تشون يوكون، بقوله: "كان في قديم الزمان رجل يدعى "وانباو" (اشتهر بجمال صوته)، وقد اتخذ مسكنه على ضفاف نهر تشي (فما هي إلا أيام انقضت بعد إقامته بهذا المكان، حتى..) كان كل المقيمين على الضفة الأخرى من النهر يرفعون أصواتهم بالغناء، وقيل أيضا إن رجلا يدعى "ميانجي" (أحد أشهر المغنين في العصر القديم) لما أقام في بلدة " كاوتان" (فترة من الزمن) صار أهالي المناطق الغربية بدولة تشي يجيدون الغناء، (ومن المرويات الشعبية ما يؤكد..) أن ما قامت به زوجات كل من السيدين "هواجو"، و"تشيليان" من البكاء عليهما، إثر وفاتهما، ما أذاع شهرتهما بوصفهما أشهر

النائحات على طول الزمان)؛ حتى لقد أحدثن تأثيرا بالغا فى العادات والتقاليد الشعبية.

إن عناصر القوة الموجودة على نحو مضمر وعميق لابد أن تعلن عن وجودها وتفرض أحكامها على ظاهر الأشياء (كل ما هو موجود بالقوة، لابد سيظهر بالفعل..) فلم أشهد فى حياتى قط أحداً بادر إلى الاجتهاد والدأب دون إحراز النجاح؛ لذلك فربما كان من المعقول الإقرار بأنه لم يعد يوجد على الأرض حكماء فضلاء، إذ لو كانوا موجودين حقا، لكنت رأيتهم وتعرفت إليهم."، فأسرع منشيوس بالرد عليه، قائلا: "عندما كان كونفوشيوس يشغل منصب وزير العدل فى دولة "لو"، لم يكن محل ثقة وتقدير أحد هناك، فلما كان ذات يوم وقد ذهب لإقامة طقوس القرابين، حدث أن اللحوم المخصصة لإقامة الطقوس لم تسلم إليه (على النحو الصحيح) فقام غاضبا، وغادر قاعة الطقوس على الفور، دون أن يخلع عن رأسه التاج المخصص للقرابين (وهو تصرف مخل بالقوانين يجعله موضع مساءلة) وقال الذين يجهلونه، إنه ما قام غاضبا إلا لأنه لم يحصل على حصته من لحوم القرابين، أما الذين يعرفونه، تمام المعرفة، فقالوا إنه ما غادر الحفل المقدس إلا بسبب (أن دولة لو، ومسئوليها قد ارتكبوا..) الإهمال والخرق المتعمد للقواعد الأخلاقية المعهودة.

أما كونفوشيوس نفسه فقد قرر أن يرحل عن البلاد متحملا المسئولية (فيما صدر عنه). حتى العقلاء والحكماء، قد تبدر منهم تصرفات، يحار الناس كثيرا فى تعليلها وفهم أسبابها.".

١٢ – ٧ قال منشيوس: " كان الأباطرة العظماء الخمسة، مذنبين فى حق الملوك الثلاثة (الأباطرة الخمسة، حكموا فى فترة الدول المتحاربة ، وفى تحديدهم أقوال شتى؛ فمن قائل بأنهم: هوان كون، (حاكم تشيى)؛ أونكون (حاكم جين)؛ جوان (حاكم تشو)؛ هيلو (حاكم "أو")؛ كوجيان (حاكم يوى) . وآخر يقول بأنهم: هوان كون (حاكم تشى)؛ أونكون (حاكم جين)؛ موكون (حاكم تشين)؛ جوان (حاكم تشو)؛ هيلو (حاكم أو) . أيًا ما كانوا، فلابد أن يكون من بينهم: موكون (حاكم تشين) (لقب "كون".. يعنى: حاكم، ملك)، هوان كون (حاكم تشى)، (الملوك الثلاثة: يو أسرة شيا)، طانغ (أسرة شانغ)، أو (أسرة جو) .. وبالمثل أيضا ، فالأمراء فى زماننا مذنبون فى حق الأباطرة العظماء الخمسة؛ وكذلك الوزراء العظام القائمون على شئون الحكم، هم أيضا بدورهم مخطئون فى حق الأمراء.

كان الإمبراطور الأعظم (ابن السماء) يجوب الأقاليم متفقدا أحوال الدويلات التابعة له فيما يسمى بـ "الجولة التفقدية"، وكان الأمراء يذهبون إلى القصر الحاكم (فى طقس رسمى دائم) بما يطلق عليه "رفع تقارير الإحاطة".

وقد اعتاد الإمبراطور الأعظم أن يذهب في جولة استطلاعية يتفقد فيها أحوال المناطق الزراعية، أثناء الربيع، حيث يقدم المعونات للمعسرين الفقراء. أما في الخريف وعندما كان يخرج لمتابعة أحوال الحصاد، فقد كان يقدم الدعم والمساعدة للمناطق التي نكبت بحصاد ضئيل، ثم كان يسافر إلى المناطق الحدودية النائية، فإذا وجد الأرض ممهدة والحقول

مستصلحة، والناس (كبار السن بخاصة) فى رغد العيش؛ حيث يجد الكبار من يعولهم، ويلقى الحكماء كل تبجيل وتقدير، ويذهب النجباء منهم للعمل فى الدوائر الرسمية، فقد كان جلالته يمنح (للأمراء) الهبات والإقطاعات والأراضى الزراعية. أما إذا اكتشف، فى زياراته إلى المناطق النائية، عكس ذلك، من أرض خربة ومساحات من الخلاء المجدب، وأحوال (اجتماعية وأخلاقية سيئة) يلقى فيها كبار السن الإهمال والمجافاة، ويقصى الحكماء عن مواقع الاستفادة منهم، وتمتلئ الدوائر الحكومية والرسمية باللصوص والناهبين؛ فقد كان يقرر (على تلك المناطق) العقوبة وينزل بها المخالفات.

(وكان من بين النظم المعمول بها آنذاك أن..) الأمير الذى يتأخر عن الذهاب إلى البلاط الحاكم مرة واحدة يعاقب بتخفيض رتبته الاجتماعية، فإذا بلغ التأخير مرتين، يعاقب بتخفيض مقدار الأراضى (التى تحت يده)، فإذا تأخر ثلاث مرات عن الذهاب إلى القصر الحاكم، أرسلت إليه قوات تأديبية خاصة.

ومن ثم، فقد كان من سلطة الإمبراطور استخدام قوات تأديبية (فى هذه الحالة) وليس قوات هجومية، أما الأمراء فهم ضمن القوات الهجومية وليسوا من القوات التأديبية.

وكان الأباطرة العظماء الخمسة هم الذين أجبروا فريقا من الأمراء على مهاجمة فريق آخر منهم، وهو الأمر المشار إليه فى التنديد بارتكابهم خطأ فادحا فى حق الملوك (القديسين) الثلاثة.

ومن بين أولئك الأباطرة الخمسة، كان هوانكون (حاكم تشى) الأكثر قوة ونفوذا، حتى لقد عقد (مع باقى الأباطرة) اجتماعا للأمراء فى بلدة "كويتشيو" (بدولة سونغ)، وذبحوا أضحية وطرحوها ثم كتبوا عهدا وميثاقا فيما بينهم ووضعوه فوق الأضحية، دون أن يلطخوا أفواههم بدمها (مثلما جرت العادة، من قديم، فى عهد المواثيق بين الأمراء والملوك)، وورد فى البند الأول من الميثاق أن يصدر حكم الإعدام ضد عاق أبويه، وأن تعد أية محاولة لتغيير الموصى له بوراثة العرش باطلة بطلانًا تاما، وألا تعامله المحظية معاملة الزوجة؛ ونص البند الثانى على ضرورة تبجيل الحكماء، ورعاية النابغين والنجباء، وتشجيع ذوى الخلق الكريم؛ وفى البند الثالث ، ثم التأكيد على وجوب توقير كبار السن، والرفق بالأطفال، وعدم السخرية من الضيف والمسافر ابن الطريق، واشتمل الميثاق فى البند الرابع على (أحكام تقضى بـ..) ألا تكون وظيفة العلماء وراثية، وألا يتم الجمع بين وظيفتين رسميتين (حرفيًا: لا يجوز التكليف بوظيفتين عموميتين فى آن واحد)، وأن يجرى ترشيح العلماء بما يتفق مع الشروط، وألا يكون من صلاحيات الملك (منفردا) الحكم بإعدام السادة الوزراء (يصدر الحكم بإجماع الآراء)؛ أما البند الخامس فقد نص على: حظر إقامة السدود على نحو عشوائى، ورفع أى قيد على بيع الحبوب، وضرورة إبلاغ الجهات العليا بما يتم منحه من هدايا ومكافآت ومَنح.

ثم إن الجميع حلفوا اليمين وهذا نصه: " نقسم نحن المتعاقدين فى هذا الحلف على استعادة علاقات الود والاستقرار مع بعضنا البعض، حال سريان العمل بنصوص هذا الميثاق.".

إلا أن الأمراء، في وقتنا الحالى، يخالفون نصوص تلك البنود؛ ولذلك نقول إن أمراءنا الآن مذنبون فى حق الأباطرة الخمسة، ومن يتواطأ منهم مع الملك فى تجاوزاته [حرفيًا: جرائمه] لا يؤاخذ إلا على نحو يسير، ولا يعد مقترفا إلا أحقر الآثام، أما من يضارع الملك فى مخالفاته الجسيمة للقانون، فذنبه أكبر وجريمته أشنع.

ثم إن كبار المسئولين، فى الوقت الحالى، يرتكبون ما يضارع أفدح مخالفات جلالته فمن ثم يمكن القول بأن كبار المسئولين، الآن، مذنبون فى حق الأمراء أنفسهم.".

١٢ – ٨ أرادت دولة "لو" [كما تنطقها فى "لوبياء"] تعيين " شن تسى" فى منصب القائد العام للجيش، فقال منشيوس: " إن دفع الناس إلى ساحات القتال دون تعليمهم وتوعيتهم يعنى توريطهم فيما لا قبل لهم به، وهو ما لم يكن يسمح به أبدا فى زمن الأباطرة ياو، شون. وحتى لو لم تتجاوز العمليات مجرد القيام بضربة واحدة تقضى على دولة تشى، وتستولى على مدينة " نانيانغ" فلا ينبغى أن.. (يتم هذا الأمر.)".

وهنالك امتقع وجه " شن تسى" من الغضب وقال: "هذا كلام غير مفهوم"، فقال له منشيوس: "إذن، أقول لك الحق على نحو مفهوم؛ إن الأرض التابعة لجلالة الإمبراطور الأعظم، تبلغ ألف "لى" مربع فإذا نقصت مساحة الأرض عن هذا، عجز جلالته عن أن يكرم وفادة الأمراء، ثم إن الأراضى التى تحت يد أمراء الأقاليم تبلغ (فيما يخص لكل أمير على حدة) مائة لى مربع، فإذا نقصت عن هذا، تعذر على الأمير الوفاء بمتطلبات إقامة الطقوس [الكهنوتية] المخصصة للمعابد وقد أقطعت

للأمير" جوكون" ولاية " لو" التى كان ينبغى أن تقل أرضها عن مائة لى، إلا أنها كانت دون ذلك، ثم منح الأمير" تايكون" إقطاعا بدولة تشى على ألا تقل مساحته عما هو مقرر، لكن الأرض كانت تقل عن مائة لى مربع.

وقد زادت اليوم أراضى " لو" عن مساحتها المقررة خمسة أضعاف، فما ظنك لو وقعت السلطة الآن فى يد واحد من الحكماء؟ أيعمل على تقليل المساحة أم زيادتها؟ إن الحكيم العاقل (المتخلق بالمبدأ الإنسانى) لن يقدم على ضم أراضى الغير إلى بلاده، حتى لو لم يكلفه ذلك الكثير من القوات، فما بالك بمن يخطط لقتال بهدف النهب والسلب وإراقة الدماء؟ على الرجل الحكيم العاقل الذى يتفانى فى خدمة جلالته أن يصحح مساره ويضبط اتجاهه على الطريق القويم، وأن يقيم العزم على العمل بالمبدأ الإنسانى."

١٢ – ٩ قال منشيوس: " كثيرا ما أسمع معاونى الأمير يقولون، هذه الأيام: " بأيدينا أن نوسع، للأمير، فيما تحت يده من الأراضى وأن نكثر ودائع مخازنه.".

إن الوزير الكفء، بمعيار زماننا هذا، هو الوزير الذى اشتهر فى العصر القديم بأنه لص الشعب، (وهو الوزير الذى..) إذا تنكّب سيده الأمير عن طريق الخلق الأقوم، وحاد عن محجة الإنسانية والخير، راح يصبّ له الأموال صبًا، فى خزائنه، حتى صارت كنوزه فى مثل ما اكتنز (الملك الطاغية) الملك جيه (سليل آل "شيا")، ثم إننى (كثيراً ما أسمع عمال الأمير يقولون أيضًا..) "بيدى أن أعقد له الأحلاف، وأوثق له المعاهدات، فلا يدخل حربا إلا صال فيها صولة المنتصر".

ألا إن أكفأ الوزراء في هذه الأيام، هم أولئك الذين كان يطلق عليهم (بمعايير) الزمن القديم، سارقو أقوات الناس، (أولئك الذين) إذا حاد الأمير عن جادة الصواب، وانتحى طريق الإنسانية والأخلاق جانبا (كانوا له خير معين، بل..) أطلقوا له يد الحرب والقتال، وكأنهم أنصار (الطاغية القديم) الملك جيه (حفيد آل شيا)؛ فذاك هو الطريق الذى ما مشى فوقه ماشٍ، غافل بوعثاء شروره، متخبط في ميل أهوائه، إلا أوقع بـ (سيده الأمير) في نكبة لا تذهب بمرارتها الأيام، وجزع لا تبدده كل مغانم النصر فوق الممالك.".

١٢ - ١٠ قال" باى كوى" لـ منشيوس: " أفكر في أن أحصل الضرائب بنسبة عشرين في المائة، فما رأيك ياسيدى؟" فأجابه منشيوس:" هذا أشبه ما يكون بالنظام الضريبي المتبع في قبائل" مو" الشمالية (القبائل البربرية على الحدود الشمالية الغربية) حيث لا يمكنك أن تجد وسط إقليم يسكنه عشرة آلاف نسمة إلا صانع فخار واحداً، فهل يناسبك تطبيق نظامك الضريبي (في ظل وضع مماثل)، فردّ عليه قائلاً: "كلا، فصناعة الفخار لا تفي بالمطلوب."، فواصل منشيوس، كلامه قائلا:"(اعلم) أن الأرض في إقليم"مو" الشمالي لا تنتج إلا الذرة، أما الحبوب الخمسة فلا تصلح أحوال الأرض لإنتاجها وليست هناك مدن حصينة ولا مبانٍ سكنية ولا معابد، أو حتى مجرد طقوس عادية لتقديم القرابين، ولا توجد هناك هدايا أو ولائم متبادلة بين الأمراء ولا علاقات ود متبادلة بينهم، وليست هناك أيضًا مبان حكومية ولا هيئات رسمية ولا موظفون، مما يجعل نسبة العشرين في المائة

كافية تماما، أما بالنسبة لنا حيث نقيم فى المملكة الوسطى، فلا نستطيع إلغاء الأعراف الاجتماعية أو الاستغناء عن الدور الرسمية والمنشآت الحكومية وموظفيها الكثيرين، أو تظن ذلك ممكنا؟".

إن صناع الفخار قليلون جدا، وهم، بجانب ذلك، لا يملكون من الدخل ما يمكن أن يعود على بلادك بكثير نفع ، فما قولك (إذا واجهتك بالحقيقة الأكثر إيلاما وهى..) نقص عدد الحكماء والدارسين الأكفاء.

فإذا كنت تريد تقليل النسبة الضريبية (عما كانت عليه أيام الملكين القديسين ياو وشون) فإنك تصنع نموذجا آخر أكبر من قبائل مو الهمجية (فتصير هناك بلدان: مو الصغرى، ومو الكبرى؛ على التوالى)، أما إذا كنت تبغى زيادة الضرائب عما كانت عليه فى زمن القديسين الحكماء، فأنت ترسم (لبلادك) صورة أخرى من دولة جيه ("الطاغية" حيث تصنع نموذجين مكررين: جيه "الطاغية") .. الأكبر، جيه الأصغر.".

١٢ – ١١ قال باى كوى:" إن النظام (الذى اتخذته) فى مواجهة مخاطر الفيضان يفوق ما أبدعه الإمبراطور" يو".

فقال له منشيوس:" بل قد جانبك الصواب، ياسيدى؛ ذلك أن النظام الذى قرره الإمبراطور" يو"، فى مواجهة أخطار الفيضان كان يقوم على مراعاة منسوب المياه، حيث (صرف المياه الزائدة) فى البحار الأربعة، متخذاً منها مصرفا هائلا للمياه، أما ما قمت به فلا يزيد على مجرد تحويل الأقاليم المجاورة إلى مصرف هائل للمياه، حيث تسير الأنهار عكس اتجاهها وتتجاوز الضفاف وهذا بالضبط، ما يقال له"

الفيضـان" وهو ما يبغضه كل عـاقل حكيم. قد جانبك الصواب أيها السيد الكريم.".

١٢ – ١٢ قـال منشيوس:" إذا لم يكن الحـاكم صدوقـا، موضـع ثقـة الناس به، فكيف (لنا) أن نلتزم بالاستقامة والنزاهة؟".

١٢ – ١٣ كان (حاكم) دولة لو قد أعد العدة لتولية" يوجين" (منصبا رفيعا) لإدارة الشئون الحكومية، (وبلغ ذلك الخبر إلى مسامع منشيوس فـ) قال الشيخ الحكيم:" قد سعدت بهذا الخبر سعادة لا توصف، حتى لقد جافاني النوم."، فسأله كونسون شو:" أتظن أن يوجين هذا أكثر الرجال عزما وكفاية؟"، فأجاب منشيوس بالنفى، فسأله كونسون شو:" أهو رجل حكيم، بعيد النظر؟"، فهز منشيوس رأسه بالنفى، فسأله السائل: "فهل هو غزير العلم واسع المعرفة؟"، فرد الشيخ بالنفى، فسأله:" فما الذى أسعدك، إذن، بذلك الخبر، وأسهد جفنيك؟"، فأجابه:"لأن الرجل من النوع الذى يحب الإنصات للقول المفيد."، فقال له كونسون شو:"أيكفى الرجل أن يكون منصتا جيدا للكلام المفيد؟"، فأجابه منشيوس:"الإنصات الجيد للقول المفيد يكفى المرء أن يدير شئون العالم السياسية، فما بالك بولاية" لو"؟ أما الرجل إذا كان محبا للإنصات إلى ما فيه الفائدة سعت إلى أبوابه وفود الناس قاطبة ولو شدت إليه رحال السفر البعيد (حرفيًا: ركبت إليه الطريق عبر ألف ميل) لتفضى إليه بما وعت قرائحها من القول المفيد، فإذا لم يكن المرء يشتهى أن يميل بأذنه إلى ما فيه صلاح أمره، سخر منه الناس وراحوا يقلدون هيئته (مازحين)، (.. نعم .. نعم تلك أمور أعرفها ولا حاجة لتذكيرى بها!) وهو ما يصد الناس عن المجىء إليه (عبر مسافة تمتد زهاء ألف ميل)، وكذلك سيستثقل المتعلمون وعثاء السفر

إليه، فينفسح الطريق أمام المتملقين والمداهنين، فما ظنك بأحوال البلاد إذا ما التقى أولئك بهؤلاء، أيمكن أن يكون هناك حكم رشيد (في ظل تلك الطغمة المنافقة)؟".

١٢ - ١٤ ذهب"تشن تسى" إلى منشيوس وسأله:" ما هى الأحوال التى كان يقبل فيها الحكيم قديما الالتحاق بالوظائف العمومية؟"، فأجابه:" كانت هناك ثلاثة شروط كى يقبل فيها المثقف العمل بوظيفة عامة وثلاثة أحوال أخرى كانت تفرض عليه الاستقالة فورا، من العمل؛ فإذا تم الترحيب به وإبداء التوقير له والموافقة على وضع آرائه موضع تنفيذ، كان يقبل العمل كموظف رسمي، (ومع ذلك، وفى الحد الأدنى) فإذا بدت مظاهر الترحيب معقولة والمعاملة طيبة (إلى حد ما) لكن دون أن يؤخذ باقتراحه، فقد كان يقدم استقالته (ذلك هو الشرط الأول، فأما الثانى:) فقد كان الحكيم الفاضل يقبل العمل الحكومى، إذا قوبل بالاحترام اللائق، حتى لو لم يلتفت إلى العمل باقتراحاته، فإذا تبدلت مظاهر الاحترام المبذول له، هجر الوظيفة فى الحال؛ أما الظرف الثالث الذى كان يوافق فيه على الالتحاق بالإدارة الرسمية فقد كان يتمثل فى تلك الحال، التى يستيقظ فيها الحكيم صباحا، فلا يجد الطعام، ويمسى عليه المساء فلا يجد ما يقيم أوده، فيصيبه الإعياء حتى يعجز عن الخروج من منزله، فيبلغ ذلك الأمير، فيقول:" فيما يتعلق بالمبادئ العامة، فلا أستطيع أن أعمل باقتراحاته، ولا أن آخذ بتوصياته، لكنى أيضًا (وفى الوقت نفسه) لن أرضى لنفسى أن أدعه يموت فوق أرض بلادى (لا أحب أن أوصم العار بسبب موته!) فينفذ إليه من ينقذه من الموت جوعا، فيقبل الحكيم ويرضى (ذلك التدخل من جانب الجهات الرسمية)، لكن فقط فى الحدود التى تحول دون موته.".

١٢ – ١٥ قال منشيوس: "ارتقى "شون" من فلاحة الأرض والحقول، إلى سامق المجد، وكذلك صعد "بويو" إلى سلم الشرف وقد كان فى مبتدأ أمره مجرد عامل بناء، أما "جياوقه" فقد بلغ منزلة كريمة وكان يعمل، فترة من حياته، فى الملاحات وصيد الأسماك، وذاع صيت "كوانيو" وعلا فى سماء المجد نجمه (وهو أشهر السياسيين فى عصر الربيع والخريف) إذ خرج من أبواب السجن إلى عالم السياسة والشهرة (فى أزهى عصور الصين القديمة)، وكذلك انطلق" سون شو أو" إلى أجواء العمل العام وقد كان طريدا عند شاطئ البحر، ووجد باى ليشى طريقه إلى البلاط الحاكم (كبير وزراء تشين فى عصر الربيع والخريف) وهو الذى بدأ حياته بائعا فى الأسواق، (وهو الأمر الذى يبرز بوضوح) أن السماء إذا قدرت لامرئ ما، مكانة عظيمة فى حياته، وأعدت له أمرا ذا شأن، كان لابد، فى أول الأمر، من أن تمتحن عزيمته بالانكسارات، وتلهب عظامه بالأوجاع، وتوقظ جسده بالآلام وتلقى فى جوفه [حرفياً: أمعائه] مرارة الجوع والحرمان، فتوهن عافيته وتسلط عليه الضنى والهزال، وتحاصر كل أفعاله وتضيّق عليه كل مخرج وتبدد له كل رجاء؛ إذ حق عليه أن تتزلزل أعماقه، وتنصهر بلهب الحياة طاقاته، وتتجدد مواهبه (ومع ذلك، فلا عوض له عما فاته)، ولم يكن الإنسان ليصلح أمراً إلا لأنه كثيرا ما يتناول بيد الفساد أشياءه.

إنه لا تنطلق زفرات الغضب إلا من صدور كظيمة وقلوب مشتتة لكثرة تباريح النفوس ، فتنعتق الإرادة ويصير ثمة عمل مرتقب، فيشرق الوجه وتنتعش فى الفم الكلمات، ويصير هناك أناس يفهمون المعنى ويقدّرون كل الأحوال. إن بلدا يفتقد باطنه (جهازه الداخلى)

المستشارين المساعدين والوزراء التنفيذيين، وتخلو ساحته الخارجية من مجابهات وقلاقل مع جيرانه المناوئين له، سيلقى الضياع والهلاك في عاجل أمره. لذلك نستطيع أن نفهم ما للكوارث والمصاعب والقلق من دور في استنهاض (قيمة) وجود الإنسان؛ لأن(حياة) الدعة والترف تقود، حتما، إلى الزوال".

١٢ - ١٦ قال منشيوس: " فنون التعليم وأشكاله وطرائقه كثيرة ومتعددة، (ومع ذلك) فلست أوافق بأن أقوم بالتدريس لأى طالب علم (لئلا أثير فى نفسه الشعور بالنقص؛ ومن ثم؛ الانسحاب والتقوقع) وتلك أيضا طريقة أخرى فى التعليم.".

الباب السابع

جين شين (من أعماق القلب)

(الجزء الأول)

(وجملته ستة وأربعون فصلا)

١٣ - ١ قال منشيوس:" يستطيع الإنسان أن يعمل كل ما في وسعه [حرفيًا: يبذل أعماق قلبه؛ لاستظهار بواطن الخير في أعماقه] كي يستطيع أن يفهم طبيعته كإنسان، فإذا امتلك ناصية الفهم للطبع الإنساني، تبصر بأقدار السماء.

إن المرء إذا قدر أن يحفظ بين جنبيه قلبا نقيا طيبا، وتعهد طبائعه (الخيّرة) بالموالاة والتهذيب، استطاع أن يستقبل أمر السماء (أقدار السماء) وللناس، في ذلك، موقف واحد، سواء طالت أعمارهم أو قصرت.. فمن تعهد قلبه بالخير وظاهره (.. جسده) بالرعاية، صمد لأقدار السماء، ووجد - من ثم - لقلبه ملاذًا ولحياته مقرا.".

١٣ - ٢ قال منشيوس:" الشقاء والهناء (كلاهما) والسعود والنحوس (كلها) أقدار، ولا مفر من الصمود للقدر؛ (لذلك) فمن استبصر بقضاء الأقدار

لن يمكث تحت حائط مائل يوشك أن ينهدم. ولا يرضى بأحكام الأقدار إلا من قضى نحبه سائرا على منهاج الفضيلة الكبرى. وليس من مات تنفيذا لحكم إعدام قضائي كمن وافاه - وهو طوع المبدأ الأخلاقى الأسمى - حتم القدر.".

١٣ - ٣ قال منشيوس: " لا إدراك إلا مع السعى، ولا خسارة إلا مع الإهمال، فالسعى (على هذا النحو الذى تدرك به الأغراض)، يساعد المرء على الاكتساب؛ حيث إن هذا السعى جزء من إرادة المرء الداخلية (الباطنية).

أما الاستقصاء الذى يتبع نهجا محددا، (وكذلك) الفوز والخسران اللذان يأتى بهما القدر، فلا يكسبان المرء شيئا، لأن إرادة السعى والاستقصاء (ليست جزءا من إرادة الإنسان نفسه) بل تتحدد وفق (إرادة أخرى) خارجية.".

١٣ - ٤ قال منشيوس: "قد عرفت كل نفس ما لها وما عليها، وليس أسعد من امرئ حاسب نفسه فاستبصر فى باطنه الصدق والإخلاص، وليس أقرب من (الطريق القويم) إلا امرؤ اجتهد فى طلب التخلق بالمبادئ الإنسانية، متوسلاً فى ذلك بمبدأ (معاملة الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه به) مخلصاً لمعنى التسامح بكل ما يقدر عليه من جهد.".

١٣ - ٥ قال منشيوس: "قد يعمل الإنسان ويتحرك هنا وهناك، دون فهم حقيقى (لجوهر الأشياء) وقد يتصرف بحكم العادة ويترسخ لديه الاعتياد، دون أن يسأل ويتساءل عن العلل والأسباب، وقد يقضى عمره كله ماشيا على

طريق، دون أن يعرف ما هو الطريق. لكن (مثل هذا الإنسان) هو العامى الساذج البسيط.".

١٣ – ٦ قال منشيوس: "ما من إنسان إلا فى حياته شيء، ما، يسبب له الشعور بالعار أو الخزى؛ وعندما يخالج الإنسان شعور بالخزى، لعدم وجود ما يخجل منه أو يندم بسببه، يكون – وقتئذ فقط – قد برئت ساحته تماما من أدنى إحساس بالعار.".

١٣ – ٧ قال منشيوس: " إن الإحساس بالخزى والعار ذو أهمية قصوى للإنسان؛ (ذلك أن) من يتقنون أساليب الغش والاحتيال، وفنون الخديعة والمكر، لا يجدون حاجة للشعور بالخزى، و(هكذا نخلص إلى نتيجة مفادها أنهم) ماداموا لا يخجلون من كونهم ليسوا مثل الآخرين فى الإحساس ببشاعة العار والفضيحة، فما الذى يدعوهم إلى الحفاظ على روابط مشتركة مع كل البشر.. فى الإنسانية؟".

١٣ – ٨ قال منشيوس: "كان الحكماء القديسون من الحكام والملوك فى العصر القديم، يزهدون (يتجاهلون) ما بأيديهم من سلطة، عملا بمبادئ الخلق والاستقامة، (فإذا كان ذلك هو حال الملوك والأمراء) فلماذا يسلك الحكماء والشيوخ، أنفسهم، هذا النهج نفسه؟ لقد فرح هؤلاء بمبادئهم القويمة ومسلكهم الأخلاقى، وتناسوا ما للآخرين من سطوة ومهابة، حتى ركبهم التيه والفخر بأنفسهم فكانوا إذا تأخر عليهم الملك أو الأمير فى إرسال الهدايا، أو فاته أن يقيم طقوس الاحترام اللائق (بجنابهم الأفخم) امتنعوا عن المثول بين يديه (تكبراً)، إلا فى النُّزر القليل. ولئن كانوا قد

استكبروا أن يكثروا إليه الزيارة ويطيلوا عنده اللقاء، فكيف كان له أن يتخذ منهم الوزراء والتابعين؟".

١٣ - ٩ تحدث منشيوس إلى " سونكوجيان"، فقال له: "أتحب أن تسافر فى البلاد داعيا إلى ذلك المذهب الأخلاقى القويم؟ فاسمع عنى كلمات أقولها لك فى هذا الشأن. (اعلم) أنك مطالب بالثبات والثقة سواء اقتنع بكلامك الناس (الأمراء) أو لم يقتنعوا.".

فسأله سونغ: "وكيف لى بالوصول إلى تلك المرتبة؟".

فأجابه الشيخ: "(بأن تعرف أنك) ما دمت تتحدث عن المبادئ الأخلاقية، وتسلك بالاستقامة، فستصير أحوالك إلى الثبات والثقة؛ لذلك (فقد قيل) إنه ليس لذى العلم أن يميل عن الاستقامة ولو تعسرت به الأحوال واشتد به الفقر، ليس له أن يتنكب عن الطريق (الأخلاق) وإن تزكّت نفسه زهوا وخيلاء.

فإن حَرص الطالب على الاستقامة مع ضيق ذات اليد، أخذ من القناعة مأخذا متينا، وإذا التزم جادة الطريق مع ما اكتسب من الفخر بنفسه، توجهت إليه آمال الناس واستقوى به رجاؤهم، ولقد كان الحكيم، من القدماء، إذا طاب له حظ نفسه، قام إلى الناس ففرق بينهم العطايا والهبات الكريمة، وإذا عسرت حاله، التفت إلى نفسه فأخذها بالتقويم والتهذيب حتى يحذو الناس حذوه، فإذا ما ضرب لديه الفقر بأطنابه، أقام معتكفا يعالج نفسه بالخلق الأقوم، وإذا أصاب من المجد رفعة، نثر فوق الدنيا كلها زهر آدابه وثمار محاسنه.".

١٣ - ١٠ قال منشيوس: "إن أولئك الذين يقبعون ساكنين لا تنتعش سجاياهم إلا عندما ينادى فيهم منادى الملك "أون" (بجميل الوصايا داعيًا إلى حسن الخلق)، ليسوا إلا جمهرة العامة السانجة، أما الذين انعقد لهم لواء الفضل، وفائق الرفعة (فليسوا ككل الناس)؛ فإنهم أنهض إلى مطلب الخلق القويم، وإن لم تقم للملك أون، نفسه، قائمة.".

١٣ - ١١ قال منشيوس: "أعط رجلا رصيد الثروة التى اشتهر بها وزراء دولتى "وى"، و"هان"، فإن لم يخالجه أدنى إحساس بالزهو والخيلاء، فهو أكثر الناس نزاهة والأعلى مكانة والأسمى شرفا.".

١٣ - ١٢ قال منشيوس: "حتى لو سقت الناس إلى العمل بالسخرة، من أجل ما يعود عليهم بالسعادة، فلن ينطق لهم لسان بالشكوى، وإن تحطمت أبدانهم كدًا ومشقة؛ (وكذلك) لو روعتهم بالموت وأنت تدفعهم بأمل الحياة، وتعدهم ببشرى البقاء، فلن يلقوا إلى الموت بالاً، وإن وضعت فى رقابهم السيف، (فسوف يلقون حتفهم هانئين مستبشرين)".

١٣-١٣ قال منشيوس: "إن رعايا ملك الملوك (ذى القوة والسطوة فوق الممالك) لا يجربون من الحياة إلا الجانب المشرق الملىء بالحيوية، أما رعايا الملك الرحيم فهم المخلصون الصادقون، الذين لا يعرفون مع العسر بأسًا، ولا مع اليسر طمعا فى المزيد. وفى كل يوم ترتقى أحوالهم مراتب الكمال، من خير إلى خير، تصعد بهم فلا تنكص ولا تحيد، يتنقّلون فى سلم الخير الأسنى (وهم يتساءلون عمن كان له الفضل فيما غمرهم من الخير والنعمة).

ما من أرض يطأها الحكيم القديس، إلا نال أهلها على يديه آثارا من التبدل والتغيير، وما من بقعة يحل بها، إلا شملتها معان رائعة تجل عن الوصف، ودارت فى أجوائها أفلاك (من الخير) كدورة السماء فى عليائها والأرض فى أقطارها، فكيف يقال، إذن، بأن أحدا لا يجنى من إصلاحاته (الملك الرحيم) إلا النُّزر اليسير!".

١٣ - ١٤ قال منشيوس: "الكلمات الرحيمة ليست كالسمعة الرحيمة، فليس أدعى للقبول ولا أشرح للصدور من السمعة الرحيمة. والسياسة الرشيدة، ليست كالمواعظ (التعاليم) الطيبة؛ فالناس يخشون (ما يمكن أن تجلبه عليهم) السياسات الرشيدة، لكنهم يهفون بقلوبهم إلى المواعظ الطيبة، وإذا كان الحكم الرشيد يأخذ من الناس أموالهم، فإن المواعظ الطيبة لا تجنى من الناس إلا المودة والقبول.".

١٣ - ١٥ قال منشيوس: "أن يقدر المرء على صنع شىء دون سابق علم أو معرفة؛ فذلك ما يقال له " القدرة البديهية"، وأن يستبصر المرء أو يدرك شيئا بغير سالف تدبر أو تأمل فهذا مما يعد "علمًا حدسيا".

كل مولود (حتى وهو فى قماطة الميلاد) متعلق بوالديه، فإذا بلغ تمام النضج أبدى الاحترام لمن هم أسن منه (من إخوته الأكبر سنا).

(وقد كان) حب الآباء من الرحمة (ومكارم الأخلاق)، واحترام المتقدمين فى السن، من الاستقامة، (وهو الخلق الأتم الذى لا مزيد عليه، ولا يراد له إلا أن..) ينتشر فى ربوع الممالك.".

١٣ - ١٦ قال منشيوس: "عندما كان القديس الحكيم "شون" (قبل أن يصبح ملكا على البلاد) يقيم فى بطون الأودية والوهاد، يتخذ من الحجارة

وأشجار الغاب جيرانا وأقارب، ومن الأيائل والدواب أصحابًا أوفياء، لم يكن يختلف كثيرا عن أهل الغابات فى بساطتهم وهيئتهم (المشعثة المغبرة).

فلما تناهت إلى سمعه كلمات طيبة، تمثلت أمام عينيه جلائل الأعمال (استمد منها جميعا أعظم الطاقة والإلهام) وصار مثل بحر، انشق شاطئه ففاض ، أو سيل انصب مدده فوق الوهاد، فلا كابح لتياره ولا معقل لفورانه وعنفوانه.".

١٣ - ١٧ قال منشيوس: " فليردّ المرء نفسه عن أن يأتى ما لا وجوب لإتيانه، وليصدّ النفس عن أن ترغب ما لا يستقيم (مع الخلق الأقوم) التطلّع إليه، فذلك منتهى الأمر وكفايته.".

١٣ - ١٨ قال منشيوس: "لا يقبل الناس التحلى بالخلق الكريم والحكمة، والتزود بالقدرات والاستعدادات والعلم والمعرفة، إلا لأنهم مشغولون طوال الوقت بالتفكير فى (مواجهة) المخاطر والأزمات. ليس سوى أبناء المحظيات والوزراء المعزولين (الذين لا يربطهم كثير مودة مع الناس، عموما) هم وحدهم الذين تؤرقهم المخاطر الجسيمة والهموم والكوارث؛ لذلك تجدهم على درجة فائقة من الفهم والذكاء والعبقرية .".

١٣ - ١٩ قال منشيوس: "هناك (نفر من الناس) يقومون على خدمة جلالة الملك ولا يقصدون من وراء ذلك إلا تملقه وإيجاد الحظوة لديه، هناك (فريق من) المسئولين يعملون على استقرار الأمور فى البلاد، ويجدون فى ذلك كل السعادة والرضا؛ وهناك (جماعة) من الناس هم جنود السماء، [حرفيًا: أبناء السماء] يأملون فى الوصول إلى المواقع

الوظيفية التى تمكنهم من تطبيق المبادئ (الأخلاقية)؛ ثم هناك طائفة من أفضل الجميع مكانة وخلقا وأرفع قدرا، وهم الذين يأخذون أنفسهم بالجد، فيصلحون أنفسهم قبل أن يعملوا على إصلاح شأن الآخرين."

١٣ – ٢٠ قال منشيوس : "ثلاثة أمور يفرح بها العاقل الحكيم من كل قلبه، وليس من بينها أن يقوم فوق عرش الحكم ملكا، ينادى بالإصلاح وسياسة شئون البلاد؛ فأول ما يتمناه ويسعد به، هو أن يتمتع أبواه بتمام الصحة والعافية وهم على قيد الحياة، وأن يتمتع إخوته بحياة مستقرة آمنة، وثانى تلك الأمور (التى تجلب إليه السعادة) ألا يقترف ما يستحيي منه أمام السماء، أو يثقل ضميره أمام أهل الأرض (الناس جميعا)؛ أما ثالث ما يرجوه؛ لتكتمل له سعادة قلبه، فهو أن يجتمع لديه كل الأكفاء والنجباء من كل حدب وصوب، فيقوم على تعليمهم ورعايتهم.

تلك هى الأمور التى يسعد لها قلب العاقل وليس من بينها اعتلاء كرسى الحكم لسياسة شئون الممالك.".

١٣ – ٢١ قال منشيوس: " .. أرض مترامية الأطراف، وشعوب وقبائل وأعراق شتى ..، ذلك هو ما يطمح إليه كل حاكم. ولو أن حدود سعادته الغامرة لا تقتصر على ذلك فقط، بل تمتد إلى أطراف ما يمكن أن يخضع تحت سلطانه من أقصى الأرض إلى أقصاها؛ بحيث تصبح له الولاية فوق عرش الممالك، غير أن ذلك كله ليس جوهر طبيعته ولا طبع أمانيه الراسخ فى أعماقه؛ ذلك أن حدود طبائع القديس الحكيم لن تزيد جمالا وبهاء كلما اتسعت آفاق مجده، ولن تذوى وتضمحل إذا

اشتد عسره وضاقت به الأحوال، (.. فذلك أمر قد انقضى به قضاء الأيام وطويت به الصحف).

قد انطبع الحكيم بطابع الرحمة، والاستقامة، والأدب والحكمة، (تلك خصال استقرت فى أعماقه) فتبدت فى سيماء وجهه وارتسمت فى ملامحه، ومدت فى أطرافه وتخللت مسام جسمه وملأت كيانه، (يجدها الناس ظاهرة فيما بدر عنه) دون أن ينطق بكلمة.".

١٣ - ٢٢ قال منشيوس: "أراد بويى أن يخالف (سيرة الملك الطاغية) تشو، فاختار مقر إقامته على شاطئ بحر" بيهاى" (بحر الشمال)، ولما سمع بتولى الملك أون الحكم، قال: " ما الذى يمنعنى الآن من الذهاب إليه والانتماء إلى صفه؟ وقد بلغنى أن "شيبو" يبذل كل جهده لرعاية كبار السن."

وكذلك أراد " تايكون" أن يسلك على غير ما سلك به (الملك الطاغية) تشو، فجعل مقر إقامته شاطئ نهر دونهاوى (النهر الشرقى)، ولما بلغه أن الملك أون قد نهض حاكما على عرش الممالك، قال:" سأذهب إلى جلالته وأنضم إلى أتباعه الأقربين، وقد بلغنى أنه رحيم بكبار السن والعجائز."

(وهكذا نرى أن) من يرأف بكبار السن ويرحم العجائز، يرى فيه الحكماء خير السند والرجاء (وهو الحكيم الذى ينشر فوق الدنيا الخير العميم فتجد..) المنازل الفيحاء فوق أراض امتدت عبر خمسة " مو" وأشجار التوت الباسقة وراء الجدران، ونساء يجلسن وينسجن الحرير، فيجد العجائز رياشا حريرية يلبسونها وساحات يقأقئ فيها الداجن،

وحظائر للخنازير يلقى إليها الطعام فى مواعيد محددة فيجد كبار السن طعاما شهيا [حرفيًا: لحمًا شهيا].

(وهناك أيضًا) أراض مساحتها مائة " مو" يقوم على زراعتها رجال أشداء، فيتوافر الطعام لكل آكل ويشبع كل جائع [حرفيا: تجد الأسر المكونة من ثمانية أفراد ما يكفيها من الطعام!].

أما من يدعى " شيبو"، ذلك الرحيم بالعجائز فقد نال لقبه بسبب ما قام به من..) تحديد لنظام الأراضى الزراعية ودعوة الناس لزراعة الأرض والرعى، وتعليم النساء كيفية القيام بالرعاية الصحية لكبار السن (ذلك أن) من بلغ الخمسين من عمره دون أن يحوز ثيابا حريرية فلن يجد الدفء؛ ومن شارف السبعين دون أن يجد ما يكفى من اللحم فى طعامه، فلن يهنأ بطعامه أو يسد جوعه. والحال التى لا يشبع الطعام فيها الجوع، ولا تجلب الثياب لصاحبها الدفء هى ما يطلق عليها: معاناة الجوع ومقاساة البرد.".

ولم يكن فى رعايا الملك أون، أحد عانى الجوع أو قاسى البرد من كبار السن. فتأمل ذلك المعنى!".

١٣ – ٢٣ قال منشيوس: " فلتكن هناك أراض تزرع بأجود المحاصيل ولابد من تقليل الضرائب، حتى يعم الخير على الناس ويجدوا حظهم من الثراء. وليكن توزيع الطعام حسب إقامة الطقوس؛ فتتراكم الثروة وتفيض عن الحاجة.

(واعلم أنه) يتعذر على الناس أن يعيشوا حياة طيبة بغير الماء والنار؛ (فلابد أن يتوافر منهما القدر الكافى حتى) إذا طرق باب الناس طارق

فى عتمة الغروب أو ظلمة المساء الحالك، وجد عند الناس ما يكفى حاجتهم ويزيد عليها، (...حتى إذا سألهم إياها، أعطوه بكرم شديد).

على الحكيم القديس الذى قام على سياسة شئون الممالك، أن يجعل الطعام وفيرا (كالماء والنار)، ألا ترى لمن توفر لديهم الطعام كوفرة الماء والنار، أينبذون من سلوكهم الرحمة والمودة والإنسانية؟".

١٣ - ٢٤ قال منشيوس: " لما صعد كونفوشيوس على جبل "دونشان"، بدت له دويلة " لو" ضئيلة المساحة، فلما طلع جبل " تسايشان"، رأى الممالك كلها صغيرة، متناهية الضآلة. (لذلك نفهم ما يقال من أن..) من امتلأت أعينهم بمشاهد البحر الكبير، لا يجدون ما يبعث على الإعجاب من التطلع إلى منظر النهر الجارى.

(وكذلك) من تلقوا العلم عند أعتاب القديس الحكيم، لن تثير لديهم شتى المعارف الأخرى أى شغف.

ومن المقرر فى أصول التأمل الجمالى لمشاهد البحار والأنهار، أن يتطلع المرء مليا إلى حركة الموج المتدفق وتيارات الماء الهادرة المتقلبة. للشمس والقمر ضوء باهر يتجلى ساطعا- حتى- عبر الشقوق والثقوب الصغيرة (لشدة إبهاره ونافذ شعاعه).

إن الماء الجارى فوق الأرض لا يسيل فى مجراه إلا إذا عم الوهاد وغطى حواف المنخفضات والأغوار الواطئة. (وكذلك) العاقل الحكيم المثابر على السلوك، بين الناس، حسب قواعد الخلق الكريم، لن يرتقى الساحة العالية، ولن يتقدم فى طريقه ، إلا إذا أتم بلوغ الدرجات الأساسية.".

١٣ – ٢٥ قال منشيوس: " من قام فى البكور، فقصد إلى طريق الخير بجد ومثابرة، فهو صاحب (.. على شاكلة) الحكيم القديس " شون"، أما من بادر فى صبيحة يومه، عازماً على استغلال كل فرصة سانحة فيما يعود عليه بالنفع، فهو أخو (اللص) "جى" أحد أتباع الوالى "ليوشياهوى"، وتعزى إليه ممارسات همجية من نصب واحتيال وسرقات واستغلال للنفوذ، ويقال بأنها كلها افتراءات، بما فى ذلك اللقب المشهور به (اللص " جى"، كان قد تزعم ثورة لتحرير العبيد فى زمن الربيع والخريف)".

١٣ – ٢٦ قال منشيوس: "كان مذهب الفيلسوف – الأول للطاوية – " يانغ شو" يقول بألا يكترث المرء لغير ما يخصه وحده، (وليس له أن يكترث لأحد من الناس) حتى لو كان فى نتف ريشة طائر، أى لون من ألوان النفع للناس؛ فلا ينبغى للإنسان أن يكلّف نفسه عناء أن يمد يده إليها؛ (أما فيلسوف المذهب "الموهى" المفكر المشهور:) "مودى"، فكان ينادى بالمحبة بين الناس، (وكان يقول..) لو قدّر للإنسان أن يبذل كل ما فى وسعه (من قمة رأسه إلى أخمص قدميه) لما فيه خير الناس ومحبتهم فليفعل ذلك دون تردد.

وكان تسيمو (عاش زمن الدول المتحاربة فى دولة "لو") يقول باتخاذ موقف أوسط (بين هذين المذهبين)، وهو الأمر الذى كان ينطوى على نتائج طيبة (إلا أن) ذلك الموقف الأوسط لم يفلح فى أن يوازن بين كفتى المقولتين ويراجع خصائصهما، ومن ثم، فلم يكتسب المرونة المطلوبة، فانصب جهده فى قوالب جامدة، وإذا كان المرء يبغض ما صار إليه ذلك الجهد من جمود وتصلب، فلأنه يحمل فى طياته

إساءة بالغة (لمبادئ: الحق، والإنسانية والاستقامة) إذ يمسك بالأمور من أحد طرفيها. (موليًا إياه عظيم الاهتمام) متجاهلا الطرف الآخر منه، بل باقى الأطراف جميعا.".

١٣ – ٢٧ قال منشيوس: " حتى أردأ الطعام، سيراه الجائع شهيا لذيذا، وسينهل الظامئ من أشد الماء كدرا حتى يرتوى؛ فهنالك (يرتوى الظامئ ويشبع الجائع)، بغير مذاق حقيقى لطعام أو شراب؛ لشدة الجوع والعطش، (واعلم) أن آفة ما يعترض جوف المرء من جفاف وتشقق لاشتداد الجوع والعطش، قد تمتد إلى روحه وقلبه (عقله ونفسه)، فإذا استطاع الإنسان أن يحمى نفسه من غلبة آفات السغب ومضار الظمأ، فلن يحزن إذا ما اتسعت الهوة، وزاد الفارق بينه وبين الناس (فإذا هم فى أرفع الدرجات، وأسمى المراتب)".

١٣ – ٢٨ قال منشيوس: "ما كان (المدعو) "ليوشياهوى" ليبدّل إيمانه ومبادئه الشريفة النزيهة، لمجرد أنه تولى منصبا رفيع المستوى.".

١٣ – ٢٩ قال منشيوس: "من أقدم على عمل (يريد به الخير والبر والإحسان) فمثله كمثل من راح يحفر بئرا، فإذا ما نزل قاعًا سحيق العمق (حرفيًا: يبلغ عمقها تسعة "رن"، نحو أربعة وعشرين مترا) دون أن يجد ماء، فقد أخطأ الموقع الصحيح، واجتهد فيما لا طائل تحته.".

١٣ – ٣٠ قال منشيوس: " قد انتهج ياو، وشون طريق الخير والاستقامة، بما استقر عليه الطبع الكامن فى أعماقهما، أما الملك طانغ (أسرة شانغ)، والملك أو (أسرة جو) فقد اجتهد كلاهما فى تطبيق المبادئ الأخلاقية؛ فى حين لم يزد ما فعلته الإمبراطوريات العظمى الخمس عن مجرد

استعارة مبادئ الخير والاستقامة (لتحقيق مآربهم الخاصة). ثم إنهم بعد أن طال عليهم الأمد فى استعارة تلك المبادئ؛ (واستقرارها لديهم) فقد جاء وقت ترسّخت فيه الأصول، وصار من المستحيل القطع بأنها مستعارة أو وافدة.".

١٣ - ٣١ قال كونسون شو: " قد بلغنى عن "آيين" قوله: " ما كنت أرضى لنفسى أن أصادق الناكصين عن المبادئ الأخلاقية (الاستقامة)، وهو الأمر الذى دفعنى إلى نفى " تايجيا" إلى بلدة "أوتونغ" مما أدخل السرور على قلوب الناس، فلما حسنت أخلاق تايجيا، وتهذّبت خصاله، عاد إلى العرش الملكى (كسابق عهده) فعمت الفرحة أرجاء البلاد.".

فهل إذا بدا للحكماء المعينين فى المناصب الوزارية فساد الملك أن يقرروا إبعاده عن البلاد؟"، وأجابه منشيوس، قائلاً: "إذا كان لديهم مثل ما لدى آيين من الشعور بالمسئولية فلهم ذلك، وإلا عد ذلك التصرف، من جانبهم، اغتصاباً للحكم.".

١٣ - ٣٢ قال كونسون شو: " جاء فى كتاب الشعر القديم هذا البيت (من إحدى القصائد):

" ليس للمرء أن يأكل،

دون أن يعمل."

فما لى أرى الحكماء يملأون بطونهم دون أن يزرعوا أرضا أو يفلحوا حقلا؟"، فأجابه منشيوس: " يظل الحكماء قابعين فى هذا البلد حتى يوليهم الملك المناصب ويغدق عليهم بالرتب العالية الشريفة، فيتأثل المال فى أيديهم ويجربون من النعيم ما لا يزيد عليه، فيصيبون حظًا من

المجد والشرف، فينظر إليهم إخوانهم وتلاميذهم بالتعظيم والإكبار اللائق، ويفقهون أصول الطاعة، والبر وتبجيل الكبار والإخلاص وحفظ العهود؛ فهل هناك مثال أوفى من ذلك على صدق ماجاء فى كتاب الشعر، (من أنه):

" ليس للإنسان أن ينال طعاما،

بغير جدارة من شريف العمل." !

١٣ - ٣٣ ذهب "وان تسيديان" (أمير دولة تشى) إلى منشيوس وسأله: "ما الذى يعمله المتعلم؟ (ما الذى يتوجب عليه أن يفعله، بالضبط؟)، فأجابه منشيوس: "أن يسمو بأخلاقه وخصاله إلى أعلى مراتب الشرف."، فسأله السائل: "وكيف له بذلك؟"، فأجابه: "أن يلتزم نهج الإنسانية والاستقامة (لا شىء أكثر من ذلك ولا أقل) فليس من الإنسانية أن يقضى بالإعدام على الأبرياء، وليس من الاستقامة أن يطمع فيما ليس له. (ولئن سألتنى عما ينبغى أن يلتزم به من قاعدة أساسية) فسأقول لك بأن أهم الأمور مطلقا هى "الإنسانية"، (وإذا استفسرت عما ينبغى أن يسلك من طريق) فسأرد عليك بأنه طريق الاستقامة؛ فذلك هو السبيل الذى تكتمل به مراتب الشرف، لكل ذى خلق كريم وأهداف عظيمة.".

١٣ - ٣٤ قال منشيوس: " مما لا شك فيه أن الناس سيمنحون ثقتهم للسيد "تشن جونزى" إذا (ما افترضنا جدلا) أنه يمكن أن يرفض عرش دولة تشى عندما يعرض عليه تولى الحكم دون حق شرعى، وعلى نحو مخالف لأبسط قواعد الاستقامة والنزاهة. لكن مثل هذا التصرف

لا يعدو أن يكون جانبا ضئيلا من أصول الأدب والأخلاقيات (يكاد لا يزيد على) مجرد الاعتذار عن تناول طبق من الأرز أو الحساء.

ليس (هناك كارثة) أبشع من وقوع الجفاء بين الوالد والابن، أو بين الملك ووزرائه، وليس (هناك) أمر يتجاوز حدود المعقول، أكثر من الظن بأن امرءاً، ما، قد امتلك ناصية الاستقامة الكبرى لمجرد أنه يحوز القليل من الفضائل.".

١٣ – ٣٥ ذهب "طاوينغ" (تلميذ منشيوس) إلى الأستاذ، وسأله: "ماذا لو أن" كوصاو" (والد الملك الحكيم شون) قد ارتكب جريمة قتل أثناء تولى ولده عرش الإمبراطورية، خصوصا عندما كان " كاوياو" يتولى منصب وزير العدل؟"، فأجابه منشيوس: "(كل ما كان سيحدث أنه..) كان سيتم القبض عليه."، فسأله طاوينغ: " أما كان يحاول شون تعطيل صدور الحكم بالقبض على (أبيه)؟"، فأجابه: " بأى حق يحاول شون أن يعطل صدور مثل هذا الحكم مادام قائما على أساس قانونى؟"، فسأله السائل: " فما الذى يجب على شون عمله فى مثل هذا الموقف، إذن؟"، فأجابه منشيوس: " لا شىء سوى أن يخلع عن نفسه سلطة الحكم مثلما يخلع من قدميه حذاء قديما باليا، (بغير اكتراث) ثم يحمل أباه على ظهره ويخرج هاربا من البلاد، فى طى الخفاء، دون أن يدرى به أحد، ويقصد إلى شاطئ البحر فيقيم له مسكنا هناك، يقضى فيه بقية عمره هانئا رائق البال، ناسيا أو متناسيا الأيام الخوالى، التى كان فيها إمبرطور الزمان، وابن عرش السماء.".

١٣ – ٣٦ كان منشيوس فى طريقه مسافرا من بلدة " فان" إلى عاصمة دولة تشى، إذ لمح – على مسافة بعيدة – ابن حاكم تشى، فتحدث بلهجة

ملؤها الدهش والاستغراب، قائلا: " ما أشد تأثير المكانة التى يشغلها المرء على خصاله وطبائعه، وكم تتأثر بنيته الجسدية بما يطعم ويقتات، يا له من تأثير هائل ذلك الذى تعمله الظروف المحيطة بالإنسان! أليس هو الآخر (يقصد ابن الملك) كأبناء الناس؟".

ثم أضاف قائلا: " لا فرق بين ما يرتديه الملك من ملابس وما يركبه من عربات وجياد، أو يقيم به من قصور ومساكن، عما يرتديه الناس أو يركبونه أو يقيمون به (حسب تأثير بيئاتهم المحيطة بهم)، ولا يختلف سمو الأمير عن الباقين فى شىء من تأثير الأجواء المحيطة به؛ بحيث يتصرف على هذا النحو، فما بالنا بمن (كانت البيئة المحيطة بهم) تقيم لهم من الإنسانية مقر إقامة بطول الدنيا وعرضها؟

(حدث ذات مرة أن) سافر(الأمير) حاكم لو إلى دولة سونغ، فلما بلغ بوابة "ديتسى" الكبيرة وقف قبالتها مناديا بأعلى صوته (على الحراس كى يفتحوا له)، فتهامس الحراس فيما بينهم قائلين: " ليس صوت أميرنا الحاكم، لكنه، مع ذلك، يشبه لهجته إلى حد كبير"، فلم يكن ذلك إلا بسبب تأثير الأجواء والظروف المماثلة (لما نهل منه أمير البلاد)".

١٣ - ٣٧ قال منشيوس: " ليس هناك فرق كبير بين من يعول إنسانا بغير حب، وبين من يربى قطيعًا من الخنازير، والحب من غير احترام مثل تربية الكلاب والجياد سواء بسواء.

ولا تهد هدية إلا بوازع من مشاعر التبجيل والتقدير، فلا ينبغى للكريم العاقل أن يقع فى غواية الهدايا بغير تقدير حقيقى واحترام أصيل".

١٣ – ٣٨ قال منشيوس: "ملامح الجسد وسيماء الوجه من عطاء الطبيعة [حرفيًا: "خلق السماء"، ذلك هو التعبير اللفظى للكلمة، بوصفها لفظتين متجاورتين لكن التأويل المعجمى لها، كوحدة تامة، يقرأها بمعنى "طبيعى أو غريزى"؛ فالترجمة هنا صحيحة بمقدار ما هى معجمية أصيلة، وقاموسية تامة] ليس سوى العاقل وحده هو الذى يعرف كيف يجعل من ملامحه وسيماه تعبيراً أصيلا عن كريم عنصره الدفين.".

١٣ – ٣٩ أراد الملك شيوان – حاكم تشى – أن يقلل مدة الحداد على الأبوين (أو أحدهما إذا توفى)، فذهب "كونسونشو" إلى منشيوس، متوجها إليه بالسؤال على النحو التالى: "أليس من الأفضل أن يبقى طقس الحداد قائما، ولو لمدة عام واحد، بدلا من إلغائه تماما؟"، فأجابه: "(أنت بسؤالك هذا) كأنى بك تشاهد أخوين يتعاركان، يلوى أحدهما ذراع الآخر، يكاد يكسره، فتتقدم نحوهما، راجيا من الغالب أن يترفق قليلا بأخيه المغلوب (على أن يكتفى بثنى ذراعه مرة واحدة، بدلاً من مرتين!!) فى حين أنه يكفى تماما أن تذكّر (الجميع) بضرورة البرّ بالآباء والاحترام بين الإخوة (لا أكثر ولا أقل).".

وحدث أن ماتت والدة الأمير، وأراد أستاذه أن ينوب عنه فى القيام بطقوس الحداد لفترة محددة [إذ كان الأمير فى ظروف لا تسمح له بذلك]، وذهب كونسون شو، ليسأل الشيخ الحكيم، قائلاً: "ما الذى يجب عمله فى مثل هذا الظرف؟"، فأجابه: " أرى من الواجب – فى هذه الحال – أن يقام الطقس ولو لمدة يوم واحد، بدلا من إلغائه كليا، ما دام الأمير غير قادر على الوفاء بطقس الحداد بتمامه، أما

ما ذكرته لك آنفا فقد قصدت به (تذكير) أولئك الذين يبطلون الحداد دون أن تكون هناك ظروف قوية تحول بينهم وبين تلك الطقوس، (عملاً بالمبادئ الأخلاقية وحرصا على بقائها.)".

١٣ – ٤٠ قال منشيوس: " يستخدم المهذب العاقل خمس وسائل للتعليم والتربية هى: إلقاء العلم على المتلقى الموهوب [حرفيًا: التعليم مثل الرى وقت المطر الموسمى] دعم ذوى الاستعداد العقلى والخلقى؛ تربية وتثقيف ذوى القدرة المؤهلين (للتعليم)؛ تفسير وشرح الأسئلة والنقاط (الإشكالية)؛ وأخيرا.. التحصيل الذاتى والدراسة الشخصية (أن يعلم المرء نفسه بنفسه)".

١٣ – ٤١ قال كونسون شو:" إن الطريق (طريق العلم والتربية) جليل ومهيب، لكنه (صعب المرتقى) مثل طريق صاعد فى القمة، يرهق أقدام الطالعين، فلماذا لا نجعل منه طريق الأمل المرهون بالثقة فى النجاح، فتصير الخطى الجادة المثابرة مؤملة بإدراك الغاية؟".

فأجاب منشيوس:" لن يتخلى النجار الحاذق عن استعمال (المسطرة والزاوية) تيسيراً على طالب ثقيل الفهم (وكذلك) فلن يرضى (الرامى المشهور) "آيبى" تبديل وضع الاستعداد بجذب الوتر، تخفيفا (لأعباء الدرس) على رامٍ جهول. والعاقل هو من رفع القوس وجذب الأوتار واتخذ وضع الرمى ثابتا دون أن يطلق السهم، انتظارا للحظة الحاسمة، وإرشادا لطالب العلم (الرماية) وتوضيحا للدارس (باتخاذ نموذج جاهز) فيتبع أثره التابعون.".

١٣ – ٤٢ قال منشيوس:" عندما يحين أوان إقامة المبادئ في ربوع الأرض (الممالك التي تحت السماء) يمكن للإنسان أن يبذل كل جهد لأجل المبادئ، أما إذا أزف وقت زوال المبادئ، فليس للإنسان الفاضل إلا أن يزول معها ويسقط بسقوطها، ومن الممكن أن يضحي المرء بحياته من أجل المبادئ، لكني لم أسمع أبدا بمن يضحي بمبادئه، من أجل الناس (ترك الطريق الصحيح اتباعا لهوى العامة والبسطاء).

١٣ – ٤٣ قال كونتوس:"عندما كان " تنغ كان" يأتي إليك طالبًا العلم على يديك، فلم تعره اهتماما ولم تبد له ما كان يتوقع من كرمك في الاحتفاء به والتشجيع له، فما السبب فيما لاقاه عندك (من الجفاء)؟".

فأجابه:" إن خمسة من الناس لن ألتفت إليهم أو أعير أيًّا منهم انتباهي: المتباهي بجاهه وسطوته؛ والمرائي بكرم أخلاقه؛ والمترفع لكبر سنه، والمتكبر عليّ لسابق فضل منه؛ كل أولئك لن (أتخذهم طلابا أو..) أجيب مسألتهم. وقد كان يعيب" تنغ كان" إصراره على خصلتين مما ذكرت لك.".

١٣ – ٤٤ قال منشيوس:" من أهمل عملاً – ما كان له أن يدعه دون أن يتمه – صار الإهمال عادة ملازمة له، ومن استصغر شأنا – كان واجبا عليه أن يوفيه قدره من الاهتمام – أصبح استصغار كل شأن في استهانة واحتقار هو دأبه. ومن يتقدم باندفاع طائش، ينكص متراجعا بسرعة مذهلة.".

١٣ – ٤٥ قال منشيوس:"الإنسان الفاضل يتعامل مع الموجودات (الجماد) في الدنيا بحرص واهتمام، لكن دون عطف أو ودّ أو مشاعر إنسانية؛

ويتواصل مع الناس كلهم وفق مبادئ إنسانية كريمة لكن بغير حب (الحب الذى يستشعره نحو عائلته؛ ذلك أن المرء..) لا يشعر بالحب (العطف على) الناس إلا إذا أحبَّ أهله وأقاربه، ولا يضع الدنيا فى موضعها الجدير بالاهتمام إلا إذا أغدق مشاعر العطف والإنسانية على الناس جميعًا.".

١٣ – ٤٦ قال منشيوس:" العلم مسعى الحكيم، لكن الحكماء (غالبا ما) يطلبون العلم والمعرفة حول عظائم الأمور؛ وقلب الحليم يتسع محبة لكل الناس، إلا أنه يميل أكثر إلى الحكماء الفضلاء.

ولقد بلغ ياو، وشون من الحكمة مبلغا عظيما، لكنهما لم يحيطا بكل شيء علما، لأنهما بذلا الاهتمام كله لمعرفة دقائق الأحوال – فى زمانهما – (وكذلك) لم يكن حلمهما (إنسانيتهما) تتسع لكل الناس؛ لأنهما صرفا كل الانتباه للتواصل مع ذوى الحكمة والفضل فى محيط ما بلغ إليه إدراكهما.

(لذلك فقد وجب الانتباه إلى أكثر الأمور أهمية فـ) إن من يتغافل عن طقوس الحداد مدة ثلاث سنوات، بينما يهتم بتفاصيل طقوس الحداد (للفترات القصيرة.. حيث يقوم الحداد على الإخوة والأقارب..) لمدة ثلاثة أشهر، وخمسة أشهر، (وكذلك) الإقبال على تناول المشروبات (بأنواعها) دون وازع من حياء أو أدب، أثناء فترة الحداد، مع التدقيق والتمحيص التفصيلى فيما ينبغى ولا ينبغى أن يتم مضغه أو ابتلاعه من اللحوم، خلال تلك الفترة، كل ذلك يعد من سوء التقدير البالغ وعدم الإدراك الصحيح للأمور.".

(الجزء الثانى)

(وجملته ثمانية وثلاثون فصلاً)

١٤ - ١ قال منشيوس: "ما أغلظ قلب الملك "ليانغ هوى"! إن رحيم القلب، تمتد حدود رحمته لتشمل من يحبهم ومن كان يبغضهم أيضا، أما قساة القلوب فيسلطون أوار سخطهم فوق من يكرهون ومن كانوا يحبون.".

وهنالك سأله كونسون شو: "فماذا تعنى بذلك ياسيدى؟"، فأجاب: "(أقول لما كان الملك - ليانغ هوى - طامعًا فى ضم مزيد من الأراضى (إلى حدود بلاده)، فلم يكن يعبأ لمن يرسلهم إلى جبهات القتال؛ فيلقون حتفهم صرعى المعارك، ولم ترده الهزيمة أن يعاود الكرّة. وإذ وقع فى قلبه الخوف من أن يلقى هزيمة نكراء (تفتّ فى عضده، فلم يكتف بإرسال المقاتلين المجندين إلى الجبهات، بل) راح يحث إخوته وأعز أبنائه إليه على خوض غمار الحرب - برغم ما كان يعلمه من موتهم المحقق، حال ذهابهم - فذلك هو ما أعنيه بقولى إن جائحة القسوة لا تكتفى بإبادة الكتلة الهائلة من الناس ممن لا تربطه بهم علائق المودة، بل تنذر بويلاتها أقرب الناس وأعز الأبناء.".

١٤ - ٢ قال منشيوس: "لم تكن الحروب التى وقعت فى زمن "الربيع والخريف" (٧٧٠ - ٤٧٦ ق.م) حروبًا عادلة، لكن كان هناك ملوك عادلون، و"الحرب

التأديبية"، تعنى قيام دولة كبرى باقتحام دولة صغرى، (وهو لون من الحروب) لا يقع بين دول فى مستوى واحد (ودرجة متكافئة من القوة)".

١٤ – ٣ قال منشيوس: "لطالما كنت أقول: (إنه من الأفضل..) ألا نصدق كل ما جاء فى كتاب "شوجين" [كتاب التاريخ]، (بل الأفضل مطلقًا أن..) لو لم يكن هناك مثل هذا الكتاب أصلاً، و(عندما أطالع ذلك الكتاب، فلا أكاد أستسيغ إلا قراءة..) الباب الذى عنوانه "الحرب الناجحة" وأقتطف منه عبارتين أو ثلاث (فحواهما:) ليس (للمقاتل) ذى المبادئ الإنسانية أى أعداء فى طول الممالك وعرضها، فإذا (تصورنا، مثلا..أن) قامت قوات أكثر المقاتلين إيمانًا بالمبدأ الإنسانى بالهجوم على جيش أشد المنكرين لذلك المبدأ نفسه، فكيف يمكن لبحار الدماء أن تسيل بينهما فتغرق الجميع فى لُجتها، ولا يطفو فوق سطحها إلا بقايا أخشاب متهالكة (.. بالطبع، لن تقوم حرب ذات مشاهد من تلك الويلات؛ إذ إن الشعب المسلّح بالمبادئ الإنسانية له الغلبة دون إراقة دماء)".

١٤ – ٤ قال منشيوس: "كثيرًا ما يتبادر إلى سمعى قول القائل.."أنا أقدر الناس على قيادة التشكيلات القتالية، أنا أدرى من يتصدّى للمعارك وأفقه الجميع بالحروب وإدارتها."..(ومثل هذا القول يعد..) جريمة كبرى؛ إذ (لا يحتاج الأمر سوى أن) يناصر الملك المبادئ الإنسانية، حتى تستتب له الأمور – بغير حرب – وسط الممالك. (وفى قديم الزمان) قام الملك طانغ بمهاجمة الأقاليم الجنوبية، فإذا برابرة الشمال قد ضجوا وآذنوا

للقتال، فلما شن هجماته فى الجبهة الشرقية، أثار فزع وغضب القبائل (الرعوية الهمجية) على الحدود الغربيـة، التى توجسـت شـراً، قائلة.. "ما الذى جعله يتأخر عن البدء بمهاجمتنا؟".

وعندما قام الملك "أو" بمهاجمة آل شانغ، وزحف عليهم بجيش قوامه ثلاثمائة عربة حربية وثلاثة آلاف مقاتل، كان يردد كثيراً (فى كل مكان يحل به): "لا عليكم، لا يهولنكم شيء، وليطمئن الجميع، وقد جئت بينكم؛ كى تهدأ نفوسكم وتقرّ أعينكم، (لست أريد قتالكم) فلا تجابهونى بالعداوة، فأنا آخر من يواجه الناس بالبغض أو الكراهية"، فخفّض الناس جباههم وسجدوا تحية وإكرامًا له، وهتفوا باسمه عاليًا (حتى كادت الجبال تتقلقل فى مواضعها).

ليس هناك كبير فرق بين الاستقواء (بالحرب) والاستقامة (بالخلق)، فليصلح كلٌ من شأنه، وليستقم كلٌ بالمنهاج القويم، فتسقط أسباب الحرب ودواعيها.".

١٤ – ٥ قال منشيوس: "يستطيع النجار أو صانع العربات أن يدرب الناس ويعلمهم كيفية استخدام المسطرة والزاوية، وأدوات القياس الأساسية، لكنه لا يستطيع أن يخلق فى أدمغتهم وأيديهم مستويات متقدمة من الكفاءة الفنية.".

١٤ – ٦ قال منشيوس: " عندما كان شون، القديس الحكيم،(فى أول حياته) يقتات أعواد النبات الجافة ويتغذى بالأعشاب الذابلة، فقد بدا – وقتئذ – أن حياته كلها ستمضى على ذلك المنوال، فلما صار ملكا عظيما

(إمبراطور الزمان، وابن السماء)، وارتدى الملابس الملكية بشاراتها الملونة، وعزف على القيثارة، تحيط به ابنتا الملك ياو، تقومان على خدمته فى تبجيل وإكبار (بعد أن تزوجهما) فقد اتخذ سمت الملوك، حتى ظن الناس أنه سليل الملوك منذ نعومة أظفاره.".

١٤ – ٧ قال منشيوس:" قد وعيت الآن مغزى وأهمية ما يقوم به الناس من الانتقام، ثأرا لمقتل أحد أفراد أسرتهم أو أقاربهم؛ فمن قتل أبا أحد من الناس، فأبوه مقتول انتقاما، ومن قتل أخا أحد من البشر، فأخوه هالك لا محالة، (وهكذا) فإن قاتل آباء الناس وذويهم، هو أيضًا قاتل أبيه وأهله، لكن بوسائل أخرى، والفارق – هنالك – ليس كبيرا.".

١٤ – ٨ قال منشيوس :" كانت نقاط تحصيل المكوس – فى قديم الزمان – عبارة عن بوابات وحواجز تقام بهدف صد الطغاة والغزاة والمعتدين، أما الآن فتستخدم بوصفها أداة لتحصيل الضرائب الفادحة على نحو أشد طغيانا من الطغاة أنفسهم.".

١٤ – ٩ قال منشيوس:" من لا يلزم نفسه بالمبادئ الأخلاقية، فلن يستطيع أن يلزم بها زوجته وأولاده، ومن يسلك فى علاقاته مع الآخرين بغير الخلق والاستقامة، فسيتعذر على أهله (زوجته وأولاده) أن يتعاملوا، هم أيضا مع الناس بمعايير أخلاقية قويمة.".

١٤ – ١٠ قال منشيوس: " لا خوف على من امتلأت خزائنه بوافر المال والغلال من نوائب الزمان وسنوات القحط والنكبات، وطوبى لمن فاضت ودائع

الخير والخلق الكريم لديه؛ فلا خوف عليه فى زمان الضلال وأيام الفوضى والانحلال!".

١٤ – ١١ قال منشيوس:" إذا كان المرء محبا للشهرة فقد يتنازل، فى سبيل ذلك، عن الملك والدولة والسلطان [حرفيًا: عرش الحكم وقيادة ألف مركبة عسكرية]، أما إن لم يكن مفتونا بالصيت الذائع، فلن يتنازل عن طبق من الأرز ولو بشق الأنفس.".

١٤ – ١٢ قال منشيوس:" إذا كذَّب الناس الحكماء وذوى مكارم الأخلاق، اضطربت الأحوال و فرغت البلاد (من الحكمة)؛ فإذا تهدمت قواعد الأخلاق وأسس المعاملات ، واختلطت على الناس أمورهم؛ وإذا لم تقم للحكم الرشيد قائمة، زالت الثروة ونقصت الأموال، وضرب الفقر بأطنابه فى كل مكان.".

١٤ – ١٣ قال منشيوس :" الشعب هو العنصر الأهم (فى حساب المواطنة) ويأتى فى الدرجة التالية من الأهمية، آلهة الزرع والأرض والنبات، ثم يتلو هؤلاء جميعا (فى مقدار الاهتمام) جلالة الملك.

ومن ثم كان الحصول على رضا الناس هو الشرط الأساسى لبلوغ عتبات القصر الملكى وارتقاء العرش، وكان رضا الحاكم هو الخطوة الأولى فى طريق الوصول إلى مرتبة الولاية فوق الأقاليم، ثم كان استرضاء الوالى هو المقدمة الأولى لتولى المناصب العليا. وكان الوالى إذا ما ألحق الضرر بمعابد آلهة الزرع والنبات، أقيل من منصبه فوراً.

١٤ – ١٣ أما إذا كانت طقوس الأضحية تامة والقرابين حاضرة فى تمام النقاء والطهارة الواجبة، ومواقيت الطقوس فى أوانها، دون أن تنهزم الفيضانات، وتنحسر النكبات ويرتفع عن الأرض شر القحط والبلاء، فقد لزم استبدال الآلهة وانتقال مواقع القداسة إلى بقاع جديدة.".

١٤ – ١٥ قال منشيوس: " القديسون قدوة الأجيال على مر الأحقاب والسنين، وقد كان "بوييى"و "ليو شياهوى" من القديسين الحكماء. (وقد بلغ من تأثيرها على الأجيال اللاحقة أنه) كلما طاف بالذكرى طيف من سيرة أخلاق بوييى، تطهرت كل نفس من أوضارها، وزكا كل قلب هيّاب بقبس من مضاء الإرادة والإقدام . وإذا ذكرت للناس فضائل" ليوشياهوى" صار البخيل كريما ،والفظّ حليما سمح الأخلاق واسع الصدر.

إن الذين سبقوا، منذ قرون خلت، إلى الفضل والجد والخلق الكريم، تجددت بطيب التذكار آثارهم بعد أحقاب طويلة فأثارت فى النفوس العزم وشحذت الهمم.

أكان ممكنا أن يكون لهؤلاء ذلك التأثير(لو لم يكونوا قديسين حقا؟!) ثم إن ما حازوه من طاقة على الإلهام والتأثير، لم يقتصر على الأجيال اللاحقة فقط، بل كان يشمل أيضا معاصريهم من الحكماء والمؤدبين.".

١٤ – ١٦ قال منشيوس: " الإنسانية من الإنسان، والإنسانية هى الإنسان؛ وعندما نتحدث عنها مقترنة (بمعناها الكبير فى) الإنسان، فذلك هو جوهر المبدأ الأخلاقى وذلك هو الطريق.".

١٤ – ١٧ قال منشيوس:" عندما كان كونفوشيوس مسافرا فى طريق خروجه من دولة " لو"، مسقط رأسه، فقد تكلم قائلاً: " فلنتمهل الخطو، ولنمش ببطء؛ إذ نغادر الأوطان."، فلما كان متأهبا للرحيل عن دولة تشى، فقد حمل فى كف يده كمية قليلة من الأرز – لم تبلغ تمام النضج على النار – وانطلق مسرعا فى طريق السفر والترحال؛ ذلك هو ما بدا من شأنه عند الرحيل عن بلد غريب (وشتان بين راحل عن الوطن، ومسافر، بين الغرباء، بعيدا عن الأوطان)".

١٤ – ١٨ قال منشيوس: " كم لقى الرجل الحكيم [يقصد كونفوشيوس] من مشقة عند الترحال عبر الحدود بين دولتى " تشن" و"تساى"، لما كان بينه وبين حاكميهما من جفاء وتباعد.".

١٤ – ١٩ تحدث " موجى" إلى منشيوس، فقال له: " كثيراً ما يسخر القوم منّى وتتناولنى أفواههم لومًا وتقريعًا."، فقال له منشيوس: " لا عليك، إن السيد المهذب يبغض أن تصبح شئونه حديث القيل والقال، وقد جاء فى بعض أبيات كتاب الشعر القديم (ما نصه):

" تتألم نفسى ضيقا،

وتغلى أعماقى،

كما يغلى مرجل امتلأ حتى حافته،

وقد سلط الأرذال علىّ،

أفواه الكراهية"

(وهى أبيات تنطق بـ) لسان حال كونفوشيوس نفسه.

***

" فلم أنزع من قلوبهم

كظيم الغيظ،

ولم أدع شيئا

يودى بسمعتى وكرامتى فى داهية."

(وهو المعنى الذى يعبر عن) حال الملك أون عظيم آل جو.".

١٤ – ٢٠ قال منشيوس: " كان الحكماء (فيما مضى) يعملون عقولهم ويفتحون بصائرهم قبل أن يبادروا إلى تنوير الناس وهداية قرائحهم، أما الآن، فهم يحاولون جلاء الأبصار (بغير جدوى)؛ إذ يتغافلون عن جهلهم وفوضى الهذيان المرتبك فى أعماق قلوبهم.".

١٤ – ٢١ تكلم منشيوس مع كاوتسى، فقال له:" كانت الدروب الجبلية، فى البدء، مجرد ممرات ضيقة تتخلل التلال، فلما طال العهد بأقدام العابرين، صارت الممرات طرقا واضحة، حتى إذا هجرها السائرون حينا من الدهر، تكاثفت الأعشاب البرية وسدت كل طريق، وإنى أرى الآن أن أعشابا برية كثيرة قد نبتت فى طريقك، وسدت دروب الفهم فى قلبك.".

١٤ – ٢٢ قال كاوتسى: " إن الموسيقى (التى تصدح فى) قصر الملك "يو" أجمل كثيرا من الموسيقى التى تتردد فى ردهات قصر الملك أون."، فسأله منشيوس :" ما حجتك فى هذا التقدير؟"، فأجابه: " لأنى قد رأيت المشابك الحديدية الدوارة التى تتدلى منها الآلات النحاسية – عند الملك يو – تهرّأت لكثرة استعمالها (فى العزف المتواصل مما يدل على جودة الموسيقى .)"، فقال له منشيوس :" كيف يمكن لتلك الحجة أن

تكون دامغة؟! أما نظرت إلى آثار العجلات المحفورة على الطريق عند بوابات المدينة، أتكون آثار العجلات بما تركت من أخاديد عميقة على صفحة الطرقات بفعل بضع عربات تجرها الجياد؟".

١٤ - ٢٣ تأزمت الأحوال فى دولة تشى، بعد أن عم القحط والفقر فى أنحاء البلاد، فذهب تشين جين إلى منشيوس، وقال له: " قد أجمع الناس رأيهم على أن تبادر إلى مقابلة جلالة الملك وتستحثه (باسم الجميع) أن يفتح صوامع الغلال للناس، رحمة بالمنكوبين (الذين أهلكهم الجوع والفقر) ولا ندرى إن كنت ستلبّى رجاء الناس هذه المرة (كما فعلت فى السابق) أم لا؟". فأجابه منشيوس: " فلئن فعلت كما تطلبون منى، فلن أزيد عما قام به " فنغ فو"، وهو رجل كريم، كان مقيماً بدولة جين، واشتهر بمهارته فى مصارعة النمور (فترة من حياته)، إلا أنه تحول عن ذلك وصار، بعد ذلك، دمث الأخلاق، طيبًا ورعًا، وقد أقلع عن غلظته ووحشيته فى منازلة السباع، فلما كان مارًا فى طريقه، ذات يوم، بإحدى المناطق الجبلية، رأى الناس يطاردون نمرًا فى أحد الأحراش، وقد ذهب السبع إلى ركن قصيّ، فى أحد الأغوار، يتعذر على الناس الوصول إليه إلا بمجازفة، وما إن شاهد الناس " فنغ فو" قائمًا بينهم، حتى فزعوا إليه يرجونه المساعدة فى منازلة الوحش بمكمنه، فما كان من صاحبنا إلا أن شمّر عن ساعديه ورفع ذراعيه ونزل من عربته وأقبل نحوهم متهللاً (دون أن ينازل النمر أو يناوشه فى أقل القليل!) فلاقاه الناس بكل الحب والمودة، إلا أن طلاب العلم، من الدارسين،استهجنوا سلوكه، وسخروا منه هازئين.".

١٤ - ٢٤ قال منشيوس: " لذة الفم فى المذاق، ومتعة العين فى جمال الألوان، والأذن فى النغم، والأنف فى أريج العطور، والأطراف فى الدعة

والاسترخاء، فذلك طبع الأمور وعطاء الطبيعة، لكنه عطاء محكوم بقضاء الأقدار (إن شاءت بالمنح أو المنع)؛ لذلك لا يعدها العاقل أمورا طبيعية (بالضرورة).

(فأما) البرّ بين الآباء وأبنائهم، والاستقامة بين الأمراء والوزراء ، والكرم بين الضيف ومضيفه، (وما بين) الحكمة والحكيم؛ ومبادئ السماء والقديس؛ فلا قضاء غالب فيها جميعا إلا بأحكام القدر، وإن كان لمجرى الطبع فيها حكم أصيل؛ لهذا، لا يعتد الحكيم، فيها، بما قدّرته الأقدار."

١٤ – ٢٥ ذهب (رجل من دولة تشى يدعى) "هاو شن بوهاى" إلى منشيوس، وسأله: " ما قولك فى السيد يوجين؟"،فأجابه: " رجل حسن الخلق مشهود له بالصدق."، فسأله: " فما حسن الأخلاق، وما الصدق؟"، فأجابه منشيوس: " من كان جديراً بالإعجاب، فذلك هو من ندعوه بأنه "حسن الأخلاق". وأما من تجلت خصاله الطيبة واضحة فى سيماه ومظهره، فذلك من نقول عنه بأنه " الصادق"؛ فإذا ما غمرت سجاياه باطنه وظاهره، فهذا من يقال بأنه جميل الخلق، فإذا فاقت أخلاقه حدود الوصف وصار له البهاء الأكمل والحسن الأتم قيل إنه " عظيم الأخلاق"؛ فإذا قامت أخلاقه الكريمة مقام الروح الكامن فى أعماقه، كان هو" القديس"؛ فإن كانت روح القداسة فيه عميقة الغور لا يسبر قرارها، قيل إنه ذو الروح الأقدس؛ فالرجل الذى سألتنى عن خصاله (يوجين) ذو منزلة بين اثنين: الصدق، وحسن الأخلاق؛ لكنه أدنى كثيراً من الصفات الأربع الأخيرة (جمال الخلق – كرم الأخلاق – القداسة – الروح الطاهر)".

١٤ – ٢٦ قال منشيوس: "مازال الخارجون عن مذهب (الفيلسوف) موتسى، يهرولون تجاه الشيخ يانغشو (مؤسس الطاوية الأول، قبل"لاوتسى" بزمان..) وما برح (كذلك) الرافضون لمدرسة يانغشو، يتوجهون إلى (مذهب شيوخنا) "روجيا" (الكونفوشية الأرثوذكسية الصحيحة) وإنا لنلقاهم ونقبلهم ماداموا يتوجهون إلينا .

إنَّ من يتجادلون، اليوم مع أصحاب مذهب موتسى وأنصار طريقة يانغشو، يتصرفون وكأنهم يلهثون وراء خنزير أفلت من أيديهم، حتى إذا دخل الحظيرة، ظلوا يلاحقونه، وهو محبوس، يريدون أن يقيدوا أطرافه بحبل متين.".

١٤ – ٢٧ قال منشيوس: "تفرض الضرائب على القماش والحرير، وتفرض أيضا على الحبوب وهناك (ثالثا) ضرائب القوة العاملة؛ فالعاقل من اكتفى بفرض ضريبة واحدة (من بين هذه الثلاثة، فى الوقت الواحد) مرجئًا تحصيل الاثنتين الأخريين. أما إذا جرى تحصيل ضريبتين منها فى آن واحد، وقع الناس صرعى الجوع والموت، فإن اتفق تحصيل ثلاثتها فى وقت واحد (كانت تلك الطامة الكبرى التى لن تبقى ولن تذر؛ حتى إنه..) لن يرعى ولد حرمة أبيه، ولا والد حق ولده.".

١٤ – ٢٨ قال منشيوس: "أعظم ما يقتنيه الأمير من جواهر ثمينة هى: الأرض، والشعب، والإرادة السياسية، فإذا (صرف الأمير نظره عن ذلك كله ..) ورأى فى اللآلئ والأحجار الكريمة أعظم ما يقتنيه من جواهر، كان ذلك إيذانًا بوقوع النكبة والخراب العاجل .".

١٤ – ٢٩ بعد أن تم تعيين " بن تشينكو" (رجل اشتهر بالطيش، رغم مهارته) فى وظيفة ببلاط دولة تشى، علق منشيوس (على ذلك) بقوله:" يبدو لى

أن صاحبنا (يقصد بن تشنكو) مقتول لا محالة."، فما هو إلا أن تم إعدام الرجل بالفعل.

فجاء أحد تلاميذ الشيخ الحكيم وسأله: " كيف عرفت ياسيدى أن الرجل ستنتهى حياته بهذا الشكل؟"، فأجابه: " لقلة حكمته وتبصره؛ إذ لم يفهم حقيقة المبادئ الكبرى التى يبذل الأمير كل جهده للسير على نهجها، فكان هو الذى جلب موته بيديه.".

١٤ - ٣٠ لما وصل منشيوس إلى دولة "تنغ"، نزل (ضيفًا) فى القصر الأعلى، (وحدث أثناء إقامته، أن..) ضاع حذاء مصنوع من القماش كان موضوعًا بالقرب من إحدى النوافذ، فذهب إلى منشيوس من قال له: " ألا يمكن أن يكون أحد تلاميذك قد أخذ الحذاء، وخبأه وسط أشيائه؟"، فقال له الشيخ: " أتظن أنهم جاءوا معى ليسرقوا الأحذية الكتانية؟"، فأجابه: "لا أقصد ذلك، (لكنى) أراك تقرر عليهم موضوعات وحلقات الدرس والعلم، ثم لا تسأل عمن قام وذهب إلى شئونه، ولا ترفض من أتوا إليك (من أية جهة) ماداموا قد رغبوا فى العلم وتلقى المعرفة على يديك، وسواء أكان فيهم الخبيث أم الطيب، فإنك تبسط لهم رداءك وتقبلهم بساحتك.".

١٤ - ٣١ قال منشيوس: "ما من أحد إلا يجد فى نفسه ما لا طاقة له على عمله (من أمور شتى) فإذا ما استعان على قضائها بما يستطيعه من الصبر، كان ذلك قبسًا من الإنسانية؛ ثم إنه ما من أحد من الناس إلا يستشعر فى نفسه نفورًا من القيام بأداء عمل ما، فإذا استلهم من روح المثابرة والدأب ما يتقوّى به على الكد فيما كان يتكاسل عن أدائه، كانت تلك هى روح الاستقامة.

من استطاع أن يوسع رحابة صدره وترفعه عن الإساءة، كان له من الإنسانية معين ذخيرة لا ينضب، ومن واتته المقدرة أن يعفّ نفسه عن التلصّص (على مثالب الناس)، من وراء جدار أو التسلل (لاستلاب مغانم الناس) فوق الأسوار، صار له من الاستقامة ما لا تفنى معه الخزائن. إذا أبدى المرء من التصرفات والكلمات ما تتمجد به كرامة الإنسان فوق رخيص القول وسفيه الخطاب والعبارة، عرف له قدره من الاستقامة والخلق أينما نزل في حل وترحال.

إذا ما جادل رجل العلم (الدارس، المثقف) من لم يكن يحق له أن يتناظر وإياه، كان ذلك مسعًى رخيصًا لتحقيق مأرب شخصي، فإذا اعتصم بالصمت وقتما كان الكلام مطلوبًا والخطاب ضروريًا، كان السكوت، حينئذٍ، حيلةً لاجتلاب نفع أناني؛ فهذا كله بعض من معنى التلصّص من وراء الجدران أو القفز فوق الحيطان (لاستلاب الناس أشياءهم أو أسرارهم.)".

١٤ – ٣٢ قال منشيوس: "إنَّ ما سهلت عبارته وفاضت به المعاني، لعمق مغزاه من الكلام، لهو خير الكلام وأحسنه؛ وما اتضحت به الدروب وسهل به المنال من المبادئ، هو أحسن المبادئ.

إذا ما تحدث الحكيم، انقادت له أسلس العبارات واندرجت في مقاصده أعظم المبادئ وأطيب المعاني، (وكذلك) إذا تبدت للناس سيرة أفعاله وظاهر سلوكه، بدا آخذًا بزمام نفسه. وقد أقام نموذجًا تهتدي به الدنيا إلى مستقر أحوالها.

إن آفة الناس جميعًا أنهم يدعون الغث مطروحًا بحقولهم، وينشطون فى حقول الناس إصلاحًا وتهذيبًا؛ يحثون الناس على الجد، والمسئولية والواجب، ويلقون عن كاهلهم أثقال الجد من أمرهم.".

١٤ - ٣٣ قال منشيوس: " كانت خصال القديسين ياو وشون (بصفاتها الإنسانية الطيبة) تصدر عن نزعة طبيعية؛ أما الملكان الحكيمان " طانغ"، و"أو" فقد اجتهدا فى إيقاظ (طبائع الخير فى نفوسهما) عبر التهذيب (والاجتهاد الذاتى).

إذا اتفق ظاهر المرء (من سلوك) وباطنه (من التزام قويم) مع قواعد الأخلاق وأصول الآداب ، كانت تلك هى المرتبة الشريفة فى مقام الخلق الأسمى.

إنَّ الأسى لفقيد، يعزّ على الحى فراقه، حزن مقيم بقلب الشجى، ولا يمكن أن يكون رياء الناظرين، إن السير على هدى الأخلاق بغير عوج (ابتغاء إيقاظ دفائن الخير) لا لمغنم ذى نفع ذاتى (سعيًا لوظيفة مرموقة ومكافآت سخية).

ولابد أن تصدر الكلمات عن فيض صدق وإخلاص، لا ادعاءً زائفًا بحسن السيرة وشريف السلوك، وليلتزم العاقل الحكيم بما تفرضه الشرائع وليعمل حسب ما تقضى به (نظم القوانين) وليدع (ما بيد القدر) للأقدار تقضى بما مضى به حكم السماء.".

١٤ - ٣٤ قال منشيوس: "على أولئك الذين يقصدون إلى قصور الأمراء لشرح المذهب والأفكار (الفلسفية) ألا يستصغروا من شأن أنفسهم أمام العروش الحاكمة، بل عليهم أن يظهروا بمظهر المستخف بأبهة الحكام

وفخفخة القصور (فلا تأخذكم تلك المظاهر بما بدا من روعتها) إنَّ القاعات ذات العُمُد والأسقف الذاهبة فى الارتفاع والجدران المزينة بالأفاريز البديعة (مهما كان من فخامتها)، ليست بالشيء الذى يغرى نظر المرء إذا ما واتته المقدرة على امتلاك مثيلاتها، (وقد يكون) للموائد العامرة بأشهى المأكولات، بما يقوم على خدمتها من المحظيات الحسان، رونق ومتعة وسحر خلاب، (إلا أنى) ما كنت أسمح لنفسى بالوقوع فى غوايتها؛ إذا ما قدر لى أن أرتاد ساحتها. ولابد أن ليالى اللهو والشراب، ورحلات الصيد البرى ذات العربات المتراصة فى أثر عربات ذاهبة إلى أحراش ساهرة بلذة الترف والنعيم - لابد أن لها تأثيرها الطاغى على النفوس (ومع ذلك) فما كانت لتبهرنى فى شىء، لو كانت فى يدى مفاتيح الولوج إليها. وما كنت لأقرب شيئًا مما يقترفه (أولئك الذين يطمحون إلى ذلك الترف)؛ ذلك أنَّ ما ألزم نفسى باتباعه هو ميراث الأقدمين، فلا وقعت الرهبة فى نفسى مما يحوز هؤلاء من مظاهر الرفعة، ولا كان لى أن أستشعر نأمة خوف أو يداخلنى الروع مما يبدو لى من أحوالهم.".

١٤ - ٣٥ قال منشيوس: "إن أفضل طريقة يبنى بها المرء شخصية ناجحة ويهذب بها سلوكه، هى أن يحدد نطاق رغباته فى أضيق حدود ممكنة، وقد يقال بأنه مهما تنازل المرء عن كثير مما يشتهيه، فسيظل بناء شخصيته غير مكتمل الأركان بما يشتمل عليه من خصال رديئة وهذا صحيح تماما، لكن الجيد فى شخصه سيفوق الردىء؛ وربما يقال، كذلك، إنَّ امرءًا غارقًا فى الملذات والشهوات يمكنه أن يحتفظ بجوانب

طيبة ورائعة فى كيانه الأخلاقى، وهذا أيضا ممكن ووارد، لكن الردىء فيه يغلب الطيب أضعافًا مضاعفة.".

١٤ - ٣٦ كان " تسنغ شى" يشتهى التمر، بينما كان ولده "تسنغ زى" [تلميذ كونفوشيوس] لا يبغض شيئًا فى حياته مثل التمر، (وكان كونسون شو أثناء حديثه مع منشيوس، قد تعرض لهذه المسألة، قائلاً:) " أى الطعام أشهى، التمر أم اللحم المشوى؟"، فأجابه: " اللحم المشوى، بالتأكيد."، فعاد كونسون شو يسأل: " فهذا تسنغ زى يطعم الشواء ولا يحب التمر، ولا أدرى ما السبب فى أنه يحب ذاك ويبغض هذا؟"، فأجابه: "الشواء طعام يحبه الناس جميعا، أما التمر فلا يفضله إلا البعض من دون الناس، فذلك شبيه بما يتشاءم به الناس من ذكر أسماء آبائهم (عادة صينية قديمة، حيث يتشاءم الأبناء من ذكر أسماء آبائهم، شفاهةً وإن لم يتحرجوا من كتابتها!) دون أن يستشعروا أدنى حرج من التلفظ بألقاب عائلاتهم؛ وذلك لأن اللقب يتسم بصفة العموم والذيوع أما الاسم فمخصوص بحامله. متعلق بشخصه (والكونفوشى الجاد، ابن الجماعة، مخلص للتقاليد، يحترم ما أجمع عليه الناس وسارت به الحشود من نظم وأعراف راسخة، وينبذ كل ماهو ذاتى أو فردى أو مخصوص بفئة قليلة)".

١٤ - ٣٧ ذهب وانجان إلى منشيوس، وقال له: " أما كان كونفوشيوس، وهو مقيم بدولة تشن، يردد قوله.." يجب أن أعود إلى بلادى، إلى تلاميذى الذين استطاعوا - برغم جموحهم وتمردهم - أن يحققوا قدراً من النجاح والتقدم ولم ينسوا ما سبق لى من فضل عليهم.".. كان الشيخ الأكبر يردد هذه الكلمات وهو، بعد، فى دولة تشن، فما الذى

دعاه إلى تذكر تلاميذه، المتمردين، فى دولة لو (مسقط رأسه)؟"،

فأجابه منشيوس: "جاء على كونفوشيوس زمان كان يبحث فيه باهتمام عن " رجال يؤمنون بالطريق الأوسط" (مذهب الوسطية، والاعتدال) وكان يود - إذا وجدهم - أن يتخذهم إخوانًا يقضى حياته بينهم، فلما لم يجد أحداً يؤمن بالاعتدال، فقد اضطر إلى عقد الصلة مع أولئك المتمردين وغيرهم من الانعزاليين الحريصين على نقاء نفوسهم، دون الانغماس فى شئون الدنيا من حولهم. وكان الفصيل الأول (أى المتمردون) يحققون تقدمًا ملحوظًا، أما الآخرون (الانعزاليون) فلم يكن يشغلهم شيء سوى عزلتهم ونقاء نفوسهم، ولم يشغلهم أمر من أمور الدنيا، (وهكذا فلما كان الفرق بينهما حاداً) فلم يعثر كونفوشيوس على (من كان يبحث عنهم من..) رجال الحد الأوسط، فاضطر إلى التنازل درجة واحدة، عما ينشده، (فوقع اختياره على أولئك).

وراح وانجان يسأل منشيوس: " لكننى لا أفهم، بدقة، المقصود بـ "المتمردين الطامحين" فمن هم؟ وما صفتهم؟"، فأجابه: "هم أولئك (المشار إليهم) أمثال "تشين جان" - "سنغ شى"، "موبى"؛ فهم الذين كان يقصدهم كونفوشيوس بقوله.." المتمردون .. الطائشون"، فسأل السائل: " فلماذا جرى القول بأنهم متمردون وطائشون؟"، فأجابه: " لأن تطلعاتهم الكبرى واندفاعات طموحهم كانت تبرز فيما يتشدقون به من أحاديث رنانة راحوا يرددون خلالها أقوالاً (كانت تبدو) خطابية، احتفالية، من مثل.."قال القدماء كذا وكذا ... فعل الحكماء كيت وكيت.. "فإذا ما قارنت أقوالهم بأفعالهم، وجدت البون شاسعًا، ثم إذا تنحّيت

عن أولئك المتمردين، أو كانوا هم الذين تفرقوا عنك، لم يعد أمامك إلا أن تتواصل مع المعتكفين عن العالم ،الذين كفوا أيديهم عن فعل الشر أو الانغماس فى شئون الدنيا، وبرغم ذلك، فقد اضطر كونفوشيوس إلى التنازل عن مطلبه درجة أخرى وراح يقول.." لم يكن يخالجنى أقل شعور بالأسف، وأنا أرى الكثير منهم يعبرون أمام بيتى ولا يدخلون، لم يكن أولئك إلا بعضًا من الأفاقين والمنافقين المخادعين لأنفسهم وللعالم كله، لم يكونوا سوى متملقين، مخربين للذمم والأخلاق.".

وواصل وانجان أسئلته لمنشيوس قائلا: "فلماذا قيل إنهم متملقون ومنافقون ومخربون للأخلاق؟"، فأجابه: "(كان أولئك المنافقون ينتقدون موقف المتمردين، قائلين..) " فيم كل هذا الطموح والاندفاع، فيم هذه اللهجة الصارخة الزاعقة؟ إنَّ كلماتهم لا تتفق مع أفعالهم ومع ذلك، فلا يفتأون يرددون عن القدماء قولهم كذا وكذا (ومن الناحية الأخرى، كان المتمردون يسخرون من الانعزاليين، الراجين النقاء الباطنى، قائلين إنهم..) يعالجون الأمور من وجهات نظر ذاتية. وبكثير من اللامبالاة. قد ولدنا فى هذه الدنيا، ولأجلها نعمل ونعيش، وعلينا أن نتعايش معًا فى سلام، تلك هى خلاصة الأمر كله وذلك هو تمام الحال" (إنَّ مثل هؤلاء) السفلة المتملقين الذين تدنّت بهم دناءتهم إلى أحقر دركات الوضاعة هم الأفاقون المنافقون، الكذابون على أنفسهم وعلى الدنيا كلها.".

وهنالك، قال وانجان: " لكن الناس لم يكونوا يذكرونهم إلا بكل خير، وكانوا يستقبلونهم أينما حلوا بكل ترحاب، فكيف زعم كونفوشيوس بأنهم مخربون ومضيعون للأخلاق؟"، فأجابه: "(الغريب من أمر ذلك

النفر من الناس، أنك..) إذا هممت بمؤاخذتهم ظهروا لك وكأنهم بغير عيوب، وإذا أردت معاتبتهم، أشهدوك على أن ساحتهم بيضاء ناصعة وهم - في معظم أحوالهم - على استعداد لمسايرة كل العادات المبتذلة وتملق عالم مليء بالفساد، (وهم أناس) سيماهم تنضح (بظواهر) الإخلاص والصدق وأفعالهم لا تشوبها شائبة؛ مما يجمّل صورتهم في أعين الناس فيتيهون بأنفسهم عجبًا ويختالون زهوًا، (ومع هذا) فليس طريقهم هو الطريق (الذي انتهجه ياو، وشون، القديسان الحكيمان) فمن ثم، قيل إنهم مضيعو الأخلاق. وقد قال كونفوشيوس إنه يبغض أولئك الذين يوحي ظاهرهم (بالإخلاص) بما ليس في قلوبهم، الذين تبدو ملامحهم ثمرات ناضجة، بينما قلوبهم قشور ذابلة (حرفيًا: تختلط عليك ملامحهم، فتراهم قمحًا وهم زؤان!) حتى تخشى أن تفسد منهم شتلات النبات وهي بعد في غرسها الواعد؛ (كان كونفوشيوس يبغض) المجادلين (المتحذلقين) الحائدين عن الصواب، ويخشى أن تلتبس أفعالهم أمام الناس بالاستقامة. كان يمقت المتبجحين بالقول، ويفرق من أن يخلط الناس صدقهم بكذبهم. (كان الشيخ الأكبر) ينفر من الموسيقى (السوقية المبتذلة التي ذاعت) في دولة "تنغ"، ويخشى أن تلوث بصداها التافه، روعة وجمال قواعد الذوق الموسيقي الأصيل، كان يشمئز من اللون الأرجواني، خشية أن يختلط بالأحمر القاني (فيفسد مزاجه الفريد)، كان يتأذّى من المتملقين مخادعي الزمان والدنيا بأسرها، خوفًا من أن يفسدوا المبادئ الأخلاقية ويجنحوا بأعنة الطريق.

فإذا استطاع العاقل الحكيم أن يفعل كل ما في وسعه لاستعادة الزمام؛ انتهاجًا للمحجة القويمة والمسلك الأبدى الأصوب، فنعمت وبها .

إذا ما عاد للطريق اتجاهه الصحيح انتعشت النفوس واستفاق أهل الدنيا أزكى إفاقة، وإذا ما نهض الناس، فما بقى للشر بقاءٌ أبدًا أبدًا.".

١٤ – ٣٨ قال منشيوس: "قد انقضى من الزمان خمسمائة عام منذ عهد القديسين الحكيمين ياو، وشون إلى عهد الملك طانغ (آل شانغ)، (لكن) كان هناك الكثيرون مثل) الملك "يو" و" كاوياو" ممن رأوا بعيونهم الملكين الحكيمين، وتلقوا عنهما العلم شفاهةً، وكان هناك أيضًا الكثيرون مثل الملك طانغ ممن تلقوا العلم سماعًا (بالنقل والحديث المتواتر عن) الحكماء القديسين؛ ثم انقضى من الزمان خمسمائة عام أخرى، منذ نهاية عهد الملك طانغ حتى عصر الملك أون (آل جو) وكان الحكماء المشهورون أمثال: آيين، ولاى شو، هم الذين عاينوا ذلك الزمان فأخذوا العلم معاينةً ومشافهة، أما الملك أون نفسه فقد تلقى الحكمة سماعًا. ثم مضت، بعد ذلك، خمسمائة عام منذ نهاية عهد الملك أون، حتى زمن كونفوشيوس، وكان بين يديه الذين تلقوا الحكمة (عن الملك أون) مشافهةً، حكماء أفاضل من مثل: " تايكون لو"، و"سان إيشنغ"، أما كونفوشيوس نفسه فقد تلقى الحكمة عنهم سماعًا مما نقل إليه من أحاديثهم، وقد انقضى، منذ زمن كونفوشيوس، حتى وقتنا هذا أكثر من مائة عام، فليس ما بيننا وبينهم من الزمان وقت بعيد،

ولا يفصلنا عن المواطن التى شهدت بقاءهم كثير الانتقال أو بعيد الترحال، ومع ذلك، فلسنا نجد من رآهم، رأى العين ولا من أخذ عنهم القول شفاهةً، وأحسب أنًّا لن نرى بيننا بعد اليوم، أحداً قد تعلّم الحكمة بالسماع، كما كنا نعهد ذلك فيما سلف من التابعين."

***

الكتاب الثالث

المعرفة الكبرى

المقـــــدمة

فى النسخة المحققة للكتب الأربعة، من التراث الصينى القديم، والتى أقوم بترجمتها إلى العربية؛ يرد كتاب "المعرفة الكبرى" - برغم ضآلة محتواه، بدرجة تجعل منه مجرد رسالة أو أطروحة فلسفية قصيرة - فى مفتتح المتون كلها. وهو، فى الحقيقة، ليس كتاباً مستقلاً بموضوعه، وإنما مجرد فصل واحد من فصول كتاب آخر قديم جداً اسمه: "كتاب الطقوس" لكن هذا الأخير، هو أحد كتب التراث القديمة التى فقدت تماماً ولم يعثر لها، حتى الآن (٢٠٠٨م) على أى أثر، سوى شذرات ونصوص متفرقة مبثوثة فى ثنايا كتب التاريخ أو السير والتراجم القديمة.

يرجع تاريخ كتابة نصوص "المعرفة الكبرى" إلى زمن "الدول المتحاربة " (٤٧٥-٢٢١ق.م.) وتم الانتهاء من كتابته إبان زمن توحيد الصين على يد دولة تشين (٢٢١-٢٠٧ق.م.) أو ، ربما، بعد ذلك بوقت غير بعيد. أما مؤلف الكتاب فغير معروف ، وإن كانت مادته تنتمى إلى التراث الفكرى لما يُسمى بـ المدرسة " الكونفوشية" ويتطرق موضوعه إلى مبادئ متنوعة تشتمل أساساً على مجموعة رؤى فلسفية ومبادئ نظرية فى الأخلاق ، ووجهات نظر فى شئون المجتمع والسياسة والاقتصاد ، كعادة النصوص الفلسفية الصينية، ثم هو بجانب كل ذلك، يعد واحداً من أقدم المقررات العلمية للدارسين الصينيين فى مراحل التعليم العليا ؛ حيث كان من المعتاد أن يلتحق أبناء القادرين والأرستقراطيين بالتعليم الأساسى عند تمام السنة الثامنة من أعمارهم، وبعد اجتياز تلك المرحلة من التعليم ، التى كانت تتضمن معلومات أساسية فى الثقافة العامة وفنون القتال، فقد كان لزاماً على الدارسين استكمال دراستهم العليا فى

الأكاديميات المتقدمة فيدرسـون فيها مواد تتعلّق بالنظريات السياسـية وشئون الحكم (.. فقصارى ما يمكن أن يتطلع إليه الدارس الصينى القديم ، فى الفترة التى ظهر فيها الكتاب ، هو أن يلتحق بالعمل فى البلاط الملكي، واحداً من كبار موظفى القصر!) .

والكتاب بأبوابه الأحد عشر، ينقسم إلى جزءين رئيسيين : أولهما، **الباب الأول** ، بوصفه "المتن الأصلى" الذى يعرض للفكرة الأساسية التى يقوم عليها محتواه العام، أما الأبواب العشرة الباقية فتشكّل جميعًا **الجزء الثانى** منه ويُطلق عليها "المرويات"؛ وهى عبارة عن مجموعة المتون التى تستفيض فى الشرح والتعليق على **الباب الأول** ، الذى هو النص الأساس كما أسلفت . وترتيب الكتاب بأبوابه وأجزائه ،من وضع " جوشى" وهو أحد أهم رواد" الكونفوشية الجديدة " (.. ذلك الاتجاه الفلسفى الذى ظهر فى زمن أسرة سونغ الملكية (٩٦٠-١٢٧٩م) حيث تساندت الفلسفتان الكبيرتان: الكونفوشية والطاوية فى جبهة واحدة، بوصفهما عقيدة وطنية و"رسمية"، ذات قداسة، فى مواجهة البوذية الوافدة من الهند!).

ولئن قلت إن الكتاب ينتمى إلى ما يُسمى بـ" المذهب الكونفوشى"؛ فذلك لأن أفكاره الأساسية مستقاة من التصورات الكلاسيكية للمبادئ " الإنسانية" التى صاغها كل من كونفوشيوس وتلميذه النجيب " منشيوس"، الذى جاء بعده بنحو مائة عام من الزمان (والأحرى ، أن نقول .."المبادئ الأساسية التى استخلصها أو استنبطها كونفوشيوس؛ لأنه - فى الحقيقة - لم يضع أو يخترع شيئًا من عنده ، بل كان واحداً من جامعى التراث بوصفه مشايعًا للمدرسة الكلاسيكية، التى صارت تُنسب إليه فيما بعد، سواء داخل الصين أو خارجها ، ولو أن الصحيح أن يطلق عليها اسم "المدرسة الكلاسيكية" أو "المذهب الفلسفى القديم" وهى ترجمة أراها مناسبة تمامًا لمصطلح "روجيا" كما عرفت به فى اللغة الصينية، قديمًا وحديثًا ، وذلك بدلاً من التسمية

الشـــائعـة بـ " الكونفوشـيـة " التى تقصـر عن الوفـاء بتـأدية دلالات المصطلح علميًا وتاريخيًا، بل تبدو تسمية محرّفة ومنحرفة عن الطابع العام لفلسفة عريقة نشأت وازدهرت قبل مجيء كونفوشيوس نفسه إلى الدنيا بزمان طويل جداً .

وقيمة الدور الذى قام به تتمثل فى أنه استطاع التعبير عن مضمون ذلك التيار الفكرى القديم، وأنه نشر لواءه وساهم بنصيب ريادى فى الدعوة إليه وتعميم مبادئه، ولو أنه كان يشعر فى قرارة نفسه، ويتصرف وكأنه يلبى نداء سماويًا يطالبه بإيقاظ العقول، وأنه جاء برسالة لتوعية البشر.. مثلما كان سقراط يفكر أيضًا بأنه مبعوث العناية الإلهية إلى أثينا، للغرض نفسه. ولذلك ، فليس صحيحًا أن كونفوشيوس لم يتجاوز الادعاء بأنه مجرد ناقل للأفكار. وعلى أية حال، فقد بقى اسمه علمًا على أعرق اتجاه فكرى فى الصين، وإن كانت شهرته الآن تنتقل عبر ترجمات تصرّ على إضافة علامة التذكير الصوتية إلى اسمه الذى أصبح يُنطق حسب قواعد اللغة اللاتينية، بالصياغة المشهورة فى الدنيا كلها، لكنه - فى اللغة الصينية - ينطق هكذا: كونفوتس (.. أو" كونزى" ، وأحيانا .. " جو نى "!!)

لكن ، ما الذى يقوله أو يتناوله كتاب صغير بهذا الحجم ، لا يزيد على كونه مجرد رسالة أو مقال قصير؟ والإجابة - بإيجاز - أن الكتاب يعرض لفكرة من التراث القديم، يُطلق عليها: المبادئ الأساسية الثلاثة (بالصينية.. سان كانغ) والدرجات الثمانى (.. بامو) ؛ فالمبادئ الثلاثة هى: الخلق الأزكى، الروح الوطنى الجديد، الخير الأسمى ؛ وهى أسس الخلق الكريم التى يرى الكتاب أن الإنسان - منذ الأزل - يتحلّى بها على نحو فطرى، فإذا اندمج فى المجتمع الإنسانى الكبير، اندثرت تلك الأخلاقيات تحت ركام العلاقات اليومية، فيلزم عندئذ، تجديد الصلة عن طريق تحصيل علوم " المعرفة الكبرى "لابتعاث كوامن الفضائل الدفينة ، واستصراخ الضمائر وتجديد ما أصابته يد البلى وصولاً إلى تمام الخلق وفائق الخصال، وهكذا يبلغ المرء - بصيغة الكتاب - إلى الدرجات الثمانى (البامو) وهى: التعلّم من الطبيعة ، إتقان المعارف ،

الإخلاص ، استقامة الضمير ، السلوك القويم ، القيام على أمر العائلة ، إصلاح أحوال الوطن ، نشر السلام فى ربوع العالم .

والأساس الذى ينبنى عليه كل ذلك هو الالتزام بتهذيب النفس، على أن الدرجات الأربع الأولى من " البامو" هى وسائل تحقيق ذلك التهذيب الذاتى المشار إليه ،أما الدرجات الثلاث الأخيرة فهى الأهداف المطلوب بلوغها لتكتمل أركان التهذيب الذاتى .

ويرى الكتاب أن التعلم من الطبيعة هو أهم وسيلة للرقى الأخلاقى وإصلاح النفس، وهى النقطة التى أيدها ، بقوة ، محقق التراث الكونفوشى الشهير " جو شى "، وهو الاسم الذى سنصادفه كثيراً عند مراجعة الجهود النقدية التى تناولت أعمال المذهب الكلاسيكى بالتعليق والشرح والتفسير ، حيث قدم تفسيراً مبتكراً لنظرية التعلم من الطبيعة ، فحواه:-

"..إن الانسان يملك مقدرة باطنية على استكشاف ينابيع المعرفة والإلمام بمنطق الأمور كلها ، إلا أن معرفته فى هذا غير تامة؛ ذلك أن المعرفة التامة تتطلّب استكناه جوهرالأشياء عن قرب، والتعامل المباشر معها بواسطة التجربة الذاتية ."

ويعلّق بعض الدارسين الصينيين على هذا التفسير قائلين.. إن"جوشى" هنا ، لم يفلح فى تقديم تفسير يتطابق مع المغزى الأصلى لكتاب " المعرفة الكبرى " ؛ ذلك أن المغزى الحقيقى للكتاب يتناول المعرفة بوصفها الإلمام التام بدلالات الخلق الأسمى، ومعانى تهذيب السلوك ، وأصول المعاملات (.. ولنلاحظ أن الأساس الذى تقوم عليه الفلسفة الصينية هو "المجتمع الإنسانى " وليس " الكون الطبيعى" (وترجمة المصطلحات هنا، مثلما هى فى باقى المؤلفات الكونفوشية ، أحاول بها تقريب المعنى ، فهى ترجمة تفسيرية ، وإن لم تكن ، بالضرورة ، حرفية جامدة) فموضوع اهتمام الفلسفة الصينية ، أساسًا ، هو الإنسان نفسه وليس الطبيعة ، وهذا أحد الفروق الجوهرية بينها وبين الفلسفة الأوروبية ، وسأعرض لهذه النقطة بمزيد من التوضيح فى مقدمة كتاب " الاعتدال " ؛ حيث المناسبة أوفق والسياق أنسب ..) وإذن..

فالتعلّم من الطبيعة – حسب كلام " جوشى " – هو وسيلة تحصيل المعرفة ، لكن الكتاب لم يكن يشير إلى الطبيعة بوصفها الظواهر المادية القائمة فى الواقع " الموضوعى " ، بل كان يشير ، فى الحقيقة ، إلى السلوك الاجتماعى الذى يمارسه الناس فى حياتهم اليومية ؛ ومن ثم فالتعلّم من الطبيعة لا يعنى استقصاء أصول الأشياء فى واقعها الطبيعى ، ولا دراستها والتعمّق فيها ، بل يعنى التوسّل بـ " الإخلاص" و" الاستقامة" واحتواءهما داخل معايير السلوك الذهنية ، وهكذا ، لا تعود المعرفة المشار إليها تنصب حول ملاحظة القوانين الموضوعية ، وإنما تركّز – أساسًا – على الطرق التى يجرى بموجبها استعادة الفطرة الأخلاقية الأولى التى جُبلت عليها نفوس الناس .

التعلّم من الطبيعة ، فى جوهره، يعنى دعوة الناس إلى مناهضة الميول والرغبات الأنانية ، والتخلّى عن مشاعر الخوف والقلق سعيًا إلى تهذيب الأخلاق والارتقاء بالفضائل ليتحقق الترابط المنشود فى مادة تهذيب النفوس بين الأفراد بعضهم بعضًا وبين السلطة الحاكمة، وهنا يتضح الدور المهم الذى يلعبه التهذيب الخلقى فى تطور المجتمع.

ويجدر بالذكر، هنا ،أن الترجمة أوردت نصوصًا مصحوبة بشروح " جوشى " بين قوسين مربعين، على النحو الذى وردت به فى الأصل ، وكان هذا الفقيه الكونفوشى قد أضاف إلى النص ملاحظات متفرقة واستكمل الباب الخامس من " المرويات" وأوضح الكثير من معميات المتن .

ويؤكد كتاب " المعرفة الكبرى" على أهمية حماية نظام المجتمع العشائرى، باعتبار أن الرباط الأسرى والعشائرى ذو أهمية بالغة فى إقرار السلام فى ربوع الممالك (.. أى على الأرض ، فى كل أنحاء العالم!) وفى هذا المجال، فالكتاب، وكالمعتاد فى التراث الصينى القديم، يدعو إلى الطاعة والبر بالأهل والتعاون والتكافل بين الإخوة ؛ فذلك هو الأساس الذى تقوم عليه العلاقات الحميمة، وهو القاعدة التى تستند إليها كل

الاعتبارات الأخلاقية التى تدعم أواصر العلاقة الطيبة بين العرش الحاكم ، فى الصين القديمة ، وبين رعاياه ، وهى علاقة تقوم على أساس الرباط العشائرى ، فكأن الجميع بيت عائلة كبرى، لها عميدها الأكبر ، ورجالها الذين هم أعوان جلالة الملك ورجاله .

والكتاب وثيقة تاريخية ، بجانب كونه مدونة فلسفية؛ لأنه يعد محاولة تنظيرية لتصور مبادئ وأسس يقوم عليها الحكم السياسى لنظام إقطاعى كان يتلمّس طريقه إلى الوجود فى ذلك الزمان البعيد، بحيث يصير الحاكم رمزًا للتقاليد الأخلاقية الراسخة، بوصفه المثل الأعلى والقدوة النموذجية فى بناء أخلاقى يقوم على أساس أن جلالته (.. يبجّل كبار السن ، ويحنو على الصغير والضعيف والجائع والمحروم ، يمنع ويمنح ، بيده الخير ، ومع ذلك فهو يقدر على الإيذاء وفعل الشرّ ، لكنه فى كل الأحوال، هو الأب الحامى والأخ الحانى على شعبه وعشيرته ، وهو - برغم ما يتحلّى به من رقة ورحمة - لا يلين حتى تذهب هيبته؛ وهو مع القسوة ، يعرف الحدود المعقولة التى ترده عن التنازع مع شعبه) .

ونحن إذ نقدّم هذا الكتاب إلى القارئ العربى ، مساهمة فى تعزيز جسور الصلات الحضارية بين الصين وثقافتنا العربية [.. الرائدة فى التعرّف إلى الصين، وفى رصد الملامح الإنسانية والثقافية لتلك الحضارة العريقة ..] فإننا - وضمير الجمع هنا للاستئناس بروح الجماعة - على ثقة من أن القارئ الكريم سوف يطالع هذا النص على ضوء الظروف التى أنتجته، وحسب السياق الفكرى والاجتماعى الذى ظهر فيه ، ووفق ملابسات وعوامل رافقت دواعى تدوينه، ولئن كانت أفكار الكتاب تشتمل فى أجزاء منه على ملامح وعى واستنارة وتفوق بارز ، فهى فى معظمها لا تزيد على مجرد اجتهاد نظرى، فى حدود زمان مرّ وانقضى ، وزمن صارت بقاياه عروضًا متحفية ، وعصر كان فيه هذا الكتاب أحد المقررات الدراسية للطلبة والدارسين ، ثم تحوّل إلى رؤية فلسفية دشّنت دخول الصين إلى عهد طويل من الإقطاع (.. مع ملاحظة أن شيئًا

من تلك الأخلاقيات التى يدعو إليها الكتاب لم يتحقّق أبداً، لا فى عصور الإقطاع ، ولا فى غيرها!) لكنه كغيره من المؤلفات التراثية والمتون الكلاسيكية، أدعى للمراجعة النقدية باعتباره وثيقة تاريخية تستحق الدراسة والتأمل، بمثل ما تثير الشك أيضاً (.. فالمؤلف مجهول ، والمحققون وبعض الدارسين ينسبون مثل هذه النصوص القديمة، عموماً ، إلى أكثر من مؤلف ، وعبر عصور متتالية وبأقلام كثيرة تداولتها حذفاً وإضافة وتعديلاً !).

وإذا كانت الكلاسيكية الصينية (الكونفوشية .. يعنى) قد ارتفعت فوق هامة الصين تاجًا من الحكمة والأخلاق ، والإنسانية والعدالة ، فقد تحمّلت، على مر العصور، أوزار النكبات ونُسبت إليها كل ألوان النقائص؛ فقد اتهمتها الفلسفة " الموهية " بالكفر والإلحاد ، وحمّلتها الطاوية مسئولية الفساد والانحلال باسم الأخلاق (وفى ظنى أن الصين ما كانت لتتصالح – طوال تاريخها ، وحتى العصر الحديث – مع الكونفوشية، إلا لأنها تحفظ ميراثها الأقدس من قديم، ألا وهو تقديس وتبجيل الأحفاد للأجداد، واحترام أهمية ومكانة وروح الأسرة وتقاليد العشيرة ؛ ومع ذلك فكثيراً ما كانت الكونفوشية وبالاً على الصين وسبباً لكثير من المحن !) .

وبينما كانت البوارج الإنجليزية تحيط بسواحل جنوب الصين فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وتفرض عليها تجارة الأفيون، وتصادر حقها فى السيادة، كان رجال القصر الإمبراطورى يتذرعون بالمسلك الكونفوشى القديم ، معتصمين بالمبادئ وأصول المعاملات، تحدوهم الثقة بأن أية قوة ، فى العالم كله لن تجسر على خرق مبادئ العدل والإنسانية التى أقرها كونفوشيوس .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن إنجلترا تجاسرت وهدمت الصرح الكونفوشى، الذى كان يظن بأنه منيع ، واستولت على هونغ كونغ، التى ظلّت تحت الاحتلال حتى بضع سنوات مضت .

وكانت صدمة لم تفق منها الصين إلا مع مطلع القرن العشرين ، حيث طلعت عليها شمس الحضارة الحديثة واستضاءت جنباتها بأنوار المدنية (قيل فى تفسير سقوط الصين تحت الاحتلال ، إبّان حرب الأفيون ، أسبابٌ ثلاثة – متناقضة –:

١ – إن التخلّى عن التراث المحافظ القديم هو سبب هذا السقوط وليس التراث نفسه.

٢ – إن الثقافة الصينية العريقة لم تخذل أهلها، لكن كان ينقصها التلاؤم مع روح العصر.

٣ – إن التراث القديم والمواريث الكونفوشية وأنماط التفكير والحياة وواقع الصين المتردّى ذلك كله، كان هو السبب فى الكارثة التاريخية!).

وعندما خرجت مظاهرات الطلبة من الجامعات الصينية فيما عرف باسم حركة الرابع من مايو ١٩١٩م كان هتافها الرئيس ينادى بالعلم والديمقراطية، وبإلغاء تدريس الكتب والمؤلفات الكونفوشية، تلك التى كانت تعد التمرد والثورة والعصيان من المحرمات تحريمًا قطعيًا . وشاع – وقتئذ – تصور لدى المستنيرين يرى أن تطور البلاد وخروجها من مأزق التخلّف كان مرهونًا بنبذ التقاليد الفكرية الكلاسيكية التى لم تفلح فى إمداد الصين بما كانت تحتاج إليه من وسائل الوعى بحقائق التطور فى الدنيا كلها. (الطريف، أن البعض من أعضاء اللجان المنظمة لاحتفالات أوليمبياد بكين ٢٠٠٨ م عرضوا اقتراحًا بإقامة تمثال لكونفوشيوس فوق مسرح الاحتفالات وسط ساحة العرض الرئيسة، باعتباره الرمز التقليدى للحضارة الصينية !) .. ولكن، عندما يحين موعد الاحتفال سنة ٢٠١٩م بمناسبة مرور قرن من الزمان على أكبر وأهم حدث فى تاريخ الصين الحديث – بعد الأوليمبياد – ألا وهو الانقلاب الجذرى فى تاريخ الثقافة الصينية ،فيما أُطلق عليه حركة الرابع من مايو . ستتجدد ذكرى تلك المرحلة فى تاريخ

أمة عريقة ، وهى المرحلة التى عبرت فيها الصين إلى ساحات العصر الحديث لتخلّف وراءها ظلام الكونفوشية بمعابدها ومراسمها وطقوسها العتيقة، وهى أيضًا المرحلة التى توقفت فيها أكاديميات التعليم الراقية عن مطالعة الكتب الكلاسيكية لتقرأ كتبًا أخرى حملت أسماء رواد عصر جديد : دارون ، نيتشه ، ك. ماركس ، إنغلز ، فرويد .. إلخ .

لم تنبذ الصين ميراثها الفكرى ، لكنها ارتفعت بالتطور فوقه ، وراحت تسلّط عليه، من الوعى الجديد كشافات تضىء بها جنباته ذات الملامح التقدمية ، ولعلّ قراءة مستبصرة تكشف فى تضاعيف المتون زوايا متفرقة تحمل وعيًا ما بحقائق التطور .

وأتمنى أن يكون قد حالفنى التوفيق فى ترجمة هذا الكتاب وفى غيره من كتب التراث الصينى، وبالطريقة التى تساعد على التواصل مع محتويات الكتب الفلسفية الباقية من ذلك الميراث القديم ، ولكم تمنيت أن تساعد هذه الترجمة ، مع غيرها ، من الترجمات لعيون الفكر الصينى فى استكشاف دروب غاصت ، منذ زمان سحيق ، تحت ركام السنين وتكلّست بدفائن فى ماضى الوعى، ومازالت خطوطها وعلاماتها الغائرة تحمل أسرار تاريخ طويل من مسيرة العقل الإنسانى عبر مراحل تطوره فى أقصى الشرق القديم .

المترجم

- ١ -

المعرفة الكبرى هى التحلّى بالخلق الأسمى ، وبلوغ الفضائل وأرفع الدرجات ، (والمعرفة الكبرى ، هى..) تجديد وعى الناس جميعًا ، وتنوير بصائرهم ، سعيًا لأشرف الغايات وأتم المقاصد.

وإذا ما أحاط الوعى بتلك الغاية القصوى والكمال الأسنى ، صار من الممكن بلوغ حد العزم الراسخ ؛ فإذا ما استقرّ العزم ، ساد الصفاء ؛ وإذا ما صفت الأذهان ، عمرت القلوب بالسكينة ؛ وإذا ما النفس اطمأنّت ، نشطت نوازع التأمل ؛ وفى التأمل تتحقق الغاية المثُلى ، ويبلغ المسير حدود القصد الأكمل .

لكل شىء أصل وفرع ، وللأشياء كافة، بداية ونهاية ،فمن عرف الأصل والفرع والمبتدأ والغاية، وأدرك أول كل ذلك وآخره ، فقد أوشك أن يحيط بأسرار المعرفة الكبرى .

كان القدماء من دعاة إرساء قواعد الحكمة بين ربوع الممالك ، يبادرون – فى أول الأمر– إلى تدعيم أسس الفضائل بين أهليهم وداخل حدود بلدانهم ، ولكى يحققوا مسعاهم ، فى هذا الصدد ، فقد كان لزامًا عليهم أن يبدأوا بأوطانهم التى يقيمون فيها؛ ولئن أرادوا أن يصلحوا من شأن أوطانهم ، فقد تحتّم أن يبدأوا بعشائرهم وقبائلهم التى ينحدرون من أصلابها ؛ ولما كان ضروريًا أن يبدأوا بعشائرهم ، فكان لابد أن يبدأوا بأنفسهم ؛ ولكى يبدأوا بأنفسهم فقد لزم أن يهذّبوا دخائل نفوسهم التى فى صدورهم ؛ ولتهذيب نفوسهم التى فى حنايا الصدور ، فقد كان مطلوبًا أن تتنقى جوانحهم بالصدق والإخلاص، ولم يكن ممكنًا أن تتطهّر جوانحهم بالصدق والإخلاص

إلا بفيض من المعرفة، وما كان يمكن أن تفيض عليهم المعرفة بأنوارها، إلا باستقصاء الحقيقة (.. فى كل شىء) ، فلما تطلّعت الأبصار إلى الحقيقة ، فاضت بأنوار المعرفة ؛ ولما فاضت بأنوار المعرفة ، تنزلّت فى القلوب معانى الصدق والإخلاص ؛ ولما تطهّرت القلوب بالإخلاص ، ولما تهذّبت النفوس ؛ خلصت النوايا ؛ ولما خلصت النوايا ، طاف الأمن فى ربوع العشائر ؛ ولما نزل الأمن بساحة العشائر ، صلحت أمور البلاد ؛ ولما استتبت أحوال الوطن ، انتشر السلام فى أنحاء الممالك .

فليعلم الجميع ، من أبناء السماء (.. الملوك) ، وأبناء العامة والدهماء (.. الشعب) أن تهذيب النفس هو الأساس ومبتدأ كل أمر.

ومثلما يستحيل أن يصلح نبت فاسد الغرس ، فلا يمكن أبداً أن يثمر الخير والصلاح فى امرئ سيئ المنبت والجذور، وكذلك يستحيل أن يُنظر إلى الشخص بادي الاحترام والإجلال بعين الازدراء ، كما لا يعقل أن يكون الزرىّ الحقير موضع التبجيل والتقديس.

[ذلك هو الباب الأول من" المتن المقدّس" حسبما يذكر" سنغ تسى "من أقوال كونفوشيوس – بألفاظه وحروفه – أما الأبواب العشرة التالية، فهى "المرويات" التى يقوم فيها " سنغ تسى " بالشرح والتفسير، ولم يفت تلامذته فيما بعد أن يقوموا بتدوين ذلك كله (المتن والشرح) فى أوراقهم . أما النصوص القديمة ، فى نسختها الأصلية ، فمضطربة ومتداخلة وقد تمت مراجعتها وضبطها بمقابلة نص النسخة المحقّقة ، ومن ثم وردت أبوابها وفصولها على النحو الذى نلاحظه فيما يلى من المتن] .

– ٢ –

جاء فى كتاب " كانغ كاو " .. لوائح كانغ الرسمية (أحد فصول " كتاب التاريخ " وهو من كتاب التراث الصينى) ما نصّه : " (لقد استطاع الإمبراطور " ياو ") أن

يتحلّى بأخلاق عظيمة." وورد أيضاً فى كتاب" طاى جيا " (أحد فصول كتاب" التاريخ القديم") ما مضمونه:

"(إن جلالة الإمبراطور) راح يتأمّل الوصايا السماوية المجيدة ." وكذلك يُذكر عن كتاب " ديد يان " (أحد فصول كتاب" التاريخ القديم" ومعناه، تقريبًا ، " الأوامر الإمبراطورية") قوله :" (لقد استطاع جلالته) أن يترقّى بأخلاقه الفاضلة إلى مراتب القداسة السماوية."

فكل تلك النصوص تبرز مدى الحرص (.. لدى الأباطرة القدماء) على التخلّق بأشرف وأسمى الأخلاق .

[ذلك هو الباب الأول من " المرويات " ويتناول بالشرح موضوع " الأخلاق الفاضلة والسجايا الزاهرة "].

- ٣ -

مما يؤثر عن جلالة الملك " طانغ " [مؤسس أسرة " شانغ " الملكية (القرن ١٧- ١١ق.م.)] أنه كان يحتفظ على جدار الحمّام الداخلى الخاص به ، عبارة مأثورة ، نصّها : " إذا استطعت يوماً أن تفتح صفحة جديدة فى حياتك ، فاحرص على أن تجعل ذلك دأبك وعادتك اليومية ، فتتجدد باستمرار ، وإلى ما لا نهاية ! " . وجاء فى كتاب " كانغ كاو" ما نصّه : " حُث الناس على تجديد نمط حياتهم ، وبصورة يومية ... إن استطعت ." وقد ورد فى كتاب " الشعر القديم " ما نصّه :

"كان فى قديم الزمان ،

أسرة تتقلّد الملك والصولجان ،

أسرة جو الإمبراطورية،

هلكت في الغابرين .. ولـكن ،

مواريثـها الأخـلاقية .. مازالت ،

صالحة لـزماننـا ... مازالت ،

تتجـّدد في كـل أوان . "

ومن ثم ، فينبغي على العاقل، ألا يسهو عن السعى إلى تحصيل أرفع وأسمى الشمائل .

[ذلك هو الباب الثانى من " المرويات " ، ويتناول بالشرح موضوع " التجدّد "].

- ٤ -

جاء فى كتاب " الشعر القديم " ما نصّه :

" فى بلادٍ طيّبة الأرض ،

وممالك مترامية الأطراف ،

أميـالاً .. ممتدّة ،

طاب للناس السكنى ،

واستقرّ العيش ، ودامت الإقامة . "

وورد فى الكتاب نفسه ، ما نصّه :

" الطيور المغّردة ،

طيور الجبل البرّية .. الشاردة ،

تحوم .. وتدور ،

وتقيم على قمم الجبال أوكارها ،

حيث يؤوب الطيران ،

وترجع الأسراب الهائمة في آخر المسعى . "

وقد قال كونفوشيوس (عندما طالع تلك الأبيات) :" أما وقد عرفت الطيور محطّ ترحالها، فهلا تعلّم الإنسان من الطير (كيف يستقر به السّعى ، وتطيب له الإقامة !)" .

ومما يؤثر عن كتاب " الشعر القديم " هذه الأبيات التى مطلعها :

" ما أكرمك وأحلمك أيها الملك الفاضل " أون" ،

قد سطع فى تاجك ساطع الخلق الأنور ،

واتبعت سيرة آبائك بالحكمة ،

وأقمت فى المقام الأسمى ،

وإليه رجعت ،

وتدبّرت فعالك ،

فكنت فى مقام الملك عادلاً ،

وفى واجب العمل شريفًا ،

وفى منزلة الوالد رحيمًا ،

وعلى شاكلة الولد بارًا وفيّا ،

وفى رفعة الحاكم ثقة أناخت لك أعناق رعاياك . "

وفى كتاب " الشعر القديم " أيضًا نقرأ ما نصّه :

" ما أجمل أن تطالع ،

منظر أنهار جارية ،

وحدائق من أشجار البامبو ،

ما أجمل أن ترى وجه إنسان فاضل ،

زانه العلم والخلق العظيم ،

استقامت صفاته بيد التهذيب ،

وتألّقت سجاياه كجوهر كريم ،

ذهبت عنه الشوائب ،

وعظمت هيبته ،

وتفرّدت خصاله ،

حتى خلد ذكره بين الذاكرين . "

ولنتأمل ذلك المعنى جيداً ؛ فعبارة " زانه العلم والخلق العظيم " تعنى الجد والمثابرة على التعلّم ، أما مقولة " تألّقت سجاياه كجوهر كريم ، ذهبت عنه الشوائب " فمعناها التخلّق بالفضائل ، وكذلك كلمة " عظمت مهابته " فهى تعنى التزام الدّقة والحذر واتّقاء ما تُذل به العزة ، وما يُقتحم به الوقار . وكذلك أيضًا فإن عبارة " تفرّدت خصاله " فإنما تشير إلى ما تترقى به الذات فى مراتب الشرف والوجاهة ، فأما الموضع الذى يقال فيه " خلد ذكره بين الذاكرين " فالمراد به أن الفاضل الحكيم ، لما اتّسم بوافر الاستقامة وكريم الخلق ، فقد بلغ درجة شريفة ومنزلة رفيعة اختص بها من دون الآخرين ، مما أبقى سيرته وخلّد مجده بين الناس جميعًا ، ومما ورد فى كتاب

" الشعر القديم " أيضاً، ما نصّه :

" ما أعظم سيرة الملوك السابقين ،

وما أخلد ذكراهم ! "

ذلك أن السابقين من الأباطرة كانوا يعظّمون شأن الحكماء ويجالسونهم ويتقرّبون إليهم ، وكانوا أيضاً يعملون لما فيه مصلحة الناس ، ويفرحون لما ينال الناس من نفع ، ويشقون لما ينزل بهم من بلاء ؛ فلهذا خلدت سيرتهم وبقيت ذكراهم الدهر الداهر .

[ذلك هو الباب الثالث من المرويات ويتناول بالشرح الوقوف عند حد الخير الأعلى"].

- ٥ -

قال كونفوشيوس :" أستطيع القول بأنى على قدر كبير من العلم ، فيما يتصل بالنظر فى الدعاوى القانونية والبتّ فيها جميعا ، ومع ذلك، فإنى أفضّل ألا يسعى الناس إلى التقاضى." وذلك (فى وجهة نظرٍ ما) لئلا يتلاعب شهود الزور بالحقيقة، ولكى يقع الخوف فى أفئدة المزورين والمنافقين الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه بزخرف القول وزائف البرهان؛ فذلك هو سبيل استقصاء أسس الحقيقة ، وشواهد اليقين .

[ذلك هو الباب الرابع من المرويات، ويتناول بالشرح مسألة أصول الأشياء فى البدء والمنتهى].

- ٦ -

ذلك هو طريق معرفة الأسس الأولى ، وغاية المعرفة وتمامها .

[ذلك هو الباب الخامس من المرويات ، ويتناول بالشرح مسألة استقصاء ظواهر الطبيعة لاكتساب المعرفة ، والحق أن النص الأصلى قد ضاع ولم يعثر له على أثر حتى الآن ، وإنما جئت هنا بما يتناقله الدارسون ؛ كى أسد الفجوة وأرأب صدع الكلمات ، وإليك بيان ذلك: "المعرفة التامة تأتى من استقصاء طبائع الأشياء ؛ ولكى نحصل على معرفة صحيحة فلابد من إقامة الصلة مع الأشياء كما هى قائمة في الطبيعة والتعرّف على أحوالها ، وعقل الإنسان ، عمومًا ، يتميّز بدرجة عالية من الانتباه والملاحظة ؛ ويتحلّى ، على نحو متساوٍ بين الجميع ، بتلك المقدرة الفذّة . ثم إن كل الأشياء التى تقع فى نطاق ملاحظتنا تحت السماء (.. فى الدنيا) لها وجودها ، وحدود علمها الطبيعى ؛ ولأننا لم نحط - بعد - علماً بذلك الوجود وحدوده التامة ، فما زالت معرفتنا به غير مكتملة، ومن هنا ، فلابد أن يكون الدرس الأول فى " المعرفة الكبرى " توجيه الدارسين إلى استقصاء جوانب الوجود الطبيعى وعلومه ، على أساس ما حصّلوا من معرفة عند تفاعلهم بالأشياء التى تقع فى محيط تجاربهم ودراستهم ؛ بهدف الوصول إلى الغاية القصوى للمعرفة ، والمثابرة على ذلك السلوك ، لابد ، ستصل بهم يومًا إلى الوعى بحقائق الأشياء ، ظاهرها وباطنها ، قريبها وبعيدها ، سطحها وأعماقها ؛ وتصبح المعرفة - فى الإجمال والتطبيق - إدراكًا نافذًا ووعيًا ثاقبًا ، على أساس من الفهم التام . فذلك هو منتهى العلم بالأشياء ، وأعلى مرتقى تبلغ إليه المعرفة ."].

- ٧ -

إن المعنى فيما يقال له " استصفاء الأفكار " (.. خلوص النوايا !) إنما يذهب إلى أنه ليس ينبغى للمرء أن يخدع نفسه ، وأن يدرأ عن نفسه الغش مثلما يتجنّب رائحة كريهة ، أو مثلما يبغض وجه امرأة دميمة (كذا) ، فذلك مما يجلب للنفس الهدوء والسكينة ؛ فلابد للعاقل أن يلزم الحرص (.. فليراقب نفسه ويحصِ أفعاله) حتى وهو بعيد عن أعين الرقباء .

ولئن كان الوضيع من الناس يغدو ويروح هائماً على وجهه بلا طائل ؛ يفسد حيث يريد الإصلاح ، ويهدم حيث ينوى البناء ؛ يهرب من وجه الكريم ، حيث يخشى أن تنكشف أستاره أو يُذاع سرّه ، يتجنّب النظرات الفاحصة خشية أن يُنزع عنه زيف مظهره وتُكشف حقائق باطنه ("حرفيًا" .. يُكشف ضميره الخفى، ومكامن باطنه الخمسة : القلب - الكبد - الرئة - الطحال - الكليتان)، فما جدوى التخّفى ، وما فائدة انتحال الأقنعة ! فلذلك ، قيل إن النوايا الخالصة ترتسم على الوجوه ، وتبدو فى صفاء الملامح ، فليراقب المرء نفسه، حتى وهو جالس وحده، وليحصِ، بنفسه، أفعاله . وقد قال سنغ تسى(من أتباع كونفوشيوس) : " هل من المعقول أن يجلس المرء هادئًا ، رابط الجأش ، بينما تحاصره - من الجوانب كلها - عيون تتفحّص ، وأصابع تشير، ونظرات مصوّبة تتّهم وتتساءل؟ " .

إن الأغنياء يقدرون أن يزينوا بيوتهم ، والحكماء يستطيعون أن يهذبوا أخلاقهم ، وإن صدر الحليم ليتسع ملء الوجود، وعلى محيّاه سيماء الهدوء، وفوق الجبين رضًا وسماحة، فمن ثم كان الفاضل قادراً على استبطان نوايا الإخلاص والنزاهة .

[ذلك هو الباب السادس من المرويات، ويتناول بالشرح مسألة "إخلاص النوايا"].

- ٨ -

تُرى ماذا يُقصد ، بالضبط ، من التأكيد على ضرورة البدء بتهذيب النفس، لمن أراد تقويم الأخلاق؟ (.. فى الردّ على هذا ، نقول :) إن نفساً امتلأت حقداً وكراهية لن تنصاع للرشاد، وإن قلبًا واجفًا لن يستجيب لداعي الحكمة، وباطنًا زائغًا بالأهواء والشهوات لن يرعوى، ومكامن مترعة بالمرارة والشكوى لن تنصت للمثل العليا (.. العالية ، بالأحرى) .

عندما تتحول النفس عما ينبغى لها أن تتوطّن عليه من طباع وتنصاع له من مبدأ

قويم ، يضيع من العين البصر ، ومن الأذن السمع ؛ وتصير النكهة بغير مذاق، والمذاق بغير طعم؛ فلذلك قيل إن تقويم الأخلاق يستلزم ، أولاً ، ضبط النفس .

[ذلك هو الباب السابع من المرويات ، ويتناول مسألة " ضبط النفس والاستقامة "].

- ٩ -

ما الحكمة فى أن يكون الشرط الأساسى فى استقرار الشئون العائلية هو تهذيب النفس وتقويم الخلق؟ (.. والجواب ، يتمثّل فى ..) إن الحب والمودّة بين الناس بعضهم بعضًا، لون من الانحياز؛ فالناس ينحازون لمن يحبونهم، وينحازون أيضًا ضد من يمقتون، وضد من يوقع فى نفوسهم الرعب، أو ، من يسىء إليهم، ويتكبّر عليهم، وهكذا فمن النادر جداً أن تصادف من يمتلئ قلبه حبًا للناس دون أن يغفل عن عيوبهم، وقلّما تجد من يبغض إنسانًا، لكنه - برغم الكراهية - مستعد أن يعترف بأفضاله ومناقبه الحسنة، ومما يؤثر فى هذا المعنى، من الأمثال، حكمة قديمة تقول: " ليس هناك من يرى الشرّ فى أطفاله، وليس هناك من يقنع بالخير فى محصوله." فمن ثم قيل إن تهذيب النفس وتقويم الخلق أساس استقرار الشئون العائلية .

[ذلك هو الباب الثامن من المرويات، ويتناول بالشرح مسالة "إصلاح الأحوال الأسرية"].

- ١٠ -

إن إصلاح شئون الممالك يبدأ بالعمل على استقرار أحوال الأسرة البسيطة ؛ ذلك أنه لا يعقل أن يعجز المرء عن القيام بأمر أفراد عائلته وعشيرته الأقربين، بينما يزعم المقدرة على ضبط شئون بلده الكبير ، ومن ثم فالعاقل من أفلح فى استقراء طريقة

مثمرة فى إدارة شئون الممالك، دون أن يجاوز حدود بيت عائلته الصغير؛ بمعنى أن يتخذ من البرّ بالوالدين مفهومًا للإقرار بالعرفان نحو جلالة الإمبراطور، ويتخذ من" الاحترام الواجب للأكبر سنًا " مبدأ مفيدا لإقرار العلاقات بين الرؤساء والمرؤوسين على أساس من الاحترام المتبادل ويسير على نهج التقليد العائلى الوارد فى" الرحمة بالضعيف وصغير السن؛ بحيث يطبّقه فى أصول المعاملات مع العامة والدهماء وسائر الناس .

وبخصوص هذه المسألة الأخيرة فقد جاء فى" لوائح كانغ الرسمية "ما نصّه:" ينبغى اتّخاذ كل التدابير للعمل على حماية الضعفاء، وبالقدر نفسه الذى تسهر فيه الأم الرؤوم على رعاية وليدها؛ فهى، حتى وإن لم تستطع تلبية كل احتياجاته الحيوية، إلا أنها تبذل أقصى الجهد فى العمل على توفير أكبر قدر مما يلزمه ويؤخذ فى الاعتبار، هنا، أن الفتاة لا تجيد مهام الأمومة ورعاية الطفولة ، بجديّة ، قبل الزواج .

إن تقليداً عائلياً راسخًا فى العطف والرحمة يقود أمة نحو أنبل معانى الإنسانية . وكذلك فإن أخلاقًا عائلية تقوم على الإيثار، يمكن أن تستنهض، فى الأمة، روح البذل والإيثار، فى حين أن البطش الذى يتملّك قلب طاغية واحد، يقود وطنًا كاملاً إلى الخراب والفوضى والدمار؛ فتلك طبيعة الأمور طبقًا لما تحظى به السلطة الغاشمة من تأثير يتغلغل فى الأبنية الخاضعة تحت سلطانها كلها. وقد قيل فى المثل السائر:"إن كلمة فاسدة يمكن أن تنتهك أقدس المعانى" لكن رجلاً واحداً - بالمقابل - يستطيع أن يؤسس أثبت دعائم الأوطان .

عندما سار الملكان العظيمان :" ياو"، و" شون" فى الناس سيرة حسنة، قائمة على الرحمة والإنسانية..(وهما زعيمان أسطوريان، حكما القبائل الصينية القديمة، يقدّسهما الصينيون) فقد حذا الناس حذوهما؛ ولمّا تجبّر الحاكمان الغاشمان:" جيه "، و" تشو" ["جيه " هو آخر ملوك أسرة "شيا"، والثانى آخر حكام أسرة شانغ، يرمزان

للظلم والطغيان]، فقد سلكت الرعية على آثارهما فى العداوة والبغضاء، وليس من المعقول، أو حتى من الممكن أن تأمر شعبًا باتباع طريق الرحمة ، بينما تسلك به كل دروب البطش والعدوان؛ لأن أحدًا لن ينصاع لمثل هذا التوجيه .

وهكذا ، فالحكيم الفاضل ، من يُلزم نفسه (بالمبادئ التى يدعو إليها) قبل أن يطالب الآخرين بالعمل بها، ويمنع نفسه عما يأمر الناس بأن ينتهوا عنه ، فأما إذا دعا الناس إلى التسامح وأسرّ فى نفسه الترصد والانتقام، فذلك مما لم يسمع الناس بمثله أبدا. ولهذا ، فقد قيل إن إصلاح شأن الممالك يبدأ بالعمل على استتباب أحوال الأسر والعشائر. وقد جاء فى كتاب " الشعر القديم " ما نصّه :

"أوراق شجر الخوخ الوارفة الغضّة ،

الأوراق الملتفّة كفتاة حلوة ،

فى حفل عرس ،

والعائلة الملتمّة ،

والضحكات وأسارير الوجه المتهلل،

والسعادة الغامرة ،

ودروب طويلة ممتدّة . ."

ومن هذا المعنى نستلهم فكرة أن الأسرة السعيدة التى تستقبل أيامها بالأمل والسعادة ، هى الأساس فى إرساء قواعد الاستقرار للممالك ، فليعمل العاقل على أن يجلب السعادة لعائلته وعشيرته قبل أن يفعل ذلك لوطنه الكبير.

وقد ورد فى كتاب " الشعر القديم " أيضًا ، ما نصّه:

" ما أجمل أن يعمل المرء ،

على إسعاد أخيه الأكبر ،

بل ما أروع أن يتهلّل بالفرح ،

وجه الأخ الأصغر ."

فليعمل الحكيم الفاضل على إشاعة البهجة والسرور فى نفوس إخوته ؛ فذلك هو أول الطريق إلى استجلاب الدعة والرضا إلى نفوس أهل الممالك .

وقيل فى كتاب " الشعر القديم " :

" تهلّل الوجـه ،

وتألّقت القسمات ،

كأن الوجه مملكة عامرة بالحسن ،

أو كأن المملكة وجه بديع اللفتات ."

(والمعنى هنا ..) إن العاقل، وأيًا كان دوره، كأب أو ابن ،أو أخ أكبر أو أصغر؛ فهو المثال الذى يحتذو الناس حذوه ، فينبغى أن يكون خير نموذج ومثال للاقتداء ، وهذا هو المغزى فيما يقال من أن ضبط شئون الممالك يبدأ بإرساء دعائم الاستقرار الأسرى والعشائرى .

[ذلك هو الباب العاشر من المرويات ، ويتناول بالشرح مسألة " تدبير شئون الممالك " ، " وتهذيب السلوك العائلى "].

- ١١ -

إن الحكم الرشيد فى الدويلات الصغيرة هو الخطوة الأولى نحو ضبط أحوال

الإمبراطورية العظمى، التى تحت السماء؛ ذلك أنه عندما يبدى الحاكم قدراً كبيراً من الاحترام للكهول والمتقدمين فى العمر، فسوف تكون شيمة أهل المملكة البر بالآباء والشيوخ ، وعندما يسلك الحاكم بالاحترام الواجب نحو الأكبر سناً، فسوف تشيع فى المملكة عادة الاحترام اللائق بالإخوة والأقارب كبار السن، فإذا صدر عن جلالته ما ينم عن العطف على ذوى الحاجة والمساكين ، فسوف يقتدى به أهل مملكته جميعاً بغير استثناء؛ فلذلك يلتزم الحاكم بمبدأ نموذجى ينزل على أحكامه، ويؤسس به منهاجًا يقتدى به الجميع .

ليس لعاقل أن يعامل مرؤوسيه بما يكره أن يعامله به رؤساؤه، وليس ينبغى له كذلك، أن يعامل رؤساءه بما يكره أن يلقاه ممن هم دونه، ولا أن يتصرّف نحو من يقفون إزاءه بما يبغض ممن يجلسون قبالته، ولا أن يسلك مع الجالسين أمامه بأسوأ مما يلقى من الجالسين وراءه، ولا أن يضع على الجالس عن شماله تبعة ما يبغضه فى الجالس عن يمينه، ثم لا ينبغى له أن يظلم الجالس عن يمينه بوزر ما يلقى من المقيم عن بساره ، ما يقال له "المعيار" الأسمَى، الذى يضبط به العاقل سلوكه ويلتزم بمنهاجه، كما يلزم المثال نموذجًا أصليًا ، أو كما تنضبط الزوايا والأركان بالمساطر وقصبات المقياس.

وقد جاء فى كتاب " الشعر القديم " ما نصّه :

" ما أعظم الحكيم الفاضل،

الغيور على وطنه ،

غيرة أم وأب على بيت آمن . ."

ولا يعد الحكيم جديراً بمثل هذه المكانة (..أن يكون بمثابة الأب الحامى والحصن الحصين لشعبه ووطنه) إلا إذا أحب ما رآه الناس طيباً وأبغض ما أبغضه الناس وقيل أيضًا فى كتاب

" الشعر القديم " :

" ترتفع قمم جبال الجنوب بكل شموخ،

تلال وعرة وسفوح لايطولها طائل ،

لايكاد يدانيها شموخًا ،

إلا رجل واحد ،

هو المعلّم الأعظم " إيشى " ،

الذى تعلّقت به الأنظار،

كقمة جبل سامقة لا تدركها الأبصار."

ليس ينبغى لحاكم أن يغفل المبدأ الذى يقرر بأن الانحياز للهوى الشخصى، والنفع الذاتى يجلب عليه سخط الناس؛ مما قد يؤدى إلى خلعه عن عرش الحكم .

ومن المأثور فى كتاب " الشعر القديم " ، قول الشاعر :

" كانت أسرة < يين > الحاكمة ،

مثالاً فى الأخلاق ،

ونموذجًا فى آداب المعاملات ،

على النحو الذى قررته إرادة السماء ،

فلما سقطت من عين الشعب ،

ضاعت هيبتها ،

بعد إذ أضاعت عهد السماء ."

والمعنى، هنا، يشير بوضوح إلى أن استقرار سلطة الحكم مرتبط بالحصول على ثقة الناس، فمن حاز ثقتهم ، استقرت له السيادة ، وإلا فقد وقع في حمأة الهوان.

ومن ثم ، فلابد للعاقل ، من أن ينتبه إلى ضرورة الالتزام بقواعد الأخلاق ، فالخلق يخضع له رقاب الناس؛ وإذا خضعت له الرقاب امتد سلطانه فوق الممالك؛ وإذا صارت الممالك في قبضته ، انعقد له لواء الثروة والنماء والمال ؛ فإذا فُتحت له خزائن المال ، لم تعجزه مطالب السؤدد والشرف، بل أُتيحت له الموارد وتيسّرت النفقات بالغة ما بلغت من التكاليف؛ فالأخلاق هي المبدأ والأساس ، والمال هو الثمر وحاصل الإنتاج ، فإذا ما تبدّل التقدير، وانقلب المعيار ، وصار الأصل فرعاً والفرع النابت هو الجذر وأصل الأشياء ، انعقدت فوق الجميع سحابات الصراع وتلبّدت الأجواء، وحلّ النهب والسرقة محل أعمال الفاضلة ، وبالتالي ، فكلما أدى تراكم الثروة والمال في يد الحاكم ، تفرّق الناس أيدي سبأ (فكلّما اجتمع المال لدى الحاكم ، تفرق الناس عنه!) وكلّما تفرق المال في يد الناس (.. نالوا نصيبهم من الثروة ورغد العيش) اجتمعوا تحت راية الحاكم وامتثلوا لإرادته .

وهكذا، فالقرار الرسمي الصادر عن حكم يخالف الحق والعدل، ينتج المردود (الثأر) [حرفياً] الشعبي المنافي للنظام، والمتجاوز للقواعد والمخالف للقوانين، كما أن الثروة التى تراكمت بغير حق، تتبدد بأساليب مخالفة لأبسط قواعد المنطق والعدل (الثروة التي تحققت على نحو غير مشروع ، فإنها، أيضاً، وبأساليب غير شريفة ، تتبدّد سريعاً!)

وقد ورد في " لوائح كانغ الرسمية " ما نصّه :

" إن تعاليم السماء ليست قدراً مقدوراً، ولا سيفاً مسلّطا على الرقاب ، طوال الزمان."

والمعنى، هنا ، يشير إلى أن الأخلاق الفاضلة تقوم مقام تعاليم السماء ، فمن انتهك الأخلاق ، فقد أضاع ركناً قدسياً من أركان التعاليم، ومما جاء في " كتاب تشو

" – وهو عبارة عن مجموعة مدونات تاريخية – بهذا المعنى : " لم تكن دولة تشو تملك ثروات ذات قيمة ، إلا أنها كانت تعد الخلق الفاضل أثمن ثروة فى الدنيا بأسرها ." وقد قال العم" فان" ذات مرة .. (العم " فان " هو عم أحد الوزراء الهاربين بسبب وشاية ، وكان الملك قد صفح عن ذلك الوزير، وطلب إليه العودة ، فاستشار عمّه، فقال له:) " ليس للهارب من وطنه أية قيمة تذكر، سوى ما يحمل فى قلبه من ذكرى وطن، وشىء من الولاء والعرفان."

وقد جاء فى تصريحات أحد مسئولى تشين [وهو المسئول الرسمى الذى أصدر تصريحات يحذّر فيها وزراء تشين من مغبّة السقوط أمام العدو] : "ولتكونوا على قلب رجل واحد يتحلّى بالإخلاص الذى لا مزيد عليه، فكونوا كرجل زكىّ الفؤاد، واسع الصدر، ذى حلمٍ وأناة ، نقى الضمير، لا يضيق بما يحوز الآخرون من خصال ومزايا ، بل يتباهى بسجايا كأنه يتباهى بما حاز هو نفسه من أصيل معدن الصفات الكريمة، ولا ينطق لسانه ، فى ذلك ، عن مجرد شعور نبيل ، بل إنه ليصدر عن إيمان قوى راسخ فى أعماقه؛ وإنى لعلى ثقة بأن رجل الدولة الحائز هذه السمات، هو الجدير حقًا بأن نترك أبناءنا وأحفادنا وديعة بين يديه، وكلنا ثقة بما سيبذله فى السهر على حمايتهم والعمل على كل ما فيه الخير والنفع العميم.

أما ذلك الطراز من الرجال الذين يضيقون بذوى الكفاءات والمواهب ، فإنهم يضعون العراقيل فى وجه الذين حازوا منتهى الخلق والاقتدار، ويستبعد من فرص الترقّى كل ذى صاحب جدارة واستحقاق؛ فمثل ذلك الصنف من المسئولين، لا يتسم بأى قدر من الكياسة والحلم ، وحسن التقدير، ومن ثم فإننا نجازف كثيرا بأن نضع مستقبل أبنائنا وأحفادنا تحت رعايته ."

ليس سوى الإنسان العطوف الرحيم ، هو وحده القادر على إقصاء الفساد، وإلقائه خارج البلاد، حيث القبائل الهمجية وأطراف الممالك النائية، بعيداً كل البعد عن الحكماء داخل الوطن (ولن يختل التوازن فى الطبائع البشرية؛ لأن) أولئك الطيبين

ذوى القلوب الرحيمة يستطيعون الحب ، بالقدر نفسه الذى يستطيعون به التعبير عن كراهيتهم واستيائهم .

أن تعثر على رجل فاضل ، وتعجز عن أن تدبّر له وظيفة لائقة، أو أن تبطئ فى تدبير مثل تلك الفرصة له، فذلك ما يُسمى بالاستخفاف والتهافت (.. ومن الناحية المقابلة فـ) أن تجد فاسداً سقيم الخلق وتقعد عن إقصائه، أو أن تقصيه عن موقعه دون أن تلقى به خارج البلاد ؛ فذلك هو التهاون والاستخذاء بعينه.

أن تحب ما يبغض الناس، أو أن تبغض ما أحبه الناس؛ فذلك مما يتنافى مع طبيعة البشر، ولا ينجم عنه إلا الشرّ الوبيل .

وهكذا، فلن يتيسّر للعاقل أن يمضى قاصداً الطريق القويم ،إلا متزوّدا بالثقة والحق والإخلاص، ثم إنه لن يضل السبيل إلا إذا بلغ فى التهاون غاية المدى، وجاوز فى الاستخذاء حد الشطط .

إن الثراء يقوم على قاعدة أساسية (.. مذهبية) مفادها أن يزيد عدد المنتجين على المستهلكين، وأن يبذل الساعون إلى الغنى غاية الجد والمثابرة فى الاستثمار، بينما يجتهد المستهلكون فى التوفير والادخار، فتتضاعف الموارد وتزيد الثروات وتتحقّق" الوفرة " الهائلة؛ فيسعى ذوو الخلق الإنسانى، فأما الحائد عن السبيل، فهو يبذل نفسه للمال، وينفق حياته للتزوّد منه .

اعلم أنه من المستحيل أن يجتمع حاكم رحيم مع رعية ظالمة غاشمة، ولا اجتمعت رعية على مبدأ الحق والعدل مع سياسات حاكمة متهافتة مستهترة [حرفيًا .. بغير نظام وانضباط تام ، على طول الخط] . وكذلك لم يحدث أبداً أن تراكمت الموارد والثروات فى خزائن الممالك ، دون أن يكون للملوك حق التصرّف فيها . ومما يؤثر عن أحد كبار موظفى البلاط الملكى فى دولة " لو " [الوزير " منغ شيان"] قوله :" لا ينبغى لسائس الخيل أن يقوم بعمل المكلّف بتربية الداجن وإطعام الخنازير، ولا يصح للموظف المسئول عن إجراء الطقوس والمراسم أن يرعى الماشية والأغنام، وكذلك فليس لمن حاز

مئات العربات والجياد المطهّمة أن يرهق كاهل البسطاء والمعدومين بأثقال الضرائب الباهظة، وإلا فإن يداً تسطو على الخزائن الحكومية ستكون أرحم وأعدل من اليد التى تسرق مال الفقراء باسم تحصيل الضرائب والمكوس، وذلك هو المستفاد من المثل السائر الذى يقول بأنه ليس للبلد الطامح إلى المجد أن يرى فى الثروة المالية رصيد مصلحته ونفعه العام ، بل لابد أن يكون العدل والاستقامة، هما أسباب ازدهاره وحاصل نفعه، وعندما يجعل حاكم البلد - الطامح إلى المجد - من الثروة المالية ، هدفه ومنتهى غايته ، فلابد أن يكون الباعث على ذلك التصور أفكاراً وضيعة المنبت، دنيئة المصدر، فإذا ما اعتقد الحاكم فى صلاح مثل تلك التصورات السوقية المبتذلة، صار الانحطاط هو الحاكم بأمره . وحينئذٍ، تنهمر من السماء المصائب، وتنبعث من الأرض الشرور والأهوال، ولا يفيد ساعتئذ رأى الفاضل الحكيم إذا حكم ، ولا يُرجى للأحوال صلاح ، وإن جيء بالحكماء صفاً، وبالفضلاء مواكب متراصّة ؛ فذلك هو ما يشار إليه من أن مصلحة الأمة لا تتحقّق ، أساساً ، بالمال(*)، وإنما تقوم قواعد المجد على الحق والإنسانية .

[ذلك هو الباب العاشر من المرويات، وهو يتناول بالشرح مسألة" حكم الممالك والبلدان"] ومجموع المرويات عشرة أبواب ، تدور الأربعة الأولى منها حول الفكرة الأساسية لرسالة المعرفة الكبرى ، بينما تتناول الستة الباقية منها تفاصيل التطبيقات؛ ويتطرّق الباب الخامس إلى شرح النقاط الجوهرية فى مسألة " الخير الأسمى " بينما يتعلّق الباب السادس بتبيان أهمية " تقويم الخلق " بوصفه الأساس الجذرى الذى تقوم عليه فكرة الكتاب كلّه ، ويلفت نظر القارئ المبتدئ [هكذا] والمطالع العادى (.. غير المتصفّح المدقّق) إلى ضرورة تأمل الأفكار ومراجعتها بعمق ؛ إذ إن ظاهر النص ببساطته الواضحة يغرى بالتغافل.

(*) فلنتذكر أن التقاليد الصينية القديمة لم تكن تعظّم من شأن المال ، وكانت التجارة تأتى فى ذيل قائمة المهن المحترمة ، ولنطالع النص فى ظل الظروف التى رافقت إنتاجه ، فى القرن الرابع - تقريباً - قبل الميلاد . (المترجم)

الكتاب الرابع

الاعتدال

(رسالة مذهب الوسطية)

مقدمة

تتفق مراجع التراث الصينى على أن كتاب " الاعتدال " هو أحد أبواب " كتاب الطقوس" ويرى بعض المؤرخين القدماء (.. منهم " صماتشيان " أبو التاريخ الصينى القديم") وكثير من الدارسين الكلاسيكيين (... الكونفوشيين، يعنى) من جيل الرواد مثل" جوشى" ،" جنغ شيوان" أن الكتاب من وضع زيس (٤٨٣ - ٤٠٢ ق.م) ولقبه الأصلى " كونجى"، وهو حفيد كونفوشيوس وتلميذه، وأحد أشهر أعلام المذهب الكلاسيكى من بعده، بل من أشهر الفلاسفة الذين ظهروا فى الفترة التاريخية المعروفة باسم " عصر الدول المتحاربة " (٤٧٥ - ٢٢١ ق.م)

وكثيراً ما تردد فى المدونات التاريخية أن الفيلسوف الكونفوشى الكبير" منشيوس" قد تلقى العلم وأصول الفلسفة على يد أحد تلاميذ " زيس " وأنه بآرائه الشهيرة فى مؤلفاته لم يكن يضيف جديداً ، بل كان يطور أفكار زيس بالأساس، وينقّحها، حتى أُطلق على مدرسته اسم ،

(مذهب منشيوس وزيس) وقد تم تجميع أفكار وأقوال زيس فى ثلاثة وعشرين فصلاً ، بين دفتى كتاب بعنوان " أقوال زيس" إلا أنه ، للأسف الشديد ، ضاع من جملة ما ضاع من كتب التراث، أما النسخة الحالية من كتاب الاعتدال ، فهى واحدة من بين النسخ التى تم تحقيقها وضبطها على يد الكلاسيكيين فى زمن أسرة تشين ، وبعد توحيد الصين بزمن غير طويل (٢٢١ - ٢٠٧ق.م) حيث ضبطت وجمعت أجزاؤها لتصدر فى كتاب مستقل.

والكتاب ـ كما هو واضح من التسمية ـ يتناول أفكار التوسط والاعتدال حسبما وردت في إطار تصورات الفلسفة الكونفوشية (قل، الكلاسيكية الصينية) التى رأت أن الحالة النفسية والذهنية التي يكون عليها المرء دون مغالاة فى الفرح أو الحزن وبغير شطط فى الغضب أو الرضا؛ فتلك هى الحالة الوسطى بين حدود متطرفة؛ أما الاعتدال فهو المحاولة التي يبذلها المرء للتوازن بين أقصى أطراف التقديرات ، بحيث يبقى فى حال من التوافق مع الدورة الدائمة لمسار التطور دون تبدّل أو زيادة أو نقصان، ويشير الكتاب الى أن **الوسطية ، أو الاعتدال** هو المعيار والمبدأ الذى ينبغى على المرء أن يلزم نفسه بالسير على منهاجه.

كانت الظروف التى أحاطت بصياغة أفكار ذلك السجل القديم تشهد ظهور طبقة جديدة من ملاك الأراضى ؛ وربما كانت الفرصة وقتئذ تساعد على رواج تصورات مناهضة للتطرف أو التأرجح بين أقصى حدود التناقضات ، ولكل زمان تناقضاته التى تتجاذب وتتصارع ثم لا تلبث أن تنحل لصالح دورة جديدة من التناقضات ، وهكذا دواليك!

وقد تطرق الكتاب إلى ملاحظة تراكم التناقض ويطرح تصوراته لحلها ، وذلك هو الجانب الذى يستحق الإشادة ، برغم أنه بالغ فى تقدير الأدوار التى تقوم بها عمليات حل المتناقضات ، دون الاعتداد الكافي بعملية الصراع الحادث بينها ، وهو ما يسطّح الجانب المعرفى ، ويبرز فى الجانب الاجتماعى ضعف ورجعية طبقة ملاك الأراضى البازغة حديثا فى ذلك الزمان .

وتعرض فقرات مطولة من الكتاب قدرًا كبيرا من التناقضات الاجتماعية القديمة التى عمل الحكام على حلها والتجارب السياسية التى استهدفت مساندة العلاقات الاجتماعية، هذا بالإضافة إلى ثمار من الحكمة ذات شأن فى تهذيب السلوك والأخلاقيات ، مما يكسبه صياغة تساعد على انتشاره وسط جمهور عريض من القراء وبالدرجة التى تجعله كتابا مناسبا للاطلاع حتى فى العصر الحديث.

وفكرة الاعتدال ذات جذور ضاربة فى ماضى الحضارة الصينية؛ حيث ارتبطت أنشطة الصيد فى المجتمع البدائى بالرماح والسهام المستخدمة فى القنص، ومن ثم نشأت فكرة التصويب فى المنتصف ، عند الصيد بالسهم ، وفى الصين القديمة ارتبطت دلالة " منتصف الشيء" بالاستقامة ؛ فأوسط الأشياء غالبا يقوم دليلاً على الخير ، لأن الإصابة تقع فى منتصف الهدف، ومن هنا يتولّد معنى الجزاء الطيب والصيد الثمين ، والحق.. والخير.. والجمال أيضًا (.. دلالة المنتصف – فى الوسطية – تُكتب فى اللغة الصينية برسم مستطيل صغير ينصّفه خط رأسى أطول قليلاً من ضلعيه المتوازيين !).

الطريف، أن تناول المذهب الكلاسيكى للوسطية كان يثير أوجه شبه بالصيد والقنص؛ مما أبقى لدلالة اللفظ أجواء العصور البدائية. وعلى أية حال ، فالمهم هنا هو تلك الإشارة المؤكدة إلى ارتباط مفهوم " الوسطية " بالخلق والآداب والفضائل الكريمة .

ويعود الفضل إلى كونفوشيوس فى الربط بين الوسطية والاعتدال؛ حيث استطاع تطوير مفهوم الوسطية على أساس من أفكار الاعتدال؛ مما شكّل الفكرة الجامعة لمذهب" الوسط الاعتدالى"

(.. ولنلاحظ أن عطاء كونفوشيوس اقتصرعلى تأصيل مبدأ الاعتدال فقط ، لكنه لم يخترعه من عدم ، ولا كان كونفوشيوس مخترعًا أو مبدعا لشيء مما يعرف الآن بالكونفوشية ؛ فليس هناك فى الواقع شيء بهذا الاسم ، بل مجرد مذهب كلاسيكى يسبق كونفوشيوس نفسه بزمان طويل جدًا – كما أوضحنا فى مقدمة كتاب " المعرفة الكبرى" ـ ولم يكن لذلك المعلم الأكبر دور سوى التأصيل والتطوير، وإحياء التقاليد وإيقاظ الذاكرة القومية.. لا أكثر!)

قد تحول الاعتدال عبر جهد واهتمام المدرسة الكلاسيكية إلى فلسفة رسمية فى أوائل عصر الدول المتحاربة (٤٧٥ – ٢٢١ق.م) إذ وضعت بين دفتى مدونة كلاسيكية

اشتهرت باسم " كتاب المراسم " لكنها لم تثر أدنى قدر من الاهتمام فى ذلك الوقت ، بل لم تكد تلقى القبول الواعد إلا فى زمن أسرتى " سونغ " (٩٦٠ - ١٢٧٩م) و"مينغ" (١٣٦٨ - ١٤٦٦م) حيث شهدت ازدهاراً بلغت به مراتب القداسة السماوية (الغريب، أنه ، وفى وقت معاصر لزمن ظهور كتاب الاعتدال فى الصين ظهرت أيضا فكرة الاعتدال فى الفلسفة اليونانية ، مما يبرز تماثلاً فى الظروف التى أنضجت مطلبًا إنسانيًا عاما ينشد العدل والاستقامة.) لكن .. من المهم فى هذا السياق ، التأكيد على الفارق الكبير بين مفهوم الاعتدال فى كل من الحضارة الصينية والأوروبية بل بين الفلسفة الصينية والغربية عمومًا !

فقد اقتصر اهتمام الفلسفة الصينية على الشأن الإنسانى ؛ إذ إن مركز ثقلها الكبير هو **المجتمع** وليس **الكون** ، فالفكر الصينى لم يتطرق أبدًا إلى موضوعات الطبيعة ولا حاول استكناه ما وراء الطبيعة، وإنما ركّز اهتمامه على **الإنسان** (... والإنسان وحده !) .

وجدير بالذكر ، هنا ، أن الفلسفة الصينية فى هذا المجال تختلف عن الفلسفة الإنسانية فى الغرب الأوروبى ؛ فالأولى عبارة عن ثقافة تقاليدية متوارثة ، ولم تنجم عن ثورة فكرية مضادة للتقاليد ، ولم يكن الإنسان، فى نظر الفلسفة الصينية يعيش فى عزلة أبدًا، ولا كانت له حدود فردية تفصله عن الآخرين من حوله (... وهو ما تتجاهله الكثير من المطالعات الغربية للثقافة الصينية !) بل كان يشار إليه وسط حشود وجماعات كبيرة تضغط بقوة على التمايز الفردى ؛ قل هو " الإنسان فى المجتمع ذى الحشد الإنسانى الهائل " فموضوع الفكر الصينى القديم ، وبمنتهى الدقة، هو الإنسان داخل علاقة أو مجموعة علاقات ، وهدف الفلسفة هنا البحث عن النظام داخل العلاقات الممكنة بين الناس ؛ وكثيراً ما يتم تناول الفلسفة الصينية من منظور يقوم بتقسيمها إلى بنود أربعة هى : نظرية الوجود - نظرية المعرفة - نظرية الوسائل - الجانب التاريخى الاجتماعى ؛ وهو ترتيب يسقط من حسابه الطابع الاجتماعى لها ويقلب البناء

الفلسفى الصينى رأسًا على عقب ، ليتحول بكُل تفرّده وتاريخه ، إلى مجرد ظل باهت لكيان فلسفى غربى تبهت فيه الملامح وتلتبس السمات والمعانى!

ولئن كانت **الفلسفة الغربية** قد خرجت من عباءة الفيزياء وعلم الطبيعة لتناصر المنطق الشكلى ، وتمجّد الموضوعية والوضوح ؛ فقد ولدت الفلسفة الصينية على يد القضية الإنسانية ، وتعلّمت منذ نعومة أظفارها أسس المنطق الجدلى ـ قبل هيغل بزمان – إذ دأبت على مراقبة الأحوال الاجتماعية ولاحظت ما يتصل بتطورها من تعاقب ودورات وتقلبات ، لكنها أهملت ملاحظة وتحليل الجوانب المادية فى الطبيعة ؛ الأمر الذى وصم الفكر الصينى بكثير من عدم الوضوح وفقدان المنهجية والدقة (وهى نقاط تتفوق فيها الفلسفة الغربية ...)

وأهم فرق بين الفلسفتين ،باختصار شديد جداً، هو أن الفلسفة الغربية ولدت على يد فلاسفة ، أما الصينية فقد كانت ميراثا ينتقل عبر الأجيال .. فلسفة بغير فلاسفة تقريباً !

ورغم أن فكرة الاعتدال فى الفلسفة اليونانية ظهرت فى وقت معاصر على وجه التقريب ، لتداول كتاب **الاعتدال** ، إلا أن الفارق بين خصائص **الوسطية** فى الفلسفة الصينية ومثيلتها الغربية يبدو هائلا ؛ بالنظر إلى حقيقة أن الاعتدال فى الصين قام على قاعدة السلوك الإنسانى الأخلاقى ، وفى أجواء مشبعة بدلالات الفضائل وآداب المعاملات ، بينما فى الغرب نشأ تحت ظلال دينية . وفى حين أنه فى الصين قد شهد طفرات تطور سريعة ومتلاحقة ، ولاقى انتشاراً كبيراً وذيوعا بين الناس (.. فالمدونات الفلسفية الصينية مكتوبة بلغة بسيطة، لغة رجل الشارع، لغة استطاعت أن تفرض نفسها فوق أية محاولات للتأويل ، لسهولتها – باستثناء كتاب الطاو – مما مكنها من احتلال ساحة الفكر واعتلاء منصة الأحداث وحدها ، وفرضت وجودها ، حتى أمام الديانات الوافدة، فى حين كانت المدونات الفلسفية الغربية تتوجه لنخبة من الناس

وتحمل على صفحاتها إهداءات وتوقيعات لفلاسفة مناظرين ، دون أدنى اعتبار للجمهور وبغير أية محاولة لاجتذاب أكبر عدد من الناس إلى دوائر النخب!)

وعلى أية حال ، فالفلسفتان وإن اختلفتا فى منطلقاتهما ، إلا أن منطقهما كان متماثلاً؛ إذ قامت الفلسفة الغربية على أساس مبحث المادة ، لتنطلق نحو تأسيس نظريتها المعرفية ، وكذلك تأسست الفلسفة الصينية على قاعدة **الموضوع الإنسانى**، لتؤسس هى الأخرى نظريتها المعرفية الأساسية التى تبلورت فى " مذهب الاعتدال".

وقد حملت نظرية المعرفة الأساسية **(الاعتدال)** فى الفلسفة الصينية القديمة ثلاث دلالات رئيسية :

١ – المعنى الأول ، يفسّر الاعتدال بوصفه رديفًا لمعنى "النمط الدائم" أو "النظام الأصولى" (نقيضه هو "التغير") فهو القانون أو النظام الموضوعى الثابت والدائم والالتزام به يعنى التقيد الأخلاقى بمبدأ مراعاة أسس الثبات والاستقرار ، وهو الاتجاه الذى تبنته المدرسة الكلاسيكية فيما بعد ؛ حيث **الوسطية** هى القاعدة الثابتة التى لا تبديل لها .

٢ – المعنى الثانى يرى أن الاعتدال هو الاستخدام الأمثل والتطبيق العملى للقواعد والمفاهيم الثابتة التى تتضمنها آداب ومبادئ الاعتدال .

٣ – بما أن الاعتدال يمثّل **المنهج الثابت** ، والنمط الحياتى المألوف ؛ فهو يمثّل – بهذا المعنى – المجال الواسع الذى تتجسّد فيه شئون الحياة ومجريات الأمور (.. فمن الطبيعى ، بعد أن ينبذ المرء أقصى حدود الأمور ، سلبًا وإيجابًا، أن يبقى فى حال من التوافق مع الدورة والنمط الثابت لمجريات الأحوال دون ميل أو شطط .) .

فكل تلك الدلالات، كانت محل مراجعة وتأمل كونفوشيوس وهو، إن لم يضمنها كتابه وأقواله فى "المحاورات" ، إلا أنه حرص على التطرق إليها فى تأملاته الفلسفية فى مواضع أخرى تمتلئ بها المؤلفات الكلاسيكية .

وسوف يلاحظ القارئ فى ترجماتنا اللاحقة للتراث الكونفوشى، إشارات متكررة إلى مفاهيم الوسطية والاعتدال ؛ فهى جزء لا يتجزأ من البناء الفكرى للفلسفة الصينية نجده مبثوثًا فى جنباته العريقة وأنحائه المتفرقة ، فى الكونفوشية مثلما هو فى ظلال الطاوية ، فى تضاعيف الكونفوشية الجديدة ، فى النسيج الذى تشابكت فيه خطوط الثقافة والحضارة الصينية طولاً وعرضاً .

وبعد ، فيسعدنى أن أقدم للقارئ العربى ترجمة " كتاب الاعتدال" أو (.. رسالة مذهب الوسطية [كما يحلو للصينيين أن يطلقوا عليه ، وهى ترجمة عن الصينية مباشرة ، وعن نسخة محققة، مزوّدة بشروح على المتن الأصلى ، وهى عبارة عن إضافات قام بها " جوشى" (ذلك القطب الكونفوشى البارز، من رواد ما يُسمى بالكونفوشية الجديدة) يجدها القارئ ملحقة بالمتن بين قوسين مربعين ، وقد ترجمتها كالنص الأصلى سواء بسواء وأوردتها ، كما جاءت فى النسخة المترجم عنها، على النحو نفسه الذى وردت به فى النسخة الأصلية ، فى آخر كل باب

(.. مثلما نجد فى معظم المؤلفات القديمة؛ حيث تمتلئ حواشيها بإضافات من تدوين "تشنغ هاو" "جوشى" وأضرابهما من الكونفوشيين الجدد ، فى عصر أسرة سونغ الملكية، ومن المعلوم أن الكتب الأربعة المقدسة، هى أثمن ما خلفته الثقافة الصينية القديمة، وهى المدونات التى تحمل أفكار كونفوشيوس (.. أو، بمعنى أصحّ، طريقته الفريدة فى التعبير عن مضمون وأهداف المدرسة القديمة) بوصفه أشهر رواد المذهب الكلاسيكى من زمن دولة تشين وما قبلها بوقت غير بعيد (٢٢١ - ٢٠٧ق.م) .

وتحكى حوليات التاريخ الصينى بأن قراراً أصدره القصر الملكى الحاكم ، فى حقبة من عصر أسرة يوان الملكية (١٢٧١ - ١٣٦٨م) يقضى بأن تكون الكتب الأربعة (.. محاورات كونفوشيوس، الاعتدال، المعرفة الكبرى، منشيوس) ضمن الموضوعات التى يمتحن فيها المتقدمون للعمل فى المناصب الوزارية العليا لدى البلاط الحاكم ، وظل هذا التقليد سارياً حتى أواخر عصر أسرة تشينغ.

ونرجو القارئ مجدداً أن يطالع النصوص فى سياق ظروف إنتاجها ، تاريخيًا ، باعتبارها مدونات وثائقية لم تثبت نسبتها إلى مؤلف محدد (.. ولا حتى إلى زمن معلوم!) ذات محتوى أدخل فى مبحث وثائق التاريخ الاجتماعى منها فى باب الفلسفة الأخلاقية، أو فى تراث الفضائل الإنسانية ، فكثيراً ما كانت الفلسفة الأخلاقية الصينية تغرى بالاجتزاء والتأويل خارج السياق ، وكثيراً ما تم توظيف نماذج وأمثلة من مادة الفضائل ومحتوى نصوص الأخلاق فيما لا علاقة له بالفضائل والأخلاق.

ثم إن ملامح الصورة الثقافية للصين وتفاصيل حياتها الفكرية القديمة لن تتضح على نحو معقول إلا بمطالعة باقى الجهود والآثار الفلسفية لباقى المدارس الصينية (التى تجاوزت المائة، فى صياغة بلاغية مشهورة!) تلك التى تصارعت فيما بينها ، برغم أن منطلقاتها كانت ، فى الأساس، تدور حول مادة الإنسانيات والفضائل وآداب وأصول المعاملات ؛ مما أرجو أن يحالفنى التوفيق فى تقديمه للقارئ من ترجمات لكتب التراث الصينى القديم .

المترجم

- ١ -

ما حازت "الطبيعة " اسما إلا بما أفاضت عليها السماء من أسماء، وما صار"الطريق " طريقا ، إلا لأنه حذا حذو الطبيعة .

وليس طلب العلم إلا السعى على هدى الطريق ، واستقصاء أسراره .

ليس للسائر أن يزل عن جادة الطريق طرفة عين ؛ فمن حاد به الدرب ، وزاغت منه الخطوات ، فلا طريقا مشى ، ولا مشى به الطريق ؛فمن ثم وجب على العاقل أن يلزم الحذر، حتى لو توارى عن أعين الرقباء . وليتجنب الهفوات [.. يعصم لسانه من الزلل] ، حتى لو تناءى عنه السامع ، وصُمّت دونه الآذان .

لا تتسلط الأضواء إلا على أحلك المكامن ، ولا يتعرى تحت شعاع النور إلا أشد البقاع ظلاما .

ليس أظهر للعين من كمين منصوب في الخفاء ، ولا يتجلى لنظر الرقيب سوى ما توارى - بدهاء - فى الزوايا والأركان . ولذلك ؛ فينبغى للعاقل ذى الكياسة أن يتبصر الأمور، ويلزم جانب الحذر حتى وهو فى كنف العزلة ، منفردا بنفسه عن الدنيا كلها من حوله .

عندما تتوارى، طى الجوانح بهجة الفرح ، وسَوْرة الغضب ، ومرارة الألم ، ولذة السرور؛ فذاك هو حال "الاعتدال" ؛ وإذا تبدت أمارات تلك الأحوال على نحو ملائم ومعقول . فذلك هو ما يطلق عليه "المواءمة " ؛ فالاعتدال هو أصل كل الموجودات

[.. التى تحت السماء] والمواءمة هى المبدأ النافذ فى أنحاء الكون كله، وحينما تبلغ الأمور جميعا حد " الاعتدال والاتفاق " ، وينبسط بساط الأرض وتسمو أقطار السماء، [.. تلزم الأرض موضعها والسماء قباءها] ويفيض الوجود على الكائنات حياة ونماءً وفيراً.

[ذلك هو الباب الأول ، وقد ذكر فيه "زيس" أحد رواد الكونفوشية ـ بعض أقوال وآراء كونفوشيوس ، على سبيل الاستدلال بالحجة والبرهان ، زاعما أن للطريق صفات سماوية ، أولية لا تتبدل ، وأن جوهر معناه قائم في نفوس الناس مرتبط بها أشد الارتباط ،ثم يتطرق من هذه النقطة إلى مسألة" تهذيب النفس وترويض الذات" وصولا إلى تبيان حدود "الرياضة الذاتية المقدسة " التى تهدف إلى محاسبة الذات بغرض التعرف على اتجاهات الطريق "الصحيحة والكامنة في دفائن النفس ، وكشفا وتمكينا لما هو فطرى وأصيل من التحقق والتبدي ونبذا لكل مكتسب أو زائف أو مشحون بالغواية والتضليل . فهذا الباب ـ على حد تعبير السيد يانغ ـ هو المبدأ الأساسى الذى يلخص الأفكار الأساسية التي ستدور حولها الأبواب العشرة التالية ، والتى تمثل ، فى الحقيقة استطرادا من المؤلف "زيس" فى التعليق والشرح والتوضيح.]

ـ ٢ ـ

قال جونى[كونفوشيوس] :" العاقل يلزم حد الاعتدال وذو الجهالة يتناءى عنه، فالعاقل يهتدى بما قد تحقق [فى طبعه المعهود] من طلب أوسط المسالك وأنسب الغايات ، وما كان الجاهل ليصد عن الاعتدال إلا بما اقترف من البطش والتغافل وقلة الاحتراز ."

[ذلك هو الباب الثانى]

- ٣ -

قال كونفوشيوس :" قد بلغ الاعتدال من البهاء مبلغا، عزّت به جنباته ، وارتفعت به فوق سامق المجد عروشه ، حتى صار النفر القليل من الناس هم فقط الذين يخلصون لمبادئه ويثابرون على الاسترشاد بمنهاجه ."

[ذلك هو الباب الثالث]

- ٤ -

قال كونفوشيوس:" لئن شق المسير على طريق الاعتدال ، فلأن الأذكياء النابهين يتجاوزون فيه المدى ، فى حين ينكص الحمقى عن بلوغ غاية الشوط . ولئن تحول عنه جل السائرين ، فلأن الحكماء قد سبقوا به كل الخطى ، ولما يزل الجهلاء فى بدء الارتحال إليه . ليس فى البشر إلا من قد طعم الطعام ، وشرب الشراب ، لكن قليلين جداً أولئك الذين ساغت لهم النكهة وطاب لهم المذاق ."

[ذلك هو الباب الرابع]

- ٥ -

قال كونفوشيوس :" لا أجد لمذهب الاعتدال بين الناس أتباعًا ، ولا أتوقع أن يجد هذا المذهب نصيباً من الذيوع والانتشار ."

[ذلك هو الباب الخامس]

- ٦ -

قال كونفوشيوس :" ألم يكن الإمبرطور الأعظم "شون " فطنًا ذكيا ؟ [.. بلى قد كان ، وبرغم هذا فقد اشتهر بأنه كثيراً ما ..] كان مولعًا بالاستفهام والسؤال عما كان يعنّ له من أشياء ، ولم يكتف بأن يتلقى الإجابات بل كان يمحص ويدقق ويستوثق ، حتى في أبسط ما يتفوه به من كلمات؛ ثم لم يكن يتحدث إلا بما يقيل به عثرة المخطئ أو يثني به على مروءة الماجد . وعندما اجتمع في قبضته أقصى طرفي الخير والشر ، نبذهما كليهما ، واختار الحد الأوسط والمأخذ الأوفق، وسيلة لتحقيق النفع للناس والنهوض بما فيه مصلحتهم ؛ فمن ثم كان جديراً بما حفظه له التاريخ من مجد باق على طول الزمان ."

[ذلك هو الباب السادس]

- ٧ -

قال كونفوسيوش :" الجميع يزعمون بأنهم نابهون أذكياء ، ومع ذلك تجد من يقودهم [..بأيديهم !] للوقوع في شرك ماكرة ، لا يستطيعون تفاديها ، ولا التبصر بمكامن أغوارها ، الكل يرددون أنهم فاهمون ونجباء ، وبرغم ذلك فإنهم يكادون لا يثابرون على المضى قدمًا في طريق الاعتدال شهراً واحداً ،حتى بعد أن تتبين أمامهم ملامح الطريق ويشاهدون بأعينهم أوضح معالمه ."

[ذلك هو الباب السابع]

- ٨ -

قال كونفوشيوس :" كان "يان هوى " ـ أحد الأتباع ـ من ذلك الصنف من الناس الذى إذا رسخت خطاه على طريق الاعتدال ، وثق قلبه بعهد المسير وتوطدت فى نفسه مشاهد اليقين ، فحفظ الإيمان به مثل خصلة كريمة أو طبع راسخ فى جوهر الصفات، لا يضيع ولا يتبدل ."

[ذلك هو الباب الثامن]

- ٩ -

قال كونفوشيوس :" قد تنصاع الممالك للحكم العادل ، ويعم النظام ربوع الدويلات والأقاليم ، وقد تعف النفوس النبيلة عن قبول المنح والأوسمة والترقيات ويتواضع الأكفاء ويشيح الفضلاء بأنظارهم عما يبسط لهم من موائد التكريم ، وربما يقتحم الشجعان أبواب الردى ويطأ البواسل أسنة الرماح في مشاهد من الشجاعة النادرة ، لكن هيهات أن تقوم شواهد الاعتدال ."

[ذلك هو الباب التاسع]

- ١٠ -

أقبل "زيلو" على كونفوشيوس ، وسأله عن معنى القوة ، فأجابه : "أية قوة تقصد ومن أية ناحية : أهى القوة الجنوبية أم الشمالية .

أو القوة التى تضبط بها نفسك وتزكى بها إرادتك ؟ (على أية حال فاعلم أن..) رجاحة العقل والحلم ، والهداية بالحسنى ، والصبر على من أساء إليك ؛ كل ذلك من

سمات القوة الجنوبية ؛ فالعاقل من وطّن نفسه على الأخذ بمفهوم تلك القوة ، فإذا اخترت لنفسك أن ترقد على فراش من درع وسيف ووسائد من رماح ونصال مشرعة ، فتبيت بعتاد المقاتل وتموت، إذا مت، غير آسف ولا نادم على شىء ؛ فتلك هى القوة الشمالية ، وهى ما يبتغيه كل قوىّ جرىء غير هياب ، فمن ثم كان الماجد الفاضل ، لين الجانب فى غير ضعف ، متسامحًا دون خوف .

وما أنبل القوة حين يكون التوسط بغير ميل، والاعتدال دون شطط ، وما أكرمه من عزم حين يكون هذا العزم سندًا للحق والأحوال رخاء ، ما أبقاها من صلابة عندما تثبت إرادتك وتصمد فى وجه الموت نفسه ، حينما تعم الفوضى وتضل الأهواء ، وتختلط الجهات ويفقد الطريق الاتجاه ، فتتفرق السبل فى كل طريق .

[ذلك هو الباب العاشر]

- ١١ -

قال كونفوشيوس:"إن التفقه فى الأمور الباطنية [.. السحر، التنجيم..] والإتيان بالغرائب والخوارق "صنع العجائب "، يمكن أن يلقى الانبهار والإعجاب فى قادم الأيام، عند أجيال المستقبل، لكننى لن أشغل نفسى بشىء من ذلك ".

إن العاقل من سار على هدى الطريق، والتزم جادة الصواب (.. وسأضع هذا الأمر نصب عينى) فلن ألتفت إلى من يتوقفون أو يتراجعون فى منتصف الرحلة ، ولن أتوقف ، بل سأكمل وأواصل المسير .

إن الفاضل من راض نفسه على نهج الاعتدال فقبع فى بيته، اعتزل الدنيا؛ فلم يصب مغنما ولا جاها ، وهذه درجة لا يبلغها إلا القديسون ."

[ذلك هو الباب الحادى عشر]

طريق العاقل واضح المسالك، واصل إلى المنتهى، لكنه وبرغم ما اكتنف جنباته من أسرار ، لا تخفى أدق دروبه عن كل السائرين من رجال ونساء (من العامة) إلا موضعا ، شريف الخطى ، لا يهتدى إليه سوى القديسين الحكماء .

يستطيع كل الناس الاهتداء إلى طريق العارفين الحكماء ، دون أن يكون لهم نصيب من الحكمة ، أما المرتقى الأشرف من الطريق ، فتدق أسراره وتخفى منعرجاته حتى عن أفطن العلماء والقديسين .

قد اتسعت أقطار السماء ورَحُبتْ مواطئ الأرض ، ومازال بين الناس الطامع والمنهوم (.. ومن ثم ..) فإذا وصف الفاضل الحكيم شيئا ما بأنه "عظيم "، فلابد أن يكون قد بلغ درجة لا تحدها حدود ، فى الأرض أو فى السماء ، وكذلك إذا قال عن شيء بأنه "ضئيل " فربما كان الشيء قد تناهى ضآلة فما عاد له منظر مرئى ،أو حيز معلوم . وقد جاء فى كتاب الشعر القديم ، ما نصه :

"تأبى النسور إلا أن تحلق عليا ،

والفضاء مشهد معراج سماوى أعلى ،

[بينما] تتسابق الأسماك ،

إلى أعماق سحيقة ،

والبحر عالم مديد الأرجاء ..

بغير قاع .."

والمعنى هنا يشير ، بالرمز ، إلى ما يتسم به طريق الحكيم العاقل من جلال ووضوح مع رحابة وبساطة ، بما يشبه شموخ البزاة ، وهى ترتقى أجواز الفضاء على مرأى من كل عين ناظرة ؛ فكأن طريق الحكماء يبدأ، فى أول خطواته، سهلا بسيطا

يدركه السائر عند موطئ قدميه ، ثم يتدرج فى معارج الرقى حتى يبلغ عنان السماء .

(هذا هو الباب الثانى عشر ، وهو من وضع "زيس" (أحد رواد الكونفوشية) .. وفى هذا الباب ، يحاول أن يوضح معنى ما ورد فى الباب الأول بخصوص الالتزام بأسس المنهج الأصلى ، خاصة ما يتعلق فيه بوجوب التقيد بالمبادئ الصحيحة ، حيث ينصح السائر بضرورة اتباع "جادة الصواب " ، مستندا ، فى ذلك ، إلى شواهد وبراهين مما قاله كونفوشيوس بنفسه فى هذا المضار .)

[ذلك هو الباب الثانى عشر]

- ١٣ -

قال كونفوشيوس :" إن طريق الاعتدال لا يقصى أحدا عن مساره ، فإذا ضل الطريق طالب المنهاج القويم ، حاد به الدرب ، فلم يكن ذاك هو الطريق ، وقد ورد فى كتاب الشعر القديم ،ما نصه :

"اقطع الأعواد الجافة

وانحت من الحطب مقابض للفؤوس ،

ضع فى كل مقبض فأسا صغيرة ،

وتأمل الطريقة ،

فليس هناك سوى طريقة واحدة ،

لعمل آلاف المعاول ."

لكن ، جرّب أن تأخذ فأسا ، لتقطع أعواد الحطب ، التى تصنع منها مقابض الفؤوس ، وانظر بعين فاحصة ، تجد الطرائق شتى ، والفروق بغير حصر (.. ولنتدبر

مليا ، وبالمنطق نفسه ، مهمة الحكيم ورسالته التى تنحصر فى ..) تطبيق المبادئ الإنسانية التى تنطوى عليها مفاهيم " طريق الاعتدال" فى تدبر شئون الناس وإصلاح أحوالهم ؛ حتى إذا ما اعتدل ميلهم ، تمت مهمته واختتمت كلمته . مع مراعاة أن "الإخلاص " و"التسامح" يندرجان فى قائمة المبادئ وثيقة الصلة برسالة الاعتدال ؛ ومن ثم، فلا ينبغى أن نفرض ـ قسراً ـ على الآخرين، ما لا نحب أن يجبرونا عليه (.. وفى هذا الصدد) فإن هناك أربع علامات على طريق الاعتدال ينبغى للعاقل أن يتدبرها ، ويواظب على التخلق بها ، ولا أزعم أنى استطعت تحقيق هذا المبدأ على الوجه الأكمل الذى يتطلب : أن يعامل المرء أباه بمثل ما يود أن يعامله به ولده ، وأن يعامل رجل الدولة المتنفذ جلالة الحاكم بمثل ما يريد أن يعامله به الوزراء والمساعدون ، وأن يعامل الرجل أخاه الأكبر بمثل ما يتمنى أن يعامله به أخوه الأصغر، وأن يعامل المرء أصدقاءه بمثل ما يرجو أن يعاملوه به.

إن المبادئ الطيبة،مهما كانت عادية وبسيطة، فيجب أن تكون موضع تطبيق، أما الكلمات، فمهما كانت مألوفة فينبغى أن تخضع للتأمل والمراجعة (.. ومع ذلك..) فإننى لم أستطع أن أفى هذه المبادئ حقها ؛ فلذلك أسعى جاهداً لتعويض ما فاتنى منها . وحتى إذا كان فى مقدورى أن أرأب الصدّع وأسد الثغرات ،فلا أظننى أستطيع تبيان دلالة تلك الكلمات وصولا إلى غاية القصد وتمام المعنى .

(.. وهكذا ..) فالكلمات مرهونة بالأعمال ، مثلما أن العمل مشروط بما يبين من معانى الكلمات ، فكيف للعاقل (.. والأمر على هذا النحو ..) أن يحيد عن الصدق والإخلاص !"

[ذلك هو الباب الثالث عشر]

- ١٤ -

إن العاقل الحكيم يقوم بأعباء مسئولياته فى نطاق الوقت والمكانة والمناخ المتاح له، وعليه أن يرد نفسه عن الانشغال بما يقع خارج ذلك المجال ، فإن كان غنيًا، ذا ثروة

وجاه أو أى مطمح آخر، فليفعل ما ينبغي للغنى أن يفعله ، وإن كان معدما ذا فقر وفاقة ، فليتصرف حسب ما ينبغى للفقير ، فى هذا النطاق . وإن كان مقيما - فى حيز وقته وظروفه وإمكاناته - وسط قبائل همجية ، فليعمل ما ينبغى على المقيم وسط أولئك أن يعمله ، فإذا أحدقت به المتاعب ومنغصات العيش ، فلينظر فيما يتوجب على من أحدقت به البلايا أن يفعله .

وأيًا ما كان الحال التى يمر بها الماجد الكريم ، فلا ينبغى أن يكون هناك ما يعوقه عن أن يتصرف في هدوء وبساطة دون تكلف ؛ فإذا كان وجيها فلا يحتقرن من هم دونه ، وإن كان وضيعا فلا يتمسحن بأذيال ذوى القدر الشريف، وليصلح المرء من شأن نفسه دون إلقاء التبعة على الآخرين؛ وحينئذ، تنمحى من النفوس أسباب الاستنكار والشكوى . ولا يعود ثمة مرموقون يشتكون أقدار السماء ، ولا مغمورون يندون بظلم البشر .

فمن ثم ينعم العاقل بوقته هانئًا يتأمل صفحة أقداره ، بينما يخوض الأحمق فى مسارب الغفلة والخطر، ويمنّى النفس (.. برغم ذلك) بكل السعادة والخير والحظ الطيب . قال كونفوشيوس :" إن أخلاق السادة المهذبين أشبه ما تكون بآداب الرماية ؛ ذلك أنه ما طاش السهم عن قلب المرمى ، وعاد الرامى يراجع نفسه ويصحح وجهته ليصوب من جديد ."

[ذلك هو الباب الرابع عشر]

- ١٥ -

السالك فى طريق الاعتدال ، كالمسافر فى رحلة بعيدة ، حيث لا ينبغى له أن يبدأ الترحال إلا عند أقرب نقطة من الطريق (.. وإن السائر فى طريق الاعتدال) كالمتسلق جبلا عاليا، فلا ينبغى له أن يشرع فى الصعود، إلا عند أسفل موطئ قدم.

وقد جاء فى" كتاب الشعر القديم "، ما نصه :

" .. ترفرف السعادة فوق أفراد عائلة متحابة ،

كصوت أوتار متآلفة ،

أو رنة عيدان متناغمة ،

ما أسعد إخوة متآزرين ،

قلوبهم عامرة

وأرواحهم صافية ،

ما أجمل أن تكون لك أسرة هانئة ،

وشمل عائلة موصولة بالسعادة ."

قال كونفوشيوس :" (مستطرداً) "بهذا ، يتحقق رجاء كل أب وأم ."

[ذلك هو الباب الخامس عشر]

- ١٦ -

قال كونفوشيوس:"ما أعظم عالم الروح، وما أدقّ طلاسمه واحتجاب أسراره؛ فلا هو شكل يبصره البصر، ولا هو صوت تدركه الأسماع (.. فهو عالم الروح الذى) خلق

(*) لم ترد فى هذا الباب العبارة المعتادة، التى صيغتها (.. هذا هو الباب...)، وذلك حسب ما هو وارد فى النسخة الأصلية المترجم عنها (المترجم).

المخلوقات كافة، وأنشأ كل حى ، فلم يغفل عن أحد ولا أهمل شيئا، قد أوجب على البشر طهارة القلب من الإثم بالموعظة ، وإمساك الفم عن الطعام بالصوم ، وارتداء أجمل الثياب لأداء الشعائر وإقامة أزكى وأبهى الطقوس والمراسم (.. حتى شملت الروح دنيا البشر من كل صوب ، فكانت ..) تحيط بهم من فوقهم وعن شمالهم ويمينهم . وقد ورد فى كتاب الشعر القديم ما نصه :

"ما من أحد يحيط علما بموطئ الروح ،

(ومع ذلك) فهل هناك حقا ..

من يملك أن يتجاهل قدرها ؟"

وهكذا، فلا يمكن إسدال حجاب الغفلة فوق معدن الإخلاص . بعد إذ خرجت مادة وجوده من خفاء الغيب إلى ساطع المشهد المبين .

[ذلك هو الباب السادس عشر]

- ١٧ -

قال كونفوشيوس :" ما أكرم أخلاق الملك الحكيم "شون" وما أعظم سجاياه ؛ فلا غرو أن يضرب به المثل فى الوفاء والإخلاص ، قد كان ملكا وقديسا ؛ ففاز ببهاء الملك وأنوار الحكمة، ملأت خزائن أمواله ما بين البحور الأربعة (.. من أقصى الأرض إلى أقصاها) وغمرت قرابينه كل المعابد، وصار ذلك دأبه، حتى جاء أولاده وأحفاده على شاكلته ؛ فأكملوا مسيرته وحافظوا على أمجاده، فخلد ذكره على مر السنين ؛ فمن ثم كان لزاما أن يتبوأ الماجد الأكرم مكانة رفيعة، وأن تكون له العزة والجاه والمال الوفير، وكان حتما أن يصيب شهرة ذائعة ، باقية على مر الأجيال .

ولذلك، كانت السماء عندما أنبتت الأشجار والأوراق والزهور، قد حفظت للأشياء طبائعها وعلمتها أسرار العناية والبقاء ، فنبت من الغرس ما شب ونما؛ وسقط من ذابل الأوراق ما جف ونثرته الرياح ، ونجد شيئا من ذلك المعنى فى "كتاب الشعر القديم " ، وحيث ترد هذه الأبيات :

"ما أنبل السيد الماجد ،

وما أكرم سجاياه ؛

إذ بسط فوق الجميع رداء الوئام والسعادة ،

فورث ميراث العزة ،

وحفظته السماء ،

ومدت فوقه أياديها ،

وجعلت له المكانة العالية ، تبجيلاً له وتقديراً ،

وبصرته بأقدار ، موعظة ونذيراً ."

فلذلك ،كان محتماً أن تؤازر السماء كل كريم ذى خلق عظيم .

[ذلك هو الباب السابع عشر]

- ١٨ -

قال كونفوشيوس :" لم يكن فى الدنيا كلها رجل سلِم قلبه من الهموم سوى جلالة الملك"أون" – وهو واحد من أشهر الملوك جميعا ؛ فأبوه هو الملك "وانغ جى" وولده هو الملك" أو"؛ والمعروف عنه أنه سليل أسرة ملكية ذات مآثر عظيمة، شهدت الكثير من مجدها أيام الملك الأب، ودامت أيام عزها إلى ما بعد الملك الابن؛ ذلك أن جلالته

لمــا ورث المجد الملكى عن آبائه : الملك الأكبر، الملك وانغ جى، الملك أون : فقد آلى على نفسه أن يحفظ فى سجل الزمان صفحات سجلها أجداده بالفخار ،ثم أضاف إليها بحروف ساطعة بالنور أمجاد حملاته العسكرية التى أحرز فيها نصراً مؤزراً على أعدائه ، فاتسعت أطرافه مملكته، ودانت له كل ممالك الأرض بالخضوع، فذاعت شهرته وطار صيته فى الآفاق، واستحق - عن جدارة - لقب "ملك الملوك ابن السماء " وصار له المال والجاه العظيم فيما بين البحور الأربعة (.. من أقصى الأرض إلى أقصاها) وأقيمت له المعابد وهياكل القرابين المقدسة، وظل أبناؤه وأحفاد أحفاده يعظمون ذكراه، ويقيمون فى ضريحه المزار المقدس والقرابين جيلا وراء جيل بغير انقطاع .

وقد تولى الملك "أو" الحكم ، فى عمر يناهز سن الشيخوخة. وقام الوالى " تشو" بإكمــال الأفضــال الجليلة لكل من الملكين "أو" و"أون" وأوصى لكل من "جى" و"تاى" بجدارة استحقاق اللقب الإمبراطورى الأفخم ،وقدم القرابين للملوك الأقدمين طبقا للمراسيم الإمبراطورية ، بل قام بتعميم تلك المراسيم الجنائزية لتشمل النبلاء وكبار الموظفين والوجهاء والعامة أيضًا ، وكانت تقضى بأنه إذا كان الوالد من كبار الموظفين والابن من الوجهاء (.. الطبقة الوسطى) فإن طقوس دفن الوالد المتوفى تجرى وفق المراسيم الجنائزية لكبار الموظفين؛ أما شعائر تقديم القرابين ، فتقام حسب المراسيم الخاصة بالوجهاء ؛ أما إذا كان الأب من الوجهاء والابن من طبقة كبار الموظفين ، فإن طقوس دفن الأب المتوفى تقام حسب المراسيم الجنائزية لطبقة الوجهاء ، بينما تتم شعائر تقديم القرابين حسبما يتوجب على كبار الموظفين إقامته فى مثل هذه الظروف وقد نصت على وجوب حراسة جثمان المتوفى مدة عام كامل، هذا - فيما يتعلق بطبقة كبار الموظفين - ومدة ثلاث سنوات للملوك والأباطرة ، وبالنسبة لما يختص بطقوس حراسة جثمان المتوفى من الآباء والأمهات فقد نصت اللوائح على إلزام جميع الأبناء - على نحو متكافئ - بوجوب القيام بها ، دون أدنى فرق بين غنى وفقير أو شريف ووضيع .

[ذلك هو الباب الثامن عشر]

قال كونفوشيوس :" إن أعظم من أدرك معنى البر والوفاء للأسلاف ، هما الملك "أو"، ووالى دولة "تشو" ؛ ذلك أنهما واصلا مسيرة آمال أجدادهما واستكملا ما تأسس قبلهما من قواعد المجد، وقاما بإمداد المعابد بما يلزم فى الأوقات المخصصة للعبادة، وارتديا الملابس الدينية وأطعما الطعام الشعائرى المقدس، وقربا القرابين ورتبا صفوف المتعبدين وأقرا مبدأ تقسيم المصلين فى أداء العبادات حسب الدرجة الاجتماعية ، ليعرف الوجيه من الوضيع ، وكذلك أخذا بالتقسيم حسب الدرجة الوظيفية ، ليتميز الماجد عن السفيه، ويلزم كلٌ مكانه ومكانته؛ حيث يرفع الشباب للشيوخ كئوس الشراب، ويحظى الشبيبة بشرف الحضور فى مجلس قام فيه الملوك على قدم . وكذلك كان الجلوس على المآدب حسب السن ؛ لأنه لا يستوى الصغير والكبير (.. ومن دلائل البر عند الملك والوالى أنهما ..) قاما حيث كان يجب عليهما القيام ، وقدما من القرابين ما كان يلزم من التقدمة ، وعزفا من الألحان ما جرت به الطقوس، قدسا من الأسلاف ما قدس أجدادهما الملوك الأولون، وترفقا بما أوصى به آباؤهم أن يترفق به من الرعية ؛ فكان العمل لأجل الحىّ فى قداسة العمل بوصية الميت ، وكذلك كانت مراعاة حق الراحل الغائب واجبة وجوب مراعاة حقوق الباقين على قيد الحياة ، فذلك هو أسمى معنى للبر وأرفع ركن من أركانه .

إن إقامة شعائر "الأرض والسماء " إجلال لقداسة السماء ، مثلما أن تقديم القرابين فى ساحات المعابد تبجيل لروح الأسلاف الأقدمين ، فمن أدرك دلالة طقوس "تقديم القرابين " ، و"تمجيد الأرض والسماء " عرف كيف ينظر فى شئون الممالك وأحوال البلاد بيسر وسهولة (.. كأنه ينظر فى راحة يده !)

[ذلك هو الباب التاسع عشر]

- ٢٠ -

ذهب "آيكون " والى دولة "لو" إلى كونفوشيوس ، وسأله عن الطريقة المثلى لإدارة الأمور السياسية ، فأجابه:" كان الحكيمان العظيمان "أو"، و"ون" يأمران بتدوين القرارات الرسمية فى السجلات الحكومية (ومع ذلك، فلم تكن تلك السجلات تغنى عن الرجال المسئولين عن القيام بأعباء الحكم؛ ففى ..) وجود الحكماء، ضمان للعمل بمقتضى اللوائح والقيام بالمسئولية التنفيذية ، فإذا لم يوجد هؤلاء الرجال ، اندثرت كل المدونات التى بذل فيها الملوك العظماء غاية الجهد والدأب. إذا استقام شرع البشر ، صلحت أمور السياسة، وإذا سلمت طبيعة الأرض، أينع الزرع والشجر (.. ولقد كانت السياسة التى طبقها ذلك الطراز من الحكام ، مثل "ون" و"أو" تؤتى ثمارها وتطول فروعها ويتناثر ظلها فى كل مكان)؛ فلا صلاح للسياسة إلا بالحكماء ، ولا سبيل إلى ذوى الحكمة إلا بتهذيب النفس ، ولا مجال لتهذيب النفس إلا باتباع نهج الطريق ، ثم لا مسير إلى الطريق إلا بالفضائل الإنسانية . و"الإنسانية "معنى مشتق من لفظ "الإنسان" ، إن المودة بين ذوى القربى لهى أعظم درجات الإنسانية .

إن "الحق" قرين "اليسر" (النزعة الطبيعية للتشكل حسب مقتضى كل ما هو إيجابى) واحترام الحكماء هو أكبر دلالة على انتهاج "الحق" .

فى المودة بين ذوى القربى ، هناك فرق بين القاصى والدانى ، وفى تبجيل ذوى الرأى والحكمة لابد من ملاحظة ما بينهم من تفاوت فى المكانة والدرجة ، فهى كلها ضرورات تفرضها شروط المعاملات المقررة .

فمن ثم ، كان لزاما على العاقل أن يروض نفسه على الفضائل ، ولكى يحسن إلى أهله ، فلا بد من أن يحيط علما بشريعة البشر ، ولكى يعلم شريعة البشر فلابد ، من أن يعى مبادئ الأرض والسماء .

إن القاعدة الكبرى السائدة بين الناس، على الأرض تشتمل على خمسة بنود لا يتم تطبيقها إلا عبر ثلاث وسائل، فأما البنود الخمسة الكبرى ، فتتناول العلاقة بين الحاكم وشعبه، والأب وولده ، والزوج وزوجته ، والأخ الأكبر والأصغر، والصديق وصاحبه، أما الوسائل الأخلاقية الكبرى (التى يمكن ، بواسطتها ، تحقيق أفضل علاقة ممكنة فى البنود الخمسة المذكورة..) فهى الحكمة والإنسانية والشجاعة.

من الناس من يولدون وقد تنزلت فى قلوبهم معرفة ذلك المبدأ الأكبر، ومنهم من يتلقاها بالدرس والتحصيل ، ومنهم كذلك ، من يدركون معناها عبر دروب المحن والتجارب القاسية ؛ فالجميع ، فى آخر المطاف ، يتوصلون إلى دلالة واحدة للقاعدة السائدة تحت السماء .

بعض الناس يعملون فى هدوء ويسر وفق ما تتطلبه قواعد المبدأ الأكبر ، بينما يطبق البعض الآخر تلك القواعد استجلابا للنفع ودفعا للخسارة ، وهناك البعض ممن يجهدون فى العمل بها فى عسر ومشقة ؛ فالوسائل مختلفة لكن النجاح واحد فى النهاية .

قال كونفوشيوس :" طلب العلم يقرب طريق الوصول إلى الحكمة ، والاجتهاد فى العمل بها يوصل إلى البر والتراحم ، ومن عرف الخزى والجبن ، أوشك أن يقتحم أسوار الشجاعة ، فمن أدرك كُنْه تلك الثلاثة ، عرف الوسيلة التى يروض بها نفسه ويهذب ذاته ، فمن تأدب عرف كيف يسوس الناس ومن بلغ تلك المقدرة ، فقد عرف كيف يقوم على أمر البلاد وحكم الممالك .

إن كيفية حكم البلاد وسياسة الممالك تتدرج ، بوجه عام فى تسعة مبادئ أساسية وهى: تهذيب النفس ،وتوقير الحكماء ، وصلة ذوى القربى ، وتبجيل كبار الوزراء، ذوى الرياسة ، وتقدير مكانة صغار المسئولين والكتبة والموظفين (برغم تواضع أدوارهم؛ تشجيعا لهم على الترقى) والتودد إلى العامة والبسطاء والتقرب إلى الحرفيين الجائلين وأصحاب المهن البسيطة ، وإيواء الغريب ابن السبيل ، والطاعة بإخلاص وثقة للأمير .

فتهذيب النفس يهدى المرء بكل ثبات وإرادة نحو الطريق ، أما توقير الحكماء فيصدّ عن الزيغ والضلال عند النظر فى الأمور كافة ، ثم إن صلة ذوى القربى لا تدع فى قلب الآباء والإخوة أى مجال للتبرم والشكوى، وتبجيل كبار الوزراء والمسئولين يصون النفس من الحماقة ويهدى إلى الرشاد؛ وتقدير مكانة صغار الموظفين، عون لهم على إقامة أبهى وأنبل قواعد المعاملات ؛ فأما التودد إلى العامة والبسطاء فيحثهم على التفانى فى العمل، والتقرب إلى أصحاب الحرف البسيطة باعث على الربح والكسب والخير العميم ؛ وإيواء الغريب ابن الطريق يخضع رقاب الناس فى شتى أنحاء الأرض بالطاعة .

واعلم أن ثقتك بالأمراء تثبت لك المهابة والإجلال فى نفوس الكافة . إن تنقية النفس من الأوضار، وردّها عن غواية الحاجة وذل الطلب، وستر البدن برداء الوقار، واجتناب الحماقة وسوء الأدب ، كل ذلك من الأسباب التى يتأدى بها تهذيب الخلق؛ أما الترفع عن الخسة والصّغار، والتأنى عما يفتتن به المرء من الخليلات وذوات الحسن من النساء ، والزهد فى المال والمتاع ، وابتغاء الخلق الكريم ؛ فذلك كله مما يتوصل به المرء إلى الحكمة والفضل ، ثم إن احترام المكانة الاجتماعية لعشيرتك ، والسخاء فيما تبذل لهم من مال ، وعونك لهم فى السراء والضراء كل ذلك اجتهاد فى الإخلاص والود لذوى القربى .

وفى إمداد الوزراء وذوى الرياسة بالأكفاء من الموظفين والعمال، عون على إنجاز الأعمال ، وكذلك فى إجزال العطاء لمن أبدى الإخلاص والأمانة من المسئولين ، تشجيع للأكفاء والموهوبين ، (.. على التفانى بعزم صادق .)

واعلم أن فى اتخاذ المزارعين للعمل فى الأراضى حسب مواسم الزرع مع تخفيض المستحق من العوائد والرسوم ، تعزيزاً لدافع العمل والإنتاج لدى الكافة ، وفى المتابعة اليومية والمراقبة الشهرية لنشاط ذوى المهن والصنائع مع توفير ما يلزم كل طائفة منهم من الحبوب والغذاء حافز على الإجادة والإتقان ، ثم فى الترحيب بالضيف

وتوديع المسافر، والثناء على ذوى المهارة وإقالة عثرة ذوي التقصير سند ومؤونة للوافد من أقصى البلدان .

وكذلك فى دعم الأواصر بين العشائر ، وصلة ما انقطع من نسل القبائل ، ودعم ما تهالك من الممالك ، وضم ما انفرط من عقد ، وما تحلل من عهد ، وفى إغاثة المنكوب وسد حاجات المكروب ، وتحديد ميقات معلوم لزوار القصر الحاكم ، مع تغطية قيمة العطايا المهداة وتخفيض رسم الضريبة المقررة - فى كل ذلك - تبيان للثقة الممنوحة للأمراء (.. وهكذا) فتلك هى المبادئ التسعة المقترحة لإصلاح أحوال البلدان والممالك ، غير أنها جميعا تتبع نمطا واحداً فى التطبيق .

(.. واعلم أنه ..) لا يخرج إلى حيز النجاح إلا ما رتبه الفكر وهيأه التدبير، والفشل قرين الارتجال والإهمال ، فلا ينطلق اللسان مفوها بالعبارة إلا بسابق التبصر فى المعانى . ولا انتكاس لعمل أعدت عدته التدابير ، ولن يندم أمير قد حسب لخطته السياسية الإصلاحية ألف حساب ، وكذلك لا تسقط مادة الأفكار فى هوة الفشل الذريع، إذا ما كان التطبيق مسبوقا بوافر التبصر والحيطة والاستعداد .

إذا عجز صغار المسئولين عن الفوز بثقة كبار المتنفذين وذوى الرياسة ، فلن يتمكنوا من (.. ضبط الأمور، بمعني ..) إصلاح أحوال العامة على النحو الأكمل ، (.. ومع ذلك، فـ ..) هناك من الوسائل ما هو كفيل بالحصول على ثقة كبار المسئولين؛ ذلك أنه إذا لم يستطع المرء أن يحوز ثقة أصدقائه ، فلن يستطيع بالطبع أن يحظى بثقة رؤسائه ، فإذا ما أراد المرء أن يحظى بثقة أصدقائه فهناك من الوسائل ما هو كفيل بتحقيق مطلبه ، ذلك أنه إذا لم يكن المرء باراً بوالديه فلن يصدقه أصحابه ، ثم إن هناك من الطرق ما هو حقيق بأن يؤدى بك إلى البر بوالديك علما بأن من خلا قلبه من الإخلاص، غير أن امرءاً استغلق عليه معنى الخير لن يفلح أن يستنهض فى قلبه دلالة الإخلاص .

إن الإخلاص مبدأ قدسى (سماوى) ، وهو المبدأ الأسمى الذى يحاول الإنسان السير على هداه مسيرة حياته .

إن حاز جوهر الإخلاص بفطرة قلبه ، فقد استقام بغير جهد ، واستوعب المغزى بغير محاولة للفهم ، وهذا أقرب شىء لطبيعة القديسين . إن مجاهدة النفس لتطويعها لنوازع الإخلاص تقتضى انتقاء أشرف الغايات والالتزام بحدودها ، بالإضافة إلى التعمق فى العلم والاطلاع واستقصاء سبل المعرفة . والاستغراق فى التأمل وجلاء البصيرة والعزم الصادق على إتيان كل مواطن للإخلاص .

فإذا لم يجد العاقل وسيلة للعلم والاطلاع، أو إذا طالع العلوم ولم يفقه منها شيئا فلا يقعدن عن طلب العلم ، وإذا لم يجد وسيلة لاستقصاء سبل المعرفة، أو، حتى ، إذا لم يبلغ فى الاستقصاء الحد الذى يمكنه من الفهم والدراية ، فلا يقعدن عن البحث والتقصى فى سبيل المعرفة، وإذا واتته الفرصة للتأمل أو إذا لم يصل – بعد التأمل – إلى ما يبتغيه ، فلا يصرفن النظر دون أن ينقدح لديه زناد الرأى وثاقب البصيرة ، فلا يتراجعن عن المحاولة بدأب ومثابرة ، وإذا لم يتيسر له أن يسلك فى مواطن الإخلاص أو إذا سلك بعض الطريق وتعثرت به الخطوات ، فلا ينكص عن مسعاه .

وإذا نجح الناس فى مسعاهم عند أول محاولة فينبغى على العاقل أن يثابر ويصمد لمئات المحاولات، وإذا نجح بعض الناس فى مسعاهم بعد عشر محاولات ، فينبغى على الحكيم أن يثابر ويعكف على آلاف التجارب ؛

[ذلك هو الباب العشرون]

- ٢١ -

إن الفهم النابع من الإخلاص موهبة من مواهب الفطرة والطبيعة ، أما الإخلاص الناتج عن الفهم والوعى ، فهو نتاج العلم والتربية ، والتوجيه ، (.. وعلى كل حال فإن)

الإخلاص هو التحصيل الواعي بالفهم ، والوعى هو شفافية الحس الفطرى المخلص (.. والإدراك الطبيعى الصادق) .

(ذلك هو الباب الحادى والعشرون ، وهو خلاصة ما استوعبه "زيلو" - أحد رواد الكونفوشية (المذهب الكلاسيكى) - وما أخذه عن أستاذه - كونفوشيوس - من آراء حول "الفطرى" و"المكتسب" (طريق السماء ، وطريق البشر - حرفيا ، وعلى التوالى -) والأبواب الاثنا عشر التالية هى أقوال زيلو التى تدور كلها حول هذا المبحث .)

[ذلك هو الباب الحادى والعشرون]

- ٢٢ -

إن أشد الناس إخلاصًا هم القادرون على شحذ قرائحهم واستخدام أقصى مواهبهم الطبيعية ، وبموجب ذلك ؛ فإنهم يقدرون أيضا على حفز الهمم ، والطاقات الكامنة فى أعماق الناس ، فإذا ما استطاعوا أن يبعثوا همم الآخرين ، فلا بد أنهم يقدرون كذلك على إيقاظ نفوس البشر أجمعين ، وإذا تحقق أنهم يملكون تلك المقدرة حقًا ، فهم سند لهداية السماء ونصرة لرسالتها بين البشر ؛ فإذا حازوا تلك المكانة ، فلهم أن يتبوأوا منزلة قدسية بعد السماء والأرض .

[ذلك هو الباب الثانى والعشرون]

- ٢٣ -

ثم يأتى من بعد أولئك (.. المشار إليهم آنفا) نفرٌ من العوام يجتهدون فى الاستقامة (.. يردون أنفسهم عن الميل) فإذا ما استقاموا فقد بلغوا حد الإخلاص ، وإذا بلغوا حد الإخلاص صاروا متفردين واتضحت سمات شخصياتهم ، فإذا برزت سمات شخصياتهم ، عرف الإخلاص فى سيماهم ، فإذا ما تجلى سيماء إخلاصهم ، أشرقت أنوارهم ، فإذا لمع بارق سناهم ، طاف أثرهم على الأشياء من حولهم ، فإذا انطبعت آثارهم على الدنيا من حولهم ، تبدلت من أحوالهم القلوب والأفكار، فإذا كانت لهم مثل تلك المنزلة فى القلوب ، انعقدت لهم ألوية الهداية بين الناس ، وهى درجة لا يبلغها إلا من ترقى إلى أسمى مراتب الإخلاص .

[ذلك هو الباب الثالث والعشرون]

- ٢٤ -

لن يعجز المخلص الذى بلغ فى إخلاصه أرفع الدرجات أن يستشرف آفاق المستقبل ، فتتكشف لبصيرته صفحة القادم من الأيام ، وفى صفحة المستقبل تبدو بشائر نهضة الممالك ، مثلما يبين فيها نذير خراب الدول وشؤم طالع الزمان ؛ مما يمكن مطالعته فى رموز التنجيم وطلاسم الكهانة وملامح وتصرفات البشر من نبوءات ونذر ؛ ذلك أن امرءًا صحيح الإخلاص يمكن أن تنكشف لبصيرته سعود الأيام ونحوسها ، وحتى يصبح كالآلهة سواء بسواء .

[ذلك هو الباب الرابع والعشرون]

- ٢٥ -

الإخلاص هو استيفاء طلب النفس لغاياتها ، أما الطريق فهو رشاد النفس بزمام الهدى. الإخلاص يستغرق الأشياء كلها من البدء إلى المنتهى ؛ فلا وجود بغير إخلاص، ومن ثم يتحلى به العاقل ويتحقق بصفاته ، ولا يقتصر الإخلاص على استيفاء غاية النفس لذاته ، بل يتعدى ذلك إلى استقصاء أشرف الغايات للناس جميعا وللدنيا كلها ؛ ولئن كان السعى لتحقيق أغراض النفس طبعًا إنسانيًّا ، فإن استقصاء غايات الناس جميعا باب من أبواب الحكمة ، وخلق نابع من الفطرة الأصيلة تجتمع فيها فضائل الأرض والسماء، وأوضح مقاصد كل ما هو باطني من دخائل النفس، وخارجي من شئون الغير؛ ولهذا فإن العاقل يجد الأوقات كلها مواتية والظروف مناسبة لتحقيق هذا المبدأ .

[ذلك هو الباب الخامس والعشرون]

- ٢٦ -

ولهذا يقال إن الإخلاص ليس له حد ينتهى عنده ؛ ولأنه لا ينتهى عند حد ، فهو باق على مر الزمن ، ولما كان باقيا على مر الزمن ، فهو نافع ، ولكونه نافعا فهو بعيد الأثر ، ثابت على المدى ، ولأنه بعيد الأثر . فهو واسع المعرفة ، وبما أنه واسع المعرفة ، فهو عظيم المهابة سامق النور ، فأما كونه واسع المعرفة ، فهذا دليل على عظيم قدرته التى تحيط بالأشياء كافة ، وأما أنه سامق النور ، فلأنه قد أسبل ستره فوق كل شىء هو بعيد الأثر ، ومن ثم ، تفيض عنه الأشياء كلها وتتوالد كثرتها ، وهو (الإخلاص) واسع المعرفة كامتداد صفحة السماء ، وجلى النور ، كجلاء مشاهد الأرض ، متناهٍ بغير حصر ، ممتد بغير مدى ، بادٍ للعيان دون أن يتجلى للأبصار ، ظاهر الفعل دون أن تصدر عنه نأمة حركة ، بالغ مبتغاه فى يسر دون أن تسعى به الجوارح ، إن طريق السماء والأرض يتضح معناه فى عبارة واحدة وهى أنه الدرب البسيط الذى لا شبيه له

ولا مثيل ، وهو الطريق الذى لا يسبر غوره ولا يعرف كنهه . وهو ذو طاقة مبدعة قادرة على الإتيان بما لا حصر له من المخلوقات .

إن طريق السماء والأرض بالغ الرحابة والعمق ، عظيم المهابة ، جليّ النور ، بعيد المدى ، قويم المنهاج .

إن السماء ، إذا تحدثنا عنها فى حاضر الحال ، فهى فضاء من نور ، فضاء ممدود ، تدلت منه ثريات من أقمار وشموس تترامى كغطاء علوى ، من أقصى الكون إلى أقصاه .

والأرض ، إذا تحدثنا الآن عن طبيعتها ، فلن نتجاوز القول بأنها ليست سوى تراب منثور ؛ لكنها - برغم ذلك - خلاء رحب وجرم واسع الأرجاء ، يحمل فوق سطحه جبل "هواشان " بكل ثقله ، فلا تنخسف به الأركان ، وتتفرع لمسيل بحاره وجداوله قنوات وشطآن مترامية ، دون أن يزيل قطرة من لُجّة بحرها ، (فالأرض) موطئ لكل شيء ، وقد رصنت بحمل أثقالها وتجالدت لم تزل .

وأما الجبال، إذا تحدثنا عنها الساعة ، فلن يسعنا إلا أن نقول بأنها لا تكاد تزيد على تلال من أحجار مبعثرة ، لكنها (مع هذا) سلاسل متعرجة وتلال ممتدة آلاف الأميال ، قد نبت بواديها العشب ، وسكن بقفرها الوحش والطير ، وقرّ بباطنها الكنز الدفين .

ثم إذا تطرقنا إلى (الحديث عن) الماء ، لألفيناه (مجرد) شربة ظامئ ، أو غرفة كف ضئيل ، ومع هذا فمسيل قطره ، موج متلاطم ، وحدود بحره بغير مدى ، وفى باطنه تتزاحم السلاحف والتماسيح ، وينفث "تنين الماء " من فمه طوفانا يغرق الشطآن (.. فى الأساطير القديمة) ، فى أسماكه ثروة لا تفنى ، وفى أحيائه الدر الثمين . وقد جاء فى "كتاب الشعر القديم "(فى هذا الخصوص) ما نصه :

" .. إن أمر السماء محفوظ بطى القدر

وليس لأقدار السماء حدود . "

فربما كانت تلك الإشارة إلى السماء ، فى ذلك السياق ، هى السبب فى تدبر طريق السماء ، (وقد جاء فى نصوص "كتاب الشعر " أيضا ، ما نصه :)

" .. ما أبهى وأطهر وأقدس

ما تحلى به الملك "أون" من أخلاق وفضائل ."

وقد تكون تلك العبارة ، هى السبب فيما أطلق على الملك "أون" من صفات جليلة ؛ لما تميز به من سمات عظيمة ، ظلت مضرب الأمثال على مدى الأجيال .

[ذلك هو الباب السادس والعشرون]

- ٢٧ -

ما أعظم ما سلك القديسون من سبل ، وما أرحب ساحتهم وأصفى موردهم ، وقد زادت بهم الدنيا جلالا ، وفاضت بهم الموجودات كثرة ، حتى تمجدوا مجدا بلغوا به عنان السماء . ما أوسع حلمهم وأوفر ما اتسعت له صدورهم من الرحمة ، (.. ولقد قيل) إن أصول المعاملات فى ثلاثمائة مسألة، والدرجة الرفيعة من الهيبة والجلال فى ثلاثة آلاف (قاعدة مذهبية) لا يتحقق منها شىء إلا على يد قديس ؛ فمن ثم قيل إن أحدا لن يبلغ أشرف غاية إلا إذا تزود بأرفع منزلة من الأخلاق ، هكذا يتجه الفاضل الحكيم صوب أنبل الخلق ، ويسلك طريقا يطلب فيه العلم والمعرفة ، ويدقق فى أصول الأشياء ، فإذا ما بلغ فى مسيرة بحثه الحدود العامة للمعرفة ، راح يستقصى أغوار التفاصيل ؛ وإذا اهتدى إلى صفوة الحكمة، اجتهد فى التزام حد "الاعتدال " الأوسط " فهو ، بذلك ، يرسخ مبادئ قديمة قد سبق له مطالعتها ويفيد معرفة جديدة عرضت له فى طريقه ، هنالك ينشرح صدره لأصول الآداب فى بساطة وعمق وإخلاص .

ومن ثم ، فلا يتكبرن كريم (.. ذو مكانة) ولا يتمردن لئيم (.. وضيع) ولتجتهدن في انتهاج السبيل القويم ، إذا ما كانت الأحوال العامة تحض على أشرف المسالك ، أو لينعزلن خلف ستار الصمت ، إذا فسد الزمان وانمحى الطريق ، وتأمل هذا البيت من "كتاب الشعر القديم" حيث يرد بما نصه :

" إن المرء من فطنته ،

وجلاء بصيرته ،

حصن يلوذ به ووجاء ."

ألا تجد ، هنا ، غاية المعنى المشار إليه ودلالة مغزاه !

[ذلك هو الباب السابع والعشرون]

- ٢٨ -

قال كونفوشيوس :" لا تحيق النكبات إلا بغبى يدعى الحكمة ، وبليد يستبد برأيه ، وابن حاضر الزمان ، الذى ينكر يومه الماثل ليعيد سيرة الماضى بغير طائل .

واعلم أنه لا ينبغى لك - إن لم تكن إمبراطورا - أن تضع معايير للأخلاق والآداب العامة ، ولا أن تسن القوانين ، ولا أن تطالب حتى بتحسين خطوط الكتابة وضبط الحروف والأرقام ، (.. ولحسن الحظ) فهناك الآن معايير موضوعة لتقدير أحجام العربات على نحو قياسى ، وهناك أيضا قواعد قياسية لضبط الإملاء وهجاء الكلمات (كان ذلك فى زمن توحيد الصين حيث قام الإمبراطور"تشين شيهوان" بوضع تلك القواعد العامة.) وكذلك فإن أسس الأخلاق والمعاملات تتبع نظاما صارما ومعلوما للكافة .

ثم إنه لا ينبغى لمن حاز سلطة ونفوذ الإمبراطور أن يضع قواعد الآداب (.. ولا الموسيقى ، بوصفها تعبيرا عن القانون والنظام فى أدق صوره الفنية الجمالية) ما لم يتحلّ بالأخلاق الملكية الشريفة ، وبالمثل أيضا ، فليس لمن تخلق بأخلاق الملوك ، دون أن يكتسب نفوذهم وسطوتهم أن يقرر أية مبادئ للأخلاقيات العامة ، ولا يتدخل فى قواعد الفن والموسيقى ."

وقال كونفوشيوس :" لئن كنت أستطيع أن أقوم بشرح وتحليل قواعد الأخلاق الباقية من أسرة "شيا" الملكية (٢٢٠٥ - ١٧٦٦ ق.م) فلا أستطيع الزعم بأنى أملك المقدرة نفسها على تحليل وثائق أرشيف دولة "تشى" (.. ذلك أنى ..) بذلت اهتماما شديدا فى دراسة آداب أسرة "يين" الإمبراطورية ، وهى آداب المعاملات نفسها التى ما زالت سارية ، حتى الآن ، فى دولة "سونغ" ، كما أننى تعمقت فى دراسة وتحليل آداب معاملات أسرة "جو" الملكية ، والتى بقيت حتى وقتنا هذا نمطا سائدا للأعراف والمعاملات ، وهى مجموعة المبادئ التى ألتزم بها وأسير على منهاجها ."

[ذلك هو الباب الثامن والعشرون .]

- ٢٩ -

عندما نتحدث عن حكم الممالك ؛ فهناك ثلاثة مبادئ أساسية ، على درجة كبيرة من الأهمية ، لا تستقيم الأمور إلا بها ؛ ذلك أنك إذا كنت تتولى منصبا ذا شأن وأحسنت قيامك بواجبات العمل ، دون أن تكلف نفسك عناء التثبت والفحص والمراجعة لنتائج عملك ، فسوف تفقد مصداقيتك ، وإذا فقدت مصداقيتك ، وسقطت فى عين الناس (.. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى، فـ ..) إذا كنت واحدا من العامة أو البسطاء وتسلك سلوكا حسنا (.. فى كل ما تقوم به من تصرفات) دون أن تنال شيئًا من المجد وتصيب درجة من الرفعة ، فسوف تفقد مصداقيتك أيضا ، وعندئذ ،

فسيزدريك الناس ويزلقونك بأبصارهم ، ويحيدون عن سبيلك ، لهذا يسلك العاقل طريقا واضحا ، وتصير أفعاله تحت رقابة الناس أجمعين فيشهدهم على دقائق الأمور ويتخذ الحجة على نزاهته من أفواههم ، وإذا ما وازن بين أفعاله وما خلد الحكماء الأولون من مآثر ، رجحت كفته ، ولمس الناس صدق مقالته ، وإذا أقيم له مجلس يحصى عليه أفعاله على ملإ ، بين السماء والأرض ، ولم يتذمر أو يتخاذل ، وإذا ما تجلت له روح أسلافه العظام تسائله وتحاسب ضميره ، صمد فى ثبات وثقة ، وإذا قيل له إن حكيما يظهر بعد مائة سنة من الزمان ، أقام ينتظر ظهوره بغير كلل .

فإذا أقبلت عليك روح أجدادك تحاسبك ، فصمدت لها إيمانا وثقة ، فقد أدركت ما خفى من أمر السماء ، وإذا أقمت فى انتظار حكيم يظهر بعد مسيرة أجيال ؛ فقد سبرت غور الإنسان . ولذلك ؛ كان العاقل يأتى من الأفعال ما يسبق به الناس قرونا من الزمان ، وكان يحوز من الفضائل ما حفظته الأيام قاعدة راسخة فى أصول المعاملات . وهكذا يتمجد الفاضل ؛ حتى إذا نأت به الديار اشتاقت إليه النفوس ، وتطلعت إلى عظيم أدبه وشريف خصاله ؛ وإذا دنا به المكان راقت صحبته ، وطاب بجواره المقام ، وقد جاء فى "كتاب الشعر القديم "ما نصه :

"عندما غاب ، ـ من غاب ـ

لم تحجبه أستار الكراهية ،

ولما حضر ،

لم يغمض للعين جفن وهى ترنو إليه ،

ففى كل وقت ،

وفى كل ساعة ،

تعقد له من المديح هالات

من النور ..حواليه .."

وهكذا ، فإن لم يحظ السيد الكريم بمثل هذا ، فلن يتيسر له الفوز بالمجد بين الناس . "

[ذلك هو الباب التاسع والعشرون]

- ٣٠ -

كان كونفوشيوس يترسم خطى الحكيمين القديمين "ياو" ، و"شون" ، وكان يقتدى فى سلوكه بالملوك الحكماء من أمثال أون " والملك الحكيم "أو"؛ فمن ثم تمجدت ذرا خصاله مثلما تمجدت السماء فى سامق علوها ، وصارت تتراوح معها فى مراتب شرفها وطبائع جريانها فى الفصول والأزمنة ، ورسخت فى كونفوشيوس سماته الأصيلة مثلما نبتت فى الأرض رواسيها وتحدرت فى الوديان أنهارها ، واتحد كل ذلك فى طبعه كما اتحد فى طبع الأرض والسماء كل عالٍ وخفيض ، وامتدت فيه ظلال السماء ستارًا علويًا فوق ساحة الوجود ، فكأنه فصول الأوقات فى جريانها ، أو مدارات الشموس والأقمار فى فلكها .

والكل دفق جريان ونماء وكثرة ، يحذو بعضها بعضا ، بغير تنافر أو نزاع ؛ فكلٌ يدور دورته وكلٌ يسلك طريقه المرسوم ، حيث أدنى الجريان أنهار سابحة، وأعظم ما جرى به الزمان، واستصفته الأيام، نفوس تطهرت بالصدق والبساطة والإخلاص فمن ثم، كانت السماء والأرض أجل من كل وصف، وأعظم من كل بيان.

[ذلك هو الباب الثلاثون]

لا توجد الحكمة والكياسة على الأرض ، إلا فى قلب قديس جليل القدر ،رفيع المكانة، وستجده أقدار الناس جميعا على تولى زمام الأمور كافة ، ذلك أن القديسين بما حازوا من حلم وأناة وسعة صدر وهدوء طبع ، هم أقدر الناس على طى الدنيا بأسرها فى قبضة أيديهم ، وقد أوتوا من الجلال والإيمان والاستقامة ما مكن لهم التقدير والتبجيل فى النفوس ، وكذلك أيضا فقد أصابوا القدر العظيم من الدقة والفهم فى مطالعة الوثائق ومعرفة دقائق تبويبها وأقسامها ، حتى استنارت بصائرهم وصاروا يفرقون بين الحق والباطل ، واعلم أن القديس الحكيم هو ابن الوقت الذى يعيش فيه وعليه تسرى أحكام زمانه ؛ فيدور فى فلك الوقت بغير مدى، ويغوص فى باطن الزمان بغير حد، ويسمو حتى يجاوز أقطار السماء (.. حدود الأبصار) ثم يدنو حتى يستقر فى جوف الماء (.. غياهب الأسرار) ، فإذا فعل شيئا فقد بلغ تمام الإجادة وكان جديرا بالتقدير والإعجاب ، وإذا تحدث ، أصاب القول السديد حتى أخذت عنه فنون المقال ، وإذا ولى أمرا من الشئون العامة ، سار بالحسنى حتى انشرحت له صدور الناس ؛ ولهذا ، تجد مثل ذلك القديس الحكيم ذائع الشهرة بعيد الصيت ، قد تحدث الناس جميعا بأمره ، سواء داخل الممالك العامرة أو بين أهل القفار ، وعلى تخوم الأحراش . فما من أرض عبرت بها سفائن أو مرت فى دروبها قوافل ومواكب ، أو ظلها سحاب ، أو أشرق فى نهارها النور ، وتداعى فوقها الليل والقمر ، وبلل وديانها الندى وهطل المطر ، وإلا تمجدت به ، وما من روح حى تتنسم نسمة الحياة إلا أحبه وعظمه غاية التعظيم ، فمن أجل هذا صار الحكيم القديس إلى مرتبة تحاذى جلال السماء

[ذلك هو الباب الحادى والثلاثون]

- ٣٢ -

لا تقوم المثُــلُ أو تتأسس دعائم الأخلاق إلا بيد أكثر الناس إخلاصا ، ومن أنشأ دعائم الخير على الأرض ، أدرك أسرار الأرض والسماء وتعاقب الأيام ، ومدار الأمور كلها حتى استغنى عن العون والسند ؛ فهو صافٍ كجوهر الإخلاص ؛ مطمئن كغور بئر سحيق ، رحب الساحة كصفحة سماء ممتدة ، فمن ذا يدرك سر ذلك الوصف سوى من أوتى القلب الزكى العامر بالخلق الأسمى .

[ذلك هو الباب الثانى والثلاثون]

- ٣٣ -

جاء فى " كتاب الشعر القديم " ما نصه :

" .. قد توارى الرداء الحريرى الموشّى

خلف عباءة باهتة ،

تكاد ألوانها ألا تبين . "

والمعنى ، هنا، يتطرق إلى ما فعلته صاحبة الرداء من عدم اكتراث بإظهار مفاتن ثوبها الداخلى، تماما مثلما ينبغى للعاقل أن يوارى كريم شمائله طى الكتمان ؛ لأنه كلما زاد تواضعا ، (.. وإخفاء لخصاله) تجلت للناس أشرف خباياه ، أما الغبى الوضيع فيمعن فى الظهور حتى تخفت أضواؤه، ويتلاشى جوهره ؛ وقد يثرثر الفاضل الكريم بنافل القول ، لكنك تجد لكلماته مذاقا لا تجده فى كل الكلمات ؛ فهو يفصح فى إيجاز ويجمع إلى بلاغة القول منطق العقل وقوة الحجة والبرهان ، ويعرف مبتدأ المعنى وغايته ، وكيف يمكن لأوهى الأسباب أن تؤدى إلى عظائم الأمور ، وإن امرءًا يتسم بهذه الخصال لجدير بأن يترقى إلى مرتبة القديسين الحكماء . وجاء أيضا فى "كتاب الشعر القديم " ما نصه :

" .. قد تغوص الأسماك

فى بواطن أعماق سحيقة

لكنها لا تخفى عن بصيرة المتأمل ."

ذلك أن العاقل هو من استطاع أن يسبر غور ذاته التى بين جنبيه دون تردد أو مواربة ، ولئن كان هناك ما يرفع من قدر الفاضل الحكيم فوق الناس جميعا ؛ فهو ثباته وشجاعته فى مواجهة نفسه بُغية الالتزام القويم بأنبل المقاصد .

ونجد أيضا فى "كتاب الشعر " ما نصه :

" .. كن فى خلوتك ،

خلف جدران بيتك ،

كما لو كنت بين الناس ،

أو فى محراب قدسى ،

وقد سطعت عليك أنوار الألوهية ،

وليس لك أسرار تخزيك ،

ولا سوأة تداريها ."

وهكذا ، فالعاقل من أشاع فى نفوس من حوله دواعى الاحترام والتقدير ، دون حتى أن يتحرك له ساكن ، وتتضح فى سيماه معالم الصدق والإخلاص ، دون أن ينبس بلفظ . ومما ورد فى "كتاب الشعر " أيضا " :

" .. من قدم قربانًا ،

فليلزم الصمت ،

وليحفظ لسانه فى حضرة الأرواح القدسية ،

فلا ثم جدل .. ولا ثرثرة ،

ولا صخب ردىء . "

فمن ثم قيل إن العاقل هو من سلك بالناس سبيلا إلى الرشاد ، دون أن يحثهم على ذلك بسخى العطاء ، وكريم المكافأة ، وهو أيضا من يستطيع أن يوقع فى النفوس مهابة الإجلال بغير أن يرفع عليهم سيفا أو يتهددهم بشر العاقبة .

وفى جانب من "كتاب الشعر " ورد هذا البيت :

" .. لا ترغم الناس على اتباع الفضائل ،

بل كن أنت نموذجا يحتذى ،

تتبعك المواكب ،

ويترسم خطاك الملوك . "

ولهذا ؛ فلم ينتشر السلام فى ربوع الممالك إلا بما حاز الحكماء والقديسون من الإخلاص والصدق والتواضع ،

وجاء فى كتاب الشعر أيضا :

" .. أتأمل خصالك ،

التى تشيع فى تصرفاتك ،

دون كلمات رنانة ،

أو استعراض مظهرى ساذج . "

وقد قال كونفوشيوس ذات مرة :" ما أسخف المحاولات التى تستهدف حث الناس على الفضائل بالخطب والمواعظ الكلامية والاستعراض الشكلى لمظاهر الخلق الكريم (.. دون تحقق جوهر الفضيلة ذاته) ، وهو المعنى الذى يبرز فيما جاء بـ "كتاب الشعر " حيث يرد ما نصه :

" .. الفضائل كالنسمات ،

رقيقة ، خفيفة ،

مثل ريشة طائرة فى الهواء . "

ثم إن " الريشة " ، أيضا ، لها مظهر شكلى واضح ومحدد ..

" .. قد أوجدت السماء كل الأشياء ،

ولم يكن ثمة من يستمع إلى الصدى ،

ولا من يتشمم عطر الكائنات . "

وكانت تلك ، هى الفضيلة الكبرى فى أتم وأرقى وأكمل معانيها .

[ذلك هو الباب الثالث والثلاثون]

وقد راح " زيس" - تلميذ كونفوشيوس - يحلل الأساس الذى استندت إليه أطروحة الفضائل فى الباب السابق ، موضحًا أثر ذلك فى استتباب دعائم الأمن والسلام المشروط بالتزام السادة النبلاء بالصدق والفضائل الكريمة ، مع ضرورة تطبيقها على نطاق واسع ، وبالدرجة التى يبلغون بها مصاف الأخلاق التى تقدست مثل أفضال السماء فى جوهرها الأصيل ، لكونها تندّ عن عالم روحى يتسم بالصمت والخفاء. وهذا الباب - فى جملته - يلخص الغاية التى يقصد إليها "كتاب المعرفة الكبرى "؛ أما الغرض من ترديد تلك المعانى فيتمثل فى ترسيخ فكرة الفضائل وتوضيح دقائق معانيها للدارسين .

المترجم فى سطور :

محسن سيد فرجانى

مدرس بقسم اللغة الصينية، بكلية الألسن .

مـهتم بتـرجـمة التـراث الصـينى إلى العـربيـة، وقد صـدر له عن المركـز القــومى للترجمة : "كتاب سياسات الدول المتحاربة" و"كتاب الطاو" .

التصحيح اللغـوى : **أسامة محمد**

الإشـــراف الفنـــى : **حسن كامل**

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي





" الكتب الأربعة " هى التراث المقدس للمذهب الكلاسيكى الصينى المعروف بـ الكونفوشية. وقد وضعت نصوصها فى أوقات متفرقة، بدءاً من عصر الربيع والخريف (770 - 476 ق.م).

هذه الكتب أهم المدونات الفكرية التى اشتملت على قواعد الأخلاق وآداب المعاملات فى التاريخ الصينى، وهى – أيضاً – الأعمق تأثيراً والأخلد ذكراً فى ثقافة الشعب الصينى وحضارته وحياته قديماً وحديثاً. وقد امتد تأثيرها إلى منطقة شرق آسيا كلها – تقريباً – وقيل إن بعض ظلال ذلك التأثير انعكست على خلفية الحياة الفكرية فى أوروبا القرن السابع عشر الميلادى.

إن أول نسخة تامة للمتون الأربعة تم تجميعها فى زمن أسرة سونغ (960 – 1279م)، وبعد أن أضيفت إليها الشروح والملاحق التفسيرية، اعتُمدت مادة أساسية لامتحان المتقدمين لشغل المناصب العليا فى البلاط الإمبراطورى، وهو التقليد الذى ظل سارياً حتى أوائل القرن العشرين [1920م] تقريباً.

كتاب الكتب الأربعة أهم مدونة فى التراث الصينى كله؛ بوصفه الوثيقة الفكرية التى تمثل المرجع الأساسى لقواعد البناء الأخلاقى للحضارة الصينية فى العصر القديم.

ف: نسرين كشك


Exclusive
For
www.ibtesama.com